غريغوري د. جونسن

اليمن والقاعدة

الحرب الأميركية في جزيرة العرب

ترجمة: الطيب الحصني

Jadawel جداول

غريغوري د. جونسن

اليمن والقاعدة

الحرب الأميركية في جزيرة العرب

تاريخ
٧
٥
١٦

الكتاب

في أوائل كانون الثاني/ يناير 2009، اجتمع عدة رجال في بيت آمن صغير ذي طابقين في الأرض اليمنية المرتفعة إلى الشمال من العاصمة صنعاء، جاؤوا من كل أنحاء العالم العربي، من السعودية ومصر والخليج، ومن إفريقيا وجنوب آسيا، وخلال شهور انضمت إليهم حفنة من الأميركيين وعلى الأقل بعض من الأوروبيين، لهم تواريخ طويلة على نحو مفاجئ بالنسبة إلى شباب في هذه السن الصغيرة، فكلهم تقريبًا حارب وأخفق في أماكن أخرى، وبعضهم سُجن في بعض أكثر زوايا العالم ظلمةً، فدفعوا ثمن إخفاقهم سجنًا في إيران والسعودية وخليج غوانتنامو واليمن، تعذبوا في زنازين رطبة، واستجوبوا فيها، وحرموا من النوم، وتحرقوا، ولكنهم بقوا أحياء، والآن عادوا متقهقرين إلى الملاذ الأخير.

جاء الرجال في ذلك اليوم إلى اليمن عبر خليج عدن بقوارب لتهريب الرق الأبيض، فضاعوا بين حشود اللاجئين اليوميين من إفريقيا، وبعض السعوديين جاء بالسيارة، متجهًا نحو الجنوب، ومسرعًا عبر خط الحدود المخفي في الرمال، وغيرهم هبط في مطار صنعاء الدولي يدعون أنهم طلاب لغة عربية أو سواح، وواحد منهم على الأقل جاء مثل على جمله إلى هذا الجهاد الأخير. مهما كانت طريقة وصولهم، كانوا جميعًا مستعدين للقادم.

غريغوري د. جونسن

ISBN 978-614-418-257-4

9 786144 182574

Jadawel جداول
www.jadawel.net

کتابخانه تخصصی مرکز ... اهل البیت
قفسه: شماره:

اليمن والقاعدة

الحرب الأميركية في جزيرة العرب

GREGORY D. JOHNSEN

THE LAST REFUGE

YEMEN, AL-QAEDA, AND AMERICA'S WAR IN ARABIA

Copyright © 2013 by Gregory D. Johnsen

All rights reserved
Printed in the United States of America
First Edition

W.W. Norton & Company, Inc.
500 Fifth Avenue, New York, N.Y. 10110
www.wwnorton.com

غريغوري د. جونسن

اليمن والقاعدة

الحرب الأميركية في جزيرة العرب

ترجمة:
الطيب الحصني

Jadawel / جداول

الكتاب: **اليمن والقاعدة.. الحرب الأميركية في جزيرة العرب**
المؤلف: **غريغوري د. جونسن**
ترجمة: **الطيب الحصني**

جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

رأس بيروت ـ شارع كراكاس ـ بناية البركة ـ الطابق الأول

هاتف: 746638 1 00961 ـ فاكس: 746637 1 00961

ص.ب: 5558ـ13 شوران ـ بيروت ـ لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير 2015

ISBN 978-614-418-257-4

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L

Caracas Str. - Al-Baraka Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2015 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

المحتويات

الإهداء 7
خريطة اليمن 9
كلمة شكر 11
ملاحظة بخصوص المصادر والترجمات 17
شخصيات رئيسية 19
استهلال 25
الباب الأول: الصعود والسقوط
بلاد بعيدة 31
أفغانستان التالية 45
كلاب الحرب 61
الإيمان والحكمة 73
العمل الجنوبي 91
حلفاء 107
حرب جديدة 119
التآكل 133
النصر 145

الباب الثاني: النسيان

إعادة التأهيل 161

ثورة في الشمال 173

زنازين السجون 185

تغير في السياسة 201

الباب الثالث: الجيل الجديد

الهروب الكبير 215

إحياء القاعدة 229

أصداء الملاحم 243

الاندماج 257

أهداف 273

الخروج من الظلال 291

الإهداء

إلى أمي
التي قرأت لي طفلاً

السعودية
عمان
حضرموت
صعدة
الجوف
الحسن
اليمن
شبام
تارم
سيئون
الحديدة
مدينة مارب
شبوة
البحر الأحمر
المعجلة
المكلا
أبين
تعز
جعار
إريتريا
زنجبار
عدن
خليج عدن
جيبوتي
الصومال

كلمة شكر

بدأ العمل في هذا الكتاب منذ وقت طويل، إذ ولدت فكرته خلال عملي كمتطوع في فرق السلام في الأردن في 2002، ولكن لم تكتمل الصورة وأبدأ بالكتابة حتى تشرين الثاني/ نوفمبر 2008 عندما كنت أطالع في مقهى كريمربوكس أند أفترورد في واشنطن.

لقد أسهم عدة أشخاص في هذا الكتاب، ولكن ثلاثة منهم يستحقون شكرًا خاصًا، فلولا مساعدة براين أونيل وميشيل شيبرد وليفي جوهنسن لما تم هذا الكتاب أبدًا.

فمنذ أن كنا زملاء في السكن خلال ربيع عام 2000 في القاهرة وبراين أونيل هو صديقي المقرب ومحرري الأول، فلأكثر من عقد من الزمان قرأ كل كلمة كتبتها تقريبًا ومن ضمن ذلك هذا الكتاب، وقرأ براين عدة مسودات بصبر ولطف عظيمين، ويدين هذا الكتاب بالكثير لذكائه وطبيعته الكريمة وصداقته.

وخلال البحث في هذا العمل وكتابته كنت محظوظًا كفاية للقاء ميشيل شيبرد التي تكتب في صحيفة تورنتو ستار في إحدى رحلاتها الصحفية في اليمن، وميشيل مراسلة وكاتبة هائلة الموهبة، وأصبحت صديقة مقربة أيضًا، وقرأت وعلقت على كامل المخطوطة مشكلة وصاقلة إياها أبعد مما يمكن لي أن أفعل وحدي، فقد أنقذت عينها الحاذقة وأسلوبها غير المهادن هذا الكتاب من أخطاء عديدة.

وأخي ليفي أحد أحكم الرجال الذين أعرفهم، ولقد خففت كلماته الهادئة وتأثيره الملطف العبء علي خلال مكالماتي الكثيرة معه في أثناء السفر عندما كنت أعود مرة جديدة إلى «مراجعة» الفصل الأول، وما كان هذا الكتاب ليتم دون نصحه ومحبته.

واستفدت في اليمن من معرفة عدة أفراد خصصوا وقتًا لمساعدتي في التعرف على البلاد، وأوائل من أرشدني، وأفضلهم، مجموعة من الأصدقاء كنت أخزن القات معهم يوميًا: عمار وعبد الحكيم وشكيب وأمير، كلهم أعطوني أساسيات في التاريخ اليمني والسياسة اليمنية ما كنت لأجدها في الكتب، وإني لأتشرف بأن أدعوهم أصدقائي، وكان

كريستوفر إيدينز - وهو آنذك مدير المعهد الأميركي للدراسات اليمنية - معلمًا معطاءً بقدر ما كان يمكن أن أتمنى خلال سنتي الأولى في اليمن. وكان محمد الأحمدي وخالد الحمادي، وهما اثنان من أفضل صحفيي اليمن، لطيفين كفاية ليشاركاني أفكارهم في شأن القاعدة في مناسبات كثيرة، وأضافني ناصر الربيعي على نحو لطيف ومراع في اليمن، وكان مراد ظافر صديق تخزين قات ممتع في عدة مناسبات في صنعاء، فكثيرًا ما أرغمتني رؤيته المميزة على إعادة التفكير في موقفي. ومن أبو بكر القربي وعبد الكريم الإرياني إلى حامد الأحمر وحمود الهتار، والكثير من سياسيي اليمن وقادتها القبليين المميزين الذين خصصوا وقتًا للتحدث معي فقد وجدت العون على فهم اليمن من منظورهم.

وإضافةً إلى اليمنيين الذين يرغب كثر منهم بألا تذكر أسماؤهم، فقد ساعدتني أيضًا المواهب الكبيرة للدارسين الغربيين لليمن، والأكثر جدارة بالذكر مشرفي في جامعة برينستون برنارد هايكل الذي كان أفضل ناصح يمكن لطالب دراسات عليا أن يتمناه، فهو متطلِّبٌ ومُراعٍ في آن معًا. كما منحني عدة من دارسي اليمن وقتَهم وخبرتهم بكرم، وتحدث معي بول دريخ عن طيب خاطر في صنعاء وساعدت كتبه في تشكيل فهمي لليمن، كما ساعد ستيفن كاتون وروبرت بوروز وتوماس ستيفنسون جميعًا في وضعي في جو العمل عندما وصلت أولَ مرة إلى اليمن كطالب فولبرايت شاب، وساعدني دانييل فاريسكو وتشارلز شميتز على نحوٍ مشابه، وتحديا افتراضاتي بخصوص اليمن، وكان الراحل كريستوفر بوسك رجلًا بليغ العطف والتواضع، وكانت الروح التي يقارب بها عمله إلهامًا لي. ومن بين الجيل الأصغر للدارسين، أثار إعجابي وأذهلني عمل إبريل لونغلي آلي وستيفن دي وسارة فيليبس وستيسي فيلبريك ياداف، وكل هؤلاء كانوا زملاء لطيفين ومعطائين، وساعدني ساموئيل ليبهابر، وهو دارس يافع لامع وصديق عزيز، في تخفيف حملي في بضع جلسات من تخزين القات خلال السنة الأولى من البحث من أجل هذا الكتاب.

وفي العالم الدبلوماسي، قدمني كل من باربرا بودين وتشارلز دومبار وإدموند هول وجيمس لاروكو إلى العالم المعقد والواسع الذي يضطر السفراء إلى دخوله، وأي نجاح لي في نقل ذلك الجانب من القصة يدين بالكثير لحكمتهم المتراكمة.

كل كاتب يحتاج إلى محرر وقد حالفني الحظ في العديد، فكان إيريك ماركواردت في صحيفة سي تي سي سنتينال في مركز مكافحة الإرهاب في ويست بوينت أول محرر ينشر أفكاري بخصوص القاعدة في اليمن ويستكتبها، وأدين بالكثير إلى تساؤلاته الحذرة

ومقاربته المتمعنة، وجوناثان شاينين أيضًا، الذي عمل في الـ ناشيونال سابقًا، والآن في الـ كارافان، شخص ذو موهبة نادرة يستطيع أن يحسن من كل قطعة يلمسها، وكان بليك هاونشيل محررًا مراعيًا له عين لا تخطئ في ما يصح في الطباعة، وكان أيضًا لطيفًا إلى الحد الكافي ليستكتب مقالاتي ويمنحني حرية متابعة مقالات لم تكن دومًا ذات صلة مباشرة بالسياسات المطبقة.

ومنحني ثاد ليفينغستون ودونالد سيتون في صحيفة هيستينغز تريبيون أول عمل لي في الكتابة بصفتي طالب جامعي دون كفاءات، وعلمني دارين فاولر كيف أروي قصةً. وكانت جامعة هيستينغز المكان الأول الذي تعرفت فيه إلى اليمن والدراسة الأكاديمية الجدية، والفضل في ذلك لروبرت بابكوك الذي قدم وقته الثمين مجانًا لتدريسي، فالصف الذي يدرسه عن العالم اليوناني والروماني غيَّر مساري في الحياة، وبروس كروكشانك، العامل آنذك في قسم التاريخ، اتخذ على عاتقه قراءة مسودات كل ورقة كتبتها في إحدى السنوات، فلقد جعلني قلمه الأحمر أرغب في أن أكون كاتبًا أفضل، واستمر دِني ستورر في نصحي وإرشادي كما فعل منذ أيامي قبل التخرج.

وفي برينستون نهض بي ودعمني مجموعة مقربة من الأصدقاء الذين أبقوني متوازنًا وشجعوني خلال صراع السنوات الأربع من الكتابة: ميشيل مكوي، ديفيد هْسو، ساموِيل بيكير، نيت جونسون، مات إسكر، سام فينغ، توماس ديكسون، لقد عنت لي صداقتكم وصلواتكم أكثر مما يمكن أن تصدقوا، ووفر لي مات ريستوشيا الإرشاد والنصح اللذين أحتاج إليهما كثيرًا، وساعدتني بشكل مشابه خلال سنة الكتابة الطويلة في القاهرة صداقة كريستوفر أشتر، ووافق جيف تايلر الصديق المقرب بلطف على تقديم موهبته في صورة المؤلف، واستقبلني تشارلز رودي وعائلته بلطف في أوكسفورد عندما ظهرت على عتبة بابهم هربًا من الثورة في مصر.

ووفر لي أندرو ناش، وهو أحد الأصدقاء الآخرين في القاهرة، قسط النقد الرئيسي في منتصف مشروعي الذي ساعدني على إعادة رؤية القصة التي أريد أن أحكيها، وإلّا لكان اختلف هذا الكتاب كثيرًا بدون رؤيته العميقة. وكان كاسبر أوزوولد صديقًا مقربًا لي على مدار ما يزيد على العقد ولا أستطيع أن أحصي المحادثات التي تحدثنا فيها عن اليمن،

شكرًا لك كاسبر.

وقد مهد لي ويل مكانتس بالكثير من الأساليب الطريق التي أتبعها الآن، أولًا في أريزونا ومن ثم في برينستون، فقد كانت أكاديميته الحذرة والواعية النموذج الذي حاولت تقليده وقد قبل بلطف أن يقرأ ويعلق على أحد الفصول. وآرون زيلين الذي كان يعمل وقتها في jihadology.net والآن في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، كان دومًا سريعًا في تزويدي بوثائق القاعدة التي أضعتها في أثناء تحركي.

ومن ضمن الصحفيين الغربيين، فإن روبرت ورث وجيريمي سكاهيل، ومعهم ميشيل شيبرد، هم المعيار الذهبي للتقارير الصحفية بخصوص اليمن، فالثلاثة قضوا وقتًا على أرض اليمن وتظهر تقاريرهم الحذرة المكتوبة بإتقان عمق معرفتهم، وكان من لطف روبرت وجيريمي أنهما قرءا بعض الفصول وعلقا عليها فجعلا الكتاب أفضل بكثير بذلك، وأدين بشكل خاص إلى جيريمي لسماحه لي باستخدام مقابلة أجراها في اليمن.

إضافة إلى ذلك، فقد استفدت من التقارير الشجاعة لعدة صحفيين شباب جعلوا من اليمن وطنهم في السنوات الأخيرة: لورا كازينوف وأيونا كريغ وآدم بارون وجِب بون وتوم فين فقد وفر لي كلٌّ منهم نافذة لا تقدر بثمن على اليمن المتغيرة بسرعة.

ويستحق محمد الباشا شكرًا خاصًا على سنوات النقاش والجدال، فما كنا نتفق دومًا حول ما يجري في اليمن ولكن جلسات جدلنا عمقت فهمي للبلاد التي يدعوها وطنه باستمرار، وأنقذتني ملاحظاته على مسودة المخطوطة من عدد من الأخطاء لا أود إحصاءها.

ليس أحد من هؤلاء الذين شكرتهم مسؤولًا عن محتوى هذا الكتاب وسوف يختلف بعضهم مع جزء منه أو معه كله، ولكنني آمل أن يروا في صفحاته اليمن التي يعرفونها، وكل ما بقي في الكتاب من أخطاء في الحقائق أو السياق تبقى مسؤوليتي.

تلقيت في السنوات التي عشت فيها مع هذا الكتاب عدة منح وزمالات جامعية هي التي سمحت بمعظم البحث والكتابة، فسمحت لي منحة فولبرايت أن أذهب إلى اليمن في 2003 في البداية، بينما سمحت لي العديد من المنح من المعهد الأميركي للدراسات اليمنية بأن أعود إلى اليمن. وقدمت لي جامعة أريزونا ـ عن طريق منحة زمالة لدراسات اللغة والبلدان الأجنبية ـ وجامعة برينستون تمويلًا كريمًا، وأعطتني منحة فولبرايت ـ هايز في 2010 ـ 2011 المزيد من الوقت في القاهرة حيث أُنجزَ جزءٌ من الكتاب.

وكنت سعيد الحظ لما حصلت على نوع من الوكلاء كنت قد سمعت عنه، ولكن قلقت من أنه لم يعد موجودًا، لقد آمن ريك برودهيد بهذا المشروع قبل أي أحد وكان بطلًا لا يكلُّ، سببُ استطاعتِك حملَ هذا الكتاب بين يديك اليوم هو عملُ ريك.

وكان بريندان كُري المحرر الذي احتاجه هذا الكتاب تمامًا في دار نشر دبليو دبليو نورتون، ففي أسابيع العمل حوَّل مخطوطة جامحةً إلى كتاب، وهو محرر عميق الاهتمام، فكان صبورًا ومتفهمًا على مدى العملية الطويلة، تعديلاته على السطور دقيقة، وطريفة للغاية.. على الأقل في رأيي. وكان العمل مع ميلاني تورتورولي متعة وقد أنجزت العديد من المهمات الصعبة الضرورية لوصول الكتاب إلى الطباعة، وقدمت جوليا دروسكين خريطة عظيمة لمرافقة الكتاب، وكانت أليغرا هيوستن محررة دقيقة لا تكلُّ، جعل اهتمامُها بالتفاصيل الكتابَ أقوى بكثير مما كان ليكون، وقد فعل روبين دينيس الذي يعمل في مؤسسة ون وورلد للنشر الكثير ليرى هذا الكتاب مطبوعًا خلال وقت قصير، وكان هنري روزنبلوم الذي يعمل في سكرايب للنشر بطلًا حقيقيًا في أستراليا ونيوزلندة.

وأخيرًا، أود أن أشكر والدي آرثر جونسن على محبته ودعمه، وأشكر أيضًا شاك كوتيك على صبره ومحبته، أهدي هذا الكتاب إلى والدتي كارين كوتيك.

ملاحظة بخصوص المصادر والترجمات

استفدت في أثناء كتابة هذا المؤلف من عقود من العمل أداها صحفيون شجعان بالعربية والإنكليزية، فكثيرًا ما تكون تغطية القاعدة في الإعلام شأنًا خطرًا، وقد وفر هؤلاء الرجال والنساء خدمات لا تقدر بثمن للذين جاؤوا بعدهم مثلنا. وقد ساعدني في هذا العمل الفترات المطولة التي قضيتها في اليمن خلال السنوات الثمانية الأخيرة، وفي كل الأحوال، أنا ممتن للروح الدافئة والطبيعة الشغوفة للأفراد الذين تكلمت معهم، فعدة من هذه المقابلات مذكورة في الحواشي، ولكن أُغفِل ذكر أخريات كثر لم يرغب أصحابها في ذكر أسمائهم أو لم يكونوا ذوي صلة مباشرة بقصة القاعدة، ولكن كثيرًا من هذه المقابلات والحوارات على أي حال ساعد في تشكيل خلفية القصة، وأنا ممتن لليمنيين الذين أصبحت أعرفهم وأثق بهم خلال السنوات الثمانية الماضية من عملي في الشأن اليمني.

والمصدر الثالث الكبير للمعلومات هو الوثائق والفيديوهات والملفات الصوتية التي أصدرتها القاعدة في اليمن ومن ثم لاحقًا القاعدة في شبه الجزيرة العربية، فمنذ 2007 أصدرت المجموعة كمًّا كبيرًا من المواد عبر المنتديات الجهادية على الإنترنت، وفي ما بعد عن طريق جناحها الإعلامي: الملاحم، ومن الصعب بالطبع الحكم على دقة هذه المواد، ولكنني استطعت بفضل الصحفيين والفارّين من القاعدة أن أتوثّق وأعيد التوثُّق مما أصدرته القاعدة، وكل الترجمات من العربية هي ترجماتي إلا في المواضع التي أشير فيها إلى خلاف ذلك.

شخصيات رئيسية

محمد الأهدل: وكيل القاعدة والقائم على شؤونها المالية حتى عام 2003، عندما استسلم كجزءٍ من اتفاقية سرية، تم تحريره عام 2006 ويعيش في اليمن.

عبد الله الأحمر: كبير شيوخ كونفدرالية حاشد القبلية القوية ورئيس برلمان اليمن من عام 1993 حتى موته عام 2007، كما ترأس أيضًا حزب الإصلاح، وهو حزب المعارضة اليمنية.

علي محسن الأحمر: معاصر للرئيس صالح وينتمي إلى قبيلته، وهو قائد الفرقة أولى مدرع. كان قبضة صالح الحديدية وقاد الحرب ضد الاشتراكيين في 1994 والحوثيين في 2004. انشق الجنرال في بدايات عام 2011 واحتفظ بمنصبه، لكن في العام 2012 تم إقالة علي محسن الأحمر وعين مستشارًا لرئيس الجمهورية وبعد اقتحام الحوثيين لمقر وزارة الدفاع توارى عن الأنظار في 21 سبتمبر 2014.

محمد الأنسي: مخبر يمني أقنع مكتب التحقيقات الفدرالي بملاحقة محمد المؤيد، حاول الانتحار أمام البيت الأبيض عام 2005 بعد أن رفض مكتب التحقيقات الفدرالي زيادة دفعاته.

عبد الله العسيري: مواطن سعودي سافر إلى اليمن عام 2006 لينضم إلى القاعدة، قام بتنفيذ هجوم انتحاري محاولًا اغتيال الأمير السعودي محمد بن نايف عام 2009، لكن الأمير نجا.

إبراهيم العسيري: مواطن سعودي سافر إلى اليمن عام 2006 لينضم إلى القاعدة، ومنذ ذلك الحين برز كواحد من أفضل خبراء المتفجرات لدى القاعدة في شبه الجزيرة العربية وصنع القنبلة التي استخدمها أخوه في محاولة اغتيال محمد بن نايف عام 2009، بالإضافة إلى تلك المستخدمة في مخطط (مفجر الثياب الداخلية) في

كانون الأول/ ديسمبر عام 2009 ومخطط الطرود المفخخة عام 2010، يعتقد حاليًا أنه موجود في اليمن.

أنور العولقي: رجل دين أميركي من أصل يمني ترك الولايات المتحدة بعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر. ادعى لاحقًا أنه قد تم (تطريفه) في سجنٍ يمني وكان لديه اتصال مع نضال حسن، مطلق النار في حادثة فورت هود، وعمر فاروق عبد المطلب، الذي حاول إسقاط طائرة ركاب أميركية فوق ديترويت في يوم عيد الميلاد، عام 2009، قُتل في ضربة طائرة أميركية من دون طيار في أيلول/ سبتمبر عام 2011.

جمال البدوي: المدير اللوجستي للهجمة على المدمرة كول، موجود على لائحة مكتب التحقيقات الفدرالي لأبرز المطلوبين، هرب من السجن عام 2003 ومجددًا عام 2006، يعيش حرًا في اليمن حاليًا كجزء من اتفاقية عقدها مع الرئيس على عبد الله صالح.

ناصر البحري: حارس أسامة بن لادن الشخصي السابق، يعرف غالبًا باسمه المستعار أبو جندل، هو حر حاليًا ويعيش في اليمن.

جابر البنا: مواطن أميركي كان متورطًا في قضية لاكوانا 6، وموجود على لائحة مكتب التحقيقات الفدرالي لأبرز المطلوبين، هرب من سجن يمني عام 2006 ويعيش حرًا حاليًا في اليمن كجزء من اتفاقية عقدها مع الرئيس صالح.

طارق الفضلي: وكيل أسامة بن لادن، قاتل في حصار جلال آباد عام 1989. كما قاد عدة محاربين متمرسين من أفغانستان إلى اليمن عام 1990، حيث شرعوا بحرب عصابات ضد الاشتراكيين في أبين. بعد الحرب الأهلية عام 1994، ترك الفضلي الجهاد لصالح المال وفضل منذ ذلك الحين الرئيس صالح، يعيش حاليًا في اليمن.

جابر الفيفي: مدمن مخدرات سعودي سابق كان قد سافر إلى أفغانستان ليجد الخلاص وحياة جديدة. قاتل في معركة تورا بورا وانتهى به المطاف في معتقل غوانتنامو، بعد إطلاق سراحه، انضم إلى القاعدة في شبه الجزيرة العربية ليترك الجماعة بعد ذلك ويستسلم للسلطات السعودية، هو حر طليق حاليًا ويعيش في السعودية.

أبو علي الحارثي: «عراب» القاعدة في اليمن، الذي بنى معظم البنى التحتية للجماعة في التسعينات، ورئيس القاعدة في اليمن بعد 11 أيلول/ سبتمبر، قتل في

ضربة طائرة أميركية من دون طيار في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2002.

عبد السلام الحيلة: عميل في منظمة الأمن السياسي كان قد كشف لأسامة بن لادن وأيمن الظواهري عن وجود خائن في صفوفهم، اختطفته قوى أمن مصرية عام 2003، وتم نقله لاحقًا إلى معتقل غوانتنامو، حيث ما يزال موجودًا.

إدموند هول: سفير الولايات المتحدة إلى اليمن بين عامي 2001 - 2004. كان له دورٌ فعال في هزيمة المنظمة الأولية للقاعدة في اليمن، متقاعد الآن ويقيم في الولايات المتحدة.

صالح الخنبشي: يمني من أصل صومالي شارك في أول هجومٍ إرهابيٍ للقاعدة في عدن عام 1992، أدار لاحقًا واحدة من مزارع بن لادن في السودان، يعيش حاليًا في اليمن.

محمد المؤيد: رجل دين يمني اعتقل من قبل مكتب التحقيقات الفدرالي في عملية في ألمانيا عام 2003. حكم عليه بخمس وسبعين عامًا من السجن، لكن تم نقض إدانته لاحقًا بعد الاستئناف، عاد إلى اليمن عام 2009، حر حاليًا، ويعيش في اليمن.

عمر فاروق عبد المطلب: طالب نيجيري حاول إسقاط طائرة ركاب أميركية فوق ديترويت في 25 كانون الأول/ ديسمبر عام 2009، موجود حاليًا في سجن أميركي.

محمد بن نايف: أمير سعودي ونائب وزير الداخلية، هو الذي كان مسؤولًا عن هزيمة القاعدة في السعودية بين عامي 2003 - 2006، نجا من محاولةٍ لاغتياله عام 2009.

غالب القامش: رئيس أعلى وكالة مخابرات يمنية، (منظمة الأمن السياسي)، عمل بشكل وثيق مع جون أونيل وعلي صوفان.

فهد القصع: المصور الذي فوت تصوير الهجوم على المدمرة الأميركية اليو أس أس كول، أطلق سراحه لاحقًا من سجن يمني وانضم مجددًا إلى القاعدة، موجود على لائحة مكتب التحقيقات الفيدرالي لأبرز المطلوبين، وقُتل في هجوم طائرةٍ أميركية من دون طيار في أيار/ مايو عام 2012.

فواز الربيعي: مقاتل يمني ذو شخصية جذابة ولد في السعودية وانضم لاحقًا إلى القاعدة في أفغانستان، أعاده ابن لادن إلى اليمن قبل وقت قصير من هجمات 11 أيلول/

سبتمبر، اعتقلته قواتٌ يمنية عم 2003 وهرب من السجن عام 2006، ثم قتل في السنة ذاتها بعد أن استسلم مرةً أخرى، أخوه الأصغر موجود حاليًا في معتقل غوانتنامو.

قاسم الريمي: مقاتل يمني كان مدربًا في مخيم تدريب للقاعدة في أفغانستان، هرب من السجن من اليمن عام 2006، وهو القائد العسكري للقاعدة في شبه الجزيرة العربية، يُعتقد أنه موجودٌ في اليمن، أخوه الأصغر في معتقل غوانتنامو حاليًا.

علي عبد الله صالح: رئيس اليمن الشمالي بين عامي 1978-1990 واليمن الموحد بين عامي 1990-2012. يعيش حاليًا في صنعاء، وقد تمتع العديد من أقرباءه بمناصب رئيسية في الجيش اليمني ووكالات الاستخبارات في عهده.

عبد الله الشائع: صحفي يمني أعد تقريرًا صحفيًا عن الضربة الأميركية في المعجلة في كانون الاول/ ديسمبر عام 2009 وقابل عدة قادة بارزين في القاعدة في شبه الجزيرة العربية. اختطف عام 2010 وتمت إدانته بالإرهاب في كانون الثاني/ يناير عام 2011. بعد مكالمة من أوباما للرئيس صالح في ذلك الوقت في شباط/ فبراير 2011، رُفض طلبه للعفو، موجود حاليًا في سجن في اليمن.

سعيد الشهري: سجين سابق في معتقل غوانتنامو من السعودية أنضم مجددًا إلى القاعدة عام 2009، نائب قائد القاعدة في شبه الجزيرة العربية، يعتقد أنه موجود في اليمن حاليًا.

علي صوفان: عميل لدى مكتب التحقيقات الفدرالي كان موجودًا في اليمن إبان هجمات 11 أيلول/ سبتمبر عام 2001. وفر معلومات مهمة تربط أسامة بن لادن بالمختطفين، وتوقع الهجوم على ناقلة النفط ليمبورغ عام 2002. متقاعد من عمله لدى مكتب التحقيقات الفدرالي، ويعيش حاليًا في نيويورك حيث يدير مجموعة صوفان، وهي شركة استشارات خاصة.

ناصر الوحيشي: سكرتير أسامة بن لادن الخاص، قاتل في معركة تورا بورا وهرب إلى إيران، حيث سجن. نقل إلى اليمن عام 2003، وهرب من السجن عام 2006 وكان أكثر فرد مسؤول عن إعادة بناء القاعدة في اليمن. قائد القاعدة في شبه الجزيرة العربية، يعتقد أنه موجود في اليمن حاليًا.

غالب الزيدي: قبلي يمني كان قد رفض مساعدة الرئيس صالح في اقتفاء أثر محمد الأهدل عام 2001. احتجز لاحقًا وقابل العديد من قادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية المستقبليين في السجن، حر حاليًا، ويعيش في اليمن.

عبد المجيد الزنداني: رجل دين يمني قام بالتجنيد للجهاد في أفغانستان في الثمانينات. أصبح لاحقًا جزءًا من مجلس اليمن الرئاسي وأصدر فتوى تسمح بقتل الاشتراكيين خلال الحرب الأهلية عام 1994. مع أنه ليس عضوًا في القاعدة فقد دعته الولايات المتحدة «إرهابي دولي على نحو خاص» في عام 2004.

استهلال

منذ قرون بعيدة، في مكان ما من الصحراء العربية، جمع راعي غنم سابق أُميٌّ عصبته من الثوار والمنبوذين حوله ليقول بعض الكلمات الأخيرة. كان معظم الرجال قد انفصلوا عن عائلاتهم وقبائلهم - الصمغ الاجتماعي للصحراء العربية في القرن السابع - ليتبعوا (الراعي السابق وقصص وحيه السماوي)، لقد أغاظت ادعاءات محمدٍ معظم مكة الواقعة على ساحل شبه الجزيرة الغربي، وبعد أن ترك بلده هربًا من مؤامرة اغتيال، هربَ محمد إلى الشمال بحثًا عن المساعدة، كان من قبل قد أوفد بعض أتباعه عبر البحر الأحمر نحو ما بات الآن يعرف بأثيوبيا، ولم يُبْقِ إلا حفنة من أنصاره إلى جانبه، وكانوا منهكين وهاربين، وبدت النهاية واضحةً للقلائل الذين بقوا، نظر محمد إلى القلائل الذين تبعوه إلى الصحراء في ذلك اليوم وقال: «عندما تهددكم الكارثة، لوذوا باليمن». أي: إذا أخفقنا، إذا لم ينجُ محمد، كانت هذه أوامره الأخيرة، اليمن هي الملاذ الأخير.

استدار التاريخ طبعًا، ولم يخفق هروب محمد اليائس نحو الشمال، بل نجح، وبات هو البدايات المتواضعة لإمبراطورية سوف تمتد قريبًا على قارات، فمرت لحظات اليأس والشك العابرة تلك، ولكن كلماته بقيت أوامرَ تتبع في حالات الخطورة. كان محمد يتحدث عما هو أكثر من الحاضر فحسب: كان يتحدث عن المستقبل، سوف تأتي الكارثة يومًا ما، وسوف يحتاج أتباعه إلى ملاذٍ أخير، أولئك هم الرجال الذين خاطبهم ذلك اليوم في الصحراء: الجيل المستقبلي الذي سوف يهرب باتجاه اليمن، كانت كلماته لهم، أيًا كانوا.

أمرُ محمد اليائسُ هذا بالهروب إلى اليمن منسوبٌ ومشكوك بإسناده لدى معظم المسلمين، ولكنه عند بعض منهم، عند حفنة الرجال والنساء الذين اعتبروا أنفسهم على مدى السنوات المؤمنين الحقيقيين الوحيدين الباقين، لمس واقع قلوبهم وحالهم، وآمنوا به لهذا السبب، إن لم يكن ثمة أيُّ سبب آخر، الإيمان طمس الأدلة.

تبعثر المؤمنون حول العالم في جيوب صغيرة وقرى معزولة، فلم تجد جماعة المؤمنين ضرورة للملاذ الموعود في اليمن، فقد كان هنالك دومًا جبل آخر يختبئون فيه، ملجأ آخر يجدون فيه الأمان، فالملوك والحكام رجالٌ دنيويون، محدودون بالزمان والمكان، ولهم مقدرات محدودة، ولكن بحلول آخر القرن العشرين، بدأت هذه القيود العتيقة تنزلق، فقد صعدت قوة عالمية يمكنها أن تضرب في أي مكان في العالم، فتطلق الطيارات بلا طيار صواريخها على لقاءاتهم، بينما تتحرش الطائرات والسفن الحربية بمنازلهم وقراهم. بعد أكثر من 1400 عام على خطاب محمد على ساحة المعركة، جاءت اللحظة أخيرًا، بالتأكيد، هذه هي الكارثة التي تنبأ النبي بها، فرجال ونساء أوائل القرن الحادي والعشرين هم جيله المختار، وهم يحتاجون ملاذًا أخيرًا.

في أوائل كانون الثاني/ يناير 2009، اجتمع عدة من هؤلاء الرجال في بيت آمن صغير ذي طابقين في الأرض اليمنية المرتفعة إلى الشمال فورًا من العاصمة صنعاء، جاؤوا من كل أنحاء العالم العربي، من السعودية ومصر والخليج، ومن إفريقيا وجنوب آسيا، وخلال شهور انضمت إليهم حفنة من الأميركيين وعلى الأقل بعض من الأوروبيين، لهم تواريخ طويلة على نحو مفاجئ بالنسبة إلى شباب في هذه السن الصغيرة، فكلهم تقريبًا حارب وأخفق في أماكن أخرى، وبعضهم سُجن في بعض أكثر زوايا العالم ظلمةً، فدفعوا ثمن إخفاقهم سجنًا في إيران والسعودية وخليج غوانتنامو واليمن، تعذبوا في زنازين رطبة، واستجوبوا فيها، وحرموا من النوم، وتحرقوا، ولكنهم بقوا أحياء، والآن عادوا متقهقرين إلى ملجأ محمد الأخير.

جاء الرجال في المنزل الآمن ذلك اليوم إلى اليمن عبر خليج عدن بقوارب لتهريب الرق الأبيض، فضاعوا بين حشود اللاجئين اليومية من إفريقيا، وبعض السعوديين جاء بالسيارة، متجهًا نحو الجنوب، ومسرعًا عبر خط الحدود المخفي في الرمال، وغيرهم هبط في مطار صنعاء الدولي يدعون أنهم طلاب لغة عربية أو سواح، وواحد منهم على الأقل جاء مثل مؤيدي محمد الأوائل على جمله إلى هذا الجهاد الأخير، مهما كانت طريقة وصولهم، كانوا جميعًا مستعدين للقادم.

على بعد قارتين، كان أوباما، الرئيس المنتخب آنذاك، غير مستعد لما هو على وشك أن يحدث، كان يجلس في مكتبه المؤقت في فندق هاي - آدامز الفخم المجاور للبيت الأبيض، ويحضر لتطبيق التغيرات التي وعد بها خلال حملته، وكان على رأس قائمته

إغلاق سجن غوانتنامو، فمنشأة الاعتقال هذه أزعجته لسنوات، وأضرَّت بصورة أميركا في الخارج، وقسمت أصوات الناخبين في الداخل، والمحاكم الداخلية تهاجم أساساتها الشرعية، بينما تتدفق قصص التعذيب من أقفاص غوانتنامو الحديدية.

ومع أن أوباما لم يكن يعلم في ذلك الوقت، فإن حفنةً من الرجال الملتقين في البيت الآمن في اليمن كانوا على وشك إجباره على ما لا يريد، فسيقومون في الأيام القادمة بإلزامه بالرجوع عن وعد حملته الانتخابية، وفي خضم ذلك، يطرحون أحد أصعب الأسئلة على إدارته: كيف يمكن للولايات المتحدة أن تحارب عدوًا حذقًا، لا دولة له، دون الدخول في اجتياح مكلف جديد لا يزيد المسألة إلا صعوبة؟

وصل أوباما إلى منصبه مستعدًا للتعامل مع الحروب في أفغانستان والعراق، ولكنه لم يقض إلا وقتًا قصيرًا في النظر في اليمن، ففي الأيام الأولى من كانون الثاني/ يناير، كانت اليمن لا تزال مسألة ثانوية، ولكنها لم تبق كذلك، فبحلول أسبوعه الأول في المنصب، سوف يحتاج أوباما إلى الإجابة على السؤال الذي طرحته اليمن ومقاتلوها، وهو لم يبدأ حتى بالتفكير في المشكلة بعد.

قبل بضعة أيام من احتفال تقلد أوباما منصب الرئاسة، جلست حفنة الرجال تخطط لحفلتها الخاصة بمناسبة خروجها إلى العلن، ولم يكن في تلك الحفلة شيءٌ من فخامة الأحداث الدولية الكبرى، مجرد أربعة رجال يجلسون متربعين على الأرض أمام ملاءةٍ بيضاء وعلم أسود، ولم يسمع العالم بهذه الحفلة إلا بعد أيامٍ ثلاث، بعد وقت جيد من توقيع الرئيس أوباما أمره الإداري معلنًا نيته إغلاق معتقل غوانتنامو. ولكن الرجال في اليمن كانوا يعلمون ما يفعلون، فمن مخبئهم الضيق في الصحراء، وباستخدام مجرد كاميرا وبضع حواسيب محمولة، أحرجوا رئيس الولايات المتحدة وحلفاءه العرب ـ السعوديين واليمنيين ـ باستخدام فيديو واحد لا غير، حتى الطريقة التي نشروا المعلومات بها كانت محسوبة لزيادة التأثير، فنشروا أولًا خبرًا تشويقيًا: بيان صحفي على صفحات المنتديات الجهادية على الإنترنت في الأيام التي سبقت مراسم تقلد المنصب، ومن ثم، بعد أن أقسم أوباما، نشروا المادة النهائية.

أكّد الفيديو ذو التسعة عشر دقيقة أسوأ مخاوف الولايات المتحدة: فبعض الذين كانوا يومًا ما في الأسر باتوا الآن أحرارًا ويهددون بقتل الأميركيين، فسعيد الشهري ـ معتقل

سابق في غوانتنامو من السعودية أطلقت الولايات المتحدة سراحه قبل أكثر من عام ـ قد عاد للانضمام إلى القاعدة، وبات يجلس على الأرض في ثوبٍ أسود وحزام من الطلقات ملتفٍ على كتفه، ويجلس أمامه قاذف الصواريخ على الأرض، ويهز أصبعه أمام الكاميرا، يقول أنه هنا ليعلن عن دمج الفرعين اليمني والسعودي من القاعدة في منظمة واحدة: القاعدة في شبه الجزيرة العربية، وبينما هو يتحدث، كان تقنيّو القاعدة يعرضون اسمه، ولقبه، ورقمه كسجين في غوانتنامو، 372، في أسفل الشاشة.

لم يكن الشهري وحيدًا، إذ ظهر أحد سجناء غوانتنامو الآخرين من السعودية، محمد العوفي، وفي الفيديو، جلس قاسم الريمي إلى جانب الشهري مرتديًا سترةً انتحارية وكوفيةً مرقعة بالأحمر، وهو قائد المجموعة العسكري الجديد، وفي مركز نصف الدائرة جلس قائد القاعدة في شبه الجزيرة العربية الجديد كالقزم بين السعوديين الضخمين، لقد قضى ناصر الوحيشي، اليمني الضئيل، (ذو اللحية المخربشة) والطبع الهادئ في الكلام أربع سنين مع ابن لادن، وكان أمين سر قائد القاعدة الشخصي ومساعده، وبات الآن يصنع شيئًا جديدًا.

لقد عادت اليمن إلى اللعبة، بعد أن كانت قبل خمس سنين حكاية نجاح للولايات المتحدة، نصر مبكر في الحرب ضد القاعدة، والآن ضاعت تلك المكاسب وعادت القاعدة، وسوف يحتاج الرئيس أوباما وطاقمه إلى إيجاد طريقة لخوض نوع جديد من الحروب، وسوف يضطرون إلى فعل ذلك في أحد أسوأ البلدان ضيافةً في العالم، في أرضٍ تنهار نحو الحرب الأهلية والعنف وترتفع فيها أسعار الطعام وتجف الآبار.

هذه هي تلك الحكاية، حكاية صعود القاعدة، وسقوطها، وإعادة إحيائها الأخير في اليمن، إنها قصة نجاح وإخفاق، قصة تحديات قرن جديد وطريقةٍ جديدة في فهم العالم، إنها قصة أميركا في الحرب.

الباب الأول

الصعود والسقوط

الفصل الأول

بلاد بعيدة
(الثمانينيات)

جاء الاتصال مبكرًا في الصباح، فدوّى رنين الهاتف الحاد على الجدران الثقيلة في منزلٍ في صنعاء، ثمة صوت غير مألوف على الجانب الآخر من الخط، يطقطقُ عبر أميال من التشويش: «لقد استشهد هشام»، قال الرجل معلنًا: «مبارك».[1]

هذا كل ما ستحصل عليه العائلة، حفنة كلمات من رجل غريب على بعد ألفي ميل، فلا جثة يدفنونها ولا رسالةٌ أخيرة تُمرر إليهم، وفي الوقت الذي وصل فيه الاتصال من باكستان، كان قد مر على موت هشام اثنا عشر يومًا.

هشام الديلمي فردٌ من إحدى عائلات اليمن المتدينة العريقة، وكان قد غادر اليمن قبل شهور للجهاد ضد السوفييت. وعبد الوهاب، كبير العائلة، عنده اثنا عشر ولدًا وحفنة من البنات، ولكنّ هشامًا هو المفضل عنده. لم يكن الاثنان يشبهان بعضهما بعضًا بأي شيء جسديًا، فعبد الوهاب طويل ونحيف، وله وجه غير متناسب الجانبين ينحدر باتجاه كتفه الأيمن، ولحية (كالأسلاك) تنشعب أسفل ذقنه إلى زوج من الخصل الحمراء التي كان يحب أن يمسدها عندما يفكر بعمق، وكان هشام يقوم دومًا بالحركة نفسها تقليدًا لوالده، ممسدًا ذقنه الخالية من الشعر، ولكن المراهق المربوع كان تنقصه لحيةُ أبيه ومظهره الطويل الآخذ للعين، وعلى الرغم من ذلك، كانت بين الاثنين رابطةٌ خاصة بدت واضحةً منذ أن كان هشام طفلًا، فبينما أصدقاؤه في الخارج يلعبون الكرة،

(1) Abdullah Azzam, «**The martyr Hisham bin Abd al-Wahhab al-Daylami**» available at: http:// alfarooq.itgo.com/mjahideen/Hisham_aldeleemy.htm.

كان هشام يدرس القرآن، وعندما اكتشفوا الفتيات في الثانوية، وصاروا يطاردونهنَّ كظلالهنَّ في شوارع صنعاء الملتوية، جلس هشام يلتهم أعمال المتطرف المصري سيد قطب ، لم يلمس قلبَ الشيخ ذي التسعة والأربعين عامًا منظرٌ كمثل منظر ابنه الممتلئ منحنيًا على كتبه.

كان عبد الوهاب والدًا متطلبًا، وليس هنالك من سر في تفضيله لهشام، فأحبَّ أولاده كلهم، ولكن هشامًا كان مميزًا، وبات على هؤلاء الأبناء الآخرين، بعد أن تلقوا الاتصال ووالدهم خارج المنزل، أن يعلموه بالأخبار، كان هذا اليوم هو الثاني عشر من أيلول/ سبتمبر 1987، وكان ابن عبد الوهاب المفضل قد مات.

سبتمبر أحدُ الأوقات الأكثر جمالًا من العام في صنعاء، إذْ مرَّ مطر العصر القادم مع الغيوم الموسمية العالقة في جبال اليمن الجنوبية العالية التي تضربها الرياح القادمة من المحيط الهندي في الصيف المتأخر، ولكن صقيع الصباح الشتوي ما جاء بعد ليجعل صلاة الصباح غير مريحة، وتبقى درجات الحرارة في أوائل الخريف معتدلة كفاية ليلبس الناس قمصانًا وصنادل، ويتركوا المعاطف، بينما هم يتنقلون عبر حوض الجبل، الشبيه بالساعة الرملية، الذي تقع المدينة فوقه، ويمكن للمرء في يوم رائق أن يستبين قمة جبل النبي شعيب بعيدًا، وهي أعلى قمة في شبه الجزيرة العربية، أعلى بقليل من 12000 قدم.

في هذا الصباح الأيلولي من 1987، صارع عبد الوهاب ليتحدث بينما هو يستمع إلى أولاده يخبرونه بأمر الاتصال القادم من باكستان، وبينما هم يتحدثون، انحرف ذهنه عودةً إلى قصة يعقوب القديمة، وكيف أن كبير العائلة العبري تعامل مع خسارة ابنه المفضل، ولكن هذا أيضًا لم يمنحه الكثير من المواساة، «كان قلبي حزينًا واغرورقت عيناي بالدموع» يقول متذكرًا: «أردت ولدي».[1]

عرفوا القصة الكاملة في النهاية، فقد كان هشام قبل أيام من ذلك يعمل ضمن عملية ضد القوات السوفييتية في أفغانستان، وحاول الشاب ذو التسعة عشر عامًا أن يُطلق صاروخًا دون قاذف – وهو إجراء شديد الخطورة يتضمن موازنة الصاروخ على صخرة أثناء استخدام سلك كزناد – وأخطأ في الحساب فقتل نفسه وجرح اثنين آخرين كانا مثله؛ لا خبرة عسكرية سابقة لديهما؛ كان المراهقون قد وُضعوا في موقع عاصف في شرق

(1) المرجع السابق.

أفغانستان لا يعرف إلا باسم «مأسدة» أو عرين الأسد تحت قيادة السعودي اليافع أسامة بن لادن.

كان عبد الوهاب، في السنوات التي سبقت موت ابنه، جزءًا من شبكة عمل رخوة من رجال الدين والشيوخ الذين يجندون من أجل الجهاد، فيشجعون شبابًا مثل هشام على السفر إلى أفغانستان. كان رجال الدين هؤلاء يعِظون حيثما استطاعوا، في جوامع غير مكتملة ما زالت اسمنتًا مسلحًا وطوبًا عاريًا، وفي غرف خلفية صغيرة لأصحاب محلات متعاطفين معهم، وعلى امتداد الشرق الأوسط، تجاهل رجال الدين ذوو الشعبية في الجوامع المتألقة رجالَ الدين ذوي العيون (المتوحشة) وخُطبهم الصاخبة الهائجة، ولكن رسالتهم البسيطة ضربت وترًا عند الشباب اليائسين العاطلين عن العمل. وهكذا، كمثل محمد الذي بنى جيشًا من المنبوذين في المجتمع، حوَّل رجال الدين أمثال عبد الوهاب حركةً من أصحاب السوابق والمنبوذين إلى جهاد، وكان عبد الوهاب أحد أفضل رجال الدين هؤلاء، يجذب الشباب نحوه بخطاباته المتناغمة ذات الطبيعة المتكررة الأخَّاذة، ويقنعهم بالسفر آلاف الأميال ليحطوا في مكانٍ لم يسمعوا به قبلًا.

بحلول عام 1986 أقنعت سنوات الاستماع إلى خطب أبيه هشامًا تمامًا، وفي رحلة إلى السعودية لأداء الحج، وهو واجبٌ يطلبه الإسلام من كل أتباعه، أخبرَ المراهقُ الناضج قبل أوانه أباه أنه سيترك الدراسة الثانوية ليسافر إلى أفغانستان، فوقف عبد الوهاب في ظل الكعبة، البنية المكعبة في مركز جامع مكة العملاق والصرح الأقدس في الإسلام، يستمعُ إلى خطاب ابنه المحضر بحرص، كان متفاجئًا ولكن ليس مصدومًا جدًا، ووعد هشامًا بمباركته على شرط أن يتخرج من الثانوية أولًا.

ومع أنه اتَّبع تعليمات والده وانتظر عامًا إضافيًا، كان هشام لا يزال طفلًا حين وصل إلى بيشاور، باكستان، وهي البوابة المغبرة للحرب في الجارة أفغانستان. لم تكن بيشاور تشبه في شيءٍ اليوتوبيا الإسلامية التي كان يحلمُ بها في صنعاء، لم يكن هنالك حسٌّ بالهدف، ولا الوحدة، وبدلًا من المحاربين العظماء والأبطال الإسلاميين، وجد هشام نفسه في مدينة من اللاجئين.

في صورةٍ أُخذت قبل أيام من هبوط طائرته في باكستان، يبدو هشام ضائعًا، ولدًا صغيرًا غارقًا في ثياب أبيه، وخلال أسابيع من هذه الصورة مات هشام شهيدًا في سبيل

الجهاد، والمفترض في هذه الحالة أن يُبارَكَ لأبيه، لا أن يُعزَّى، ومع مرور الوقت، وجد عبد الوهاب الراحة التي وعده بها دينه، حتى إنه اتَّخذ فخرًا من تضحية ابنه، ولكن الألم كان لا يزال جديدًا في ذلك اليوم من سبتمبر 1987.. كان يريد ولده.

ما كان يجب أن تكون أفغانستان حربَ هشام، إذ هي صراع ضمن سياق الحرب الباردة في آسيا الوسطى، وعلاقتها بالإسلام قليلة ولا علاقة لها باليمن أبدًا. كان الدين مصادفةً جغرافية على رقعة شطرنج سياسة القوى العظمى، ولكن العرب جذبهم شيءٌ أعمق، شيءٌ أكثر سحرًا من السياسة أو السلطة، شدَّهم إلى الحرب الدائرة في أفغانستان، فدخلوا متعثرين إلى بلدٍ لم يفهموه تمامًا من قبل.

كانت أفغانستان التي وجدها العرب ذات أشتية باردة عديمة اللون، وصحارى مقفرة تتشقق وتتفتت تحت الأقدام، والجبال المتزاحمة في الشرق، المتكسرة والمسننة بالوديان المعقودة بالأنهار لا تشبهُ في أي شيءٍ الصحارى الخالية والمدن المكتظة التي يدعوها معظم الجهاديين أوطانهم؛ على البقايا الرملية للحرب في البلاد نشطت قبائل منقسمة، وأمراء حرب مُخدرون ومجرمون صغار، وجواسيس وعاهرات، كانت هذه هي أفغانستان من حيث التاريخ والخبرة، ولكن ثمة أفغانستان أخرى ما بعد الفوضى، تربت في عقول المراهقين النقية من أمثال هشام، الذين جاؤوا ليشكلوا جيوش الإرهاب الشعبية في القرن القادم، ولطالما كانت أفغانستانهم فكرة أكثر منها مكانًا.

بدأت شرارة القتال مع قيام الحزب السوفييتي في عيد الميلاد عام 1979 بإنزال عسكري لدعم الحكومة الشيوعية في كابول، ولكن العرب سرعان ما حولوا الحرب إلى جهاد، فهم لم يسافروا آلاف الأميال كي يوقفوا مد الشيوعية أو يحاربوا التحرير الوطني، بل رأى العرب أنفسهم جزءًا من تقليدٍ قديم يعود إلى أيام النبي، فكما حارب محمد الكفار وغير المؤمنين، كانوا هم أيضًا يحاربون الملحدين والشيوعيين، كانت هذه أسطورةً طبعًا، ولكن مع الوقت صنعت الأسطورة واقعًا لنفسها.

على عكس بقية الحكومات العربية، التي كانت تدعم الجهاد علنًا، ولكن تحاول في الخفاء أن تثني شبابها عن السفر، أرسلت شمال اليمن، وهي في ذلك الوقت دولة مستقلة، عشرات من خيرة شبابها وألمعهم، وبالنسبة إلى جيلٍ كامل من الشباب اليمنيين أصبحت الرحلة إلى الخطوط الأمامية في أفغانستان طقسًا يعبر عن النضج، كانت هنالك ثلاث

قنوات تغذي خطوط اليمن إلى أفغانستان، الأولى: هي الحكومة برئاسة علي عبد الله صالح، وهو قائد عسكري قصير ذو ملامح جَلدَة، كان في منتصف الثمانينيات يفضل تسريحة الآفرو ونظارات الطيارين الشمسية الواسعة، وصل إلى السلطة قبل حوالي عقدٍ من الزمن تقريبًا في 1978 بصفته الرئيس الخامس لشمال اليمن. كان صالح يدعو المجندين إلى القصر الرئاسي، ويُجلس المراهقين الغريبين في مقاعد عملاقة فخمة، فيضيع هؤلاء الأولاد في مظاهر البذخ ووفرة الورود والحواف المذهّبة في ديكور القصر الرئاسيّ، وهم يستمعون إلى صالح يقارن بينهم وبين أصحاب محمد الأوائل.

واعتمدت القناة الثانية: على القبائل اليمنية، التي كانت تتصرف غالبًا كدول مستقلة، فتسيطر على منطقة و تفرض قوانينها الخاصة في جبال البلاد الوعرة، وكانت كونفدراليتا شمال صنعاء الكبيرتان القبليتان، حاشد وبكيل، تحظيان بالسطوة، وكان يشار إلى هاتين القبيلتين بجناحي الدولة، وكانتا مؤسستي اليمن الاجتماعية الأكثر صلابة. كان رئيس كونفدرالية حاشد القبلية الضخمة ومقاتليها المسلحين الذين تبلغ أعدادهم الآلاف - الشيخ عبد الله الأحمر ذو المظهر المهيب - كثيرًا ما يستضيف حفلات فيديو في مجمع المباني المسور الذي يملكه في داونتاون صنعاء، فيعرض فيها فيديوهات مشوشة من الخطوط الأمامية، و ينظم محاضرات يلقيها مقاتلون عائدون من أفغانستان.

والقناة الثالثة: شبكة الجوامع في اليمن، فكان رجال الدين في كل خطب يوم الجمعة على مدى البلاد يكررون ما يقوله وزراء الحكومة و الشيوخ القبليون، فيقولون للمصلين أن القتال عليهم واجب، وكان رأس الحربة في هذه الجهود، إلى جانب عبد الوهاب الديلمي، عبد المجيد الزنداني، وهو واعظ طويل ذو بنية ضخمة ولحية (بلون الجزر)، وهو ممثلٌ طلابيٌ تدين في أواخر الخمسينيات، وعرف الزنداني كيف يتلاعب بالحاضرين في مكان ما، فكان ينوِّم جمهوره مغناطيسيًا بحكاياتٍ عن رحلاته إلى أفغانستان، ويخبر الشباب اليافعين ذوي العيون المتشوقة عن معجزات الجهاد: عن الملائكة التي تنزل إلى الأرض لتحارب إلى جانب الرجال، وعن الجثث التي ترفض التحلل، فيشرح لهم بمثل هذه الأفكار، وبصوتٍ طنان، أن الله يدعوهم إلى التقدم.

وفي خارج صنعاء، اقتبس الواعظون الذين يعملون في دوام جزئي في القرى الصغيرة على مدى اليمن عباراتِهم من رجال الدين أمثال عبد الوهاب وزنداني، فكرروا من منابرهم ما كانوا يسمعونه في العاصمة. وفي الوقت نفسه الذي كان فيه هشام يقدم عريضةً

إلى والده كي يسمح له بالذهاب إلى أفغانستان، وصل يمنيٌّ يافع آخر هو مصطفى بادي إلى قرارٍ مشابه، كان مصطفى شابًا يمنيًا ذا شعرٍ مجعد في عشرينياته، قد رجع توًّا من عملٍ بسيط في السعودية عندما توجه إلى المسجد المحليّ أحد أيام الجمعة مع ابن عمه، وكان يقول متذكرًا بعد سنوات: «الخطبة في ذلك اليوم غيرت مجرى حياتي إلى الأبد».(1)

تحدث شيخ القرية عن أفغانستان، وهو مكانٌ لم يسمع به إلا بضعةٌ من الحاضرين، «لم أكن حتى أعلم أين تقع أفغانستان» يقول بادي معترفًا، فهمس بنظرةٍ سريعة إلى ابن عمه الراكع بجانبه عمّا إذا كان يعرف، فحرك ابن عمه عينيه مستنكرًا ببساطة.

ورنّ صوتُ الشيخ من واجهة الجامع بأن أفغانستان بلادٌ يتعرض فيها المسلمون للهجوم، فالطيارون السوفييت يضربون من السماء قاتلينَ عوائل آمنة كاملة في منازلها في أثناء نومها، والشيوعيون يغتصبون النساء ويموهون الألغام على شكل ألعاب ليشوهوا الأطفال الذين مازالوا أصغر من أن يصلُّوا، وبينما كان يتحدث، بدأ بضعةٌ من الرجال الراكعين أمامه بالبكاء، وانتقلت شهقات البكاء ببطءٍ بين صفوف المصلين، وشعر بادي بدموعه وهو يلمس خده بيده.

وأكمل الشيخ الشرح بأن الأفغان غير المسلحين إلا بإيمانهم بالله يقاومون، ولكنهم يحتاجون المساعدة، ثم توقف الشيخ قليلًا في أدائه منتظرًا تلاشي الشهقات والدموع المكبوتة، إذ كان يريد أن يستدير إليه كل وجه رجل، فمر بعيونه على الغرفة محتويًا فيها المتعبدين والوعود بالآخرة التي بدأت تتشكل، وحين تكلم مرةً أخرى بات صوته تحديًا.. لم يحتج بادي إلى سماع المزيد، اشترى في الصباح التالي تذكرةً إلى باكستان.

بعد أيامٍ من ذلك، وعلى متن طائرته إلى كراتشي، تمعن بادي في ما كان يفعله، فهو لا يعرف أحدًا في باكستان أو أفغانستان، وليس عنده أي فكرةٍ عما يفعله أو أين يجب أن يذهب عندما تحط الطائرة، فهو قبل أسبوعٍ من هذا لم يكن حتى يعرف بوجود أفغانستان، وهو الآن في طريقه إليها.

في طريقه إلى حمام الطائرة، بدأ حوارًا مع شابين يمنيين، واستمع الاثنان إلى بادي يكرر خطبة الشيخ ويخبرهم عن جرائم السوفييت في أفغانستان، وكان الشابان قد أخبرا بادي أنهما طالبان في طريقهما إلى الجامعة الإسلامية في باكستان، ولكن في أثناء

(1) Mustafa Badi al-Lawjari, **Afghanistan: Occupation of Memory** (Arabic), NP: 2002,16

عبور الطائرة فوق البحر العربي فلتت منهما كلمة أنهما أيضًا متوجهان إلى أفغانستان، فأخذ اليمنيان بادي تحت رعايتهما، وأرشداه عبر معبر مدينة كراتشي الصاخب إلى فندقٍ هادئ، وأحضرا له تذكرةً إلى بيشاور على متن طائرتهما عبر البلاد.[1]

وقف ينتظرهم في ردهة الواصلين شخص فلسطيني عرَّف عن نفسه ببساطة «بأبي تراب»، فجمع الجهاديُّ اليمنيين مع مقاتلٍ أفغانيٍ متَّسخ بدا أنه لا يتكلم، وأصعدهم في باصٍ صغير أنزلهم فيما بعد أمام بيتٍ في قسم المدينة الجامعية في بيشاور، وشرح لهم أبو تراب أن هذا هو مكتب الخدمات: نزلٌ ومركز تبادل تعليمات بيروقراطي للمتطوعين العرب يديره عبد الله عزام، وهو عرَّاب الجهاد في أفغانستان، وفي الداخل سلّم الثلاثة جوازات السفر و بطاقاتهم التعريفية ونقودهم واختاروا هوياتٍ جديدة، إذ قيل لهم: أن الأسماء الجهادية ستحميهم في أثناء حياتهم السرية في بيشاور، اختار بادي اسم إبراهيم تيمُّنًا بنبيه المفضل؛ الشخصية المذكورة في العهد القديم والقرآن، وطوال بقائه في أفغانستان لم يُعرف إلا باسم (أبو إبراهيم).

أصبح عبد الله عزام شخصيةً أبوية عند الشباب الذين ظهروا أمام بابه في بيشاور، ووجد المراهقون والشباب أمثال هشام في صوت عزام العميق وعينيه المعبرتين رجلًا يستطيع أن يصل ببلاغته إلى رغبات قلوبهم السرية، حتى إنّ عزامًا بدا قائدًا، واتخذ في أفغانستان **الباكول** وهي قبعة صوفية ناعمة يفضلها المجاهدون، وترك لحيته تنمو حتى تجاوزت ياقته على شكل خصلتين بيضاوين تتشعبان أسفل ذقنه.

عزام فلسطيني المولد، كان عمره 7 سنوات عندما تشكلت دولة إسرائيل، وشكلت صدمةُ تشكُّلِها ذروةَ حياته، وبعد عقدين من ذلك دفعت به الحرب العربية الإسرائيلية في عام 1967 إلى خارج فلسطين وإلى المنفى، وعزام طالب متخرج في تلك المرحلة، فانتقل إلى القاهرة حيث أتم رسالة الدكتوراه في جامعة الأزهر المشهورة في 1973 قبل أن يقبل منصبًا جامعيًا في المملكة العربية السعودية. على مدى الستينيات، تصارعت مصر والسعودية على السيادة في العالم العربي، فكانت لهما نسختهما الخاصة من الحرب الباردة، التي جرت بالوساطة على ساحات الشرق الأوسط، فوجد المنشقون المصريون ملاذًا لهم في السعودية، بينما هرب نقاد المملكة إلى القاهرة. وفي السعودية وقع توافقٌ بين

(1) هذا القسم مستقى من Lawjari, **Afghanistan**.

عزام وبين المنفيين المصريين أمثال محمد قطب، وهو الأخ الأصغر لسيد قطب، (المفكر المتطرف الإسلاموي) الذي أعدمه الرئيس المصري جمال عبد الناصر عام 1966؛ أعطت السعودية للمصريين أمثال قطب رواتب، ومنحتهم مناصب في جوامع الدولة ومدارسها، حيث قاموا فيما بعد بتشكيل جيل من الطلاب حسب فهمهم للقرآن والجهاد.

وفي الوقت الذي غزا فيه السوفييت أفغانستان في 1979، بات عزام مستعدًا لوضع نظرياته حيز التطبيق، فاتخذ وظيفةً في الجامعة الإسلامية في إسلام آباد في 1980، ولكن الحياة في هدوء العاصمة الباكستانية المرصوفة بالأشجار كانت لا تزال بعيدةً للغاية عن الحرب التي كان يبحث عنها، فخلال شهور من وصوله إلى باكستان، اجتث عزام عائلته مرةً أخرى ونقلها 120 ميلًا غربًا إلى بيشاور، هنا؛ في ظل ممر خيبر والجهاد القابع خلف جباله ذات القمم الثلجية مباشرةً، هنا وجد عزام عمله في الحياة.

راقب عزام في رحلاته على المعبر المجاهدين الأفغان يصدون الهجمات السوفييتية بما هو ليس أكثر من بنادق أثرية وإيمانهم بالله، فأعجبت شجاعتهم تحت النار المنفيَّ الفلسطينيَّ، الذي كان يؤمن هو نفسه بأن محتلين سرقوا وطنه، وسرعان ما عاد عزام إلى بيشاور، وفي ذهنه رؤيا متشكلة لجيش من عموم العرب يسافرون حول العالم محررين أراضي المسلمين من الاحتلال الأجنبي؛ وفي 1984، وضع خلاصة تفكيره في فتوى يقول فيها: بأن الجهاد في أفغانستان فرض عين على كل المسلمين، وفي تلك السنة نفسها أنشأ المضافة والمكتب في بيشاور اللتين دعاهما مكتب الخدمات، وكان هذا المكتب هو المركز العصبي للجهود العربية في أفغانستان، فكان مصممًا ليلتقط التدفق المتوقع من المتطوعين، ولكن في السنوات الأولى التي تلت فتوى عزام لم يكن هذا التدفق إلا قطراتٍ بسيطة من المراهقين و الشباب أمثال هشام وبادي.

عندما رفض الرجال المجيء إلى أفغانستان، أحضر عزام أفغانستان إليهم، فكان في رحلاته التجنيدية على مدى الشرق الأوسط يحرك الحشود بصوته الطنان ومهارته المسرحية، «الجهاد والبندقية فقط» كان يصرخ وهو يهز بندقيةً في الهواء، وكان يكرر الأداء أينما وجد مسلمين، فسافر إلى أوروبا والولايات المتحدة ليجند المقاتلين في الحرب، وسمحت الولايات المتحدة ـ لتشوقها إلى رؤية السوفييت يغرقون في فيتنامهم ـ لعزام بإنشاء مراكز ملحقة على مدى البلاد في مدن مثل بروكلين وكانساس سيتي وتوكسون، وكان الفلسطينيُّ ذو الأكتاف العريضة والقبعة الأفغانية يجنِّد بلا كلل، فيعرض

الفيديوهات ويلقي الخطب ليلةً بعد ليلة، «أخوتكم وأخواتكم في أفغانستان يحتاجونكم» كذلك كان يناجي الحضور المشكك.

يقول أحد الجهاديين متذكرًا كلام عزام: «جعلني أريد أن أجد غطاءً وأنسحب من العالم»(1). والرجال الذين ظهروا نتيجة هذه الخطب أصبحوا جنود عزام، يقسمون له بالولاء والطاعة، فكل ما كان يفعله عزام: المحاضرات، والفيديوهات، وخصوصًا قصص ساحات المعارك حيث كان يمسك بيد مستمعه ويحيط أصابعه بقبضته الخشنة، بينما يهمس بما رآه في الخطوط الأمامية، كل ذلك كان مصممًا ليجذب الأتقياء والمغامرين.

بحلول أواخر الثمانينيات، وفي الوقت نفسه تمامًا الذي كان يستعد السوفييت فيه للانسحاب، تحولت قطرات المتطوعين العرب إلى فيضان، والكثير من هؤلاء الرجال هم ممن جذبهم عزام وتلميذه السعودي أسامة بن لادن في 15 شباط 1989 عبر الجندي السوفييتي الأخير في أفغانستان، الجنرال بوريس غروموف، الحديد والأسمنت المسلح الذي صنع منه جسر الصداقة وصولاً إلى أوزباكستان السوفييتية، ولكن هذا لا يهم، كما أخبر ابن لادن فيالق المقاتلين الجدد الذين تجمعوا حوله في بيشاور، فالسوفييت رحلوا وتركوا خلفهم حكومةً دمية في كابول، وابن لادن يريد أن ينهي العمل. امتلأ هذا السعودي ذو الواحد وثلاثين عامًا بالثقة بعد الانسحاب السوفييتي، وكان يخطط لرحلة وحيدة أخيرة نحو الحدود إلى أفغانستان، فلم يكن أحد يتوقع أن يكون هنالك الكثير من القتال، وفي لانغلي، فرجينيا، اتفق محللو الاستخبارات الأميركية مع تحليل المجاهدين، ووضعوا بالاشتراك مع الاستخبارات الباكستانية خطةً لدعم الثوار المقاتلين في أثناء اندفاعهم غربًا من باكستان نحو كابول(2). أراد ابن لادن، وهو الذي بات في ذلك الوقت موضوع المقالات المتزلفة في وطنه السعودية، أن يصل إلى جمهورٍ أوسع، وكان مقدرًا لمسيره نحو كابول أن يكون جولة نصر تؤمن له سمعته كبطلٍ في الجهاد.

على الجانب الآخر من معبر خيبر، أعاد العرب التجمع في الجبال المتجمدة خارج مدينة جلال آباد في شرق أفغانستان، ومتحصنين داخل المدينة، يحميهم نهرٌ ملتوٍ تغذيه ثلوج

(1) Abd al-Rahman al-Muhammadi, «interview with the head of Osama bin Laden's farm in Sudan» (Arabic), **News Aden**, reprinted in **News Yemen**, January 11, 2011.

(2) Steve Coll, Ghost Wars: **The Secret History of the CIA, Afghanistan, and bin Laden, from the Soviet Invasion to September** 10, 2001 (New York: **Penguin**, 2004), 190-192.

الشتاء، ويمتلىء بالألغام الروسية، جلس عدة آلاف من الجنود الموالين لحكومة أفغانستان الشيوعية[1]. بالإضافة إلى عرب ابن لادن كانت هنالك عدة مجموعات من المجاهدين الأفغان اتخذت لها مواقع في الجبال حول المدينة في آذار/ مارس ونيسان/ أبريل، وكلها تأمل في أن تكون صاحبة الضربة القاضية قبل التقدم نحو كابول التي تقع على أقل من مئة ميل نحو الغرب. كان هذا تحالفًا رخوًا بين ثوارٍ ذوي شعور شعثاء وأمراء حرب حازوا إعجاب عزام قبل سنوات، وطاردوا السوفييت حتى خروجهم من أفغانستان، ولكن على الرغم من عقد من الحرب، ما كان لدى القادة المجاهدين الكثير من الخبرة في احتلال المدن، إذ إنهم كانوا يستخدمون حرب العصابات فيتسللون من الجبال ليعطبوا دبابات السوفييت، أو يقفزون من خلف أشجار الصنوبر لينزلوا الحوامات التي تطير على علو منخفض باستخدام صواريخ ستينغر، وكان الكثير من القادة قد تنافسوا سابقًا على التمويل والأسلحة الأجنبيين اللذين غذيا نار الحرب، وأنشأت سنوات التنافس بينهم ثقافةً من انعدام الثقة.

أخفقت الجهود المبكرة لاحتلال المدينة، إذ استطاع المقاتلون الشيوعيون أن يردوا هجمات المجاهدين الأمامية الوحشية بسهولة، والقادة المتشككون، الذين خافوا من أن منافسيهم يلعبون لعبةً مزدوجة، صامدون في انتظار المزيد من المال بما أن الحرب بدأت تتلاشى، بدؤوا بلوم بعضهم بعضًا على الإخفاقات، فبدلاً من النصر السريع المفرح الذي توقعته الاستخبارات الأميركية، تكسر تحالف المجاهدين وسقط، حاول ابن لادن أن يبتعد عن المتنافسين والمشككين في صفوف الأفغان، ولكنه لم يكن يستطيع أن يهزم الشيوعيين وحده، ففي معظم الأيام كان القائد السعودي يرسل مجموعات مداهمة غير ذات خبرة من قاعدته الجبلية في محاولةٍ يائسة لتحطيم الجنود، وعلى مدى الربيع خسر عشرات من المقاتلين العرب حياتهم في غزوات ابن لادن سيئة التخطيط، فقتل أحد اليمنيين وهو يحاول أن يغير على موقع لدبابة، وقتل آخرون في القصف المستمر بالصواريخ والقنابل العنقودية القادم من أسطول طيارات الأفغان الشيوعيين القديم. وبعد خمسة عشرة أسبوعًا من الاندفاعة المستبشرة الأولى، وفي حرب صيف أفغانستان المتأخر، سقطت جلال آباد أخيرًا بيد المجاهدين، ولكن هذا النصر كان فارغًا، فالشقوق التي كشفها حصار جلال آباد استمرت بالنمو بينما تصاعد القتال في أفغانستان إلى

(1) Lawrence Wright, **The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11** (New York: Knopf, 2006), 138-139.

حرب أهلية بين القادة المجاهدين، وبدلًا من الاستمتاع بهذا النصر، انسحب ابن لادن إلى باكستان في قرف، إذ خسر أكثر من ثمانين رجلًا في أسابيع القتال.

انزعج عزام وابن لادن كلاهما من إخفاق جلال آباد وفوضى التناحر بين حلفائهم الأفغان، وراودت عزام شكوك بأن حلمه بجيش عروبي موحد كان غلطةً، بينما حاول ابن لادن أن يكتشف موطن الخطأ في خطته القتالية؛ رحل كلاهما سعيًا وراء الأجوبة، فسافر عزام مشيًا على أقدامه أيامًا عبر هندوكوش إلى وادي بنجشير الشمالي على الحدود مع طاجيكستان السوفييتية لزيارة أحمد شاه مسعود، وهو قائد محارب متألق بقي خارج القتال قي جلال آباد، أما ابن لادن فسعى إلى العزلة والتفكر، وفي أواخر 1989، بعد وقت قصير من عودة عزام إلى بيشاور، تحدث الاثنان مرةً أخيرة، ومن ثم عاد ابن لادن طيرانًا إلى وطنه.

بقي عزام في بيشاور وحاول أن يعيد بناء حلمه، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر، وصل عبد المجيد الزنداني، رجل الدين ذو اللحية جزرية اللون، إلى بيشاور ليتشاور مع صديقه القديم، ومعلمه، أراد الزنداني أن يتحدث عن المستقبل وعن الواجب فعله بعد أفغانستان،[1] دعنا نتحدث بعد صلاة الجمعة، كذلك قال له عزام، فقد كان القائد الفلسطيني مرهقًا من النميمة السياسية في البلدة الحدودية، والتي باتت الآن تجذب آلاف المقاتلين غير المنظمين الباحثين عن الحرب. وفي ظل دخول هذا العدد الهائل من الرجال إلى بيشاور خسر عزام سيطرته على الحركة، وبات التحالف العربي - مثل ما حصل مع الأفغان المجاهدين - يتفكك، فما عاد مكتب الخدمات يستطيع مواكبة العمل الورقي لتسجيل الجميع في قاعدة بيانات عزام الأثرية، وبدأ المقاتلون الجدد بالانجذاب نحو شخصيات غير مساومة مثل المصري الراديكالي أيمن الظواهري، الذي همس لهم بأن المشكلة تكمن في عزام، فتدفقت الشائعات والأكاذيب عبر أسواق المدينة وجوامعها، لقد فرق النصر مقاتلي عزام بدلًا من أن يوحدهم.

في 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989، وهو اليوم الذي كان يفترض أن يلتقي فيه عزام الزنداني بعد صلاة الجمعة، ودع الجهادي المتمرس زوجته وتوجه إلى الجامع مع اثنين من أولاده، وكان وقت عزام بعد الظهر يغصُّ باللقاءات، فأراد بعض السكينة قبل الصلاة، وفي أثناء اقتراب سيارتهم من المسجد، انفجرت قنبلةٌ مزروعة في قناة صرف صحي مزقت

(1) Issam Abd al-Hakim, 'interview with Shaykh Abd al-Majid al-Zindani» (**Arabic**), **Jihad 64** (February 1990), 24.

السيارة إلى قطع مبعثرة، وقتلت الثلاثة فورًا، فقد كانت الباوندات الأربع والأربعون من الديناميت قوية بحيث أنها دفعت جسد محمد، ابن عزام ذي الأعوام الثلاثة والعشرين، نحو شجرة قريبة، بينما عُلِّقت على أسلاك الكهرباء فوق السيارة رجلي ابنه الأصغر إبراهيم ذي الأربعة عشر عامًا، وهبطت يدا الفتى في الطرف الآخر من الشارع على شكل منثورٍ دموي من الأشلاء وقطع المعدن غلَّف الأبنية القريبة، ولكن جسد عزام على أي حال بالكاد كان ممسوسًا، فيقول ابن أخيه: «لم يكن هنالك سوى القليل من الدماء الخارجة من فمه».(1)

معجزةٌ أخيرةٌ أم لا!؟ بات عراب الجهاد الأفغاني ميتًا، وكان كادر تنظيف المسجد قد اكتشف، قبل أسابيع من ذلك، قنبلةً ضخمة تحت المنبر الذي يخطب عليه أيام الجمعة. نعم هنالك أخطار، أخبر عزام صحفيًا: «إن قدري مكتوب مسبقًا، لا شيء أفعله يمكنه منعُ ما هو مقدر»(2)

وفي جنازة عزام بعد أيام من ذلك، حاول الزنداني مكسورُ القلب أن يلمَّ شمل الحركة، فوقف أمام مئات المعزين على تلة خارج بيشاور، وتوجَّه إليهم بعنفوان - بينما صوته يعلو ويخفت في المايكروفون، مادحًا قدرة عزام على مصالحة الفصائل المختلفة - ودعاهم إلى الوحدة بعد رحيل عزام، ولكن الزنداني ما كان يستطيع أن يحل مكان عزام، ما كان أحد ليستطيع.

أنهى موت عزام ما تبقى من بنية القيادة والسيطرة الموجودة بين العرب المتنازعين. وبغياب السوفييت وقيادة عزام اتجه القتال في أفغانستان بلا اتجاه وبلا هدف؛ وأثار موجةَ جريمة بحجم الدولة تتنكر في هيئة حرب. شعر الزنداني بالإحباط والهزيمة، فتخلى عن أفغانستان، ولحق بابن لادن إلى السعودية، حيث أنشأت له العائلة الحاكمة مؤسسته الخاصة، ولكن خلال بضعة شهور، زال بريق المنصب الجديد من عينيه، فالمحاضرة والبحث مملان مقارنة بعقدٍ من الجهاد، إذ أن الزنداني - مثله في ذلك مثل عزام - لم يستطع في داخله أن يكون أكاديميًا، حتى إنه لم ينجز الشهادتين اللتين بدأ بدراستهما، الأولى في الصيدلة، وتخلى عنها عندما تدين في القاهرة، ولم تعش محاولته الثانية - الدراسات الإسلامية في الأزهر - طويلًا أيضًا، فأدار الزنداني ظهره إلى مال النفط في

(1) Aryan Baker, «Who killed Abdullah Azzam,» **Time, June 18, 2009.**

(2) المرجع نفسه.

السعودية ورحل باحثًا عن تكرار بعض اللحظات الساحرة في حملة أفغانستان، فاتجه نحو اليمن، حيث سيجد قريبًا جهادًا جديدًا.

كان لدى ابن لادن الوقت الكافي ليفكر بعيدًا عن ساحات القتال في أفغانستان، ويتأمل في اغتيال عزام وإخفاقه الشخصي في جلال آباد. كان ابن لادن كعزام، يحلمُ بحركة توحد العالم الإسلامي، فتعيده إلى عظمة الخلافة المبكرة حين كان الإسلام يحكم إمبراطورية تمتد من إسبانيا إلى آسيا، وكان يعتقد بأن مشكلة أفغانستان هي في نقص الوحدة، ولكن كان باستطاعته إصلاح ذلك. وبرفقة طارق الفضلي (محاربٌ يمنيٌ قديم في أفغانستان ذو اثنين وعشرين عامًا) بدأ ابن لادن التخطيط للجهاد القادم، وفي هذه المرة، سوف يكون هو صاحب القيادة.

كان فضلي مقاتلًا نحيفًا، ذا وجه شبيه بالصقر وسكسوكة، يفضلُ العمامة السوداء الضخمة التي سوف تشتهر بها طالبان لاحقًا، وكان مع ابن لادن في الجبال حول جلال آباد، حتى إنه جرح في القتال. كبر الرجلان كلاهما في السعودية، ولكن كلاهما أيضًا كان يرى في اليمن وطنه،[1] فوالد ابن لادن، محمد، عامل يمني يومي سافر شمالًا نحو المملكة العربية السعودية وحول نفسه إلى قطب إعمار، ومن الطرف الآخر، ولد ناصر الفضلي في عائلة قيادية بصفته ولي عهد سلطنة أبين، وهي منطقة في جنوب اليمن تشتهر بالصيد على الساحل والجبال الوعرة، وكان آل الفضلي مدعومين من البريطانيين، الذين جعلوا من أبين مستعمرة ملكية، وازدهرت عائلة الفضلي وقتًا طويلًا أوائل القرن العشرين. ولكن في 1967، وبعد شهور من ولادة طارق، تخلى البريطانيون عن أبين، فتركوا أصدقاءهم السابقين مكشوفين، وسرعان ما أجبرت الميليشيات الماركسية عائلة الفضلي على الخروج من مزارعها إلى المنفى في السعودية. كبُر الفضلي في المملكة، فلُقِّنَ مبادئ المدرسة اللاهوتية نفسها التي أنتجت ابن لادن ومن ثم القاعدة، وبحلول الوقت الذي بدأ فيه الشباب السعوديون بالتوجه إلى أفغانستان للقتال، كان الفضلي قد أصبح، عن طريق قصص والده وإيديولوجيا السعودية المعادية للشيوعيين، مُعدًّا بشكل فريد لمحاربة الشيوعيين وحلفائهم، لقد توحد العامودان الرئيسيان في حياته: العائلة والإيمان، ضد العدو ذاته.

(1) Issam Diraz, **Osama bin Laden and the Battle of the Lion's Den** (Arabic) (Cairo: Al-Manar Al-Jadid, 1991), 50.

كان معظم السعوديين المتطوعين إلى أفغانستان هواةً، فاتخذوا الجهاد لعبة، ولكن عند الفضلي، كانت محاربة الشيوعية حملةً تدريبية لإثبات نفسه أكثر منها عطلة مغامرة، إذ حضرته أفغانستان للجهاد الحقيقي في اليمن، فالولد الذي ذهب إلى آسيا الوسطى ليجاهد عاد قائدًا للرجال، لقد رأى فضلي الحرب وعاش بعدها، واختفى من وجهه التعبير اليافع الملتبس، وحل مكانه تجعدات متوترة حول عينيه اللتين ازدادتا عمقًا واتساعًا مع عمره.

بعد أن تعافى فضلي في السعودية من إصابته في جلال آباد، صُعق لسماع خبر اغتيال عزام كما صُعق ابن لادن، وصارع الرجلان لاستيعاب الحركة التي ساعدا في تشكيلها. وفي بيشاور، كان خلفاء عزام الممكنون يتنازعون على مستقبل الجهاد، ولكن في عبق مدينة جدة الساحلية، جلس ابن لادن وفضلي يخططان طريقهما الخاص، ابن لادن يتحدث أقل من الباقين، ولكنه يخطط أكثر منهم، وكان عنده شيءٌ لا يملكه أحدٌ آخر: المال.

في الشهور التي تلت اغتيال عزام، جلس ابن لادن وفضلي في وقت متأخر من المساء، مستمتعين بنسمات البحر الهادئة، بينما كانا يضعان الخطوط الرئيسية للجهاد في شقة ابن لادن، وكانا كلاهما مشدودين إلى اليمن، أرض أبويهما، التي لا يعرفانها إلا عن طريق قصص العائلة والصور. كان يقال عن اليمن أنها: أفغانستان العالم العربي، فاليمن مكتظة بالقبائل والجبال، و يحكمها، على الأقل في الجنوب، الاشتراكيون، ولكنها كانت بشكل رئيسي خريطةً فارغة يُسقطُ الجهاديان الشابان عليها طموحاتهما.

بعد شهور من الحوار والجلسات الاستراتيجية المطولة، خرج الاثنان بخطة تبدو كالتي استعملها عزام في أفغانستان إلى حد مذهل؛ سوف يؤمن ابن لادن التمويل بينما يقود فضلي مجموعة من المقاتلين العرب إلى الجبال الجنوبية حيث يبدؤون حرب عصابات. في عقل ابن لادن، حملة اليمن ستكون أولى سلسلة خطوات نحو تجديد العالم الإسلامي وإعادة حيويته، ولكن عليه أولًا تخليص العالم العربي من الشيوعيين، وقد هزمهم المجاهدون في أفغانستان، كما كان ابن لادن يعتقد، فمن المؤكد إذًا أنهم يقدرون على هزيمتهم في اليمن. كانت خطة بن لادن ضخمة الهدف، وبسيطة التخطيط، وسوف تستفيد في المستقبل ـ كما استفادت خطة عزام الأصلية ـ من قرارات تتخذ في مكان آخر، إذ أنه كما حدث في أفغانستان، كانت هنالك دولةٌ، وعصبةٌ من المجاهدين، على وشك اكتشاف أن لهما عدوًا مشتركًا.

الفصل الثاني

أفغانستان التالية
1990 - 1993

في أواخر عام 1989، كان الرئيس اليمني علي عبد الله صالح يحضر لتوحيد البلاد، وكان على مدى الشهور القليلة الماضية، في أثناء تخطيط أسامة بن لادن وطارق الفضلي لجهادهما الجديد، يضع أساسات التوسع، مسافرًا بهدوء ذهابًا وإيابًا بين عاصمته، صنعاء، وميناء مدينة عدن الساحلية البيضاء في جنوب اليمن، وكان صالح قد عرض فكرة التوسع على علي سالم البيض، نظيره الاشتراكي، ولم تكن تلك قضية يصعب الترافع فيها، فالحرب الباردة تشارف على نهايتها، والشمال والجنوب اليمني كلاهما مضطرب.

بعد أن هرب البريطانيون من عدن في عام 1967، وخلفوا عملاءهم كآل الفضلي في أعقابهم، فرضت ميليشيات يسارية سيطرتها على جنوب اليمن، وخلال ثلاث سنوات، استولى فصيل ماركسي راديكالي على السلطة، مؤسسًا جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في 1970، ومنع – بالقانون – كل حزبٍ سياسيٍ غيره، وبدأ الماركسيون بعد ذلك تجربة اجتماعية مثيرة للاهتمام هدفت إلى دمج الإسلام مع الاشتراكية في وحدة قابلة للاستمرار، وكانت النتيجة تركيبة غريبة من الرموز المتصارعة، تموضعت فيها المساجد بتوتر إلى جانب حدائق البيرة وشواطئ البكيني، وبحلول أواخر الثمانينات، كشفت التجربة الكبرى حقائق مفيدة، فوجدت الحكومة الاشتراكية نفسها منبوذة عالميًا بفضل مساندتها للجماعات الإرهابية اليسارية، ومفلسة تقريبًا إذ بدأت المساعدات السوفييتية تجفّ، وفي الشمال، لم تكن جمهورية صالح أحسن حالًا، إذ بدا صالح شيخًا ذا دولة أكثر منه رئيسًا لدولة، فقد حكم اليمن الشمالي كقبيلةٍ ضخمة، وكانت حكومته القائمة على المحسوبية

بالكاد تؤدي دورها، وازدهر صالح بالصفقات، يلعب بالمتنافسين ليجعلهم يتألبون على بعضهم بعضًا في عملية أطلق عليها صالح بتهكم الرقص على رؤوس الأفاعي.

دفع الجشع والنفط بالطرفين كليهما نحو اتفاق، فسنوات مرت وصالح والبيض يراقبان جيرانهما في شبه الجزيرة العربية يغتنون، بينما تدبروا هم أمرهم بالقروش، وأوحت آبار النفط الاختبارية في المنطقة الحدودية بين الدولتين أن يمنًا موحدةً قد تملك احتياطًا نفطيًا يخصها، لكن كان على الرئيسين أن ينحيا خلافاتهما السياسية أولًا، فشرع صالح والبيض، متحمسين للحصول على ثروة النفط، بحوارٍ سري.

في أواخر عام 1989، قام صالح بزيارةٍ أخيرةٍ لعدن وفي وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم أعلن عليًا اليمن الاثنان توحيد بلديهما الوشيك، وعلى الرغم من الابتذالات، لا بد أن الرجلين كانا يدركان أن واحدًا فقط يستطيع الفوز، فاليمن الموحدةُ تحتاج رئيسًا واحدًا، وليس اثنين، وكان صالح في هذا الوقت قد أثبت بالفعل أنه يستطيع النجاة في عالم سياسة اليمن الشمالي الشرس، وكان سلفاه المباشران قد اغتيلا في غضون أشهر من صعودهما إلى السلطة، فأُطلقَ النار على الأول بطريقة مبهمة على طريقة العصابات مع أخيه واثنتين من النساء وصفتا من قبل الجرائد بأنهما مومستان، بعد ذلك أشبعت الجثث الأربعة بالكحول ورميت، ورحل رئيس شمال اليمن التالي، أحمد الغشمي، بطريقةٍ أسوأ حتى من ذلك، إذ اغتيل بعد تسعة أشهر من إقسامه اليمين الدستورية في صفقة مخدرات اتخذت منحىً سيئًا، وكان الغشمي قد أرسل قاتًا ـ منبه مورق يزرع بشكل رئيسي في الشمال ـ جنوبًا إلى الرئيس الاشتراكي في عدن، وعندما عاد الموكب الدبلوماسي الاشتراكي بالمال، انفجرت الحقيبة التي كان من المفترض أن تحوي النقود في وجه الغشمي، وعلى الرغم من إشاعاتٍ بأن صالح ربما له يدٌ في إحدى أو كلتي عمليتي الاغتيال، فقد خلف صالح الغشمي كرئيس اليمن الشمالي الخامس، وما كان أحد في اليمن يعتقد في ذلك الوقت أن ضابطًا مغمورًا من قبيلة صغيرة يستطيع النجاة، حتى إن مسؤولي وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية تراهنوا على المدة التي سوف يصمدها ضابط الجيش ذو الشعر المجعد، فقال أحد المحللين للواشنطن بوست في بداية عام 1979: إن صالحًا لن يصمد ستة أشهر،[1] لكنه صمد، فنجا من محاولة انقلاب بعد ثلاثة أشهر من حكمه قبل أن يعيد

(1) Jim Hoagland, «North Yemen seen shaky despite US aid» **Washington Post,** April 11, 1979.
«انا مدين لنيكولاس شميدل في حصولي على هذا المرجع».

هيكلة بنية الجيش وقيادة المخابرات على شكل بنية شجرة عائلته القبلية.

وكان صعود البيض إلى القمة أكثر دمويةً من ذلك حتى، ففي كانون الثاني/ يناير عام 1986، قبل أربع سنواتٍ من التوحيد، وخلال اجتماعٍ للمكتب السياسي في ساعات الصباح الأخيرة، دخل حارسٌ شخصيٌ رئاسيٌ إلى الغرفة وبدأ بإطلاق النار - نزولًا عند تعليمات من الرئيس علي ناصر محمد كما يبدو - فقتل الحارس الشخصي نائبَ الرئيس، وزيرَ الدفاع، و عضو من المكتب السياسي، هرب البيض - وكان وقتها عضوًا في المكتب السياسي كان جالسًا في الغرفة في ذلك الوقت - عبر النافذة مستخدمًا الستائر بديلًا عن الحبال، واستمر القتال الذي تبع الحادثة 10 أيام، ومات الآلاف في حمام دمٍ شوش الحلفاء الاشتراكيين في موسكو قبل أن يهرب محمد، الرئيس الذي أمر بالضربة الاستباقية لانقلاب يحضر، من البلاد، وبصفته واحدًا من المسؤولين كبار الرتبة المتبقين في البلاد، استطاع البيض مناورة منافسيه الداخليين فانتخب أمينًا عامًا.

بوجود كل هذه الدماء المسفوكة خلفهما، تقدم الرئيسان كلاهما بحذر نحو التوحيد، وقاما بابتكار خماسية من الأشخاص: «رئاسة جماعية»، يكون صالح فيها رئيسًا والبيض نائبًا للرئيس، ووافق البيض أيضًا، اعترافًا منه بتعداد سكان الشمال الأكبر، على أن تكون صنعاء العاصمة بدلًا من عدن، ولكن ما أن أعلنا عن اليمن الموحدة الجديدة حتى بدأ كل منهما بالبحث عن طرقٍ لإضعاف الآخر، فظن البيض أنه يستطيع أن يبث ما يكفي من الفوضى شمال الحدود القديمة ليقسم قاعدة صالح إلى سلسلة من الكتل تافهة النفوذ، وكان صالح يضمر أساسًا الخطة نفسها للبيض والجنوب.

أمضى الاشتراكيون قرابة ثلاثة عقودٍ من الزمن محاولين أن يقمعوا القبائل والتفكير الرجعي الذي يؤمنون به أن النظام القبلي يرعاه، وأراد صالح أن يبطل عملهم عن طريق إعادة قَبلَنَة الجنوب في محاولة للالتفاف على الاشتراكيين في عقر دارهم، فتواصل صالح مع طارق الفضلي، الذي كان لا يزال يخطط لجهاد اليمن مع أسامة بن لادن في السعودية، ومع عشرات من المنفيين القبليين الآخرين، وهؤلاء كلهم تقريبًا ممن خسروا أرضهم عندما استولى الاشتراكيون على السلطة، وهم الآن مستعدون للعودة إلى وطنهم.

جاء مع القبليين أعداد من المحاربين العرب القادمين من أفغانستان، فبعد انتصارهم على السوفييت، وجد معظمهم أنه لم يعد مرحبًا بهم في أوطانهم، ولكن اليمن مختلفة، وأدرك

صالح أن المحاربين المحنكين قد يكونون ذي نفع في صراعه القادم ضد الاشتراكيين، فغض الطرف عن الجهاديين الذين توافدوا إلى اليمن في شهور ما بعد الوحدة في أوائل 1990، وانتشر المقاتلون الأجانب، والكثير منهم مرتبطٌ بابن لادن، في أنحاء البلاد، مقيمين بمخيمات بالقرب من الحدود السعودية وفي محافظة مأرب الصحراوية، وفي الجنوب، شكل الفضلي صلة الوصل بين استراتيجية صالح للقَبْلَنَة وجهاد ابن لادن، إذ أن الفضلي مخلص لابن لادن والخطة التي وضعاها معًا، لكنه أيضًا ملزمٌ بقبيلة والده وأراضيها في الجنوب، وكانت ثمة روابط أخرى يأخذها بعين الاعتبار، فأحد أقرباء صالح وأفضل جنرالاته، علي محسن الأحمر، تزوج من عشيرة الفضلي، فاقترن بأخته، ولكن في هذه اللحظة على الأقل، لم يكن على الفضلي الاختيار، ففي بداية التسعينيات، كان صالح والجهاديون في صفٍ واحد.

شرق عدن، في منتصف امتداد الطريق نحو مدينة المكلا الساحلية، تتموضع مجموعة من الجبال الوعرة تعرف باسم «المرقشة» تبعد بالكاد عشرة أميال عن خليج عدن الأزرق المبهر، وتبرز كصف من الأسنان المدببة، والقليل الموجود من الطرق التي تمر وسط هذه القمم المشقوقة والمكسرة أكثرها طرق ترابية وعرة عُبِّدَت فوق مسارات الرعاة القديمة. هنا، بين تزاحم الصخور المدببة والأشجار الملتوية، نصب الفضلي ورجاله مخيمهم في صيف عام 1990، فقد عاد أخيرًا بعد أكثر من عقدين من الزمن في المنفى، إلى الوطن، هذه الجبال شكلت قصص ما قبل النوم التي سمعها في طفولته، وهذا هو المكان الذي تعلم فيه جده كيف يصطاد، وهنا أصبح والده حاكمًا، هذه أبين، مسقط رأسه.

وتحت القمم، ممتدة نحو الساحل، ثمة مزرعة قطن هائلة ولد فيها الفضلي قبل ثلاثة وعشرين عامًا مضت، ومثل كل شيء آخر ملكته العائلة، استولى الاشتراكيون عليها في عام 1967، فقسمت الدولة الأرض إلى أجزاءٍ صغيرة، معيدة توزيعها على قبليين كانت تدعوهم البروليتاريا، وأبقى الاشتراكيون على الأقسام التي لم يوزعوها لأنفسهم، فقاموا بتأميم الأقسام الأكثر ربحًا، فحولوا أحد البيوت إلى محطةٍ للشرطة، وجعلوا من آخر مقرًا رئيسيًا لأمن الدولة، وأعادوا تسمية المزرعة الرئيسية على اسم لينين، وعرضوا تماثيل نصفية للأصلع صاحب الرؤية في الغرف التي كانت أم الفضلي تهزه فيها لينام.

لكن دوافع الفضلي كانت أعمق من خسارة المال والممتلكات، ففي عام 1967 تخلف

القليل من أبناء عمومته و أعمامه ليحاربوا المقاتلين الماركسيين بينما هرب باقي العائلة إلى بر الأمان، وباتت جثث هؤلاء الرجال الآن مبعثرةً في أنحاء المنطقة، مدفونةٌ حيث سقطوا في قبور بلا شواهد، وسوف يخبر الفضلي المراسلين الصحفيين لاحقًا أنه لم يعد إلى اليمن من أجل الانتقام، بل عاد كمحاربٍ محنك من الجهاد في أفغانستان و كوريث والده، لا بد أنه أحس بالعبء الثقيل للتوقعات العائلية والقبيلة، وببقاء والده المسن في المنفى وقع عبء استعادة شرف العائلة على ظهر ذي الثلاثة وعشرين ربيعًا.

زاد الفضلي ببطء تعداد جيشه من الأفغان العرب، كما يدعو الرجال الذين حاربوا في أفغانستان أنفسهم، وفي مجالس قبلية عبر اليمن الجنوبي، ناشد رجال قبيلة والده، داعيًا إياهم إلى أن يتبعوه مثلما تبعوا والده سابقًا، معتمدًا في ذلك على دروسٍ في القيادة تعلمها تحت النار في أفغانستان، فلم الجهادي اليافع شمل بقايا القبائل الباقية في أبين، وبات الفضلي جاهزًا، خلال بضعة شهور من العودة إلى اليمن في عام 1990، ليضع خطة ابن لادن موضع التنفيذ، وعند المجاهدين الذين كانوا معه في أفغانستان، بدت هذه الحملة مشابهة لما يعهدونه، إذ سيجاهدون مرةً أخرى في قتال الاشتراكيين في الجبال.

في عام 1990، شرق مخيم الفضلي في أبين، استخدم العشرات من محاربين يمنيين آخرين، بالإضافة إلى مقدارٍ قليل من الأجانب العرب، رصيد ابن لادن، الذي بدا أنه لا ينتهي، من المال ليقيموا مخيماتٍ لهم، فدفع الممول السعودي للرجال راتبًا ضئيلًا ووعدهم بسياراتٍ وأسلحةٍ مقابل خدماتهم، وكحال الفضلي، شعر ابن لادن بالعبء الذي فرضه على نفسه لتحرير وطن أبيه[1]، وتابع ابن لادن من شقته في جدة الغارات والاغتيالات التي نفذها رجاله على مدى الجنوب، كانت اليمن شغفه ذاك الصيف، فأنفق بلا حساب من الثروة التي تركها له والده[2]، أصبحت شقة ابن لادن في جدة مكانًا لتجنيد المتطوعين أيضًا، فأشبهت في ذلك مكتب الخدمة في بيشاور إلى حد كبير.

حذر أصدقاء في السعودية ابن لادن من التدخل في اليمن، منبهين إياه إلى أن هذا التدخل لن ينتهي نهايةً حسنة، ولكن ابن لادن كان عنيدًا، فكثيرًا ما يقتبس حديثًا عن النبي محمد: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب». هذا الكلام، كما كان يظهر

Peter Bergen, **The Longest War: The Endearing Conflict Between American and al-Qaeda** (1) (New York: Free Press, 2011), 19.

(2) المصدر نفسه.

على وجه بن لادن، يجب أن ينهي النقاش، فالاشتراكيون كفرة، ويجب طردهم. في العام السابق، في عام 1989، لما كان الجهاد في أفغانستان يقترب من نهايته، كون ابن لادن منظمة صغيرة دعاها بالقاعدة[1]، وكان يفترض باليمن أن تكون الاختبار الأول للمجموعة الجديدة.

قبل أن يستطيع ابن لادن أن يحرك جيشه الخاص بالكامل، اضطر أن يضع خططه قيد الانتظار، ففي 2 آب/ أغسطس عام 1990، غزا صدام حسين الكويت، و رأى ابن لادن، الذي لم يحب يومًا القائد العراقي العلماني، فرصةً ليحصل على دعمٍ ملكي لجيشه من المجاهدين، وفي أثناء تعامل الفضلي والآخرين مع الجهاد في اليمن، فاتح ابن لادن عدة أفراد من العائلة الملكية السعودية ليضغط من أجل الحصول على فرصة للدفاع عن المملكة، ولكن الأمراء، الذين وجدوا أنفسهم فجأةً في مواجهة جيش صدام الذي يشاع عنه أنه يضم مليون جندي على بعد بضعة أميالٍ فقط من آبار نفطهم الشرقية لم يعجبوا بخطة ابن لادن. «ليس هنالك كهوفٌ في الصحراء» هزأ أحد الأمراء به قائلا[2]: « ما الذي ستفعله عندما يقذف صواريخَ محملةً بأسلحة كيمائية وبيولوجية نحوك؟».

تحول السعوديون إلى الولايات المتحدة طلبًا للمساعدة بدلًا من المجاهدين، فصعق ابن لادن، إذ أنه أمضى العام الماضي كله يحارب ليخرج المشركين من شبه الجزيرة العربية في اليمن، وفي وطنه دعتهم حكومته ليبنوا قواعد عسكرية على أرضٍ مقدسة، وعند ابن لادن وبقية المجاهدين، الفرق بين الاشتراكيين والرأسماليين فرق درجات، فهم يقسمون العالم مسلمين وكفرة، ولما سئم الأمراء من احتجاجاته ونقده، قالوا لابن لادن أن يصمت ويعرف مكانه، حيث أنه، على كل نقوده واتصالاته، لا يزال من عامة الشعب، لم يكن لبطل المجاهدين مكان في سياسة المملكة الخارجية.

في صنعاء، تشتت الرئيس صالح بشكلٍ مشابه، فبعد اتحاد اليمن، أعطت الجامعة العربية، في لحظة نادرة من الاتحاد، «المقعد العربي» في مجلس الأمن للبلد الجديد، وتحول هذا المعروف الدبلوماسي غير المؤذي إلى أزمة لحكومة صالح الجديدة بعد غزو صدام، إذ كان صدام حسين صديقًا مقربًا، وشخصًا صاغ صالح نفسه على شاكلته، ولكن الرئيس

(1) Wright, **The Looming Tower**, 131-134.

(2) المصدر نفسه. 157.

اليمني لم يستطع تجاهل الضغط من الجانب الآخر، فالولايات المتحدة والسعودية والعائلة الملكية الكويتية المنفية - التي لا تزال ثرية بالرغم من ذلك - كلهم متبرعون كبار لليمن واقتصاده المتعثر، ولحيرته في الطريق الذي يجب أن يسلكه، قرر صالح أن يقسم البيدر مناصفةً، فوجه دبلوماسييه إلى الأمم المتحدة ليتابعوا ما دعاه حلًا وسطًا، وفي نيويورك، امتنع مبعوث اليمن إلى الأمم المتحدة عن التصويت في مشروع قرارٍ يشجب الغزو.

حذر الرئيس الأميركي جورج دبليو بوش صالح من أن اليمن تتخذ القرار الخاطئ، فقد كان بوش يريد أن يجعل أزمة الخليج - الخلاف الأول ما بعد الحرب الباردة - عبرةً لمن اعتبر في النظام العالمي الجديد، ولفعل ذلك تحتاج الولايات المتحدة إلى تحالف واسع متعدد الجنسيات، وكان موقف اليمن الاستعراضي ودعوتها إلى حل «عربي» للأزمة يخرب المسرحية، ومما زاد الأمور سوءًا أن اليمن كانت مدرجةً لتولي رئاسة مجلس الأمن في 1 كانون الأول/ ديسمبر 1990، فكما يملي ميثاق مجلس الأمن، تُتَناوب رئاسة مجلس الأمن شهريًا على أساسٍ أبجدي، ويسمح لمبعوث البلد أن يحضِّر الأجندة ويشرف على أية أزمة، كما يكون متحدثًا باسم المجلس، فأرادت الولايات المتحدة لأي تصويت على استخدام القوة في العراق أن يجري قبل أن تتولى اليمن رئاسة مجلس الأمن، وقبل عدة أيام من ذلك، حاول بوش مجددًا، فوجه في أثناء زيارةٍ للقوات في عيد الشكر في السعودية وزيرَ الخارجية الأميركي جايمس بيكر، الذي كان قد جلبه معه، بأن يسافر إلى اليمن ليجري حديثًا خاصًا مع صالح، وكان بوش يعرف أنها محاولةٌ بعيدة المنال، فصالح يرى أن غزو العراق وأزمة الخليج تقلب دبلوماسي صغير، فكان يقول: «هذه سحابة صيف، سوف تختفي وحدها»[1]. وحذر السعوديون الذين كانوا يعرفون الرئيس اليمني المزاجي جيدًا بيكر أيضًا من أنه يضيع وقته.

راوغ صالح في الاجتماع، فاستهجن بالتباسٍ - بينما كانوا يأكلون لحم الضأن الذي أعده طباخو صالح - اقتراحَ بيكر بأن اليمن معرضة لفقدان 70 مليون دولار من المساعدات السنوية من الولايات المتحدة وحدها، وحاول بيكر، وهو السياسي المخضرم، جس نبض الرئيس، ولكن صالحًا لم يعطه جوابًا صريحًا، وعندما انتهى الاجتماع، خرج الرجلان ليواجها الصحافة، فازداد صالح حيوية فجأةً أمام الكاميرات، وأخبر المراسلين أن اليمن

(1) James A. Baker III, **The Politics of Diplomacy: Revolution, War & Peace**, 1989-1992 (New York: Putnam, 1995). 318.

لن يدعم القرار، فعاد بيكر إلى السعودية محبطًا ومحرجًا من أداء صالح، وسوف تمضي عشرون سنة أخرى قبل أن يزور وزير خارجيةٍ أميركي اليمنَ مجددًا.

بعد شهرٍ تقريبًا، في الليلة التي سبقت التصويت النهائي في مجلس الأمن، أخبر بيكر المتعب، بأكثر ما يستطيع من صراحة، عبد الله الأشطل وهو المبعوث اليمني في الأمم المتحدة، أن هذا «سيكون أغلى صوت «لا» تدلي به على الإطلاق»[1]، فاستهجن الأشطل، إذ كانت لديه تعليماته، وفي اليوم التالي، تحدث المبعوث اليمني أولًا في المناقشة، فشجب الولايات المتحدة والقرار بقوة قارئًا من نصٍ مُحضرٍ، وعندما جلس الدبلوماسي النحيل، مرر بيكر ورقة ملاحظة لأحد معاونيه كتب عليها: «لقد استمتع الممثل الدائم لليمن بما قيمته 200 إلى 250 مليون دولار من التصفيق على هذا الخطاب».

وتحققت نبوءة بيكر على الفور تقريبًا، فخلال بضعة أيام من التصويت، انتقمت السعودية، ففي منتصف أيلول/ سبتمبر، بعد امتناع اليمن الأول عن التصويت في مجلس الأمن، طردت المملكة قرابة مليون عامل يمني مهاجر ممن تمتعوا سابقًا بالوصول إلى الوظائف، وهذه المرة، قطعت السعودية الملايين من المساعدات، وتساءل الملك فهد، ما الخير في مساعدة جارك، إن لم يكن جارك مستعدًا للمساعدة؟

الحوالات المالية من السعودية هي شبكة أمان اليمن منذ عقود، والانقلاب المفاجئ شكل صدمة، فبين عشيةٍ وضحاها، خسرت اليمن سيلًا ماليًا ثابتًا وحصلت على مليون عاطلٍ جديدٍ عن العمل، وتابعت الولايات المتحدة والكويت تهديد بيكر، فألغتا معظم حزمات المساعدات لليمن، فأرسلت الاقتطاعات رسالةً حادةً، لكنها أيضًا وجهت لليمن ضربةً لم تتعافَ منها بعد، فبدلًا من جني المكاسب لكونها ديمقراطيةً موحدةً حديثًا في عالم ما بعد الحرب الباردة، باتت اليمن معزولةً دبلوماسيًا وفي وسط أزمةٍ نقدية، واليمن تعاني أساسًا للتوفيق بين نظامي حُكمٍ واسعي الاختلاف وبيروقراطيتيهما المتنافستين، فكانت غير مستعدة لخسارة المساعدات، ووقعت عملتها في سقوط عامودي، وخسرت نصف قيمتها في شهور، وحدثت أعمال شغب على امتداد البلاد مما أجبر الحكومة على تقليص إعانات الغذاء، ولما لُدغَ صالح من إخفاق دخوله مسرح السياسات العالمية، توجه نحو الداخل، مركزًا من جديد على الصراع في الجنوب.

---

(1) المصدر السابق، 327.

بينما انتزعت الولايات المتحدة وقوات التحالف النصر في العراق في أثناء كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير عام 1991، فوصلت إلى بعد 150 ميلاً من بغداد قبل أن تختار ترك صدام حسين المنهك في السلطة، سقطت اليمن في الفوضى، فجاب الفضلي وبقية العرب الأفغان، نزولاً عند تعليمات ابن لادن العامة، أنحاء الجنوب ناصبين الكمائن للقادة الاشتراكيين ومُغتَالين السياسيين، وفي شمال الحدود السابقة، كان سياسيون آخرون يموتون أيضًا في سلسلة من الهجمات بدت عشوائية ولم تحل مطلقًا، ولم يكن من الواضح لمعظم اليمنيين إذا ما كانت عمليات القتل ثارات شخصية تدور على خلفية بلدٍ يتفكك، أم شيئًا آخرَ مختلفًا، فازدهر الفضلي والجهاديين في خضم الفوضى والبلبلة، إذ كانوا يفعلون تمامًا ما خططوا له وابن لادن منذ عامين في جدة.

شمال الحرب التي كان قد أطلق هو نفسه عنانها في اليمن، كان ابن لادن يزداد إحباطًا بسبب دوره في سياسات السعودية، فقد عاد من أفغانستان عام 1989 إلى دفقٍ من المديح من الصحافة والجوامع حول المملكة، لكنه في أثناء حرب الخليج بين عامي 1990 و1991 أدرك قلة تقدير العائلة الملكية لجهوده، وفي الشهور التي تلت الحرب، راقب ابن لادن بغضب جنود الولايات المتحدة يوسعون قواعدهم في السعودية بدلًا من المغادرة كما وعدوا، فالوجود المستمر لقوات الولايات المتحدة المتذرع بكونه حماية من صدام حسين الذي بات ضعيفًا، والقرار بترك الديكتاتور العراقي في السلطة، كل هذا بدا لابن لادن حبكة أميركية للسيطرة على شبه جزيرته العربية المحبوبة. في حواراتٍ مع أصدقاء، استشاط ابن لادن غضبًا من الخزي والإحراج اللذين شعر بهما، وكأن الجنود الأميركيين لم يكونوا سيئين كفايةً، بل إن الوحدات الأميركية تضمنت إناثًا أيضًا. «نساء» غمغم ابن لادن، «يدافعون عن الرجال السعوديين»[1]. أدرك ابن لادن ببطء أنه إذا أراد يومًا أن يتحرر ليحقق حلمه بإعادة العالم الإسلامي إلى مجده التاريخي، عليه أن يتخلى عن بلاده، ولم يصل ابن لادن إلى هذا القرار بسهولة، ولكنه ما أن اتخذه حتى وجد بعض العزاء في سابقة وجدها في حياة النبي، ففي عام 622م، غادر محمد من مكة مع كم قليل من صحابته مستبقًا محاولةً لاغتياله، وتعرف هذه الرحلة باسم الهجرة، وستكون بداية التأريخ الإسلامي، ورأى ابن لادن قراره بمغادرة السعودية في ظروفٍ قاسية مشابهًا، وربما في محاولةٍ

(1) مقتبس من. Bergen, **The Longest War**. 19.

منه لتقوية الشبه، أخبر ابن لادن أصدقاء له أنه كان قلقًا من أن تحاول المخابرات السعودية قتله لمعارضته الصريحة للملك(1).

في آذار/ مارس عام 1992، انطلق ابن لادن في هجرته الخاصة، فسافر إلى أفغانستان حيث عرض خدماته كوسيط في الحرب الأهلية الدائرة بين المجاهدين، وعندما لم يستمع أيٌّ من أصدقائه القدامى لنصيحته، غيّر مساره عائدًا بالطائرة عبر الشرق الأوسط إلى السودان، حيث كان حسن الترابي، القائد الإسلامي السوداني، يسأله أن يأتي إلى إفريقيا لسنوات، وفي ظل قلة الخيارات، قبل ابن لادن أخيرًا.

بعد أن وصل إلى السودان بوقتٍ قليل، وقعت في مكانها قطعة أخرى من المؤامرة التي تخيلها ابن لادن، ففي 3 كانون الأول/ ديسمبر عام 1992، صوت مجلس الأمن بالسماح «بكل الوسائل الضرورية لإنشاء، وبأسرع وقتٍ ممكن، بيئةٍ آمنةٍ لعمليات التحرير الإنساني في الصومال»(2) كجزء من خطة عمل الولايات المتحدة من أجل عملية إعادة الأمل، التي أعلن عنها الرئيس بوش في اليوم الذي تلا التصويت، واقترح البنتاغون ميناء عدن اليمني كنقطة البداية لمهمة حفظ السلام في الصومال التي مزقتها الحرب، وبدا الاقتراح مثاليًا على الخريطة: فعدن معزولةً عن القتال عن طريق خليجها، لكنها قريبة كفاية بحيث يكون الجنود على أرض الصومال خلال ساعةٍ واحدة، ووافق صالح على طلب الولايات المتحدة متحمسًا لإعادة شق طريقه لنيل الحظوة بعد تعثره في مجلس الأمن قبل سنتين، وبالنسبة لابن لادن، كانت هذه الخطوة دليلًا إضافيًا على مشاريع الولايات المتحدة لشبه الجزيرة.

ومن المزرعة التي اشتراها خارج الخرطوم عاصمة السودان، جلس ابن لادن يتأمل خياراته، فهو يريد أن يرسل رسالةً، لكنه غير واثق من كونه مستعدًا لضرب الولايات المتحدة مباشرةً، فعلى الرغم من منفاه، كان ابن لادن لا يزال يحلم بالعودة إلى السعودية يومًا ما، وكان واثقًا من أن أي هجوم يُربط به أو بشبكته القاعدة سيقضي على هذه الفرص، وعلى الجانب الآخر من البحر الأحمر في اليمن، أبقاه أعضاء القاعدة على اطِّلاع وثيق عن طريق الاتصالات والتقارير الموجزة الشخصية، فغمرت التقارير

(1) Wright, **The Looming Tower**. 162.

(2) UN Security Counsel Resolution 794. Paragraph 10, available at: https://www.un.org/documents/sc/res/1992/scres92.htm.

مزرعة الخرطوم عن جنود متمركزين في فنادق وطائرات في المطار في عدن، ولكن ابن لادن تردد على الرغم من ذلك، ولكنه بقي مُطَاردًا بفكرةٍ واحدة، فهو لم يفعل شيئًا عندما أتى جنودٌ أميركيون إلى السعودية، والآن بعد أكثر من سنة على انتهاء الحرب، لا يزالون هناك، فلم يستطع التخلص من شعور أنه إذا لم يفعل شيئًا في المرة الثانية، فالأميركيون لن يغادروا أبدًا شبه الجزيرة، وأخيرًا، بعد عدة أيامٍ من الحيرة، أعطى ابن لادن الأمر بالهجوم، ومن هذه النقطة فصاعدًا، لن يكون هنالك من مخرج، لقد حسم ابن لادن أمره.

في 23 كانون الأول/ ديسمبر، بعد أن حسم ابن لادن أمره في السودان بفترةٍ وجيزة، نصب عددٌ قليل من رجال الفضلي كمينًا لأحد السياسيين الاشتراكيين في أبين، وفي الوقت نفسه، على بعد بضعة أميال غربًا على امتداد الساحل، كان جمال النهدي، وهو حليف آخر من حلفاء ابن لادن من أفغانستان، يقيم اجتماعًا في شقة في عدن. ولد النهدي، كوالد ابن لادن، في حضرموت، المحافظة الزاوية الشكل ذات الغبار والصخور في صحراء اليمن الشرقية، وفي عام 1989، أصبح النهدي أيضًا أحد أوائل الرجال الذين أقسموا على البيعة - قسم الإخلاص للعضوية في القاعدة - لابن لادن في اجتماعٍ مبكرٍ في أفغانستان، ومع انشغال الفضلي بمواصلة الغارات من مخبئه في أبين، توجه ابن لادن إلى النهدي من أجل الضربة على البحرية الأميركية في عدن، وبات ابن لادن في ذلك الوقت يعرف فعلًا المخاطر المترتبة على إدارة رجاله على الأرض بالتفصيل، ففضل ما سيدعوه لاحقًا فلسفة «مركزية القرار ولا مركزية التنفيذ»[1]، فأمر ابن لادن بالهجوم، لكنه ترك التفاصيل لعملائه على الأرض.

وضع النهدي خطةً بسيطةً ذلك الأربعاء في عدن[2]، فقسم رجاله، والكثير منهم أمضى وقتًا في مخيمٍ للتدريب قرب الحدود السعودية تحت إرشاد مدربٍ ليبيٍ دفع له ابن لادن، إلى فريقين، الفريق الأول يضرب مطار عدن، بالقرب من مركز المدينة على امتداد الضفة الشرقية للميناء، وهدفهم في ذلك تدمير طائرة نقل للبحرية الأميركية، سي5- جالاكسي،

(1) Khaled al-Hammadi, «Interview with Nasir al-Bahri.» **Al-Quds al-Arabi**, translated by Foreign Broadcast Information Services, August 3, 2004.

(2) Muhammadi, «Interview with the head of Osama bin Laden's farm in Sudan».

التي لمحها الجهاديون واقفة على مدرج الإقلاع[1]، وسوف يشرف النهدي نفسه على الجزء الثاني، الأكثر تعقيدًا من الخطة: تفجيرات متزامنة للفندقين اللذين يقيم فيهما جنود البحرية الأميركية، واستوعب المحاربون اليمنيون المخضرمون ببداهة قوة الضربات المتزامنة التي سوف تميز هجمات القاعدة في السنوات القادمة.

بعد خمسة أيام من جلسة تخطيط النهدي، وفي ليلة الهجوم، اتصل رجاله به بطلب ملحٍّ، إذ كانت قوات الأمن الاشتراكية في عدن، الباحثة دومًا عن المتعاطفين مع الجهاديين، قد ألقت القبض على الرجلين اللذين كلفهما النهدي بضرب المطار، فخافت بقية الخلية من أن غطائها قد كشف، وأرادت أن تلغي الهجوم، واستمع نهدي لقلقهم، ولكنه كان قد حسم أمره مسبقًا، فالمتفجرات في مكانها، مدفونة تحت أحد السياجات المحيطة بالمطار، وابن لادن يريد تلك الطائرة، فاستدار النهدي إلى يمني إفريقي المظهر مفتول العضلات يجلس بجانبه وسأله إن كان مستعدًا ليتولى مهمة المطار، فأجاب الرجل: «بالتأكيد»[2].

كان النهدي قد جند صالح الخنبشي، السنة السابقة، وهو مثل الكثير من الشباب اليمنيين، قد تشرَّب مواعظ مجد الجهاد في أفغانستان التي تحكي كيف أن فرقةً قليلة من العرب استطاعوا أن يهزموا الجيش السوفييتي العظيم غير مسلحين إلا ببنادق وببركة الله، وبحلول الوقت الذي قابل فيه النهدي عام 1991، بعد سنتين من الانسحاب السوفييتي، كان الخنبشي يظن أنه قد ضيع فرصته بالجهاد، فشرح له النهدي الأمر بطريقةٍ مختلفة، مخبرًا الشاب اليمني المولود في الصومال أن الجهاد لم ينتهِ، بل بالأحرى، انتقل من أفغانستان عائدًا إلى اليمن، «يا أخيِ»، أكمل المحارب المحنك، « نحن بحاجة إلى رجال لنعلن الحرب على أعداء الله» في إشارةٍ منه إلى الاشتراكيين اليمنيين.

وبعد عامٍ من تجنيده، بات الخنبشي على وشك الحصول على الفرصة التي ظن أنه قد ضيعها، وأطلعه النهدي على الخطة قائلًا له: أين دفنت المتفجرات المهربة؟ ومعطيًا أوامره لرجلٍ آخر بالمساعدة في الهجوم.

(1) Edward F. Mickolus with Susan L. Simmons, **Terrorism**: 1995-1992 (London: Greenwood Press, 1997) 251.

(2) Muhammadi, «Interview with the head of Osama bin Laden's farm in Sudan».

عندما وصل الرجلان إلى المطار في الليلة التالية[1] في 29 كانون الأول/ ديسمبر، لم يجدوا شيئًا غير تربة محركة حيث كانت المتفجرات،[2] وفي الطرف الآخر من المدينة، في موقف سيارات فندق الموفنبيك، واجه النهدي مشكلاتٍ خاصةً به، إذ كان في ذلك الحين قد زرع القنبلة الأولى في فندق الغولد موهور، وهو فندقٌ فخمٌ على ضفة الشاطئ، ولكن بينما كان يعبث في القنبلة الثانية، انفجر صاعق معيوب ممزقًا يده تقريبًا[3]، وبينما كان رجاله يصارعون لإيقاف الدم المتدفق، سمعوا القنبلة الأولى تنفجر، وأطاح الانفجار بأحد الطوابق العليا في الغولد موهور، مهشمًا النوافذ وكاسرًا عوارض الدعم، وقاتلًا رجلين، لم يعلم النهدي هذا في ذلك الوقت، لكنه لم يستطع حتى أن ينفذ الانفجار الأول بشكلٍ صحيح، فقد قتلت القنبلة، بدلًا من مشاة البحرية الأميركية الذين أراد استهدافهم، سائحًا نمساويًا وموظفًا في الفندق، وكان جنود البحرية الأميركية يقيمون في الجانب الآخر من المدينة في فندقٍ مختلف، وبينما يشعر النهدي بالدوار من خسارته للدم، وبقايا يده معلقةً إلى جانبه، أُلقي القبض عليه مع رجاله وحدات من الشرطة في أثناء محاولتهم انتزاع ما تبقى من القنبلة الثانية في فندق الموفنبيك، لقد فشل هجوم القاعدة الإرهابي الأول.

بعد التفجيرات الفاشلة بوقتٍ قليل، أمر نائب الرئيس علي سالم البيض وحدات الجيش الاشتراكي بالذهاب إلى أبين لملاحقة الجهاديين[4]، فقد كانت شروط اتفاقية توحيد اليمن قد أخفقت في دمج الجيشين، وكان لا يزال لدى البيض عدة وحدات تحت قيادته المباشرة، وأعطته التفجيرات في عدن أخيرًا العذر الذي كان يبحث عنه لملاحقة الجهاديين، فحاصرت الفرقة المدرعة الثالثة من القوات الاشتراكية مخيم الفضلي في أبين وعدة مخيمات تدريبٍ أخرى أبعد شرقًا في جبال شبوة، ومن صنعاء، راقب صالح تطورات الوضع عن قرب، وفي محاولةٍ منه للالتفاف على وحدات جيش البيض، أرسل صالح فريق وساطة ليلتقي الفضلي ورجاله المحاصرين، ووضع رجال الرئيس

(1) ادعى الخنبشي فيما بعد أنه نفذ جزأه من الهجوم، لكن الأدلة الموجودة تشير إلى أن قوات الأمن التي اعتقلت الرجلين في عدن تمكنت من إجبارهما على الإفصاح عن مكان المتفجرات.

(2) Mickolus, **Terrorism**, 251.

(3) John F. Burns, «**Yemen links to bin Laden gnaw at FBI in Cole inquiry**» **New York Times**, November 26, 2000.

(4) Brian Whitaker, **The Birth of Modern Yemen**, chapter 8, e-book available at: http://www.al-bab.com/yemen/birthofmodernyemen/default.htm.

الخيارات أمامه: يستطيع الفضلي أن يسلم نفسه إلى صالح ويسافر عائدًا إلى صنعاء، أو يحارب البيض ويخسر، فوافق الفضلي مكرهًا على أن يعود إلى صنعاء تحت مظلة الرئيس، وغضب البيض، لكن صالحًا وعده ووعد المجتمع الدولي بأنه سوف يجري تحقيقًا كاملًا.

ولكن لم يتمتع الجميع بنفس درجة حماية الفضلي، ففي شبوة، المحافظة التالية إلى الشرق، كان الخنبشي قد لجأ إلى أحد مخيمات الجبال التي باتت الآن تقصفها مدفعية البيض[1]، وفي ساعةٍ متأخرةٍ من الليل في 9 كانون الثاني/ يناير عام 1993، انزلق أحد رجال القبائل المحليين أسفل المنحدرات الترابية إلى داخل المخيم وسأل: «هل تستطيعون تأخيرهم شهرًا آخرَ؟» فحدق المقاتلون به غيرَ مصدقين، فشرح الرجل: «أحتاج إلى هذا الوقت لأجلب المزيد من الرجال والأسلحة».

هز الخنبشي رأسه، فقد كان يشك أنهم يستطيعون الصمود يومًا آخر، فهجر المجاهدون المخيم تاركين بعض الرجال وراءهم ليغطوا على هروبهم، وتوجه معظمهم شمالًا عائدين إلى المخيم في صعدة، قرب الحدود السعودية، حيث تدربوا سابقًا على هجمات عدن، لكن مدربهم الليبي كان قد رحل، ولم يكن أمامهم الكثير ليفعلوه، وكان موقف البلاد قد تغير أيضًا، فبعد تفجيرات عدن، بدأ الناس يسألون عما يفعله العرب الأفغان في اليمن تمامًا، ووصل إلى المخيم، خلال الأسابيع القليلة القادمة، آباءٌ قلقون وشيوخ قبائل غاضبون ليسحبوا أبناءهم إلى منازلهم، ومع اختفاء مشاركة القبائل، شاهد الخنبشي الأعداد تتضاءل حتى لم يتبقَ سوى بعض الرجال.

في أحد الأيام، بينما كان الخنبشي يصارع لإيجاد خطوته التالية، وصل رجلٌ قوي البنية ذو لحيةٍ داكنةٍ كثيفة وعيون غائرة إلى المخيم، وكان الخنبشي يعرفه باسم أبو علي فقط، وهو أحد أفضل معاوني ابن لادن في اليمن ومؤسس المخيم الذي كانوا فيه. ألقى القبَلي ذو السبعة وثلاثين عامًا نظرةً حوله على منشأته المهجورة تقريبًا والمقاتلين الشباب المكتئبين وتولى القيادة فورًا، وأبو علي الحارثي، ككل أعضاء القاعدة الأوائل تقريبًا، حارب في أفغانستان، لكنه أيضًا حاصل على تدريبٍ عسكريٍ احترافي، حيث خدم وهو شابٌ صغير في جيش الإمارات العربية المتحدة، واستخدم الحارثي هذه الخبرة في

(1) Muhammadi, «interview with the head of Osama bin Laden's farm in Sudan».

تنظيم المخيم في صعدة، إضافة إلى المخيمات في مأرب وشبوة[1]، واستمع الحارثي إلى المقاتلين المحبطين يستفيضون بذكر تفاصيل الأسابيع القليلة الأخيرة، فأخبروه عن إخفاقهم وعن الاعتقالات، فواساهم الحارثي قائلاً: أنْ لا بأس، فهذه الأشياء تحدث[2].

لم يكن لدى الرجال القلائل الذين وجدهم الحارثي في المخيمات مكانٌ يذهبون إليه، فمعظمهم مولود خارج اليمن، ولا يعرف أحدٌ منهم إن كان بإمكانه العودة الآن بعد أن أصبحوا مطاردين، فنحى الحارثي مخاوفهم جانبًا، وقال: «أنتم في حمايتي، أنا والدكم».

على الرغم من الإخفاق في عدن، وجدت القاعدة شيئًا تسعد به، ففي 2 كانون الثاني/ يناير عام 1993، وبسبب مخاوف أمنية، أعلن البنتاغون أنه لن يستخدم اليمن كقاعدةٍ للدعم بعد الآن. لقد أفسد رجال ابن لادن الهجمات، لكن خطته الكبيرة نجحت، إذ انسحبت الولايات المتحدة من عدن، وسوف يتذكر ابن لادن هذا الدرس كثيرًا في السنوات القادمة، لم يفعل ابن لادن، في فهمه المُبسط، شيئًا في السعودية فبقي الأميركيون، لكنهم، عندما ضربهم في اليمن، هربوا.

(1) «Biography of Abu Ali al-Harithi» (Arabic), Posted to multiple jihadi websites, available at: http://www.muslm.net/vb/showthread.php?t=208626.

(2) Muhammadi, «Interview with the head of Osama bin Laden's farm in Sudan».

الفصل الثالث

كلاب الحرب

1993 - 1994

كان ابن لادن يتألم لمصير جمال النهدي والرجال الذين أمرهم بتنفيذ العمل في اليمن، فقد كان الاشتراكيون قد وضعوهم بعد اعتقالهم في سجن المنصورة مقابل ميناء عدن تمامًا، على الجانب الآخر من الفندقين اللذين هاجموهما، كان ابن لادن يعرف، كغيره من اليمنيين في القاعدة، تاريخ المنصورة، فقد بنى الإنكليز السجن في أواخر الخمسينات، وشهدت أبراجه الأربع البيضاء المربعة الشكل نهاية الإمبراطورية الدموية في عدن، وأصبحت المنصورة، تحت حكم الاشتراكيين، تعرف كمركزٍ للتعذيب، وقد كره ابن لادن فكرة وجود رجاله هناك.

في منتصف الصيف، بينما اقتربت درجة الحرارة في مزرعته خارج الخرطوم من 38 درجة مئوية، تلقى ابن لادن أخبارًا جيدة، فقبل عدة أيام، في 7 تموز/ يوليو عام 1993، استطاع ستةٌ من رجاله، بما فيهم النهدي، الهرب من السجن بمساعدة حراسٍ متعاطفين، فأرسل ابن لادن فورًا أمرًا إلى الحارثي ليخرج الرجال من اليمن[1]، حيث سينضمون إليه جميعًا في السودان.

هَرَّبَ الحارثي الهاربين الستة والخنبشي، الذي كان قد وضعه تحت حمايته، إلى خارج البلاد، وفي السودان، سرعان ما اعتاد الرجال وتيرة الحياة السهلة التي أوجدها ابن لادن في ممتلكاته المحاذية للنيل، فاستراحوا في المزرعة والمدينة كفترة نقاهة بعد الشهور

(1) Muhammadi, «Interview with the head of Osama bin Laden's farm in Sudan».

التي قضوها في السجن، وأعدَّ الحارثي مطبعة معدلة لجوازات السفر المزورة، بينما بقي الخنبشي في البلاد ليدير واحدةً من مزارع ابن لادن[1]، فبعد الإخفاق في عدن، بدا اليمني (الصومالي المولد) ذو العضلات سعيدًا بالاهتمام بالأبقار، وعندما رأى ابن لادن أنه يستطيع الوثوق بالمحارب الشاب، جعل الخنبشي مديرًا، مانحًا إياه السيطرة على الحظائر والمراعي، وقد أحب الخنبشي حقيقةَ أن معظم العائدات من المزرعة تعود إلى المنظمة، فبعد أربع سنوات من تأسيس ابن لادن للقاعدة في وادٍ في أفغانستان الشرقية، صارت تبدو أقرب إلى إمبراطوريةِ عملٍ مكتفية ذاتيًا منها إلى الجيش الخاص الذي كان قد تصوره.

تحلق أعضاء آخرون من القاعدة حول ابن لادن، يتجاذبون أطراف الحديث مع قائدهم معظم الأمسيات في الصالون المفتوح الذي كان يعقده في الخرطوم، وحافظت الحياة على هذا الإيقاع اللطيف مدةَ شهور، فأتى الرجال وذهبوا كيفما شاؤوا، متنقلين بين ممتلكات ابن لادن المتعددة، حتى ابن لادن نفسه بدا مرتاحًا في هواء السودان الأوسط الجاف، فكان العمل جيدًا، وكان ابن لادن أكثر شعبيةً من أي وقتٍ مضى، فتوافد الرجال من كل العالم الإسلامي إلى الخرطوم ليستطيعوا التحدث إليه وحسب، وبعد سنواتٍ من الحرب والمنفى المحرج من السعودية، لا بد أن الاهتمام به كان مرضيًا.

بغض النظر عن الإخفاق في عدن، لم يتخل ابن لادن عن فكرة تحرير اليمن الجنوبي، فاستمر بمتابعة الأخبار، لا سيما تقارير المشكلات السياسية بين صالح والاشتراكيين، لكن الرجل الذي كان الجهاديون يدعونه ببساطة «الشيخ» بدا هادئًا وراضيًا، بل متأملًا حتى، فكان ابن لادن يأكل مع رجاله ويتحدث إليهم كأخٍ كبير أو شخصيةٍ أبوية، وفي السودان، بدا لأتباعه رجلًا ذا «مال وشرف»[2]. لقد كانت تلك لحظةً نادرةً من لحظات السلام والهدوء في تاريخ القاعدة، لكنها لن تدوم.

في شباط/ فبراير عام 1994، حطمت مجموعةٌ من المنشقين اليافعين الجامحين جنة ابن لادن السودانية، كانوا مُحبطين من قائد القاعدة وافتقاره الظاهر للنشاط، فأعلنه الجهاديون اليافعون، بقيادة ليبي يدعى محمد الخليفي، كافرًا[3]، فلو كان ابن لادن مسلمًا

(1) المصدر السابق؛ للمزيد بخصوص حياة بن لادن في السودان انظر: Wright, The Looming Tower, 166-69.

(2) المصدر السابق.

(3) Khaled al-Hammadi, «Interview with Nasir al-Bahri» Part 3, **al-Quds al-Arabi**, March 28, 2005, translated by FBIS.

حقًا، كما قالوا، لفعل ما هو أكثر بثروته وقوته، ورشحت المجموعة نفسها لتقوم بتنفيذ الإعدام الذي تطلبه حكمهم، وجد ابن لادن نفسه الآن ـ مثل عبد الله عزام قبله ـ هدف القوى نفسها التي كان قد أطلق لها العنان.

في وقتٍ متأخرٍ من المساء في 4 شباط/ فبراير، أطلق الخليفي وأتباعه النار على الجامع الذي يتردد عليه ابن لادن في العادة، فأخطؤوا قائد القاعدة، الذي لم يكن هناك في ذلك الوقت، لكنهم تمكنوا من قتل ستة عشر متعبدًا وجرحوا عدةً آخرين(1)، ولم يعرف ابن لادن، الذي لا بد أنه علم بأمر الهجوم، أنه المستهدف حتى عاد الخليفي ورجاله في اليوم التالي ليكملوا المهمة.

كان لدى ابن لادن منزلٌ على الطرف المقابل من مكتبه في الخرطوم، حيث كان يبقى غالبًا عندما يزور المدينة(2)، وكان برنامجه ـ بصفته أحد أثرى الشخصيات وأكثرها ثروة في العاصمة السودانية ـ معروفًا للجميع، ففي كل عصرٍ، بعد استراحةٍ قصيرةٍ في المنزل، يعود إلى مكتبه ليجلس في مضافة مفتوحة مع أيٍّ يكون موجودًا في المدينة، وكانت هذه الجلسات ذات شعبيةٍ بين الأعداد المتزايدة من الإسلامويين في الخرطوم، الذين كانوا يحبون الاستماع إلى ابن لادن يتعمق في المشكلات اليومية.

في ذلك العصر، قاد الخليفي رجاله حتى آخر الشارع حيث يوجد مكتب ابن لادن، وكان في استطاعتهم رؤية الضيوف يصلون، ووحدات الشيخ الرخوة من الحراس الشخصيين الموجودة مسبقًا في مكانها خارج المكتب، ففتح المنشقون النار بالبنادق وعدة رشاشات آلية، لكنهم أخطؤوا ابن لادن مجددًا، حيث تأخر قائد القاعدة في المنزل بسبب جدالٍ مع ابنه الأكبر عبد الله، فقد كره الصبي الحياة في السودان وأراد أن يعود إلى راحة البذخ في السعودية، وربما كان ابن لادن محرجًا بسبب هذا الخلاف الأخير مع ابنه، فقرر أن يرسل رجاله ليسبقوه إلى الطرف الآخر من الشارع ليرحبوا بالضيوف، وعلى الأغلب أن هذه الحركة، التي خدعت المهاجمين ليظنوا أنه أصبح في المكتب، قد أنقذت حياته.

ما أن سمع ابن لادن صوت الرصاص عبر الشارع، حتى أمسك بمسدس وناول آخرَ لعبد الله، فنسيا الخلاف، واختلس الاثنان النظر من النافذة، فاستطاعا رؤية رجالٍ يركضون

(1) Wright, The Looming Tower, 193.

(2) Hammadi, «Interview with Nasir al-Bahri».

ذهابًا وإيابًا في الطرف المقابل من الشارع، مطلقين النار نحو المكتب، حيث استلقى أحد حراس ابن لادن اليمنيين على الأرض نازفًا من جرحٍ في معدته، وتلقى الحارثي رصاصةً في فخذه(1)، فخرج ابن لادن وابنه من المنزل ملتفين على المهاجمين، الذين علقوا الآن في إطلاق نارٍ شديد بين ابن لادن وابنه من طرف وحراس القاعدة في الطرف المقابل من الشارع، وبعد عدة جولاتٍ من إطلاق النارِ السريع، أطاح الرجال بالخليفي وقتلوا عدة مهاجمين آخرين(2).

اضطرب ابن لادن من الحادث، ولكنه لم يصب، واطمئن على بقية رجاله، فكان عددٌ منهم، من بينهم جمال النهدي، مصابًا بجروح نارية ويحتاج إلى عنايةٍ طبيةٍ، وكانت الخيارات محدودة أمام ابن لادن، إذ إن السودان لا تملك المنشآت التي يحتاجها، وليس بإمكانه أن يرسل الرجال إلى السعودية أو مصر أو اليمن، وكلها تبحث عن عناصر من القاعدة، وإرسالهم إلى باكستان له الصعوبة نفسها، فعندما كان ابن لادن هناك، منذ عامين، تصرفت المخابرات الباكستانية على نحوٍ غريب وخاف ابن لادن من أن يبيعوه للسعوديين، بدلًا من ذلك، أمر الخنبشي أن يأخذ النهدي وأربعة آخرين إلى الهند للعلاج، وكما هي الحال دائمًا، دفع ابن لادن ثمن الرحلة والمصاريف الطبية(3).

اتضح أن رحلة الهند كانت في مصلحة الخنبشي، إذ بينما كان يتسكع في المشفى منتظرًا الرجال ليستردوا صحتهم، التقى فتاةً هنديةً شابة وتزوجها(4)، ولكن في اليمن، على أية حال، استمرت الأمور بالانهيار، فقد دمرت الانتخابات البرلمانية الأولى للبلاد في نيسان/ أبريل 1993 وهم الحكومة الموحدة، إذ حطم حزب صالح الاشتراكيين في استطلاعات الرأي، لكن الضرر الحقيقي وقع عندما تفوق **إصلاح** - وهو حزب إسلامي يدعمه صالح - على الاشتراكيين وأخذ عشرة مقاعد أفضلية في برلمان اليمن الجديد.

بعد الانتخابات، غادر البيض صنعاء في نوبة غضب إلى الولايات المتحدة لحضور اجتماع غير مجدوَل مع نائب الرئيس آل غور، وكان البيض قد تجاوز القنوات الدبلوماسية الاعتيادية، فاستعان بالسفير اليمني في القاهرة، وهو زميل اشتراكي له، ليرتب الاجتماع

(1) «Biography of Abu Ali al-Harithi».

(2) Wright, The Looming Tower, 193; Hammadi, «Interview with Nasir al-Bahri».

(3) Muhammadi, «Interview with the head of Osama bin Laden's farm in Sudan».

(4) المصدر نفسه.

بدلًا من نظيره الموالي لصالح في واشنطن[1]، وبينما كان سلك الدولة الدبلوماسي ينهار على الحدود الإقليمية؛ حيث تجاهل الجنوبيون والشماليون الذين يعملون في المباني نفسها بعضهم بعضًا، وصاروا ينجزون أعمالهم عن طريق رئيسهم المفضل، استمرت الأمور بالتدهور عندما عاد البيض إلى اليمن، فرفض أن يقسم اليمين مرتين، خاذلًا صالح بالحضور في المرتين، وعلى الرغم من الدبلوماسية المحمومة التي قام بها بعض الجيران القلقين، انكسرت وحدة اليمن، وفي 27 أبريل/ نيسان عام 1994، الذكرى الأولى للانتخابات البرلمانية، بدأت الحرب، التي تنبأ بها الكثيرون، في قاعدة عسكرية شمال صنعاء.

في القصر الرئاسي في صنعاء، مبنى الحجر الصقيل نفسه الذي قام صالح فيه بالتجنيد للجهاد في أفغانستان، رد صالح على الأخبار القادمة من ساحة القتال بالاتصال بعبد المجيد الزنداني، رجل الدين المتطرف صاحب اللحية جزرية اللون الذي لعب أيضًا دورًا كبيرًا في إرسال اليمنيين خارجًا للقتال، والزنداني يشغل، بصفته عضوًا في **إصلاح**، مقعد الحزب في اللجنة الرئاسية الخماسية، ومنح تحالفه مع صالح للرئيس أفضلية ثلاثة إلى اثنين على الاشتراكيين في كل تصويت، وتواصل صالح أيضًا مع عبد الوهاب الديلمي، وهو رجل الدين الهزيل ذي الوجه غير المتوازن، لقد مات هشام الديلمي، الجهادي الفتى السمين، منذ عقدٍ من الزمن، لكن والده لم يتغير، وإن كان قد تغير في أي شيء، فقد أصبح أكثر تطرفًا منذ وفاة ولده، وتمامًا كما في الثمانينيات، احتاج صالح إلى رجال الدين لمساعدته في تعبئة الدعم للجهاد، إلا أن الجهاد هذه المرة في اليمن، لقد باتت الاستراتيجية التي وضعها ابن لادن والفضلي في جدة تعمل جنبًا إلى جنب مع طموحات رجلٍ قوي.

أطلق الزنداني والديلمي الفتاوى مباشرةً لدعم صالح والشمال، فحكم الرجلان بأن الاشتراكيين كفرة ويمكن قتلهم دون عقاب، وبعد تأمين جناحه المحافظ، قام صالح بحركته التالية، فوضع انفجار الحرب الأهلية حدًا لمهزلة إقامة الفضلي الجبرية في منزله في صنعاء، فمنح صالح الجهادي الشاب رتبة كولونيل في الجيش اليمني، وأرسله جنوبًا إلى أبين كي يعيد تنظيم مقاتليه ويزحف نحو عدن.

(1) Whitaker, **The Birth of Modern Yemen**, chapter 10.

في الهند: تابع الخنبشي وبقية نشطاء القاعدة المتعافين التقارير الأولى للقتال، وتحمسوا لسحق الاشتراكيين الذين كانوا يقاتلونهم لسنوات أخيرًا، فقاموا بحجز رحلة إلى صنعاء[1]، ومن السودان، أسرع أعضاء يمنيون آخرون في القاعدة إلى الوطن بمباركة ابن لادن، ولكن بعد محاولة الاغتيال في شباط/ فبراير، واجه ابن لادن مشكلةً أخرى، ففي 5 آذار/ مارس، وصل مبعوث من الملك السعودي إلى السودان وطالب قائد القاعدة المنفي بتسليم جواز سفره، وبدون جواز سفر، سيكون ابن لادن تحت رحمة السودان ورئيسه ذي السلوك الغريب حسن الترابي، فوجد ابن لادن نفسه محبطًا ودون خيارات، ففقد أعصابه ورمى إلى مرسال الملك بالكتيب الرفيع الأخضر صائحًا «خذه، إذا كان حمله سيفرض أي شيء علي»[2]، وعلى الرغم من ذلك، ما كان قائد القاعدة ليدع أيًا من هذه المشكلات يشغله عن هدفه في هزيمة الاشتراكيين في اليمن، فعندما بدأت الحرب، أرسل ابن لادن اليمنيين لديه إلى وطنهم ليحاربوا، ومرةً أخرى، عاد صالح والجهاديون في الصف نفسه.

في صنعاء، شكل صالح وجنرالاته خطة معركة، حيث يقود علي محسن، الجنرال المتكرش، ذو الأسنان الأمامية البارزة الذي تزوج أخت الفضلي، الفرقة أولى مدرع جنوبًا في خط مستقيم، نازلًا من الجبال كسهمٍ موجهٍ نحو عدن، وفي هذه الأثناء، سيزحف ابن حماه الفضلي نحو عدن من الشرق مع عصبته من الجهاديين والقبليين، واعتقد صالح أن حركة الكماشة هذه ستقسم الجنوب نصفين، فاصلة عدن عن الأراضي الداخلية إلى الشرق، حيث يتركز الجزء الأكبر من الجيش الاشتراكي.

وكما هي الحال دائمًا في اليمن، كانت القبائل العنصر الذي لم يؤخذ في الحسبان، فاعتقد صالح أنه ليس في حاجة إليهم، لكن عليه التوثق من أنهم لن يحاولوا إثارة الفوضى في الوسط بدعم الجنوب، فإذا لم يستطع أن يحصل على دعمهم، فهو يحتاج على الأقل إلى حياديتهم، وتواصل صالح أيضًا مع الشيخ عبد الله الأحمر، رجل السياسة اليمني المسن الذي استثمر نفوذه القبلي ليُعين متحدثًا باسم البرلمان بصفته رئيسًا لحزب **إصلاح**، وكان الشيخ عبد الله القبليُّ هذا – مميزُ المظهر ذو السكسوكةِ الرماديةِ المشذبةِ بعناية والعينين الثاقبتين – يملك ما لا يملكه صالح وهو الضابط من قبيلة صغيرة، إذ يملك

(1) Muhammadi, «Interview with the head of Osama bin Laden's farm in Sudan».

(2) مقتبس من Wright, The Looming Tower 195.

خاصيةً صعبة يسميها اليمنيون **الجاه**: مزيج من السمعة والرفعة والكرامة، **الجاه** قادر على إنجاز الأمور في مناطق نفوذ القبائل اليمنية.

قام الشيخ عبد الله، من مجمع مبانيه المحصن بكثافة في وسط مدينة صنعاء حيث يدير سجنًا خاصًا لرجال القبائل الجامحين، باتصالاته، وأقنع الشيوخ على طول طريق الجيش جنوبًا بأن الآن ليس وقت الضغط على الدولة من أجل المناصب، وبينما أسرع جيش صالح جنوبًا نحو عدن، بقيت القبائل على الجوانب، ستكون هذه حربًا بين الجيوش.

تحت ستار الظلام في 4 آيار/ مايو، بعد أسبوع من الطلقات الافتتاحية في الشمال، أقلعت الطائرات الحربية الاشتراكية من عدن، محلقةً على ارتفاعٍ منخفض فوق الرمال والبحر المتلون بالأسود والأبيض قبل أن تنحرف شمالًا نحو الجبال، وبعد عدة دقائق، صنعت طائرات الحقبة السوفيتية النفاثة حلقةً سريعة حول صنعاء، فاندفعت إلى جانب الجبال العالية شرق العاصمة قبل أن تسقط قنابلها على المدينة النائمة، واشتعلت تحتها زاوية من القصر الرئاسي، وضربت في الطرف المقابل من المدينة المطار بينما تردد صدى مضادات الطيران متأخرًا في أعقابها، وعلى شاطئ البحر الأحمر، بجانب الحدود مع السعودية، قصف سرب آخر من الطائرات ميناء المياه العميقة الشمالي الوحيد في الحديدة.

داخل القصر الرئاسي، هرب صالح من التفجيرات وأمر بسرعة بالرد بضربة، وبعد عدة دقائق، جاء الرد بأن طائرات صالح النفاثة لا تستطيع احتمال إقلاع ليلي من المطار المحترق عبر المدينة، وقال مساعدوه أن «الزعيم» كان حانقًا، واستشاط صالح غضبًا خلال الليل، فظل يصرخ بالأوامر لقادته حتى الصباح، وبعد انبثاق الفجر في 5 أيار/ مايو، انطلقت أخيرًا مقاتلات صالح مركزةً كل طاقتها النارية على مطار عدن الدولي، الذي تم استخدامه أيضًا كقاعدةٍ عسكرية جوية، فدكت الطائرات النفاثة الشمالية المدرجات المتوازية، فشلت حركة الأسطول الاشتراكي.

بينما كانت طائراته في طريقها جنوبًا، أعلن صالح حالة الطوارئ على الإذاعة الحكومية، وأقال البيض رسميًا من منصبه كنائبٍ للرئيس، ونصح اليمنيين باجتناب الطرق الكبرى، فوقت المفاوضات قد مضى، وهذه حرب شاملة، وأثار البيان الحاد، جنبًا إلى جنب مع ما

بدا للدبلوماسيين المتوترين وعمال الإغاثة على الأرض جولات قصف عشوائية، خروجًا جماعيًا للأجانب، فتم ترحيل عدة حفنات من الطلاب وعمال النفط الذين يعيشون في صنعاء على متن طائرات نقلٍ عسكرية أميركية، وحملت سفينة حربية فرنسية في عدن على متنها 300 أجنبيًا هاربين من القتال[1]، ولما شُلّت حركة قوة الاشتراكيين الجوية عادوا إلى استخدام ترسانتهم التي تعود إلى ما قبل الوحدة، فأطلقوا عدة صواريخ سكود على صنعاء، ولم تؤدِ الصواريخ سوفييتية ـ الصنع أفضل مما أدته عندما ألقاها صدام على إسرائيل خلال حرب الخليج[2].

وفي ذلك الوقت تحرك علي محسن، ملتزمًا بخطة صالح الحربية، جنوبًا نحو عدن، وبحلول 8 آيار/ مايو بات الجيش على مسافة القصف المجدية من المدينة الساحلية، وصار السكان يسمعون صوت قذائف المدفعية تنفجر في الأفق، وفي الشرق، اتصلت مليشيات الفضلي بوحدات شمالية أخرى وشقت طريقها نحو عدن، ووراءهم، في جبال الشبوة الشرقية قيد جهاديون آخرون قوات الاشتراكيين في سلسلة من الاشتباكات، واقتربت مجموعة ثالثة من الجهاديين بقيادة أبي علي الحارثي، من عدن، وكان تقدمهم قد أعيق عندما أصيب الحارثي برصاصة في قدمه، وهذه إصابته الثانية بالرصاص خلال أربعة شهور، لكن المحارب قوي البنية، اقتطع زوجًا من أغصان الأشجار، وحوَّلها إلى ما يشبه العكازات، وتابع المسير[3].

في 21 أيار/ مايو بينما كان القتال في أوجه، برز علي سالم البيض من مخبئه على شاشة تلفاز عدن ليعلن، والتعب بادٍ عليه، عن انفصال الجنوب، وكان إعلان البيض للاستقلال، في عشية ما كان يفترض أن يكون الذكرى الرابعة لتوحيد اليمن، ورقته الأخيرة، فعدن على وشك السقوط وما إن تسقط حتى يتبع بها الجنوب، وكان البيض مقتنعًا أنه للحصول على مساعدةٍ خارجية، من السعودية والكويت على وجه الخصوص اللتين لا يزال قادتهما يكنون الضغينة لصالح لمساندته صدام حسين في حرب الخليج، فإن عليه أن يعلن الانفصال رسميًا، وأمل البيض أن يكون الانفصال الشرارة التي تمنح

(1) Christopher Walker, «**North Yemenis accuse the south of scud attack**» **The Times (London)**, May 7, 1994.

(2) المصدر نفسه.

(3) Muhammadi, «Interview with the head of Osama bin Laden's farm in Sudan».

الاعتراف الرسمي وتسمح للجنوب بشراء الأسلحة من السوق المفتوحة، وكانت السعودية والكويت تزودان الاشتراكيين أصلًا بصفقات الأسلحة والنقود من تحت الطاولة، ولكن الجنوب يحتاج إلى المزيد.

تسبب إعلان البيض، الذي لم يناقشه مع القادة الاشتراكيين عاليي الرتبة، بتقسيم الحزب، إذ كان معظمهم معارضًا لهيمنة صالح ثقيلة الوطأة، لكن ليس كلهم واثقًا من أن الانفصال هو الحل، ولم يكن أحدهم واثقًا حتى من أن جنوبًا مستقلًا يستطيع البقاء في عالم ما بعد الاتحاد السوفييتي، فالجنوب لا يملك إلا القليل من الموارد ويكاد لا يملك مالًا، فهل يريد الاشتراكيون حقًا أن يتحدث البيض باسمهم؟ قائدًا إياهم نحو حربٍ لن يستطيعوا الفوز بها؟ فانشقَّ المشككون عائدين إلى صالح، ومن ضمنهم عبد ربه منصور هادي، وهو مسؤول عسكري كبير من أبين ورئيس اليمن المستقبلي، واختلق آخرون، ممن لم يستطيعوا احتمال الانضمام إلى صالح، مشكلات صحية وفرّوا هاربين من البلاد، وفي مواجهة الكثير من الانشقاقات والفرارات، تخلى البيض عن عدن إلى مدينة المكلا الساحلية على بعد 400 ميل شرقًا باتجاه المحيط الهندي[1]، فالمكلا بعيدة عن الهجوم الرئيسي لقوات صالح، وهذه المدينة المتراصة بإحكام، والمغسولة بالأبيض على سفح سلسلة من الجبال المنخفضة المتدلية، هي نقطة الدخول الرئيسية للأسلحة والمدفعية إلى الجنوب.

في عدن، تولى عبد الرحمن الجفري، وهو رجل دولةٍ يبلغ من العمر 51 عامًا ويحمل جواز سفرٍ سعوديٍّ، العمليات اليومية الروتينية للحكومة الجديدة، ويشاع عن الجفري على نطاقٍ واسع أنه كان رجل الرياض في الجنوب، فحافظ الجفري على اتصالٍ وثيق بالسعودية، وفي الأمم المتحدة، دفع كل من السعودية والكويت باتجاه قرارٍ من مجلس الأمن يطالب بوقف إطلاق النار، الأمر الذي قد يمنح عملاءهم في الجنوب فرصة لإعادة تنظيم صفوفهم وليصلوا إلى نوعٍ من أنواع التسوية المتفق عليها، لكن بينما ركز العالم العربي على القتال في اليمن، كان بقية المجتمع الدولي يفتح عينيه على هول الجرائم العرقية في راوندا، فلفتت الصور الشنيعة للجثث المقطعة أربًا بالسواطير انتباه المجتمع الدولي بطريقةٍ لا يستطيعها الصراع المربك في اليمن.

(1) Whitaker, **The Birth of Modern Yemen**, chapter 13.

في 3 تموز/ يوليو، بعد ستة أسابيع من إعلان الانفصال، ذهب البيض إلى المنفى قائدًا قافلة وحيدة من الدبابات وقاذفات الصواريخ شرقًا عبر الصحراء إلى عمان[1]. وسقطت المكلا في اليوم التالي، وبعد يومين، في 6 تموز/ يوليو، هرب من بقي من قادة الاشتراكيين من عدن، يقودون قوارب سريعة عالية القدرة عبر خليج عدن إلى جيبوتي في تلك الليلة حاملين معهم، كما أشيع فيما بعد، الملايين من الأموال العامة. وبينما كان السياسيون يهربون، كانت القوات الشمالية قد بدأت تتسلل بالفعل إلى المدينة المحترقة.

ومع الجنود جاء المجاهدون، متعبين وهزيلين بفعل أسابيعٍ من الحرب، فدخل المقاتلون الملتحون ذوو الثياب الرثة عدن في قافلة من سيارات اللاند كروزر المهترئة، والشاحنات الصغيرة المخدَّشة بالرصاص، وأراد صالح أن يوضح أن ثمة ثمنًا لمخالفته، وكما شكل المجاهدون جزءًا من هجومه ذي المحورين على عدن، فسوف يشاركون أيضًا في تلقين درسه في ما بعد الحرب.

دخل علي محسن الأحمر، الجنرال الفاتح، منذ الصباح الباكر إلى المدينة المهزومة في 7 تموز/ يوليو، وحياه العديد من رجاله الذين تسللوا إلى المدينة عن طريق تزيين دباباتهم بصور لعلي سالم البيض، وتابع كل الباقين من خلف أبوابٍ مغلقة كيف جرد أكثر جنرالٍ موثوقٍ لدى صالح المدينة المتضررة بشدة، فاستولى على فندق عدن وحوله إلى مقره الرئيسي، وتابع من نافذته عمليات نهب المدينة الجارية، حيث هدرت الدبابات نحو مواقفها في النقاط المرورية، بينما انتشرت شاحناتٌ ضخمةٌ عبر المنحدرات البركانية التي تشكل ميناء عدن شبه المثالي، ثم جاء المجاهدون ليطلقوا رصاصهم في الهواء ويصيحوا «الله أكبر»، لقد كانت عدن هي حفلة النصر التي لم يحصلوا عليها في أفغانستان.

بينما تابعت شمس اليوم مسيرها، صار شاطئ عدن، الذي كان يومًا ما نقيًا، قذرًا من النفايات البشرية والأوساخ المحترقة، إذ نصب الجنود والمجاهدون المخيمات أينما استطاعوا، نائمين على الشاطئ أو في المتاجر المهجورة، فهذه لن تكون لحظةً وجيزةً من نهب ما بعد النصر، فصالح يريد أن يتذكر الجنوب هذه اللحظة لسنوات، فتناثر الزجاج في كل مكانٍ من شوارع عدن العريضة المصممة على الطراز البريطاني، بينما قام الجنود بتكسير النوافذ وصناديق العرض، آخذين الغنائم كدفعة جزئية لقاء خدماتهم، وربط بعض

(1) المصدر السابق.

الرجال ببساطة شاحناتهم إلى مبان وفكوكها قطعةً قطعة، مجردين الجدران إلى أسمنتٍ عاري قبل أن يشحنوها شمالاً. بعد عدة سنوات، بعد أن يتحول ولاء طارق الفضلي السياسي، سوف يشبِّه ما قامت به جماعات الشمال من النهب بسربٍ من الجراد[1]، فكل شيء - الهواتف، الحواسيب، السجادات، المقاعد، حتى الكبلات الكهربائية - اقتلعت من مكانها.

على الجانب الآخر من النهب والعنف وقف رجال كعبد الله، رجل عدني، راقٍ، طويل، ذو جبهةٍ منحدرة وهالة من الثقافة حوله، كان عبد الله يعتز بتاريخ المدينة العالمي، وهو سكرتير في شركة بريطانية، وهو يدرك جيدًا سمعة صالح وخائفٌ حتى الموت من المليشيات الجهادية، وعندما ظهرت مجموعةٌ من «اللحى الطويلة والنظرات الهمجية» في مكتبه، وجه نظره نحو الأسفل وفعل كما طلبوا، فتوجه الرجال من غرفةٍ إلى أخرى بسرعةٍ وفعالية آخذين كل ما استطاعوا حمله معهم، وعندما وصلوا إلى الحمام، توجهوا إلى عبد الله بالسؤال، «أعطنا المفتاح» قال أحدهم، فبعد أن هجر رؤساء عبد الله الأجانب المدينة قبل أسابيع من بداية الحرب، كدس كل حواسيب وسجلات الشركة في حمام صغير بقرب الجدار الخلفي، وأراد أن يحميها، وشعر عبد الله بأنه بدأ يتعرق، لكنه حافظ على نبرة صوته، وأقسم أن مديره البريطاني أخذ المفتاح معه عندما هرب من البلاد، فقال لهم: «اسمعوا...تستطيعون أن تكسروا الباب إن شئتم، لكنه ليس إلا حمامًا».

بعد نقاشٍ سريع، هز أحد الرجال كتفيه مستهجنًا وخرجوا من الباب، «أغبياء» يقول عبد الله بعد عدة سنوات: «لا يستطيعون حتى استخدام الحاسوب والآن يحكمون البلاد»[2].

ولكن لم يكن كل عدني محظوظًا مثله، ولم يكن نهب المدينة يتعلق فقط بكل ما يمكن حمله، فصالح و ابن لادن أرادا أن يمحوا كل أثرٍ للماضي، فأغلق رجال ملتحون مسلحون شواطئ البكيني، ومسحوا حدائق البيرة، لقد آن أوان بدايةٍ جديدة.

في مقابر المدينة، قاد الحارثي فرقًا صغيرة مسلحة بمطارقٍ حجرية ورشاشات آلية دمرت شواهد القبور بشكلٍ منهجي لإيمانها أنها تلهي عن ذكر الله، فعند أصوليي القاعدة،

(1) Khaled al-Hammadi, «International groups are requested to take decisions to protect the people of the south» (Arabic), **al-Quds al-Arabi,** April 17, 2009, reprinted in **Mareb Press**, Aprill 17, 2009.

(2) حوار للكاتب مع يمني في عدن في آذار/ مارس 2004، وأغفل الاسم بناء على طلب المتحدث.

أي نوعٍ من أنواع النصب التذكارية منحدرٌ من السهل الانزلاق فيه، ففي البداية يقوم الناس بزيارة القبور ليقدموا احترامهم للأقارب المتوفَّين، لكنهم سرعان ما يبدؤون بالصلاة للأموات ليتشفعوا لهم عند الله، وهذا ما لن يسمح به المقاتلون: الناس يجب أن تصلي لله، وليس للأموات، ومن الأفضل اجتناب المشكلة كليةً، كما سوغت القاعدة لنفسها بيقين لا يقبل الشك، وعلى مدى بضعة أيام في أوائل تموز/ يوليو، أحال الجهاديون قرونًا من الذكريات إلى أنقاض.

خارج المدينة، وجه الخنبشي مجموعة من مقاتلي القاعدة إلى مصنع البيرة، فقبل ثلاث سنوات، خلال اجتماعه التجنيدي مع جمال النهدي، أخبر الخنبشي المقاتلَ المخضرم أنه يريد تدمير مصنع البيرة الوحيد في عدن، داعيًا إياه «مفسد الأخلاق الإسلامية»، وهذا الحلم على وشك أن يتحقق، حيث اصطف الرجال أمام المبنى المربع الشكل، وتناوبوا على إطلاق الصواريخ المحمولة والقنابل نحو المبنى، وسرعان ما بات تمرين الرماية هذا مفتوحًا لمشاركة الجميع بينما انهارت الجدران، وبدا أن لا أحد تقريبًا يعي أن نشاطًا جديدًا متصلبًا قد دخل المشهد السياسي المحلي، إذ إن تحطيم شواهد القبور وهدم المباني ليس تخريبًا وحسب، بل هو جزءٌ من مشروعٍ سياسيٍّ أكبر بدأ توًا بضرب جذوره.

خدمت نشوة العنف والتحطيم الجماعية هدف صالح المباشر بتخويف مجتمعٍ سكاني بأكمله حد الإذعان، فبعد نهب عدن، ترك صالح المدينة على حالها، رافضًا بوضوح أن يصلح المباني المشوهة والبنى التحتية المتضررة؛ كتحذير يساوي في الشناعة العادة اليمنية ما قبل الحضارية بتعليق رؤوس السجناء على أعمدة مستدقة على جدار المدينة. في المدينة نفسها التي وقف فيها صالح و البيض يدًا بيد لإعلان وحدة اليمن، وصلت تجربتهما إلى نهايتها الدموية، وربح صالح حرب السنوات الأربع، وكسب الدولة، لكنه لم يكن وحيدًا في نصره، فالمجاهدون قد ربحوا أيضًا، وهؤلاء عندهم رؤية مختلفة للمستقبل.

الفصل الرابع

الإيمان والحكمة

1994 - 1999

في أواخر عام 1994، وبعد انتهاء الحرب الأهلية بعدة أشهر، نزل من الطائرة في صنعاء مصريٌّ مربوع القامة، يرتدي نظاراتٍ كبيرة الحجم وعلى جبهته كدمة كبيرة بنفسجية اللون[1]، وهذه العلامة فوق عينيه، التي تشبه وحمة بيضاوية الشكل، سببها ضغط رأسه على الأرض بشدة في الصلاة على مدى سنوات، عمل أيمن الظواهري زعيمًا لخلايا جماعات مصرية متطرفة منذ عام 1966، وهو الذي رأى، وهو طالب مدرسةٍ في الخامسة عشرة من عمره، حكومة عبد الناصر تعدم بطله سيد قطب، ونادرًا ما شعر الظواهري خلال العقود الثلاثة التي تلت ذلك باليأس مثل ما كان يشعر به في تلك اللحظة، إذ إن آخر هجماته - محاولةُ اغتيال رئيس وزراء مصر عاطف صدقي في تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1993 - قد أخفقت إخفاقًا ذريعًا، وبدلًا من أن يقتل تفجيرُ السيارة رئيسَ الوزراء، قتلَ تلميذةً صغيرة كانت تقف على مقربة منه، وغضب المجتمع المصري، وقامت الشرطة بحملةٍ أمنيةٍ، فاعتقلت مئات من الناشطين في منظمة الظواهري: الجهاد، وفي الوقت الذي حطت فيه طائرته في اليمن، كان الناشطون الذين ليسوا في السجن قد تفرقوا في أرجاء الشرق الأوسط.

تُعرف اليمن في أوساط الجهاديين بـ«أرض الإيمان والحكمة»(*) تبعًا لحديث شهير للنبي، فكانت اليمن قاعدةً ترحب بالمجاهدين، وذَكَّرت اليمن الجبلية والقبليَّة الظواهري بأفغانستان، وظن أنها تمثل أفضل فرصةٍ له ليبدأ من جديد، ولم تكن جغرافيتها هي التي

(1) «Interview with Ibrahim al-Banna» (Arabic) part 1 of 2, **al-Jarida** (Kwuait), November, 4, 2010.

(*) يقصد على الأغلب الحديث عن أبي هريرة الذي يرد فيه: «الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفقه يمان».

تقدم الفرصة وحسب، بل حال السياسة فيها أيضًا، فخلال الحرب الأهلية، اعتمد صالح على عددٍ من المجاهدين المصريين ليساعدوه في هزيمة الاشتراكيين، وأحد هؤلاء الرجال، الدكتور فضل، متطرف مربع الوجه، أمضى معظم الحرب كطبيب متطوع، فعالج الجنود الشماليين في مشفى الثورة في صنعاء، والظواهري والدكتور فضل - واسمه الحقيقي سيد إمام الشريف - أصدقاء قدامى، فكلاهما كَبُر في مصر في فترة ملاحقة الإسلاميين في الستينيات والسبعينيات، وعملا معًا في مشفى للصليب الأحمر مدعوم من الكويت في بيشاور خلال الثمانينيات، حيث أثرت آراء الدكتور فضل في التكفير - وهي الممارسة التي يطرد من خلالها المسلمون مسلمين آخرين من الرحمة الإلهية - في الظواهري الشاب، وأدى[1] أعضاء مصريون آخرون في منظمة جهاد الظواهري، كأحمد النجار، المحارب المخضرم في أوساط المجاهدين، دورًا أكثر حيوية في الحرب الأهلية[2]، وفي عقل الظواهري، كان صالح يدين له بسبب مشاركة الجهاد في الحرب الأهلية، وها قد جاء المصري ليأخذ حقه، وعلى أقل تقدير، كان الظواهري يأمل في أن تدفع ذكرى مشاركة الجهاد الداعمة في الحرب نحو قبولٍ ضمني بوجود الجهاد في اليمن.

كان في انتظار الظواهري، في بيت آمن في صنعاء، عدة رجالٍ من أعز وأقدم أصدقائه: رجال من مثل الدكتور فضل وشقيق الظواهري الأصغر محمد، ولم يكن ذلك المنزل ليُشعر الظواهري أنّه في بيته، ولكن، بالنسبة للمصري الهارب في 1994، صنعاء أقرب ما يمكن أن يحصل عليه إلى الوطن، وكان عشرات المصريين الآخرين منتشرين في أنحاء البلاد يضربون جذورهم، فيتخذون أعمالهم، ويتزوجون من نساء محليات، وقد جاء الظواهري إلى اليمن لإعادة تنظيم بقايا **الجهاد** هذه. وفي الشمال، استأجر عدد من العملاء، ومن ضمنهم خبير التزوير إبراهيم البنا، مزرعة ضخمة في جبال عمران[3]، وكانوا يفكرون في جعلها أحد معسكرات التدريب التي ينوون إنشاءها، وثمة أمامهم احتمالات أخرى مبعثرة في الجنوب، حيث ما زال بعض المصريين مرتبطين بالفضلي في أبين. هذا مستقبل الظواهري القريب، إعادة التنظيم والتخطيط، فعلى مدى العام التالي، طاف الظواهري على البيوت الآمنة ومعسكرات التدريب التي أسسها رجاله بينما كان يعمل على إعادة بناء **الجهاد** ليجعلها

(1) Wright, **The Looming Tower**, 125.
(2) «Interview with **Ibrahim al-Banna**».
(3) المصدر نفسه.

منظمة قادرة على تحدي الرئيس المصري حسني مبارك مجددًا في السيطرة على الدولة.

الحال نفسها كانت على الجانب الآخر من البحر الأحمر في السودان، حيث فر بعض العملاء بعد الحملة الأمنية في مصر، وكان ابن لادن لا يزال يعيش في الخرطوم، والقائدان الإرهابيان يعرفان بعضهما بعضًا جيدًا، ففي أواخر أيام الجهاد في أفغانستان، كثيرًا ما طبب الظواهري ابن لادن، إذ كان يعتني بالرجل السعودي الطويل خلال نوبات مرضه المتكررة، ومع أنهما كثيرًا ما نسقا نشاطاتٍ وتدريباتٍ لرجال القاعدة والجهاد، فقد حافظ كلٌّ من الرجلين على استقلاله، فكلٌّ منهما قائد فخور، وفي كثيرٍ من الأحيان مغرور، وعلاوة على ذلك كانت أهدافهما مختلفة في بداية 1995، إذ سعى ابن لادن إلى تغيير العالم باستخدام القاعدة، بينما ركّز الظواهري والجهاد بهوس على مبارك ومصر، وهذا الهدف الوحيد هو ما أعاد الظواهري مجددًا إلى أفريقيا في صيف 1995، حيث كان من المقرر أن يسافر مبارك إلى إثيوبيا في 26 حزيران/ يونيو لحضور مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية، منظمة بالية وغريبة، تبدو وكأنها قادمة من زمان آخر، فكان الكثيرون يسخرون منها قائلين أنها ليست أكثر من نادٍ للطغاة[1]، وعرف الظواهري بالرحلة منذ أكثر من عام، وحضر فخًا بالتعاون مع قوات المخابرات السودانية التي أرادت أن تصدر ثورتها الإسلامية، ووفر ابن لادن أيضًا المال والرجال للخطة، وقبل عدة أسابيع من المؤتمر، سافر الظواهري إلى السودان ليعطي المُهاجمين خطابًا تحفيزيًا قبل أن يسافروا إلى أثيوبيا، فمشى على الطريق التي سيسير عليها موكب مبارك، وتضمن التخطيط للعملية كمينًا أوليًا، ويوجد فريق احتياطي بعده بمسافة على الطريق في حال أخفقت المجموعة الأولى في تدمير سيارة مبارك.

وصل الرئيس المصري قبل الموعد المحدد، فتعثر فريق الظواهري مسرعًا ليصل إلى المكان المحدد، ولم تعمل راجمة القذائف الصاروخية على نحو صحيح[2]، وتدهور الوضع بسرعة لما بدأ المُهاجمون يطلقون النار عشوائيًا على الموكب، فقتلوا رجلي شرطة، بينما امتصت ليموزين مبارك المصفحة وابل النيران، وبدلًا من أن تحاول السيارة الإسراع في شق طريقها عبر الشارع حيث يكمن الفريق الثاني - كما توقع الظواهري - استدارت سيارة مبارك المبعَّجة وعادت إلى المطار، حيث عقد الرئيس المصري

(1) Wright, **The Looming Tower**, 214.

(2) المصدر نفسه.

مؤتمرًا صحفيًا. «فجأة رأيت شاحنة صغيرة زرقاء تقطع الطريق، ثم قفز أحدهم منها إلى الأرض» قال مبارك ذو السبعة والستين عامًا بهدوء للصحفيين المصدومين[1]: «لقد رأيت الذين أطلقوا النار نحوي»، لقد كانت هذه المرة الثانية عشرة التي حاول الظواهري قتله فيها وأخفق[2].

انهار فرع الظواهري السوداني، في أعقاب محاولة الاغتيال الفاشلة، وفرضت الأمم المتحدة عقوبات على السودان لدورها في الهجوم، و أُجبرت **الجهاد** على التفرق مرة أخرى، وتابع الظواهري دأبه على أي حال باحثًا عن نقطة ضعفٍ في دفاعات مصر، وفي ذلك الخريف ظن أنه قد وجد واحدًا، فسلَّم أحمد النجار قيادة شبكة الجهاد في اليمن، وغادر صنعاء ذاهبًا إلى باكستان لينسق هجومًا على السفارة المصرية في إسلام آباد، وحصلت الضربة في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1995، وقتلت سبعة عشر شخصًا[3]، ولكن الجماعة في اليمن ضمرت بدون قائدها وعزيمته.

بعد وقتٍ قليل من ترك الظواهري لليمن، بات واضحًا أن صالح سوف يخيب أمل مصريي **الجهاد**، إذ لم يتحقق شيء مما توقعوه، فكان التوتر قائمًا دومًا بين القبائل التي تتقاتل فيما بينها بسبب مشكلةٍ مربكةٍ لا يبدو أن أحدًا غيرهم يفهمها، وعانى هؤلاء المنفيون - المعتادون على ديكتاتورية مبارك الصريحة في مصر - ليفهموا أقطاب القوى المتعددة في اليمن بشكل ما، فالسياسيون والشيوخ يتعهدون بتقديم الدعم ومن ثم ينسحبون في أسوأ الأوقات الممكنة، وبدا أنهم في ذلك متأثرون برئيسهم، فكان صالح يتقلب في تعامله مع المجاهدين المصريين الذين لم يستطيعوا فهم مشاعره الحقيقية تمامًا، فنُسِيَتْ الوعود التي قدمها صالح خلال حرب عام 1994 الأهلية بمجرد انتهاء القتال، ولم تكن هزيمة الاشتراكيين الخطوة الأولى نحو تطبيق الشريعة، بل على العكس، كانت مجرد تركيزٍ للقوة في الأعلى، فاستخدم صالح المجاهدين عندما احتاجهم، والآن بات يتجاهلهم بعد انتهاء الحرب. في تلك الأثناء، استطاع طارق الفضلي الحفاظ على راتب الكولونيل وأُعطيَ مقعدًا في برلمان اليمن الأعلى المُعين رئاسيًا، بينما أصبح جمال النهدي، ذو اليد

(1) Craig Turner, «Egyptian president survives assassination attempt» **Los Angeles Times**, June 27, 1995.

(2) أيمن الظواهري، فرسان تحت راية النبي، الطبعة الثانية، ص 94.

(3) «Interview with Ibrahim al-Banna».

الممزقة في تفجيرات الموفنبيك المخفقة قبل عدة سنوات، عضوًا في الهيئة العليا لحزب صالح الحاكم. لكن الفضلي والنهدي صاحبا نفوذٍ محليين بإمكان صالح استخدامهما ليحكم، بينما لا يملك المصريون شيئًا يحتاجه رجل اليمن القوي.

وعلى الجبهة العالمية، كانت أمور الجهاد في السوء نفسه، إذ اختفى الظواهري لشهور في شتاء عام 1996، وشوش الصمت المفاجئ أتباعه المعتادين على الاتصال المستمر من قائدهم الذي يدير الأمور بحذافيرها، وظهر فيما بعد أن الظواهري كان في سجنٍ روسي، معتقلًا لمحاولته عبور الحدود من أذربيجان دون موافقة، ولكن في ذلك الوقت، لم يعرف رجاله في اليمن إلا أنه لا يستجيب لندائهم، وعندما أُطلق سراح الظواهري في حزيران/ يونيو عام 1997 بعد أن أخفق الروس في تحديد هويته، بدأ بالعمل على خطته التالية التي كانت نتيجتها حمام الدم في الأقصر بعد خمسة شهور، وراح ضحيته ثمانية وخمسون سائحًا وأربعة مصريين رميًا بالرصاص في معبد الملكة حتشبسوت في مصر العليا، وكلفت هذه المذبحة رجال الظواهري الدعم القليل الذي كانوا لا يزالون يملكونه في مصر، وفي اليمن، تساءلت شبكته التي تزداد إحباطًا عما كان يخطط له قائدهم.

في شباط/ فبراير عام 1998، عاد الظواهري للتواصل مع ابن لادن في أفغانستان، حيث أُجبر قائد القاعدة على الهرب بعد أن طُردَ من السودان منذ عامين في محاولة حسن الترابي إعادة تأهيل بلاده في ظل العقوبات الدولية، وأصدر الظواهري وابن لادن، ومعهم عدة من القادة الإرهابيين الآخرين، فتوى بعنوان «الجهاد ضد اليهود والصليبيين»، وإعلان الحرب هذا يحث «كل مسلم» على قتل الأميركان واليهود حيث يجدهم، فصُدم أتباع الظواهري في اليمن، فهم لم يُستشاروا في ذلك، ما الذي يفعله قائدهم؟ وتدفق النقد من أنحاء الشرق الأوسط وأفريقيا وأوروبا في أثناء محاولة أعضاء الجهاد أن يصلوا إلى تفاهم بإزاء موقف الظواهري المنقلب، لقد كان من المفترض أن يحاربوا نظام مبارك، والآن يريدهم الظواهري أن يقتلوا الأميركيين.

كتب مسؤولٌ في **الجهاد** من اليمن إلى الظواهري قائلًا: أن توقيعه على الفتوى تقصير في الواجب[1]، وأنه كان يتخلى عن الصراع على روح مصر من أجل حربٍ لن يستطيعوا الفوز بها، ورد الظواهري بسرعة وغضب بأن قراره توحيدَ صف **الجهاد** مع قاعدة ابن

(1) Mohammed al-Shafey, «Al-Qaeda's secret emails» part 2, **al-Sharq al-Awsat** English, June 13, 2005.

لادن خطوة ضرورية للإطاحة بمبارك، فبدأ عملاء الجهاد حول العالم يعلنون استقالتهم مقتنعين بأن قائدهم خسر لمسته، وفي محاولةٍ لإيقاف خسارة البشر، عاد الظواهري إلى اليمن ليقوم بسلسلة من الاجتماعات وجهًا لوجه.

لما سافر الظواهري غربًا من أفغانستان، قاطعًا الخليج الفارسي ومعظم شبه الجزيرة العربية، كان لا يزال لا يفهم كثيرًا كيف تدهورت شبكة الجهاد اليمنية في غيابه، فمر عبر أمن مطار صنعاء بجواز سفرٍ مزورٍ آخر، ووجد سيارةً في انتظاره، وبدلًا من أن يأخذه الرجال إلى المنزل الآمن في صنعاء، الذي اعتبر خطرًا جدًا، قادوا السيارة نحو تعز الواقعة في المرتفعات الوسطى على بعد 140 ميلًا جنوب العاصمة[1]، وأراد الظواهري رحلةً سريعة، فقد كان متلهفًا ليعود إلى أفغانستان ويكمل العمل على خطته الكبيرة التالية، ولكن عليه أولًا أن يهدِّئ مخاوف الجماعة، ويعيد تجنيد بعض رجاله الساخطين.

بدأت الأمور بدايةً سيئة، فرفض أخوه محمد، الذي كان معاونه الأعلى، أن يعيد النظر باستقالته[2]، فسنوات البعد غيرت الرجلين؛ محمد أصبح متزوجًا ولديه ستة أطفال، ويعمل لدى شركة هندسةٍ كهربائية ليعيل عائلته، ولم يفهم ما الذي كان أخوه الأكبر يريده من إعلان الحرب على الولايات المتحدة، ولم يستطع أحدٌ في اليمن أن يفهم ذلك، ووجد الظواهري أن أحمد نصر الله – وهو مصريٌّ من أكثر عملاء الظواهري موثوقيةً كان يعمل سابقًا في دهن البيوت – محبطٌ جدًا من سلوكه، حتى إنه فقد الأمل من فكرة الجهاد برمته، ونصر الله شخصٌ تفقه وحده في النصوص الدينية المكثفة، ولديه تاريخٌ طويلٌ من التطرف يعود إلى السبعينيات، وكان ينشط على هوامش الجماعة المتطرفة المصرية **التكفير والهجرة** المسؤولةِ عن قتل وزيرٍ مصري عام 1977، وقضى نصر الله بعض الوقت في أفغانستان قبل أن يأتي إلى اليمن مع مد المصريين المنفيين في أوائل التسعينيات، لكن سنوات التنقل وخيانة الظواهري البادية لمهمتهم تركت أثرها فيه، فأراد نصر الله الخروج وظن أنه قد وجد طريقةً ليجعل حياته بعد الجهاد أكثر راحة.

بعد فترةٍ وجيزةٍ من وصول الظواهري إلى اليمن، دخل نصر الله إلى مقر وزارة الداخلية

(1) Andrew Higgins and Alan Cullison, «Friend or foe: the story of a traitor to al-Qaeda – murkey loyalties in Yemen undo the betrayer who finds himself betrayed – ominous words before 9/11» **Wall street Journal**, December 20, 2002.

(2) Wright, **The Looming Tower**, 260-261.

في صنعاء، التي تدير عدة أذرع استخباراتية متنافسة فيما بينها، وعرض تسليم قائده السابق مع بقية الشبكة في اليمن، وأثارت قصة نصر الله وزير الداخلية حسين عرب، وهو ضابط عسكري سابق قديم الطراز وذو بطن بارز وشارب كث، حتى أنه قابل نصر الله ثلاث مرات متتالية على مدى بضعة أيام،[1] لكن عرب اشتراكي سابق من الجنوب، ولم يكن واثقًا من موطئ قدمه في يمن ما بعد الحرب، فأخذ وقته في التعامل مع معلومات نصر الله، وخاف نصر الله من أن الظواهري قد يعود إلى أفغانستان فيفسد فرصته بالمكافأة قبل أن يتحرك عرب، فتخلى نصر الله عن جهوده مع الوزير وتقدم نحو أعلى وكالة استخبارات في اليمن: منظمة الأمن السياسي.

قام سكرتير بإعطاء نصر الله موعدًا مع نائب المدير محمد الصرمي، وهو مسؤول زائد الوزن في الخمسينات من عمره وافق على مقابلة المصري في فندق صنعاء، وبعد استماعه إلى رواية نصر الله غير المترابطة عن حالة شبكة الظواهري في اليمن أوعز إليه نائب المدير أن ينتظر في غرفة الفندق بينما يجري اتصالًا هاتفيًا، وبعد أربع ساعات وصل عبد السلام الحيلة، وهو كولونيل في منظمة الأمن السياسي في الواحد والثلاثين من عمره، ليتولى القضية ويراقب خائن الجهاد.

لدى منظمة الأمن السياسي تاريخ طويل مع الجهاديين يعود إلى الثمانينيات لما كانت جزءًا من جهود اليمن لإرسال المقاتلين إلى أفغانستان، فقد ساعدت وكالة التجسس، بعد التوحيد في 1990، المحاربين الأجانب العائدين على الاستقرار في البلاد، وكان لها دور فعال في استخدام هؤلاء الرجال أنفسهم لهزيمة الاشتراكيين في حرب عام 1994 الأهلية، والحيلة، النجم الصاعد في الوكالة، رجلٌ قبليٌّ من أطراف صنعاء يرتدي عادةً ملابس غربية وربطة عنق، ولديه لحية سوداء أنيقة تغطي جزئيًا فكه البارز، وبصفته رجل الاستطلاع على الجهاديين في منظمة الأمن السياسي فقد سيطر على ملف الوكالة الإسلامي[2]، وقام الصرمي بتقديمه لنصر الله على أنه ضابط قضيته.

قام الحيلة بنقل نصر الله عبر المدينة إلى بيت آمن لمنظمة الأمن السياسي للاستجواب، وجلس نصر الله في الشقة الصغيرة في وسط مدينة صنعاء يسرد قصته للمرة الثالثة، فأعطى

(1) Higgins and Cullison, «Friend or foe».

(2) Human Rights Watch, Black hole: **The Fate of Islamists Rendered to Egypt**, March 2005, 34-39.

الحيلة عنوان مخبأ الظواهري في تعز بالإضافة إلى مواقع أخرى مؤمَّنة تستخدمها **الجهاد** على امتداد البلاد، حتى أن نصر الله عرض نفسه كعميل، قائلًا للحيلة: أنه يستطيع أن يسافر جنوبًا ليتجسس على بقايا جماعة الفضلي، التي تجزأت بعد أن ترك قائدهم الجهاد في أعقاب الحرب الأهلية وهزيمة الاشتراكيين وعودة أرض عائلته إليه في أبين، فشرح نصر الله أن العديد من هؤلاء الرجال اتحدوا تحت قيادة رجلٍ يدعى زين العابدين المحضار، أو إن لم تكن منظمة الأمن السياسي مهتمةً بذلك، فإنه يستطيع السفر إلى أفغانستان ويجمع المعلومات عن ابن لادن، سيفعل أي شيءٍ تطلبه منه منظمة الأمن السياسي، فهو لا يريد سوى الخروج فقط، واستمع الحيلة بصبر، حاثًا المصري أحيانًا على إعطاء المزيد من التفاصيل، فمنزل منظمة الأمن السياسي الآمن يحوي كاميرا مخبأة والحيلة يريد أن يسجل كل شيءٍ على الشريط.

حزم الحيلة أمره بينما كان يمشي خارجًا من الشقة، فخلال دقائق طلب الجاسوس اليمني رقمًا يعرفه جيدًا وأخبر الرجل الذي أجاب أن لديه خائنًا في صفوفه.

صعقت الأخبار مجمع الجهاديين في اليمن، فقد خانهم أحد إخوانهم، وفهم الظواهري أخيرًا إلى أي مدىً ساءت الأمور، فأخرجته بقايا منظمته المحبطة من البلاد بينما قبض عملاء آخرون على نصر الله[1]، واحتجزه الرجال أيامًا مقيدًا ومكممًا في أحد البيوت الآمنة التي عرضها نصر الله على السلطات، وأخيرًا، بعد عدة جولاتٍ من التعذيب، انتزعوا منه اعترافًا، وفي هذه المرة كانت الكاميرا في مكانٍ واضح، والمصري المحطم يحدق فيها مباشرةً.

لم يعرف أحد ما الذي يتوجب فعله بنصر الله، وتطايرت الرسائل ذهابًا وإيابًا بين قادة الجهاديين في اليمن وأفغانستان، فأراد بعضهم إعدامه فورًا، بينما دعا البعض الآخر إلى الحذر ومحاكمته محاكمة كاملة، وأقسمت الجماعة التي تعاني ضائقةً مالية في اليمن أنها لا تملك ثمن تذكرة إلى أفغانستان، فقالوا: إن أراده المتعهد، اسم ابن لادن الحركي، فعليه أن يرسل المال بنفسه، وجاء المال، لكن نصر الله أضاع خاطفيه في المطار واستطاع أن يركب على متن طائرةٍ متوجهةٍ إلى مصر، فاعتقله عملاء مبارك، الذين كانوا يبحثون عن أعضاء الجهاد، بمجرد أن هبط في القاهرة، لكن الضرر بات محققًا، فبالإضافة إلى

(1) Higgins and Cullison, «Friend or foe».

الظواهري، غادر العشرات من العملاء الآخرين اليمن، إذ فضحت شبكتهم بعد خيانة نصر الله، فتفرق بعضهم في أوروبا وأفريقيا لكن معظمهم شقوا طريقهم إلى أفغانستان، حيث انضموا إلى ابن لادن والظواهري في قندهار، وجاء معهم جيلٌ جديد من المقاتلين.

لربما كان لإعلان الحرب الجريء - في الفتوى المشتركة مع ابن لادن - مفعول تقسيمي في حرس الظواهري القدامى من المصريين، ولكن بالنسبة لجيلٍ كاملٍ من العرب الأصغر سنًا كان له مفعول عكسي، فقد شب المراهقون الذين استجابوا لنداء ابن لادن الجديد على قصص الجهاد في أفغانستان، مشاهدين فيديوهات حماسية من الثمانينيات، واستمعوا لعظات تمجد القتال في الخارج، وجاء العديد من هؤلاء المجندين الجدد في اليمن من المعاهد الدينية التي يقارب عددها 1000 معهد والتي نبتت فجأة في السبعينيات والثمانينيات، وبحلول الوقت الذي دعا فيه ابن لادن والظواهري إلى حربٍ شاملة على الأميركيين واليهود كانت تلك المدارس قد خرجت أكثر من 600000 شخص[1]، ودرس في هذه المعاهد منفيون سعوديون ومصريون، فلم تحول تلك المعاهد الطلاب إلى إرهابيين بالضرورة، لكنها خلقت طلابًا أكثر استعدادًا لرسالة القاعدة، لقد كانت هذه المدارس عتبات للتورط، غير ضارة على السطح الظاهر لكنها جدُّ خطيرة بإعادة النظر الآن.

أحد هؤلاء الخريجين الجدد كان ناصر الوحيشي، شاب صغير ضعيف البنيان في الثانية والعشرين ذو أنف حاد وخدود متهدلة؛ شبَّ الوحيشي في الجبال في منطقة **المكيراس** شمال أبين، وهي منطقة منعزلة وضعيفة اقتصاديًا تندر فيها الطرق و فرص الحياة، وتبعد نحو 100 ميل تقريبًا إلى الداخل من خليج عدن، وبعد تخرجه عام 1998، بات الوحيشي يستطيع تلاوة القرآن ومناقشة أدق النقاط في القانون الإسلامي، لكن هذه المهارات غير ذات نفعٍ في إيجاد عمل[2]، وبدلًا من ذلك، ترك الطالب الشاب منزله في اليمن الجنوبي إلى أفغانستان، وسوف تمضي خمس سنوات طويلة قبل أن يعود.

بعد فترة وجيزة من وصوله إلى معسكر تدريبٍ بالقرب من مدينة خوست الأفغانية،

---

(1) يذكر البعض هذا الرقم أعلى بقليل، أنظر: على سبيل المثال Paul Dresch, A History of Modern Yemen (**New York**: Cambridge University Press, 2000), 173.

(2) Nayif al-Qahtani, «The wanted: between yesterday and today» (Arabic), **Sada al-Malahim** 8 (March 2010), 36.

لاحظه أحد كشافي ابن لادن، فقائد القاعدة دائم البحث عن المواهب المميزة، وبعد أيامٍ من المراقبة ظن أنه قد رأى شيئًا من نفسه في اليمني القصير، فكلاهما مفكرٌ معسول اللسان، ورجلٌ ذو طموح صامت، قادر على الرؤية أبعد ممن حوله، وفي أحد الأيام جذب ابن لادن الوحيشي جانبًا لحديثٍ شخصي، وأخبر المتطوع الشاب أنه رأى أشياء عظيمةً في مستقبله، وبينما يستمع الوحيشي إلى ابن لادن يضع تصوره للمستقبل وجد نفسه يقع تحت سحره، وسرعان ما وجد نفسه يتلو قسم الطاعة وينضم إلى القاعدة، وكان ابن لادن يفضل دومًا أن يحيط نفسه بحراسٍ شخصيين يمنيين، لكن كانت لديه خطة مختلفة لمجنده الأحدث، فالوحيشي أقصر من أن يكون مخيفًا وأذكى من أن تهدر موهبته، فجعله ابن لادن سكرتيره الخاص ومتدربًا عنده كمعاون شخصي ليهتم بمراسلاته وجدول أعماله، وفي السنوات الأربع التالية بات الوحيشي ظل ابن لادن، وكان الاثنان «دائمًا معًا»، كما يتذكر أحد المقاتلين(1)، وسرعان ما لحق شبابٌ يمنيون آخرون بالوحيشي إلى معسكرات تدريب القاعدة في أفغانستان، هؤلاء الشباب الصغار أنفسهم سيشكلون بعد عقدٍ من الزمن تنظيم القاعدة في شبه جزيرة العرب.

بينما قُيدَ الجيل الجديد في أفغانستان عبدًا لرؤى ابن لادن لحربٍ عالمية ضد اليهود والأميركيين، صارعت أجزاءٌ من الجيل القديم لتترك أثرًا في اليمن، ففي الجنوب، كان زين العابدين المحضار - الرجل نفسه الذي حذر خائنُ الجهاد نصر الله الحكومةَ اليمنية منه - يجمع جيشًا، وكانت مجموعته المختلطة من اليمنيين والمصريين والقليل من العرب الآخرين في معظمها من بقايا جيش الفضلي، فبعد الحرب الأهلية عام 1994، أعاد صالح معظم أرض الفضلي وسمح له بإبقاء راتبه ككولونيل مقابل خدماته المقدمة في أثناء الحرب، فقال الفضلي للناس لاحقًا متحدثًا عن تلك الفترة من حياته: «كنت أدخل إلى القصر الجمهوري من دون موعد، كنت ضمن السلطة العليا»(2)، لكن لم يشعر رجال الفضلي كلهم بالمشاعر ذاتها، وبين أولئك الذين لم يحاربوا من أجل أرضٍ أو مال كانت هنالك همهمات كئيبة ساخطة ومحبطة، فانجذبوا جنبًا إلى جنب مع المجاهدين الأجانب - الذين ظنوا أن الفضلي قد باع قضيته - نحو المحضار ونسخته غير المساومة من الجهاد.

---

(1) Jabir al-Fayfi, «Interview on Homuna» **(Arabic), Saudi Television**, December 2010.

(2) Robert Worth, «Ex-jihadist leader defies Yemeni president, easy lables, «**New York Times**», February 26, 2010.

كان المحضار ذو الاثنين وثلاثين عامًا خيارًا واضحًا، فهو يمني من المحليين، طويل ووسيم وسامة وحشية تقريبًا، وذو مميزات جهادية من أفغانستان، وقد رفض المشاركة في القتال إبان الحرب الأهلية ضد الاشتراكيين، فقد أعلنها حرب ظلام وجهل[1]، وفي إحدى المراحل من القتال اندفع نحو معسكر الفضلي ليحاضره عن مخاطر المشاركة في حربٍ كهذه: «أنت تقاتل تحت راية علي عبد الله صالح، وليس تحت راية النبي»، قال محتجًا في ظل نار المخيم:[2] «هذا ليس بجهاد».

استمع الفضلي باحترام للمحضار في المخيم، لكن بمجرد أن رحل، بدأ الفضلي بشتم سجلِّه قائلًا: «هذا شخصٌ رفض أن يقاتل في الصفوف الأمامية في أفغانستان»[3]، فنحن لا نقاتل من أجل صالح، نحن نقاتل ضد الاشتراكيين. لكن هذا التمييز أخفق على أية حال في النجاة من تداعيات ما بعد الحرب وارتداد الفضلي في نهاية المطاف إلى معسكر صالح، وعندما لم تُنتج هزيمةُ الاشتراكيين دولة إسلامية، تذكر الرجال تحذير المحضار.

دعا المحضار جماعته من الساخطين جيش عدن - أبين الإسلامي، وأخذ الاسم من حديثٍ نبويٍ يقول بأنه سينشأ في آخر الزمان جيشٌ من 12000 رجل في المناطق المحيطة بعدن وأبين ليدافع عن الإسلام(*)، ولكن على أكثر التقديرات لم يتجاوز أفراد الجماعة أكثر من عدة حفنات من الأتباع بالكاد يشكلون جيشًا، لكنهم كانوا طموحين.

في خريف عام 1998 بدأ جيش عدن - أبين الإسلامي بإصدار سلسلةٍ من التصريحات من خلال أبي حمزة المصري، رجل دينٍ مصري كان قد خسر يديه الاثنتين وعينًا واحدة بانفجار لغمٍ أرضي في أفغانستان، وقد استبدل المصري لاحقًا إحدى يديه بخطاف ووضع عصبة على عينه المتضررة ليغطيها، وبصفته شيخ مسجد فينزبري في شمال لندن، كان المصري يستطيع التواصل بسهولة مع صحفيي المدينة، وكان المحضار قد التقى بالمصري في أثناء اختلاط الجهاديين في بيشاور في أوائل التسعينيات، وفي ذلك الوقت، تطلع المحضار الشاب إلى المصري كمرشدٍ روحي، وبعد عقدٍ من الزمن، عندما شكل اليمني جيش عدن - أبين الإسلامي، تواصل مع المصري للحصول على النصح

(1) Khaled al-Hammadi, «Interview with Tariq al-Fadhli» (Arabic), **al-Quds al-Arabi** 1999.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(*) يقصد الحديث: «يَخْرُجُ مِنْ عَدَنِ أَبْيَنَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، هُمْ خَيْرُ مَنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ».

والإرشاد، ومثلهم كمثل ابن لادن، كان الرجلان قلقين من الحضور المتزايد للولايات المتحدة في شبه الجزيرة العربية، ومن كون السعودية تستضيف قواعد عسكرية أميركية منذ حرب الخليج عام 1990، و قلقين من حذو بقية الدول في الخليج حذوها، فاقتنع كلٌّ من المحضار والمصري بأن اليمن هي الدولة الوحيدة «المستقلة» الباقية في شبه الجزيرة العربية، لكن حتى هذا كان يتغير.

بعد ثماني سنوات من الأداء الكارثي لليمن في مجلس الأمن، باتت الولايات المتحدة الأميركية جاهزة أخيرًا لتغفر لصالح، وفي إشارةٍ لتنامي النوايا الحسنة قامت البحرية الأميركية بالمفاوضة على صفقة لاستخدام عدن كقاعدةٍ لإعادة التزود بالوقود، وشوهدت سفيرة الولايات المتحدة إلى اليمن – وهي دبلوماسيةٌ أنيقة ذات مسيرةٍ مهنية جادة من ولاية ميسوري تدعى باربرا بودين – بشكلٍ متزايد في أنحاء البلاد، وكانت السفيرة الأنثى الأولى للولايات المتحدة في اليمن، فسبَّبَ مظهرها الحسن المتناسق وغير المنقب صدمةً للكثيرين في البلد المحافظ، ولكن ما شكل قلقًا أكبر للمجاهدين تحت إمرة المحضار هو التدفق المستمر للمسؤولين العسكريين الأميركان لزيارة صنعاء.

في 12 كانون الأول/ ديسمبر عام 1998، هبط الجنرال أنتوني زيني، ضابط بحريةٍ مربوع القامة ذو ذقنٍ بارز، في صنعاء للاجتماع مع الرئيس صالح، وقد تم تعيين زيني في آب/ أغسطس الماضي رئيسًا للقيادة المركزية الأميركية، وهي مركز الإدارة العسكرية الإقليمية المسؤولة عن العمليات في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى والقرن الإفريقي، وقد أتى إلى اليمن لمناقشة الجهود المستمرة لإزالة الألغام من الجنوب بعد الحرب الأهلية وللتحدث عن عمليات عسكرية مشتركة بين الولايات المتحدة واليمن في المستقبل، وبات هذا بالنسبة للمحضار والمصري أكثر مما يمكن احتماله، إذ إنهم كانوا يحصون عدد الأميركيين. وزيني سابع مسؤول عسكري أميركي يزور اليمن في تلك السنة[1]، وبالنسبة إلى رئيسٍ احتاج إلى مساعدة الجهاديين ليحافظ على تماسك بلاده قبل أربع سنوات، بات صالح يتقرب أكثر من اللازم من الأميركيين.

بعد أسبوعين، في 23 كانون الأول/ ديسمبر 1998، بات كل شيءٍ جاهزًا للرد الذي حذر منه المحضار والمصري في تصريحاتهما، وتطلبت الخطة عدة مسلمين بريطانيين

(1) Brain Whitaker, «Abu Hamza and the Islamic army» **al-Bab**, available at: http://www.al-bab.com/yemen/hamza/day.htm.

من ضمنهم ابن المصري الأكبر وربيبه لينفذوا سلسلةً من الهجمات المنسقة في عدن في يوم عيد الميلاد، وسوف يهربون من البلاد بعد ذلك إلى لندن، التي كان يحب المصري أن يصفها بـ«فردوسٍ تستطيع أن تفعل كل ما تريد فعله فيه»[1]، ومن ضمن الأهداف في عدن كانت الكنيسة الإنجيلية ومطعمٌ ذو شعبيةٍ لدى الأجانب والقنصلية البريطانية ومكتب الأمم المتحدة وفندق الموفنبيك حيث موقع هجوم النهدي المخفق في 1992، وأكد المحضار لأتباعه في اليمن أن القوة الساحقة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الأميركيون، فقال: أن الاحتلال الزاحف على اليمن لن ينتهي إلا عندما يتم إثبات أن بقاءهم مكلفٌ جدًا.

في وقت متأخر من الليل في 23 كانون الأول/ ديسمبر ترك ستة رجال - خمسة بريطانيين وجزائري كان قد سافر معهم من مطار هيثرو - مخيَمَ المحضار في أبين بسيارة سيدان بيضاء، وقاد الرجال السيارة بحذر شديد على طول الطريق الترابي الصخري مدّةً بدت لهم ساعاتٍ قبل أن يصلوا إلى الطريق المعبد الموصل إلى عدن، إذ كان في صندوق السيارة عدة ألغام وقاذفات صواريخ ومواد لصنع قنابل متنوعة، ولم يكن أحدٌ منهم يريد أن ينفجر قبل أوانه.

وصلوا إلى ضواحي عدن في منتصف الليل تقريبًا، وبينما اقتربت السيارة من دوارات المرور وقع السائق - وهو مواطن بريطاني شاب من أصل يمني يدعى مالك هرهرة - ضحية العادات القديمة، فبدلًا من الدوران حول الدوار بالاتجاه المعاكس لعقارب الساعة المفضل في اليمن، دار هرهرة بالطريقة التي يقود فيها السيارة في بريطانيا، فاسترعى[2] المشهد الغريب لسيارة تدور حول الدوار بالاتجاه الخاطئ انتباه شرطي المرور، الذي أشار لهم بالوقوف، وعندما انحنى شرطي المرور لينظر إلى السيارة ويسأل هرهرة عن أوراقه الثبوتية ذعر الشاب ذو الستة والعشرين عامًا وانطلق مسرعًا، ولم يكن هرهرة واثقًا من مكانه في الظلام فاستمر بالانعطاف أملًا أن يضيع الشرطة التي باتت الآن تلاحق الرجال عبر ازدحام عدن المروري الصباحي، وبات هرهرة يرتجف من الأدرينالين بسبب مطاردة السيارة فأهمل حذر الساعات القليلة الماضية، وصدم سيارةً قادمةً، بينما كان يتأرجح على زاوية.

---

(1) **BBC Four Documentaries**, «Sheikh Abu Hamza» aired April 26, 2003.

(2) Brain Whitaker, «The Aden bomb plot» **al-Bab**, December 14, 1999.

صُدم الرجال الستة في السيارة لكنهم خرجوا سالمين بأعجوبة، وبعد دقيقة ذهول فتحوا الأبواب وانسلوا خارجًا إلى هواء الليل المنعش، تاركين السيارة والأسلحة التي فيها للشرطة، لكن أحدًا منهم لم يكن يملك أي فكرةٍ عن مكانٍ وجوده، وخلال بضع ساعات استطاعت الشرطة اعتقالهم جميعًا[1].

وفي أبين، سارع المحضار لإيجاد طريقةٍ لإنقاذ خطة عيد الميلاد، وأخبره أحد معارفه المحليين أنه من المقرر قيام مجموعة من السواح الغربيين بجولة في أبين شبيهة برحلات السفاري في الأيام المقبلة التالية، فوضع المحضار بعجلةٍ خطةً لاسترداد رجاله، وفي حوالي 11 صباحًا 28 كانون الأول/ ديسمبر رصد مجاهدي المحضار قافلة السياح المكونة من خمس سيارات رباعية الدفع تقطع ببطءٍ طريقها الضيق الملفوح بالرمال عائدةً إلى عدن، وعندما مرت سيارة الدفع الرباعي الأولى بمخبئهم سارع المجاهدون في شاحنةٍ إلى الرصيف فسدوا طريقها على السيارات الأربع الأخرى، ووقف فجأة باقي الرجال الذين كانوا يختبئون خلف الصخور والأشجار صارخين «الله أكبر» ومطلقين رصاصاتهم في الهواء[2]، وبالنسبة إلى السياح في سيارات الدفع الرباعي كان المشهد سرياليًا، كفيلم هوليود عن الغرب الأميركي يتحقق أمام أعينهم، وسارع رجال المحضار بالنزول أسفل المنحدر الصخري، واندفعوا باتجاه القافلة، وقام أحد الرجال بتهديد السائق بقنبلةٍ يدويةٍ وأمره بالخروج من السيارة، وبمجرد أن فتح السائق الباب، سحبه الرجل المقنع إلى الأرض وضربه على رأسه بأخمص سلاحه[3]، واستطاع أحد السياح وسائق السيارة الأولى الهروب في الفوضى المشبعة بالغبار، ولكن وقعت بقية المجموعة ـ ستة عشر سائحًا من بريطانيا وأستراليا والولايات المتحدة، بالإضافة إلى أربعة سائقين يمنيين ـ بإيدي المحضار.

تكدس المجاهدون في سيارات الدفع الرباعي وناوروا بها خارج الطريق إلى طريقٍ غير واضحة، فقادوا شمالًا عدةَ دقائق شاقين طريقهم بجانب أشجارٍ ضامرة وتلال اليمن الجنوبي الصخرية المنخفضة، وبعد سحبهم إلى مخيمهم الأساسي قام المجاهدون بفصل السواح عن السائقين المحليين، وأبقوا المجموعتين تحت حراسةٍ مسلحة،

(1) المصدر السابق.

(2) Brain Whitaker, «The Abyan Kidnapping: introduction» **al-Bab**, February 16, 1999.

(3) Brain Whitaker, «The Abyan Kidnapping: witnesses» **al-Bab**, February 16, 1999.

وأجرى المحضار عدة مكالماتٍ إلى المملكة المتحدة عن طريق هاتفه المرتبط بالأقمار الصناعية، «لدينا البضائع التي طُلبت ـ 1600 كرتونه مصنفة بريطانية وأميركية»[1]. قال هذا بتورية واضحة.

ومن لندن، وافق المصري على مبادلة الرهائن بأعضاء من جماعتهم ومن ضمنهم ابنه وربيبه الذين كان قد أُلقي القبض عليهما في عدن بعد مطاردة السيارة في ساعات الصباح الباكر من عشية ليلة الميلاد، فأرسل المحضار مرسالًا إلى مخفر شرطةٍ محلي ليعلم الحكومة بمطالبه، ومن ثم جلس ينتظر. يحدث اختطاف الأجانب بشكلٍ متكررٍ في اليمن كون الحكومة ـ بسبب حرصها على تجنب الصحافة السلبية العالمية ـ تذعن دومًا، وعاد المحضار لينضم إلى رجاله في وقت متأخر مساءً ليأكلوا وجبةً من اللحم الطازج المطبوخ على نار المخيم.

استيقظ الرجال مبكرين ليؤدوا صلاة الفجر، وبعد وقتٍ قليلٍ من انتهائهم، جال شيخ مسن من قبيلةٍ محلية في المخيم محملًا بالشاي والبسكويت، فقد أراد التوسط بين المحضار والحكومة، وهو دورٌ عادة ما يقوم به كبار الشخصيات المحلية، حيث أن المختطفين موجودون في منطقته، وطبقًا للقانون القبلي فهو يتحمل مسؤولية، ولكن المحضار صد محاولاته قائلًا له: إنهم يملكون «اتصالاتٍ أعلى»[2]، فتراجع الرجل المسن خارجًا من المخيم حائرًا من رفض المختطفين للتفاوض.

لم يكن لدى الحكومة أيضًا أي نية على المساومة، فحاصر الجنود اليمنيون مخيم المحضار، وكان صالح متأكدًا من أنه يستطيع استعادة السياح من دون إطلاق سراح المساجين، إذ أراد صالح، كما فعل مع الاشتراكيين في عدن تمامًا، أن يرسل رسالةً للمجاهدين، وأمر قادة صالح رجالهم في أبين بالتحرك في الساعة الثامنة صباح ذلك اليوم، فتسلل الجنود زاحفين ببطء نحو المخيم مستخدمين سلسلةً من قنوات المياه الجافة، فأطلق أحد الحراس على أطراف المخيم النار محذرًا بعد أن رصد تقدم المغاوير عبر الصخور والأشجار الصغيرة[3]، فدفع رجال المحضار الرهائن للوقوف على أرجلهم بعنف ليستخدموهم دروعًا بشرية صارخين أنهم سيقومون

(1) Brain Whitaker, «The Abyan Kidnapping: introduction».

(2) المصدر نفسه.

(3) Brain Whitaker, «The Abyan Kidnapping: witnesses».

بإعدامهم إن لم يتراجع الجنود، فقتل في فوضى إطلاق نار الآر بي جي والبازوكا أربع رهائن.

حاكمت اليمن المحضار ورجاله الذين في المخيم وطلبت تسليم المصري من بريطانيا، وهو ما رفضه رئيس الوزراء توني بلير، وفي اليمن، رفض المحضار أن يعترف بمحكمة أمن الدولة، صارخًا في وجه القاضي: «أنا مجاهد، أنا أحارب من أجل تأسيس قانون الشريعة في اليمن»[1]، ولم تتغير روايته بعد بضعة أيام، فقال: «إذا أردتم أن تحاكمونا، عليكم أن تعقدوا محكمة إسلامية»، واقتَرح عبد المجيد الزنداني وعبد الوهاب الديلمي، رجليْ الدين اللذين كانا الأكثر نشاطا في التجنيد لأجل أفغانستان، سلطة مناسبة لمحاكمته. «لقد حاربنا في أفغانستان والشيشان وسوف نكمل صراعنا حتى تأسيس دولة إسلامية في اليمن».

استمرت محاكمة المحضار أشهرًا، وشهد أحد المتهمين أن المحضار التقى برجلٍ يعرفه الشاهد باسم أبو علي الحارثي في صنعاء[2]، ولكنه كان اسمًا وسط الكثير من الأسماء وسرعان ما ضاع وسط عاصفة من القيل والقال، وفي شباط/ فبراير عام 1999 قدم الادعاء دليلًا مأخوذًا من بيت المحضار في شبوة، فقد وُجِدَ ضمن الأدوات عددٌ من صور أسامة ابن لادن، فأجاب المحضار، «نعم، ثلاث مرات نعم[3]، لو وُجِدَ لدينا عشرة رجال مثله في العالم الإسلامي لحرروا الناس، ونحن نطلب من المجاهدين أن يجتمعوا حوله».

في 17 تشرين الأول/ أكتوبر، بعد خمسة شهورٍ من صدور الحكم، أمرت الحكومة اليمنية بإعدام المهذار، حيث رافق أربعةُ حراس السجين المكبل اليدين إلى ساحةٍ عامةٍ في صنعاء، فظهر المهذار بمظهر ديني نقي مرتديًا ثوبًا أبيضَ، وأُعطي فرصةً ليقوم بصلاته الأخيرة قبل أن يطرحه الجنود أرضًا موجهين وجهه نحو الأسفل على سجادة حمراء مفروشة فوق رقعةٍ من التراب، وحام المسؤول عن تنفيذ حكم الإعدام حول المحضار محاطًا بضوضاء الحشد المتدافع مُحدقًا بالرجل الساجد، وتلفت حوله بسرعة بينما سكت المتفرجون مترقبين، وبحركة تكاد تكون غير مبالية من كتفيه أطلق رصاصةً

(1) Brain Whitaker, «The Abyan Kidnapping: the trial so far» **al-Bab**, March 6, 1999.

(2) Brain Whitaker, «The Abyan Kidnapping: statements attributed to the defendants» **al-Bab**, February 1999.

(3) Whitaker, «The Abyan Kidnapping: the trial so far».

واحدة، فسارعت الرصاصة بالنزول ثلاثة أقدامٍ نحو الأسفل إلى مؤخرة رأس المحضار، فهز صوت الرصاصة الهواء للحظة، قبل أن يرتّفع صوت الهتاف، لقد مات المجاهد.

لم تنته الاستياءات الغاضبة التي تجسدت صورتها في المحضار بإعدامه، فتناثرت في أنحاء البلاد احتقانات صغيرة غضبًا وحنقًا، بينما تساءل عددٌ من المجاهدين لماذا يُتَجَاهلون بدلًا من أن يدعوا ليشاركوا في حكم البلاد كما وعدهم صالح؟ وسرعان ما سيتعلم الرئيس ما ثمن تجاهل وكلاء بغيضين.

الفصل الخامس

العمل الجنوبي
2000 - 2001

في مخيم الفاروق التدريبي على حافة قندهار في جنوب أفغانستان، جلس ابن لادن ليخطط حركته القادمة. كان هذا في أواخر كانون الثاني/ يناير وكانت خططه للألفية قد أخفقت، فقبل عامين من ذلك، بعد فتواه المعلنة «الحرب على الأميركيين واليهود»، نفذ رجال ابن لادن تفجيرات متزامنة على السفارات الأميركية في كينيا وتنزانيا، وردت الولايات المتحدة بعد ثلاثة أسابيع بضربات صاروخية على السودان وأفغانستان دمرت عدة مخيمات تدريب تابعة لابن لادن، ومنذ ذاك الحين والقاعدة تصارع من أجل الرد.

في كانون الأول/ ديسمبر 1999، اعُتقلت خلية تتألف من ستة عشر شخصًا في الأردن بينما كانوا يحضرون لضرب فنادق غربية، وبعد عدة أيام من ذلك، في الزاوية الشمالية الغربية لحدود الولايات المتحدة، أوقف حرسٌ حدوديٌ يقظ جزائريًا متوترًا بينما كان يحاول عبور الحدود باتجاه واشنطن من كندا، وكانت نيته، كما اعترف لاحقًا، أن ينفذ تفجيرًا في مطار لوس أنجلوس الدولي، وكان من المفترض أن تتم ضربة ثالثة في 3 كانون الثاني/ يناير تحت إشراف عبد الرحيم الناشري، وهو قائد عمليات القاعدة في شبه الجزيرة العربية، وعلاوةً على ذلك، كانت مجموعة صغيرة من عملاء القاعدة تخطط لتفجير واحدة من سفن الولايات الحربية التي تَستخدم عدن للتزود بالوقود.

ولكنهم في أثناء تدريب قاموا به قبل الضربة المقررة، حمَّلوا القارب الصغير ما يفوق طاقته من المتفجرات، ومن ثم جلسوا يتفرجون بينما غرق قارب الهجوم قرب الشاطئ[1]،

= Federal Bureau of Investigation, Terrorism 2000-2001, 8, available at: http://www.fbi.gov/ (1)

وعندما استعاد الرجال القارب باتت قطع المتفجرات المشبعة بالماء متضررةً بحيث يتعذّرُ استخدامها، فأجبرَ الناشري على تأجيل العملية. لم يكن لابن لادن يدٌ مباشرة في أيٍ من هذه الخطط، إذ كان مستمرًا في تفضيل أسلوب مركزية القرار ولا مركزية التطبيق، ولكنه على الرغم من ذلك كان يتوقع ما هو أفضل[1].

امتزجت خيبة الأمل بالهجمات المخفقة مع قلق ابن لادن في ذلك الشتاء في أفغانستان، فقد كان ابن لادن متزوجًا من أربع معظم حياته البالغة، وهو أعلى عدد مسموح به في الإسلام، ولكنه في السنوات الأخيرة بات غير متزوج إلا من ثلاث، إذ في أثناء منفاه في السودان، طلبت زوجة ابن لادن الرابعة (أم علي) الطلاق كي تستطيع العودة إلى رخاء السعودية، ومنحها ما طلبت، ولكن ذلك آلمه[2]، وبعد ما يقارب أربع سنوات من الحادثة المزعجة، بات ابن لادن مستعدًا للتجربة مجددًا، فقام صديق يمني بالتحضيرات الأولية، فوصل بين ابن لادن وآل الصداح، وهي عائلة من اليمن تقطن في إب الجبلية التجارية التي تبعد حوالي 100 ميل عن صنعاء[3]، وهي عائلة أرستقراطية محلية مشهورة بإنتاج أجيال من علماء الدين،[4] ووصف وسطاء ابن لادن أمل الصداح ـ العروس ذات الخمس عشرة سنة ـ بأنها جميلة وتقية، وكجزء من عقد الزواج التقليدي، وافق ابن لادن على مهر للعروس قدره 5000 دولار.

وكان ابن لادن قلقًا من تحويل الأموال، وغير قادرٍ على السفر بنفسه بعد ضربات الولايات المتحدة التي جاءت قبل عامين، فوجد نفسه في حاجة إلى مرسال، واختار ناصر البحري وهو حارسه الشخصي الذي سبق أن أنقذ حياته عندما أحبط محاولة لاغتياله، وقبل أشهرٍ من ذلك، هيّأ ابن لادن البحري وسائقٍ يمني باسم سالم حمدان الزواج من أختين يمنيتين، والآن قد انعكست الأدوار، وبات على ابن لادن الوثوق بالبحري في تفاصيل زواجه الخاص.

---

stats-services/publications/terror/terrorism-2000-2001#Terrorist%20Incidents. =

(1) Hammadi, «Interview with Nasir Bahri» 2004.

(2) Wright, The Looming Tower, 194.

(3) Khaled al-Hammadi, «Interview with Nasri Bahr» **al-Quds al-Arabi**, translated by Foreign Broadcast Information Services, March 20, 2005.

(4) Ibrahim Ahmad al-Maqhafi, The Yemeni Geographical and Tribal Dictionary (Arabic), 2 vols. (Sanaa: Dar al-Kalimah, 2002), vol. 2, 759.

كان البحري يبدو كحارسٍ شخصي فعلًا، فهو قويُّ البنية، وذو عينين حذرتين، ويعرفُ في المعسكرات باسمه الحركي أبو جندل، والذي يعني نوعًا ما «القويّ»، ويمتلك حسًا خاصًا من الدعابة، يستطيع به أن ينزع فتيل التوترّ من الأجواء، وكثيرًا ما راق هذا لقائده.

والبحري، كحال ابن لادن، مولودٌ لأب يمني في السعودية، وكحال آلاف العرب الذين نضجوا في الثمانينيات، كان البحري معجبًا وملهمًا بقصص الجهاد في أفغانستان، ولكنه كان قلقًا من أنَّه، وبرحيل الاحتلال السوفييتي، قد فوَّت على نفسه فرصته في المجد والعظمة، وفي 1993، قامت معلمة مدرسة في السعودية برعايته في الجهاد الجديد في البوسنة[1]، وهي طريقة شائعة للنساء والكبار في العمر غير القادرين على القتال يشاركون بها في الجهاد، فاستخدم البحري الألفي دولار اللتين أعطته إيّاهما المرأة لشراء المعدَّات وتذكرة إلى البوسنة، وبعد جولة قصيرة في البوسنة، انتقل المقاتل ذو الواحد والعشرين عامًا إلى الصومال، ومن ثم طاجاكستان التي كانت وسط حربها الأهلية الخاصة.

بحلول أوائل 1996، انتقل البحري و الدزينات الثلاث من المقاتلين العرب تحت إمرته تدريجيًا إلى أفغانستان، وكان الرجال، مثلهم في ذلك مثل معظم المقاتلين في حلقة الجهاد في التسعينيات، يبحثون عن جهادٍ صافٍ، ولكنهم أينما ذهبوا وجدوا المشكلات، ففي البوسنة بدا أن المسلمين الأوروبيين لا يريدون مساعدتهم، ولا يثقون بهم حتى، وفي الصومال كانوا يقاتلون مسلمين آخرين، وفي طاجاكستان وقعوا في صراع مربك ذي أساس قبليٍّ لم يفهموه.

وخلال أسابيع بات البحري مستعدًا للتخلي عن أفغانستان أيضًا، فكان يُسرُّ إلى أصدقائه بأن الناس هنا أخْوَنُ من أن يتعامل معهم[2]، وأن هنالك الكثير من الاقتتال الداخلي بين المجموعات الإسلامية المختلفة، وما كان اليمني ذو الطبع المصدِّق للناس يعرف بمن يثق، فيتذكر: «قررت العودة إلى اليمن إما للاستقرار أو للتوجه إلى الشيشان للجهاد»، ويشرح أن المجموعات في الشيشان منظمَّةٌ وأن ثَّمة منطقًا في القتال هناك.

سعى ابن لادن إلى تغيير رأي البحري، وكان قائد القاعدة في ذلك الوقت – بعد فترةٍ قصيرة من عودته من السودان – في حاجةٍ مؤلمة إلى المتطوعين، وسافرت أخبار

(1) Hammadi, «Interview with Nasri Bahr» March 20, 2005.

(2) المصدر السابق.

البحري ومقاتليه الدزينات الثلاث بسرعة إلى أفغانستان، فطلب ابن لادن الاجتماع به، ولكن البحري لم يكن عنده رغبةٌ في لقاء الهارب السعودي، فقال للوسطاء: «لست من نوع الرجال الذين يودُّون اللقاء بابن لادن».

ولكن الطلبات استمرت في الوصول إليه، فكلما رد البحري مبعوثًا أرسل ابن لادن غيره، وفي النهاية اقتبس أحد الوسطاء قولًا عن النبيِّ يقترح أن البحري يدين لابن لادن بجواب، فوافق البحري على أن يذهب برفقة المبعوث إلى المعسكر في جلال آباد.

أستضاف ابن لادن المقاتلين ثلاثة أيام مدَّة الضيافة التقليدية، وسَحَرَ العربَ المشتاقين إلى بلادهم بنباهته المعتادة، فجعل طباخيه يعدُّون أصناف الطعام العربي الفاخرة التي لم يتذوقها المقاتلون منذ سنين، وهو، في أثناء كل ذلك، يحدثهم عن رؤيته للجهاد وضرورة ضرب الأميركان، وعندما اكتشف ابن لادن طعام البحري المفضل، وهو مزيج لذيذ من الموز والطحين والسكر، أخبر المقاتل القصير القوي أنه سوف يتناول الطعام نفسَه على الإفطار في اليوم التالي.

على الرغم من إرادته إلى حدٍ ما، وجد البحري نفسه مشدودًا إلى عظمة رؤية ابن لادن للمستقبل، وكان باقي المقاتلين الذين حاربوا إلى جانب البحري في طاجاكستان يتطلعون إلى قائدهم ذي الأربع والعشرين سنة بحثًا عن الإرشاد، فقال لهم البحري: «كل منكم رجل، وعليكم التقرير بأنفسكم»[1].

في آخر المطاف، نحا الرجال كلُّهم تقريبًا نحوَ البحري وانضموا إلى القاعدة، فدعا ابن لادن الرجال كلَّهم، كالمعلم الذي يجتمع بطلابه، إلى لقاء خاصٍ ردَّدَ فيه الذين وافقوا على الانضمام إلى القاعدة قسمها المطلوب من كل عضو: «أقسم أمام الله على طاعتي في تنفيذ الأوامر السهلة والصعبة في السرّاء والضرَّاء، وأن أعمل بإيثار وألَّا أعصي أوامر قادتي».

وبقي سرًا من أقسم ومن لم يقسم من الرجال، وأُمر المجندون بألا يكشفوا قسمهم لابن لادن بالطاعة، وكان ذلك جزءًا من خطته للمحافظة على السريَّة والأمان، وعندما جاء دور البحري، دخَل إلى الغرفة المتشحة بالظلال وجلس أمام مضيفه.

«هل أنت مستعد؟» سأله ابن لادن.

(1) المصدر السابق.

«نعم» أجاب البحري: «ولكن عندي شرطٌ واحد».

«ما هو»

«إن خرجت من تحت مظلتك، وغادرت المنطقة التي تقع تحت قيادتك، فلا سلطان لك علي إذًا».[1]

هزَّ ابن لادن رأسه موافقًا وسأله إذا كان مستعدًا للقسم، فتلاه البحري، ولم يتوقف حتى العبارة الأخيرة بخصوص طاعة القادة، ذلك أنه كان مستعدًا لمبايعة ابن لادن على الطاعة، ولكن ليس رجالًا لا يعرفهم، فشرح له ابن لادن الطريق، ووضَّح له ضرورة سلسلة القيادة، فهدأت مخاوف البحري، وأكمل القسم، وأصبح بذلك عضوًا في القاعدة.

على مدى الأعوام الأربعة التي تلت ذلك، عمل البحري على خدمة ابن لادن، فدرَّب في معسكراته، وأشرف على بيت ضيافةٍ له، وبعد كشفه لمؤامرة اغتيال ابن لادن، التي اتهمت القاعدة بها المخابرات السعودية فيما بعد، أصبح البحري رئيس حرس ابن لادن، وكان يؤتمن برصاصتين خاصتين، في حال وقع «الشيخ» محاصرًا دون أمل بالهرب، فعندما حل وقتُ إرسال أحدهم لإيصال حقيبةٍ طافحةٍ بالمال، كان البحري الخيار الوحيد.

وكان ثمة بالإضافة إلى الاحتفال بزواج ابن لادن تهامساتٌ داخل المنظمة الإرهابية بخصوص «زفافٍ» آخر، الزفاف الكبير كما كان بعض الرجال يسمونه، وكان التحضير له على قدم وساق منذ سنوات، وكانت مجموعة مختارةٌ من قادة القاعدة فحسب تعلم بأمره، ولكن بعد مغادرة محمد عطا ورجاله للمعسكرات في بداية عام 2000، اتسعت حلقة العارفين بأمره شيئًا فشيئًا.

في آب/ أغسطس عام 2000، هرب إلى إيطاليا عبد السلام الحيلة، وهو ضابط الاستخبارات اليمنية الشاب الذي كان قد خَدَع خائن القاعدة قبل عامين، ولاقاه في مطار بولونيا رجلٌ يدعى أبو صالح، ويرافقه رجل دين محلي، فعانق أبو صالح الشاب وقبَّله على خده قبل أن يقوده من ذراعه إلى سيارته السيتروين الشبيهة بالصندوق، إذ لم يكن لديهم وقت طويل قبل الاجتماع.

كان أبو صالح واسمه الحقيقي عبد القادر السيد ـ أحد المصريين الذين هربوا من اليمن

(1) المصدر السابق.

في أعقاب خيانة نصر الله، وبقي على مدى اضطراب العامين السابقين وفيًا للظواهري، فلم يشكك قط بقراره الاصطفاف مع ابن لادن أو استهداف الأميركيين.

وكان مثل غيره في الجهاد، مزورًا موهوبًا قادرًا على التلاعب بجواز سفرٍ أو تزوير مستنداتٍ بحيث يخدع معظم مكاتب الهجرة، وكان منشغلًا، منذ وصوله إلى إيطاليا، في بناء شبكة من المؤيدين وتخزين الأسلحة، وعمله الرسمي في أثناء ذلك إمام جامع، ولكن الوعظ لم يكن إلا جزءًا من عمله.

أراد أبو صالح أن يسمع أخبار المخيمات في اليمن، ولكن الحيلة لم يكن يطيق الانتظار، فقال له: أن المعسكرات بخير «فهي محروسة، وفي أيدٍ جيدة»، إذ كانت عنده أخبارٌ أهم يودُّ أن يشارك فيها صديقه القديم، وبينما كانت السيارة تمضي في شوارع بولونيا الضيقة نحو المركز الرياضي حيث كان يفترض بالثلاثة أن يلتقوا مجموعة من الإسلاميين من أنحاء أوروبا، بدأ الحيلة يحدِّث أبا صالح عن رجل مجنون[1].

إنه رجلٌ مجنون «كررَّ الحيلة»، ولكنَّه عبقري، وراح الحيلة يتحدث باستخدام إشارات مشفرةً وعبارات شديدة الإيجاز ملمحًا إلى هجوم قادم، وأن هذا الهجوم سيكون ضربة كبرى لأعداء الإسلام، ويتضمنُ «طائرات» و«السماء»، وأنه «سيكتب عنه في كل صحف العالم»، وأكمل الحيلة ليقول أنَّ هذا الهجوم «لن يُنسى أبدًا»[2].

لم تعن هذه التعليقات بخصوص الطيارات والولايات المتحدة الكثير للمحققين الإيطاليين المنصتين إلى الحديث الدائر عن طريق ميكروفون التنصت المزروع سابقًا في سيارة أبي صالح، فالإيطاليون ما زالوا يلاحقون المصريين من حوالى السنة محاولين أن يبنوا قضيةً ضدَّهم، وكان حديث الحيلة المستتار أكثر إبهامًا من أن يدوي صفارة الإنذار، وأدى الإيطاليون ما عليهم عندما قدموا سجلات التنصت إلى نظرائهم الأميركان في السي آي إيه، ولكن، لم تفهم حفنة من العملاء الاستخباراتيين الذين راجعوا كلام الحيلة شيئًا منها أيضًا، لقد كانت المحادثة مجرد معلومة أخرى في عالم يعج بالأصوات.

(1) Higgins and Cullison, «Friend or foe».

(2) Sebastian Rotella and Josh Meyer, «Wiretaps may have foretold terror attack» **Los Angeles Times**, May 29. 2002.

وبينما كانت السيتروين الصغيرة تقترب من المركز الرياضي، خاطب الحيلة أبا صالح مرة أخرى: «النار مشتعلة بالفعل، وهي في انتظار الريح فحسب»[1].

عندما سافر الحيلة عائدًا إلى اليمن بوساطة جواز سفره الدبلوماسي، لم يكن الجهاديَّ الوحيدَ العائدَ إلى البلاد، إذ كان ناصر البحري عائدًا إلى وطنه أيضًا، وفي الخليج الفارسي كان عبد الرحيم الناشري، قائد القاعدة العسكري النحيل، يحضِّرُ لرحلة أخرى إلى اليمن، وكان هذا جزءًا من عبقرية شبكة ابن لادن، فالخلايا المجزأة ومركزية القرار ولا مركزية التنفيذ تعني إمكانية استمرار العديد من العمليات معًا، ولم يكن أحد سوى ابن لادن وبعض القادة الكبار وحسب يعرف الصورة الكاملة.

استطاع الناشري أن يتجاوز مع فريقه إحراج إغراق قاربهم قبل عشرة أشهر عشية هجوم الألفية، وتحمَّلوا شكوك ابن لادن ودعواته إلى إعادة الهيكلة في اللحظة الأخيرة، فتعلم الرجال من خطئهم، ومع حلول أوائل تشرين الأول/ أكتوبر بات كل شيءٍ جاهزًا لمحاولةٍ جديدة، فسافر عدد من أعضاء القاعدة الكبار، من ضمنهم الناشري، إلى اليمن للإشراف على العملية.

كانت البحرية الأميركية قد بدأت باستخدام عدن كمحطة للتزود بالوقود في كانون الثاني/ يناير عام 1999، وخلال الاثنين والعشرين شهرًا التي تلت ذلك وقفت السفن الحربية ثلاثين مرةً في هذا المرفأ، وبعد أن أصبح فريق ناشري في مكانه، بات كل ما عليهم أن يفعلوه انتظار السفينة التالية.

ووصلت السفينة حوالي الساعة ال9:30 من صباح 12 تشرين الأول/ أكتوبر، و اليو إس إس كول ذات اللون الرمادي والطول المساوي لملعبي كرة قدم هي الأحدث في تقنيات الولايات المتحدة البحرية، وكانت المدمرة قد تدحرجت من على خط التصنيع في نورفوك، فيرجينيا في أوائل 1995 بكلفة مليار دولار تقريبًا، وكان الجنود عليها قد أنجزوا نصف مدة انتشارهم التي تبلغ 5 أشهر، ويتطلعون إلى زيارتهم القادمة للبحرين القريبة.

على بعد بضع مئات الياردات عن الشاطئ قام الكوماندر كيرك ليوبولد بصفِّ السفينة في وضعها الملائم، عن طريق جهاز رسو يدعى الدولفين، وبدأ عملية التزود بالوقود الطويلة.

(1) المصدر السابق.

على الشاطئ اندفع اثنان من عملاء القاعدة في قارب صغير أبيض نحو الماء، ولا بد من أن حسن الخامري، وهو أحد أصدقاء البحري اليمنيين، كان يعرف كم هو محظوظ، ففي العام السابق اعتقلته السلطات اليمنية لصلته بمؤامرة خطف[1]، ولكنه لم يقل شيئًا للمحققين معه، وخرج بعد بضع أسابيع حرًا مرةً ثانية، وكان مرافقه إبراهيم الثور، قد طلب أيضًا أن يذهب في هذه المهمة الانتحارية، فشغل الرجلان محرك الياماها على طرف القارب وشقَّا طريقهما في متاهة زوارق الصيد الخشبية التي تملأ المرفأ، وتأكدا من إبقاء السرعة منخفضة، إذ إن الناشري كان واضحًا في هذا الشأن، فكان دومًا يذكرهما بأن يتصرفا بشكل طبيعي.

في 11:17 صباحًا انطلقا إلى جانب المدمرة، وهما يبتسمان ويلوحان للبحارة الأميركان، ومن ثم أخذا نفسًا أخيرًا.

ترك الانفجار ثقبًا متعرج الأطراف بحجم 40 قدم مربع في جانب السفينة، وتصاعدت ألسنة اللهب في داخلها لاذعةً المعدن، وخنق دخان أسود سميك الهواء بينما ارتمت أجسام البحارة داخل السفينة من ضغط الانفجار، لقد فعلت متفجرات الناشري فعلها.

في داخل السفينة، عاد البحارة على أقدامهم متخبطين يصارعون لفهم الدمار من حولهم، ومع عودة الصوت إلى آذانهم ببطء، بدأ تدريبهم يعود إلى عقولهم، فهرع ضابط القيادة جيمس بارلر[2] الذي يملك سنوات من الخبرة كمسعف في البحرية إلى أعلى السفينة، فوجد في طريقه إلى الأعلى حفنة من البحارة يحدقون إلى شيء ما على الأرض، كان أحد رفاقهم مصابًا بجروح مرعبة متمددًا على المعدن أمام أرجلهم.

تسلم بارلر زمام الموقف، فاقتلع، بمساعدة جنديين آخرين، بابًا متصدعًا من مفاصله وحملوا الجريح عليه إلى سطح السفينة، وكان بارلر يعرف أن الأوان قد فات، ولكنه مع ذلك استمر في ضغط صدر المصاب وإعطائه التنفس الصناعي حتى ربت ضابط على كتفه:

«لقد رحل، عليك السماح له بأن يذهب.»

---

(1) Brain Whitaker, «Attack on the USS Cole: the suspects» **al-Bab**, http://www.al-bab.com/yemen/cole1.htm.

(2) Jeff Schogol, «Memories Strong Five Years After Cole Blast» **stars and stripes**, October. 12, 2005.

جلس بارلر مصدومًا، فهو لم يمت جندي تحت رعايته من قبل، ومن ثم عاد فانحنى على العمل، إذ كان هنالك آخرون بإمكانه مساعدتهم.

«قلت الطقوس الأخيرة» يتذكر بارلر، «قلت صلاة ومن ثم وضعته على جانب في مكان بحيث لا يكون في وضعٍ يموت فيه أمام الطاقم فيضعف معنوياتهم».

وعلى شاطئ عدن الذي يبعد 650 ياردة تطلّع أفرادٌ من فريق دعم القاعدة إلى الدخان الأسود محاولين أن يقدِّروا نجاح العملية، تأخر فهد القصع، شابٌ نحيلٌ في الخامسة والعشرين من قبيلة العوالق، في الانضمام إليهم، فقبل أسابيع من العملية، نسق جمال البدوي، قائد العمل اللوجستي، مع اليافع القبلي من أجل تصوير الهجوم وأعطاه جهازًا طنانًا[1] ورمزًا سريا، وقال له: أنه عندما يرن هذا الجهاز ويظهر الرمز السرِّي تدق ساعة بدء التصوير[2]. كان القصع المتحدر من نفس قبيلة زين العابدين المحضار يعشق ابن لادن، ويريد بشدّة أن يقوم بعملٍ جيد، ولكن بسبب طبعه المخفق نوعًا ما، لم يستطع أن ينهي شيئًا في يومٍ ما من حياته، وكانت هذه فرصته الكبيرة.

لم ينتبه للإشارة التي وصلت صباح الهجوم، فلم يلاحظ إلا متأخرًا أنه ترك الجهاز على وضع الاهتزاز[3]. وبينما كان يركض نحو البيت الآمن القريب من الشاطئ، سمع الانفجار ورأى الدخان يندفع نحو السماء في عمود طويل أسود يكبر بالتدريج.

لم يغرق المفجرون المدمّرة، ولكنهم شلّوا حركتها، وخلال أيام وصلت للقاعدة الحصيلة النهائية: سبعة عشر قتيلًا وتسعة وثلاثون جريحًا، ولكن حتى هم عرفوا بأن هذا الهجوم لا يقاس بأكياس الجثث وحدها؛ لقد صفع رجلان في قارب صيد وجه القوة الأميركية.

وبينما الدخان يندثر، بدأ طاقم السفينة بإحصاء الأضرار، فكانت الغرف الداخلية متصدعة كالبيوت من بعد هزة أرضية، ومطبخ السفينة في حالةٍ كارثيةٍ، والعديد من الأجزاء الأخرى من السفينة يستحيل التنقل عبرها تقريبًا بسبب الحطام والمعدن المثني.

(1) US Department of Defense, al-Nashiri charge sheet, available at: www.defense.gov/news/. nashirichargesheet.pdf.

(2) Ali Soufan, The Black Banners: The Inside Story of 9/11 and the War against al-Qaeda (**New York: Norton**, 2011), 225-226.

(3) Wright, **The Looming Tower**, 320.

وكان جنود البحرية من البحرين أول فريق دعم أميركي عسكري يصل إلى موقع الحدث طيرانًا بعد ساعاتٍ من الانفجار، محاولين تقدير ضرر الانفجار من الهواء، قال علي صوفان، وهو عميل للإف بي آي، فيما بعد: أن السفينة التي تساوي مليون دولار ذكَّرته بأسدٍ جريح، متضررة ومكشوفة، تهوي في عرض البحر بلا أمل[1].

وصلت السفيرة الأميركية باربرا بودين إلى عدن خلال ساعات من الانفجار، وهي شخص عاش الحرب من قبل، فقد كانت الثانية في سلسلة القيادة في سفارة الولايات المتحدة الأميركية في الكويت في أثناء غزو العراق له عام 1990، وقد منحها سلوكها الهادئ والمتَّزن خلال حصار الشهور الأربعة جائزة وزارة الخارجية للشجاعة، وكان لها أيضًا تاريخ طويل مع اليمن، فخدمت أولًا كموظفة مسؤولة عن اليمنيين في مكتب وزارة الخارجية لشؤون شبه الجزيرة العربية في أواخر السبعينيات، ومن ثم كموظفة مسؤولة سياسية - عسكرية لشبه الجزيرة العربية، وكان يفترض بسفارتها أن تنهي تاريخًا مهنيًا مجيدًا. كانت بودين واثقة من شيءٍ واحد عندما وصلت إلى عدن: «الهجوم على السفينة هجوم عدائي، ولكن هذه ليست حكومةً عدائيةً ولا بلدًا عدائيًا»[2].

ووصل نظيرها في مكتب التحقيقات الفدرالي إلى نتيجة مماثلة في السرعة، معاكسة في وجهة النظر، فوصل جون أونيل، رئيس محققي الإف بي آي، إلى عدن بعد بضعة أيام، وكان يحب أن يقول للناس: أنه جاء لهدفٍ واحد، هدفٍ واحدٍ فقط: للإمساك بالمجرمين وجلبهم إلى العدالة، وهو شخصٌ ذو صوتٍ عالٍ وطبعٍ مندفع، وذو ثقةٍ بالنفس لا تقل عن بودين بمقدار شعرة، وكان مقتنعًا بأن اليمن جزءٌ من المشكلة، فكتب في تقاريره إلى القيادة: «هذا بلدٌ فيه 18 مليون شخص و50 مليون مسدس»[3].

اصطدم أونيل وبودين منذ وصول فريق الإف بي آي إلى اليمن تقريبًا، فكان الموضوع في البدء يخص إجراءات الإقامة والأسلحة التي يمكن أن يحملها العملاء، ومن ثم مع استمرار التحقيق، تحول الأمر إلى اختلاف بخصوص الموظفين وحجم بصمة قدم الولايات المتحدة في البلاد، فكانت بودين تريد الأقل دومًا، وأونيل يريد الأكثر دومًا،

(1) Soufan, The Black Banners, 168.

(2) Barbra Bodine, «9/11 miniseries is bunk» **Los Angeles** Times, September 8, 2006.

(3) مقتبس من Wright, The Looming Tower, 323.

فكانت بودين تشرح، مشيرةً إلى سياسة الولايات المتحدة الأوسع في اليمن: «إن عملي هنا هو أن أتوثق من ألا تخرب تصرفاتنا أهدافنا»[1].

لم يستطع أونيل أن يفهم لماذا لا ترى السفيرة الحال كما يراها؟! فالولايات المتحدة تعرضت للهجوم، وهي بحاجة إلى إيجاد الفاعلين قبل أن يضربوا مجددًا، وكان أونيل يقدم تقارير دورية لقيادته في نيويورك بخصوص تقدم تحقيقه عن طريق الاجتماعات الهاتفية، وقال في أثناء الدردشة مع صديقٍ له في انتظار اكتمال المجتمعين: «لقد حاولت كل شيءٍ لأربح هذه المرأة إلى جانبي بوساطة سحري المعتاد، ولكن الأمر لا ينفع»[2].

كانت بودين تعتقد أنها تفهم وجهة أونيل، ولكنها ببساطة تختلف معه، فهو محقق شديد التركيز لا يفهم البلاد التي يعمل فيها، وله هدفٌ واحدٌ ضيق، بينما لديها مجموعة أهدافٍ كبيرة، فعلاقة الولايات المتحدة باليمن أوسع من التحقيق في تفجير المدمرة، فالولايات المتحدة إذًا بحاجة إلى اعتقال المسؤولين ولكن عليها المشي بحذر وإلا، كما تخاف بودين، فإنها لن تفعل أكثر من تأجيج المشكلة. «إن الوقائع الموضوعية للعمل التحقيقي الذي تقوم به الولايات المتحدة اصطدم في النهاية مباشرة بقدرات اليمن المحدودة» [3]، كذلك كتبت بودين فيما بعد دفاعًا عن سلوكها، «اليمنيون يعرفون عدن وأناسها، ولكن تنقصهم الكفاءة التقنية والاحترافية، والإف بي آي يملكون القدرات الجنائية والتقنية ولكن تنقصهم القدرة على العمل في شوارع عدن».

ولكن بينما كان أونيل يمتحن صبر الدبلوماسيين من الطرفين، كان طبعه الجريء يفتح أبوابًا أخرى[4]، إذ أنه قام، وببطءٍ مؤلم،على مدى اجتماع بعد اجتماع، ببناء علاقة مع غالب القامش، وهو الرئيس الهرم لمنظمة الأمن السياسي، وكان القامش ذو الخمسة وخمسين عامًا نحيلًا وذا وجهٍ جَلِد مغطى جزئيًا بشاربه الكث، وهو أحد المسؤولين الأمنيين الكبار القلائل غير المرتبطين بالرئيس دمويًا، لقد كان ناجيًا حذرًا في عالمٍ يسهل فيه سيل الدماء. كانت حكومة الولايات المتحدة قلقة من جهاز القامش الأمني وولاءاته،

(1) Bodine, «9/11 miniseries is bunk».

(2) مقابلة مع Clint Guenther, «The Man Who Knew» Frontline, **PBS**, aired June 28, 2002, available at: http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/knew/interviews/guenther.html.

(3) Bodine, «9/11 miniseries is bunk».

(4) مقابلة مع Marry Jo White, «The man Who Knew,» Frontline, **PBS**, aired May 20, 2002, available at: http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/knew/interviews/white.html.

فهذا جهاز الاستخبارات نفسه الذي وظف عبد السلام الحيلة، ولكن أونيل رأى في الرجل بحد ذاته حليفًا له، لقد تعامل المسؤولون اليمنيون مع التفجير بدايةً وكأنه حادث تزود بالوقود، وعندما قدَّم المحققون الأميركان أدلةً قاطعة على وجود قنبلة بدأت الدوائر الاستخباراتية اليمنية بالتحقيق أخيرًا، ولكنهم كانوا عندها قد أضاعوا وقتًا ثمينًا هرب فيه الناشري وآخرون من البلاد.

تعاملت السلطات اليمنية مع التحقيق كما تتعامل مع كل قضية كبرى، فاعتقلت كل من استطاعت أن تجده وبدأت عملية تصنيفهم البطيئة، والمشتبه بهم مذنبون حتى تثبت براءتهم، ولم يفهم مسؤولو المكتب الفدرالي هذه المقاربة، فهم يحاولون بناء قضيةٍ يمكن تقديمها أمام محكمةٍ أميركية، ولكن كانت هذه هي البيئة، وحاول أونيل وفريقه التأقلم.

عاد أونيل في إجازة إلى الولايات المتحدة قبيل عيد الشكر[1] بعد أن أنهكته ساعات العمل الطويلة وتوتر العمل في مكان يعتبره أرض العدو، وكان قد تغيَّر محيَّاه، فخسر من وزنه وظن من يعرفه أنه يبدو كمن ضُربَ، وانهمد التحقيق في غيابه، لأن علاقات طواقم العمل في اليمن أساسية، فالرجل أكثر أهمية من المؤسسة، ودون ضغط أونيل المستمر تباطأ تعاون اليمن كالسلحفاة، فرفض القامش الاجتماع بمندوبي الإف بي آي محولًا إياهم إلى مساعديه[2]، وقلق أونيل بخصوص ما سيضيع على فريقه إذا لم يكن موجودًا في القيادة، وشعر أنه مسؤول شخصيًا، فهو يعرف القامش وبقية البيئة التحتية للاستخبارات اليمنية، وبات يعرف القاعدة أيضًا بعد سنين من دراستها، ولذلك طلب بعد عطلة الميلاد الإذن برجوعه إلى اليمن، ولكن بودين، التي كان لها القول الأخير بخصوص دخول كل الأميركيين إلى اليمن، رفضت ذلك.

لذع الرفض أونيل، وحاول أن يناوره عن طريق أصدقاء في الإف بي آي، قائلًا: أنه يجد رفض السفيرة عودته إلى البلاد مسلّيًا[3]، وشاهد باري مون رئيسه في مكتب نيويورك، نفاد صبره وإحباطه من قيادة الإف بي آي، فقد أخفق المكتب الفدرالي، وهو المؤسسة التي

(1) Wright, The Looming Tower, 329.

(2) مقابلة مع: Barry Mawn, « The man Who Knew» Frontline, **PBS**, aired May 17, 2002, available at: http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/knew/interviews/mawn.html.

(3) مقابلة مع Clint Guenther, «The Man Who Knew».

أعطاها أونيل أربعةً وعشرين عامًا من حياته ،في دعمه، ويقول مون: «لقد قرروا أنهم لن يدخلوا في هذا التحدي»[1]، فهم لا يريدون «معركة سلطة مع وزارة الخارجية»، ولكن إن لم يستطع أونيل أن يكون على الأرض فهو لن يستطيع قيادة فريقه ولا التحقيق، فهو غير ملائم كعميل إداري خلف مكتب، وبعد سبعة شهور من ذلك، في آب/ أغسطس 2001، تقاعد أونيل من الإف بي آي، واتخذ له عملًا كرئيس أمني في مركز التجارة العالمي.

في اليمن، بدأ أحمد صوفان وهو ضابط يافع يتقن العربية باتخاذ دور قيادي في التحقيق، وعانى من مشكلات في تسيير الأمور بدون رئيسه، ولكنه بدأ، بطريقته الخاصة وببطء، بإحراز التقدم.

ومع تزايد الاعتقالات، تمكنت السلطات اليمنية التقاط عدة أعضاء محليين من فريق التفجير في مصيدتها، ولأنهم اعتقلوا عددًا ضخمًا من الناس ما كان اليمنيون يعرفون من في حوزتهم، فكان البعض مذنبين، ولكن أكثرهم لم يكن كذلك، فاعتقلت منظمة الأمن السياسي جمال البدوي، قائد التنسيق اللوجستي في القاعدة، وفي كانون الأول/ ديسمبر أمسكت بناشر البحري الذي لم يكن له علمٌ حتى بمخطط التفجيرات في اليمن، وكان عملاء الأمن أيضًا يبحثون عن فهد القصع، وبدلًا من إهدار الوقت والمقدرات البشرية في ملاحقة الرجل، اختارت السلطات اليمنية إخراجه من مخبئه، فقام ضباط منظمة الأمن السياسي بزيارة عائلة القصع في عدن واعتقال والده، وبينما قادوا الرجل العجوز المكبل إلى الخارج أخبروا نساء العائلة أن القصع يعرف ما عليه فعله إن أراد إطلاق سراح والده[2].

وأبقت منظمة الأمن السياسي والد القصع في سجن محلي ملزمةً أهله أن يدفعوا ثمن غرفته وطعامه حتى سلَّم ابنه نفسه، وتخلى القصع عن مخبئه في صنعاء خلال أيام وسلم نفسه لهم[3]، لكن القامش رفض خلال الشهرين اللذين تليا ذلك السماح للمحققين الأميركيين بالوصول إلى السجين ضئيل الحجم، ومن ثم أخيرًا، في أوائل 2001، لان القامش وسمح لصوفان وعملاء آخرين بدخول الغرفة، ما وجده الإف بي آي كان رجلًا

(1) مقابلة مع Barry Mawn, « The man Who Knew».

(2) Abdalilah Haydar Shaya, «Interview with Fahd al-Qusa» (Arabic), **al-Jazeera**, December 26, 2009.

(3) المصدر نفسه.

ضئيلًا قبليًا وقحًا، ذا عينين ضيقتين وسكسوكة محددة بدقة يجلس في غرفة الاستجواب محدقًا إلى الأعلى في العملاء الأميركيين.

قال القصع فيما بعد أن هذا كان نوعًا من التعذيب: «ارتدى الأميركان صلبانًا مسيحية تتهدل على صدورهم من أعناقهم»[1]، ويرفض عملاء الإف بي آي اتهامات القصع وادعاءه أنَّه رفض التعاون أيضًا، ويقول القصع: أنه ناقشهم في أن عملاء الإف بي آي يسخرون من القرآن ـ مستشهدًا بحديث عن النبي يقول بعدم جواز دخول غير المسلمين شبه الجزيرة العربية.

ولم يكن القصع الوحيد الذي أزعجته الإف بي آي، ذلك أن العملاء، لمعرفتهم بقصر وقتهم مع السجين، أرادوا التحقيق بفظاظة ومباشرة محاولين معرفة أي صلات قد تربط بين موظفين في المؤسسة العسكرية اليمنية وبين من قاموا بالتفجير، إن كان هنالك من صلات أصلًا، وضيقت التحقيقات شكوكهم حول محسن الأحمر، وهو من قبيلة الرئيس صالح وقائد الفرقة الأولى مدرع الذي أشرف على نهب عدن، كان العملاء يعرفون بعمله مع طارق الفضلي وبقية الأفغان العرب ويتساءلون ما إذا كان لا يزال متورطًا؟ وكانت الإف بي آي مهتمة أيضًا بالشيخ عبد المجيد الزنداني، هل تربطه علاقة بالخلية؟ حتى إنهم سألوا القصع عن ابن الرئيس صالح البكر أحمد الذي كان قائد القوات الخاصة في اليمن وقائد الحرس الجمهوري القوي، كما أنه نائب في البرلمان[2]. وكانت كلما اقتربت الأسئلة من عائلة الرئيس زاد قلق منظمة الأمن السياسي، وبعد ثلاثة أسابيع أوقف القامش التحقيق، استطاعت الإف بي آي انتزاع بعض المعلومات الجيدة، ولكن كان لا يزال لدى العملاء أسئلة أكثر من الأجوبة.

في **21 شباط/ فبراير 2001**، سجل الموظفون الطليان مكالمة صادرة من أبي صالح، المزور المصري، إلى صديقه القديم في اليمن، ورن الهاتف في منزل عبد السلام الحيلة في صنعاء، ولكن بدلًا من أن يردّ الكولونيل في مؤسسة الأمن السياسي، أجاب أبا صالح أخوه الأصغر منه، ولم يكن هذا مهمًا، فالرجلان كلاهما يعرفان ما الذي يحصل.

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

«سمعت أنك ذاهبٌ إلى أميركا»[1]، قال أبو صالح.

«آسف لقول أننا لم نتمكن من الدخول»، رد الرجل الأصغر سنًا، «فهذه أمنيتنا الكبرى وهدفنا الضخم».

كانت هذه المحادثة، مثلها في ذلك مثل الحوار المسجل في سيارة صالح الستروين قبل ستة أشهر، أكثر غموضًا من أن يتم التصرف على أساسها، ومرة أخرى شارك الإيطاليون المعلومات مع السي آي إي، ولكن السي آي إي أهملت إخبار الإف بي آي، الذين كان عندهم في اليمن فريق يتعاون مع مؤسسة الأمن السياسي، فبدأت قطع الأحجية تتراكم، ولكن أحدًا لم يكن مستعدًا للمشاركة على الرغم من ذلك، وبعد أربعة شهور من ذلك، وفي تموز/ يوليو 2001، انتهت المراقبة لما هرب أبو صالح فجأةً إلى أفغانستان.

جاء صيف **2001** حافلًا للقاعدة، فصار ابن لادن الهادئ عادة أكثر توترًا وبات يتنقل ويعقد لقاءات سرية مع مجلس القاعدة العسكري. ظلَّ المتطوعون سنواتٍ يتدفقون إلى مخيمات القاعدة التدريبية، والآن، بدأ ابن لادن بإعادتهم إلى أوطانهم، فخلال تموز/ يوليو وآب/ أغسطس تدفقت مجموعات صغيرة من القاعدة تدريجيًا وببطء عائدة إلى السعودية واليمن، وهؤلاء نخبة ابن لادن التي كان يأمل أن تشعل ثورة في قلب العالم العربي، ولم يكن عند أي منهم فكرة عمَّ يفعل، ولكنهم كانوا يثقون بقائدهم، فقد نطق كل منهم القسم وذهبوا كما أمرهم.

في أوائل آب/ أغسطس أخبر ابن لادن فواز الربيعي، وهو يمنيٌّ حاد ذو اثنين وعشرين عامًا، أنه سيرسله هو أيضًا إلى وطنه، ومع أن الربيعي كان صغيرًا في العمر فقد أعجب ابن لادن بما رأى منه، فهو شجاع وذو كاريزما، وكان الربيعي مولودًا في السعودية لأب عامل مهاجر، وبدا عليه منذ صغره أن الجهاد قدره، فكان أبطاله هم المطوِّعة، شرطة السعودية الأخلاقية[2]، يراهم أبطالًا مقدسين، وكثيرًا ما مشى معهم في دورياتهم اليومية التي يتأكدون فيها أن النساء متحجبات بشكل ملائم وأن الجميع يصلي. وكان المتطوعون ذوو اللحى يشجعون تلميذهم الصغير، وينصحونه بحفظ القرآن، ويسمحون له أحيانًا باستخدام عصيهم.

(1) Higgins and Cullison, «Friend or foe».

(2) Rashad al-Shar'abi, «From the house of Fawaz al-Rabi'i» (Arabic), **News Yemen**, October 9, 2006.

بعد حرب الخليج وطرد السعودية حوالي مليون مهاجر يمني ردًا على دعم صالح لصدام حسين، صارع الربيعي ليتأقلم مع الحياة في صنعاء، فقد كان يمنيًا بالدم، ولكنه سعودي بالتدريب والخبرة، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية عمل كموظف في المكتب الرئاسي، ومن ثم في أوائل عام 2000، غادر إلى أفغانستان بصحبة اثنين من أصدقائه من ضمنهما عميل سابق في مؤسسة الأمن السياسي.

أحب الربيعي الحياة في المخيمات، فقد عاد اليمني اليافع أخيرًا إلى صحبة أصدقاء يفكرون ويؤمنون كما يفكر ويؤمن، والتقى أبا مصعب الزرقاوي، وهو مجرم سابق تحول إلى جهادي وأكمل فيما بعد ليقود القاعدة في العراق، وأمضى الربيعي بعض الوقت يتحدَّث مع بعض مختطفي الطيارات في 11 أيلول/ سبتمبر لاحقًا[1]، وكان الربيعي في اتصالاته إلى اليمن يشجع أخاه الصغير سلمان على الالتحاق به، فهذا مكان يستحق الحياة فيه، كما كان يخبره.

وكان هدفه الجديد كما أخبر أباه، «أن يموت شهيدًا»[2]. وأخبر ابن لادن الشيء ذاته، ولكن قائد القاعدة كانت عنده خطط أخرى، «لقد جعلتك قائدًا» أخبره ابن لادن عندما أرسله إلى وطنه، شارحًا له أنه سيعود إلى اليمن كقائد للخلية المكونة من اثني عشر رجلًا هناك[3]، وبقي أخوه سلمان في أفغانستان ليحصل على المزيد من التدريب، فهو لم يصل إلا منذ من شهرين.

شجع ابن لادن قائده الصغير، وأكد له أنه سيعرف ما عليه فعله عندما يحين الوقت، فوضَّب الربيعي حقائبه وودع أصدقاءه في المخيم، ولكن لا بد وأنه كان يتساءل في داخله عما يخطط الشيخ.

(1) Nabil al-Sufi, «Yemen and al-Qaeda» (Arabic), **al-Hayat**, November 24, 2006.

(2) Al-shar'abi, «From the House of **Fawaz al-Rabi'i**».

(3) المصدر نفسه.

الفصل السادس

حلفاء
خريف 2001

من المرجح أن فواز الربيعي وبقية المجاهدين الذين عادوا بالطائرة إلى اليمن في أوائل آب/ أغسطس 2001 لم يعيروا انتباهًا كبيرًا للتراب والأحجار في أثناء مرورهم فوق خليج عمان باتجاه شبه الجزيرة العربية، ولكن بالنسبة إلى عملاء الإف بي آي الذين التقوا فيما بعد في اليمن بدت قمم الصحاري القاحلة وامتداداتها قادمة من كوكب بعيد. حتى من الأعلى، كان الفقر ظاهرًا[1]، فلم تكن هنالك أنهر ولا مدن ولا خضار، مجرد فسيفساء لا متناهية من الرمادي والبني المُغْبرين تمتد أسفلهم كلحاف مجعد، وكان الأمر أسوأ في الليل، فأكثر المساحة خارج الشبكة الكهربائية، ولا توجد أي من التشكيلات المضيئة التي تزين معظم رحلات الطيران، الشيء الوحيد الذي رآه العملاء من زجاج النافذة المُصْقع كان عراءً واسعًا وظلمة وظلالًا، منذ تفجير المدمرة كول في العام السابق قطع علي صوفان وبقية فريق جون أونيل هذه الرحلة عدة مرات، وكانت في كل مرحلة تفعل فيهم فعلها.

في 22 آب/ أغسطس كانت الإف بي آي تحضر لرحلة أخرى إلى اليمن، وبات رحيل باربرا بودين إلى خارج البلاد أمرًا مقررًا، وفي نيويورك كان أونيل على وشك الرحيل أيضًا، فهذا آخر يوم له كعميل في الإف بي آي قبل أن يبدأ عمله كرئيس لأمن مركز التجارة العالمي، وكان آخر تصرف رسمي له هو أمر فريقه بالعودة إلى اليمن[2]. وانتظر فريق الإف

(1) Soufan, The Black Banners, 162.

(2) Wright, The Looming Tower, 352.

بي آي أيلول/ سبتمبر – بعد رحيل بودين – حتى حط في اليمن[1].

لم يكن في وسع العملاء الكثير، فالولايات المتحدة لم ترد على الهجوم الانتحاري على المدمرة، وبَرَد خيط الأدلة، وبعد الرد الكارثي على تفجيرات السفارات في إفريقيا عام 1998، والذي كلف 40 مليون دولار من الذخائر وحدها ولكنه لم يؤذ القاعدة على نحو كبير فعليًا، أحجم الرئيس كلينتون عن ضربة صاروخية ثانية معدة، فما الذي يمكن أن تقصفه الولايات المتحدة في أفغانستان؟ كما كان بعض من في إدارته يتساءلون، المزيد من الخيام وأكواخ الطين؟ التي تستطيع القاعدة أن تعيد بناءها خلال أيام مقابل جزء بسيط جدًا من كلفة تدميرها؟ وتحولت هذه النقاشات خلال أواخر عام 2000 بشكل تدريجي إلى إجماع: ابن لادن مهمة السي آي إي وليس الجيش، والبلاد وقتها وسط حملة انتخابية رئاسية محتدمة بين نائب الرئيس آل غور وحاكم تيكساس جورج دبليو بوش، وكلينتون في آخر ولايته، فلم يرد كلينتون الضربة أبدًا.

مرّت اللحظة بسرعة، فبينما استمر الاقتصاد بالنمو والمستهلكون بالإنفاق ببذخ على بيوت وسيارات إضافية، ما كان لدى العامة اهتمام كبير بهجوم إرهابي صغير في بلد لا يعرف أحد عنه شيئًا، فغاب تفجير المدمرة من الذاكرة الشعبية بينما تشاهد البلاد انتخابات جدلية حسمتها أصوات فلوريدا بعد طعون وصلت إلى المحكمة الدستورية. في 19 كانون الثاني/ يناير، في اليوم السابق لتسلم جورج بوش منصب الرئاسة، قام وزير الدفاع المشرف على الرحيل في حكومة كلينتون، وليام كوهين، بنشر تقريره بخصوص الهجوم على المدمرة[2]، ولكن لم ينتبه كثيرون وسط حفلات تسلم الرئاسة في واشنطن، وكان لدى جورج بوش أولوياته الخاصة التي تتضمن تركيزًا قويًا على الاقتصاد والسياسات الداخلية، ولما جاء الوقت الذي رحل فيه صوفان وبقية العملاء إلى اليمن في آب/ أغسطس 2001، بالكاد لاحظ أي أحد في الحكومة أنهم رحلوا.

عادت المدمرة كول إلى ورشة الإصلاح في الميسيسيبي، وخرجت بودين من اليمن، وعاد صوفان وبقية الفريق إلى إدارة التحقيق من السفارة الأميركية، وهي مجمعٌ محصنٌ يتدلى من منتصف تلة على جانب صنعاء الشرقي، ولأن التدابير الأمنية

---

(1) Walter Pincus, «Yemen hears benefits of joining US fight» **Washington Post**, November 28, 2001.

(2) Steven Lee Myers, «Cohen says the blame for the Cole is collective» **New York Times**, January 20, 2001.

اللاحقة لتفجير المدمرة كانت لا تزال حاضرة، حُجِزَت إقامة الفريق في الشيراتون، الفندق الوحيد الذي اعتُبر آمنًا كفاية لاستقبال مسؤولين أميركيين، ومع أن الشيراتون فندق ممل على نحو كئيب على طراز السبعينيات، صنابير غرفه تتسرب منها المياه وطعامه بلا نكهة، لكنه كان على الأقل مألوفًا للعملاء الأميركيين، إذ إن باقي المدينة لا تشبه شيئًا رأوه من قبل.

صنعاء، إحدى أقدم المدن المأهولة بشكل متواصل في العالم، تحفةٌ تليق بالمتاحف، تحاول بيأس أن تصير حديثة، تمتلئ بمقاهي الشاي القديمة ذات الأغلاق المهترئة والطاولات المتزاحمة على جدران المساجد التي تسبق الحروب الصليبية.

بُنيت صنعاء على منبسط جبلي تحيط به عشرات القبائل المتصارعة، فكان حكام صنعاء الدينيون لسنوات طويلة يأمرون بإغلاق بوابات المدينة السبع كل مساء بعد الصلاة، ووضعت الحرب الأهلية في الستينيات نهاية للأئمة وحبسهم القسري، وسرعان ما انفجرت المدينة عن جدرانها لتنتفخ من 50,000 نسمة إلى حوالي المليونين في ثلاثين عامًا.

ولما وصل فريق الأف بي آي في أوائل سبتمبر 2001، وجدوا صنعاء في مأزق، فقد تجاوزت العقود الثلاثة من النمو الخارج عن السيطرة بنيةَ المدينة التحتية العتيقة، وكان من الصعوبة بمكان التخيل (أن النبي محمد قال يومًا ما عن صنعاء) أنها: «جنة جنان الأرض»(*) عند النظر إلى التراب الوسخ المتناثر والفقر من بار الشيراتون في الطابق الثامن، بدت صنعاء الحديثة أقرب إلى (مكبِّ النفايات). كان لا يزال بمقدور العملاء رؤية مجمعات المنازل زنجبيلية اللون التي تشتهر بها المدينة ترتفع كحرس قديم عن العفن السياسي والضجة تحتها، وهذه الأبراج البديعة الملتمة في المدينة القديمة باتت تمَّحي في بحر من الفوضى القافزة حول أقدامها، وفي كل مكان آخر أيضًا، أفسحت العمارة التقليدية الطريق للإعمار السريع المختصر، بينما يتدفق الناس سيلًا نحو المدينة بحثًا عن عمل.

حيث ما تلفت الفريق وجدوا حولهم أسواقًا مزدحمة ممتلئة بالباعة الصارخين الذين يقدمون سلعهم بعربيةٍ خشنة أجشة، وكان زبائنهم في الغرابة نفسها، رجالًا ذوي لحىً طويلة كثة وأثواب تصل إلى الكاحل ملطخة بالطين والتراب، ينظرون إلى الأجانب بعين

(*) لربما يقصد الآية القرآنية: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ سورة سبأ، الآية: 15

الاشتباه، والنساء اللاتي يسميهن بعضهم في السفارة بالـ«نينجا» تنزلقن عبر الحشود شخصياتٍ شبحية صامتة مغطاة بشكل كامل بالأثواب السوداء التي تدعى «العباءة» ويضرب المارة الأرض بأرجلهم فيختلط الغبار المستثار بالدخان والعرق ومنبعثات احتراق الديزل لتشكل كلها ضبابًا حارق الرائحة، فما كان لدى العملاء المختنقين بهذا المزيج البغيض سبب يدفعهم نحو استكشاف معظم أحياء المدينة الأحدث، فلا شيء يرونه هناك إلا شوارع تغص بالعمارات الوسخة التي تمتد دومًا إلى الأمام.

كان من السهل الاستسلام للامبالاة الضجرة من الحياة في صنعاء، فاختناقات السير المضطربة والشاحنات المهترئة وسيارات الأجرة الصدئة والضجيج اللامتناهي ونقص النظام بشكل عام، كل هذه فعلت فعلها بأعصاب العملاء، وبطريقة أكثر خفاء، ولكن بالفاعلية نفسها، فعلت البيروقراطية اليمنية الشيء ذاته.

في الخامس من أيلول/ سبتمبر وبعد عدة أيام من وصول فريق مكتب الأف بي آي إلى صنعاء جلس الرئيس صالح مع صحفي من الجزيرة للحديث عن التحقيق في تفجير المدمرة كول، فشرح له صالح أنه فعل كل ما بمقدوره للحد من وجود الأف بي آي في اليمن: «منعنا المحققين، منعنا نزول قواتهم، منعنا طائراتهم، منعنا سفنهم» وذلك بطريقته الخاصة المبالغة المعهودة، «أدخلناهم تحت إشراف وتحت رقابة وحراسة أمنية»[1]. بالنسبة إلى العملاء أنفسهم كانت تبجحات صالح مزيدًا مما اعتادوا عليه، وبعد أحد عشر شهرًا من تفجير المدمرة، كان العملاء لا يزالون يحاولون تحطيم الجدران ذاتها.

في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر اتصل علي صوفان بخطيبته من مكتب في السفارة الأميركية في صنعاء، كانت الساعة تشارف على الخامسة صباحًا في اليمن ولكن فرق الساعات بين صنعاء ونيويورك جعل هذه الساعة إحدى النوافذ الضيقة الملائمة لكليهما، وكان قد مرَّ على حديثهما دقائق لما اندفع عميل آخر إلى الغرفة ليقول لاهثًا:

«علي، لقد ضربت طائرة مركز التجارة العالمي»[2].

أغلق صوفان الخط وحاول الاتصال برقم جون أونيل في نيويورك، لم يجب أحد، ولما حاول صوفان الاتصال مرةً ثانية هرع العميل مجددًا إلى الغرفة يصرخ:

(1) مقتبس من. Pincus, «Yemen hears benefits».

(2) Soufan, The Black Banners, 284.

«ضربت طائرة أخرى مركز التجارة العالمي!... إنها طائرة ركاب، يا إلهي، طائرةٌ ضخمة».

ترك صوفان رسالة على هاتف أونيل بعجل، وهرع إلى مكتب بودين القديم حيث كان باقي الفريق يتفرج على تلفاز السفارة، لم يكن ثمة من شك في عقول العملاء: هذا هجوم بالتأكيد، واستمر صوفان بمحاولة الاتصال برقم مكتب الأف بي آي في نيويورك، ولكن أحدًا لم يجب، ووجد العملاء المدربون على الوقوف في عين الحدث أنفسهم عالقين على بعد قارات ومجبرين على مشاهدة أسوأ ضربة إرهابية في تاريخ الولايات المتحدة تأخذ أبعادها على شاشة التلفاز الصغير.

وصلت الأوامر إليهم لاحقًا في أمسية ذلك اليوم، وطلب المكتب الفدرالي من الفريق أن يخلي المكان، و«اليمن» كما قيل لهم باتت «تعتبر مكانًا غير آمن»[1]، وبينما كان العملاء يستعدون لركوب طيارة العودة إلى الولايات المتحدة صباح اليوم التالي وصل هاتف آخر، إذ أراد المكتب الفدرالي من صوفان واثنين آخرين من العملاء البقاء في اليمن، فالولايات المتحدة لم تكن تملك الكثير من الخيوط حول التفجيرات ولكنها كانت تشابه توقيع القاعدة من حيث الجوهر، وكان العملاء في اليمن بعضَ المساعدين للولايات المتحدة الوحيدين في الميدان.

ولما عادوا إلى بناء السفارة وصلت أوامرهم الكاملة على خطٍ مؤمن، لقد خولهم المكتب الفدرالي استخدام «أية وسائل لازمة» للتعرف على المختطفين[2]، وكانت الرسالة واضحة عند صوفان: اجلبوا لنا شيئًا ما، واجلبوه بسرعة، فسابق صوفان الوقت عبر المدينة ليقابل غالب القامش، رجل مؤسسة الأمن السياسي ذا المظهر العنيد الذي كان قد نشأت ألفة بينه وبين أونيل، وطلب صوفان منه مقابلة فهد القصع، الشاب الذي كان يفترض أن يصور تفجير المدمرة، فقيادة الأف بي آي قالت أن القصع مهم، فشكك القامش في هذا، إذ إن الأف بي آي قد حققت معه مدة ثلاثة أسابيع من قبل، ما الذي يمكن أن يحصلوا عليه بعد؟

«أنا لا أتحدث عن المدمرة»، قال صوفان باهتياج، وأكمل محاربًا دموعه ليقول: بأن

(1) المصدر السابق، 286.

(2) Wright, The Looming Tower, 362.

أونيل مفقود، وربما ميت[1]. تردد القامش لحظةً، ومن ثم رفع سماعة الهاتف واتصل – أمام العملاء – بسجن مؤسسة الأمن السياسي في عدن حيث يحتجز القصع، ولأن الطائرة الأخيرة إلى صنعاء ذلك المساء كانت على وشك الإقلاع، قال رجال القامش له: أن الوقت لم يعد يسمح، وأنهم سيُنقلون السجين غدًا، فصاح بهم أنْ ضعوه على متن تلك الطائرة، ومن ثم، ولقلقه من ألّا يستطيع رجاله إيصال السجين قبل إقلاع الطائرة، اتصل بمطار عدن وأمر الطيارين ألا يقلعوا حتى يصبح سجينه على متن الطائرة.

مع حلول الليل، بات القصع يجلس في غرفة استجواب في مقر قيادة مؤسسة الأمن المركزي[2]. وجد صوفان الشاب ذا الستة والعشرين عامًا متعجرفًا كما عهده ومناورًا ومعتدًا بذاته، لم يكن القصع يريد أي تواصل مع الأف بي آي، فتحدث باصقًا كلامه على المحققين: « أنتم يجب ألّا تكونوا حتى في اليمن... وجودكم إهانة للإسلام»[3].

ضاق صوفان ذرعًا من موقفه، فبعض أصدقائه ماتوا وبلاده تعرضت للهجوم، وكان عازمًا على الوصول إلى ما يعرفه القصع حقًا، وقبل وقت قصير من دخوله إلى الاستجواب حصل صوفان على ثلاث صور من مسؤولي السي آي إي لاجتماع للقاعدة حضره القصع قبل عام، فمنحت هذه الصور لصوفان مأخذًا على القصع، واستطاع أن يدفع به نحو الهدف. استجوب صوفان القبلي الهزيل ليلة بعد ليلة، ولم يكن القصع يعرف الكثير، ولكنه كان يعرف اسمًا، وفي اليوم الخامس أفضى القصع بالاسم: أبو جندل، وهذا لقب في المخيمات لحارس ابن لادن الشخصي: ناصر البحري.

كان حارس ابن لادن الشخصي السابق قد اعتقل في الشهور التي تلت تفجير المدمرة، ولكن مؤسسة الأمن السياسي رفضت أن تسمح للأف بي أي بالوصول إلى البحري، مدعيةً أن لا علاقة له بالهجوم على المدمرة.

«لم هو في السجن؟» سأل أحد العملاء.[4]

«للشبهة» أجاب الحارس.

(1) مقتبس من المصدر نفسه، 363.

(2) المصدر السابق.

(3) Shaya, «Interview with Fahd al-Qusa».

(4) Wright, The Looming Tower, 364.

مثله في ذلك مثل مئات المشتبه بهم، كان البحري عالقًا، فاليمنيون لا شيء لهم عليه، ولكنهم على الرغم من ذلك واثقون بأنه أخطر من أن يطلقوا سراحه، ولذلك نسوا أمره في السجن تمامًا. كان البحري قد غادر أفغانستان منذ أكثر من عام، ولم يكن له أي علاقة بالتخطيط لأحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، ولكنه في تلك اللحظة كان كل ما تملكه الولايات المتحدة، إذ بعد الانسحاب السوفييتي من أفغانستان في 1989 قلَّصت الولايات المتحدة عملياتها على أرض أفغانستان بشكل ضخم، وقد عادت سنوات الإهمال لتطارد الولايات المتحدة في أسوأ لحظاتها.

ولكن القصع أعطى الأف بي آي سببًا للتحقيق مع الحارس الشخصي، «يجب أن نتحدث إلى أبي جندل» أخبر صوفان الحارس اليمني «بسرعة»[1].

كان البحري حالةً أصعب من القصع، فهو غاضب من احتجازه بلا تهم ومن منعه من رؤية زوجته وطفليه، وعملت الأف بي آي في التحقيق معه أيامًا، محاولةً استمالته وتخفيف حدته عن طريق الخدمات الصغيرة وتحدي افتراضاته عن أميركا والشرع الإسلامي. كان صوفان يعرف أن البحري متعبٌ من الجهاد، ولكن الحارس الشخصي لا يزال يشعر برابطة تجاه الرجال في أفغانستان، فقد حارب ونزف معهم وجند هو بعضهم، وعلاوةً على ذلك كانت هناك علاقته بابن لادن، فبالإضافة إلى ترتيب زفاف البحري، كان ابن لادن موجودًا عند ولادة ابن البحري الأكبر، حيث قام بمسح قطعة من عجوة التمر في فم الصغير تقليدًا لطقس إسلامي مبكر. وكان ابن حَمي البحري، سليم حمدان، لا يزال في أفغانستان يعمل سائقًا عند ابن لادن، فقبل سنوات من ذلك، قبل أن يتزوج الرجلان من أختين من اليمن، أقنع البحري اليمني الممتلئ بالذهاب إلى أفغانستان، وكان لا يزال يشعر بمسؤوليته تجاهه[2].

إنهار صوفان في إحدى الليالي في أثناء التحقيق بسبب الإنهاك وأُخذ إلى غرفة الإسعاف، ولكنه عاد في الليلة التالية يستجوب البحري ويناقشه في اللاهوت[3]. وبعد بضع ليال وضع صوفان أمام السجين المتعب دفترًا لصور المشتبه بهم، فنقل البحري عينيه بين أوراق الدفتر بسرعة ومن ثم دفعه على الطاولة، فأعاد صوفان دفع الدفتر إليه برفق قائلًا: «انظر مجددًا»[4]، فنظر البحري إلى المحقق الناطق بالعربية نحو الأعلى

(1) Soufan, The Black Banners, 295.

(2) مقابلة الكاتب مع Nasir al-Bahri, Sanaa, July 2006.

(3) Soufan, The Black Banners, 295.

(4) المصدر نفسه, 316.

وفتح الدفتر، وفي المرة الثالثة، أشار صوفان إلى صورة مروان الشيحي، أحد مختطفي الطائرات، وسأله: «هل تدَّعي أنك لا تعرف الشرقي؟»[1] مستخدمًا اسم الشيحي الحركي، فأشاح البحري بنظره بدلًا من أن يرد، وعرف صوفان أنه تمكن منه[2].

لقد كان صوفان يعرف بعلاقة البحري مع المختطف الذي تبدو عليه علامات الصلع بفضل تحقيقه مع القصع، فاعترف البحري لما كشفت كذبته أنه كان يعرف الشيحي، وأكد أنهما قضيا وقتًا معًا في أفغانستان، وتوالت باقي المعلومات على نحوٍ أسرع، فتعرف البحري، عند نظره إلى الصور المتبقية، على ستةٍ من الرجال كلهم تدربوا في معسكرات ابن لادن حسب اعترافه.

بات لدى الولايات المتحدة رابط، فمن غرفة تحقيق في صنعاء، ربط حارس ابن لادن الشخصي مختطفي الطائرات بالقاعدة[3].

في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر كانت الولايات المتحدة بلا سفيرٍ في اليمن، إذ غادرت بودين قبل أسبوعين من الهجمات، ولم يعين الكونغرس مرشح كلينتون للمنصب في اليمن بدلًا عنها، ولعدم وجود أحد يفسر سلوكه للإدارة الجديدة في واشنطن خشي صالح من أن الولايات المتحدة سوف تفعل شيئًا دراماتيكيًا، إذ كانت طاحونة الإشاعات الدبلوماسية قد بدأت تدور فعلًا بأحاديث عن مشاحنات حادة بين المسؤولين الأميركيين وحلفاء أساسيين، فقال وزير خارجية بوش ريتشارد أرميتاج ذو الطبع المتنمر لقائد الاستخبارات الباكستانية: أن الولايات المتحدة سوف «تقصفها حتى تعود إلى العصر الحجري» إذا لم تتعاون[4]، واقترح محللون آخرون في السي إن إن والأم أس أن بي سي أن اليمن هي الهدف التالي المنطقي بعد أفغانستان[5]، وفجأة صارت تعليقات صالح على الجزيرة قبل أسبوع من الهجوم تبدو أكثر شرًا، فآخر مرة صارع فيها صالح الولايات

(1) المصدر نفسه, 317.

(2) المصدر نفسه.

(3) بني وصف التحقيق هذا على ثلاث مصادر. يعطي لورانس رايت سردًا ممتازًا في The Looming Tower, 361-67. وشارك البحري ذكرياته بخصوص أفغانستان واليمن معي خلال مقابلة في صنعاء في تموز/ يوليو 2006. وتحدث البحري في سلسلة من المقابلات الكاشفة مع خالد الحمادي في القدس العربي في 2004 و2005.

(4) كانت باكستان هي الحليفة طبعًا، وينسُبُ الرئيس الباكستاني برويز مشرف هذا الاقتباس إلى نائب وزير الخارجية - وقتها - ريتشارد أرميتاج. In the Line of Fire: A Memoir (**New York: Free Press**, 2006), 201

(5) ناصر محمد علي الطول، الحركة الإسلامية والنظام السياسي في اليمن، صنعاء: خالد بن الوليد، 2009، ص 448. أستخدم هذه المصدر لأعطي فهمًا عن المزاج في اليمن بعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر مباشرةً.

المتحدة كانت في أثناء حرب الخليج عام 1990، وأركعَ اليمنَ يومها قطعُ المساعدات من قبل الولايات المتحدة، والسعودية، والكويت، ولكن الولايات المتحدة ما كانت تتحدث عن الردود الاقتصادية هذه المرة، ولم يقدم صهر صالح ذو اللسان اللطيف، عبد الوهاب الهجري، سفير اليمن المُقلل من شأنه في الولايات، عونًا مفيدًا، إذ كان جورج بوش غير قابل للتوقع، فما مضى عليه أكثر من تسعة شهور في المنصب والولايات المتحدة لم تتعرض في يوم لهجوم كهذا.

في الأيام القليلة المربكة بعد الهجمات مباشرةً، نصح الهجري صالحًا بأن يقنع بوش بأن اليمن حليفةٌ في حرب أميركا الجديدة.

«سوف أرسل إليك عبد الكريم» أخبر صالح صهره مشيرًا إلى عبد الكريم الإرياني.

الإرياني يمنيٌّ قصير ذو مظهرٍ فاتن، وهو وسيط صالح المفضل مع الأميركان والأوروبيين، فهو ابن أخ رئيس اليمن الشمالي الثاني، وقضى مدةً طويلة من شبابه في الخارج، فحصل على شهادته الجامعية ودراسته العليا من جامعة جورجيا، ومن ثم حصل على شهادة الدكتوراه في الوراثة البيوكيميائية من جامعة يال في 1968، ويتحدث إنكليزية طليقة وبليغة، وأهم من ذلك، يعرف كيف يتحدث إلى الغربيين، فكان الدبلوماسيون والعاملون في المساعدات يقدرون أسلوبه المباشر وطباعه الهادئة المدروسة، فالدكتور عبد الكريم، كما كان يدعوه معظم الناس، يقول ما يقصد، وقبل مجرد شهور طرده صالح من رئاسة الوزراء وهي المرة الثانية التي يتسلم الإرياني فيها الحكومة، وها قد عاد الآن إلى حظوته.

أخبر صالح سفيره أن الإرياني سيحمل رسالة إلى الرئيس بوش.

في واشنطن التقى كبار مساعدي الرئيس بوش إدموند هول، وهو المرشح الذي اختاره الرئيس بوش لاستبدال بودين في اليمن، وفي 17 أيلول/ سبتمبر أشرف وزير الخارجية كولن باول على قسم هول للحصول على المنصب، وهول دبلوماسي أنيق يتحدث العربية وله خلفية في الاستخبارات، وبدأ مسيرته في السبعينيات عندما كان متطوعًا في فرق السلام في تونس، وقضى معظم مسيرته المهنية في العالم العربي، وكان آخر منصب له هو معاون وزير الخارجية لتنسيق شؤون محاربة الإرهاب، حيث عمل في قضية تفجير المدمرة كول. لقد أعجب هذا بوش، فالموضوع الوحيد ذو القيمة في اليمن هو محاربة الإرهاب وهول خبيرٌ في ذلك.

في 27 أيلول/ سبتمبر وصل الإرياني إلى واشنطن ليقوم بسلسلةٍ من اللقاءات في وزارة الخارجية، وفي عصر ذلك اليوم، في وقت متأخر من مساء صنعاء، اتصل بصالح ليخبره أن كل شيء على ما يرام، فأخبر الإرياني الرئيس بأن حسابات اليمن قد تغيرت في أعقاب هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، إذْ بعد استجوابات القصع والبحري الناجحة، قدمت الأف بي آي تقارير تقول أن اليمن تتعاون، والوكالات الأخرى راضية أيضًا، ليست اليمن هدفًا، هنأ الإرياني رئيسه.

وسمع صالح كثيرًا من هذا الكلام من هول، الذي وصل توًّا إلى البلاد، فقدم وثائق التفويض للرئيس وأكد له أن لا خطط للولايات المتحدة للهجوم على اليمن، وأخبر السفير الجديد مراسلي الإعلام لاحقًا بأن الرئيس صالح «اختار جانبًا في هذه الحرب على الإرهاب»(1).

ولم يكن كل من في الولايات المتحدة واثقين إلى هذه الدرجة، فقد كان المحللون الاستخباراتيون في السي آي إي قلقين من أن ناشطي القاعدة موجودون أصلًا في اليمن، وعندما حط صالح في الولايات المتحدة في 25 تشرين الثاني/ نوفمبر ليلتقي بوش، كان الخبراء قد جهزوا لائحة من الأسماء، وهذه زيارة صالح الثالثة إلى الولايات المتحدة، وقد انتهت سابقتاها كلتاهما بكوارث. ففي 1990، دعا جورج بوش الأب صالحًا إلى البيت الأبيض قبيل استفتاء اليمن على الوحدة، ولكن أخفقت حفلة الترحيب بالبلد الجديد بعد شهور عندما رفض صالح الاصطفاف مع الولايات المتحدة ضد صدام حسين، وبعد عشر سنوات من ذلك، في عام 2000، أعطاه بيل كلينتون فرصة ثانية، ولكن الهجوم على المدمرة كول سرعان ما ألقى بظلاله على هذه الزيارة.

كان صالح يعلم أن الولايات المتحدة تريد العمل معه، ولكنه لم يكن متأكدًا ما الذي يقتضيه العمل مع الولايات المتحدة، فوكالات استخباراته متعاونة أصلًا مع السي آي إي و الأف بي آي، وفي الأسابيع التي تلت الهجمات، اعتقلت اليمن عشرات من المشتبه بهم لكونهم نشطاء في القاعدة، وأغلقت الشرطة حسابات البنوك والشركات التي تخاف الولايات المتحدة من أنها تمرر الأموال إلى القاعدة.

(1) Christopher Cooper, «Desert blues: in war on terrorism battlefields may look a lot like Yemen» **Wall Street Journal**, October 9, 2001.

وبعد أن جمع صالح كل مسؤوليه الأمنيين ومن جملتهم غالب القامش، بات مستعدًا لعقد الصفقات، فالتقى جورج تينت في مقر إقامة اليمن الرسمية في شمال غرب واشنطن في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر.

لم يضع مدير الاستخبارات المربوع كثيرًا من الوقت، فقد أحضر معه قائمة الأسماء التي أعدها عملاؤه، وكانت السي آي إي قد قدمت لنظيراتها في الاستخبارات اليمنية لائحة مشابهة من المشتبه بهم في وقت أبكر من تشرين الثاني/ نوفمبر، وما كان من الأمر إلا أن شاهدت معظمهم يتسلل إلى خارج البلاد[1]، وكان المحللون المحبطون مقتنعين بأن عملاء فاسدين في منظمة الأمن السياسي قد سربوا المعلومات للمشتبه بهم.

حذر تينيت: على هذا أن يتوقف[2]، وهو ينظر إلى القامش على طرف الطاولة، ومن ثم توقف قليلًا، وأخرج اللائحة وسلمها إلى صالح مباشرةً، ولم يفت معنى الحركة على أحد، أصبحت القائمة مسؤولية صالح، وهو من سيلام في حال ساءت الأمور.

في قمة قائمة تينيت كان أبو علي الحارثي، الرجل الذي أسس أول مخيمات تدريب للقاعدة في اليمن، وكان عملاء الاستخبارات الأميركان يدعونه بـ«العراب» وحسب، فهو أعلى رتبة يملكها ابن لادن في اليمن وقائد القاعدة في اليمن، نحن بحاجة إلى هذا الرجل، قال تينيت.

ووراءه مباشرة على القائمة محمد حمدي الأهدل وهو يمني آخر كبر في السعودية، فقد رجلًا في الشيشان ويستخدم رجلًا صناعية، وحسب الاستخبارات الأميركية، الحارثي والأهدل هما أكبر شخصيات القاعدة في اليمن، حيث هما، كما يدعوهما أحد مسؤولي الحكومة الأميركية: «براغي الإرهاب وعزقاته»[3]، وبهذه الطريقة تستطيع اليمن أن تكون إلى جانب الولايات المتحدة، كما قال تينيت لصالح.

في اليوم التالي، كرر الرئيس بوش الرسالة ذاتها، وبعد وقت قصير من أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، في 20 سبتمبر، عرض رؤيته للعالم في خطاب استثنائي لجلسة

(1) Raymond Bonner, «Long at odds with the US, Yemen is now cooperating to fight terror» **New York Times**, November 25, 2001.

(2) مقابلة الكاتب مع مسؤول حكومي يمني، Sanaa, July 2004

(3) مقتبس من Howard Schneider, «For Yemen a risk and an opportunity» **Washington Post**, January 2, 2002.

مشتركة للكونغرس، فوقف في منبر المجلس أمام علمٍ أميركيٍ هائل ليضع حلفاءه أمام خيارٍ مطلق: «أمام كل دولة، في كل منطقة، الآن خيار، إما أن تكون معنا، وإما أن تكون مع الإرهابيين»[1].

وأعاد بوش الخيار لصالح في المكتب البيضاوي في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر، وقال أن الخطوة الأولى الجيدة يمكن أن تكون اعتقال الحارثي والأهدل، كانت قائمة الأسماء طريقة تثبت بها اليمن دعمها للولايات المتحدة، وليس القاعدة، فعلى اليمن أن تحمل القتال إلى أرض القاعدة، وإذا كانت غير قادرة على أن تعتقل أو تقتل الرجال الموجودين على قائمة السي آي إي، أكمل بوش، فسيكون أكثر من سعيد بإرسال القوات الأميركية الخاصة[2].

شَحُبَ صالح من التهديد المتضمن، فطلب الوقت وبعض الصبر، ووعد الرئيس اليمني بأنه سينهي الموضوع: «القبائل في هذه المناطق صعب التعامل معها للغاية... ولكنني سأقوم بالموضوع».

«جيد» أجاب بوش، «هذه المعركة ستحدد العلاقة بين البلدين وبيننا شخصيًا».

وانخفض التوتر في الغرفة مع انتقال الحديث إلى شؤون أخرى، فاليمن ستحصل مقابل مساعدتها على حوالي 400 مليون دولار[3]، وبالنسبة إلى صالح الذي اعتاد على تدبر الأمور دون دعم الولايات المتحدة المادي هذه زيادة فلكية، ولسعادته بالقفزة الضخمة في التمويل، غامر صالح في أن يعرض على الولايات المتحدة بعض المزيد، مخبرًا الرئيس بوش أنه يستطيع المساعدة في التوسط في نزاعه مع صدام حسين، وقال صالح في محاولة للدفع باتجاه الحوار، وهذا من هواية صالح: «هنالك حكمة في العالم العربي تقول: أنك إن وضعت قطة في قفص، فيمكن لها أن تتحول إلى أسد».

رد بوش ببطء وإحكام: «هذه القطة مصابة بالكلب، الطريقة الوحيدة لشفاء القطة هي قطع رأسها»[4].

---

(1) George W. Bush, «Freedom at War with Terror» speech given September 20, 2001, available at: .http://georgewbush-whitehouse.archives.gov/news/releases/2001/09/20010920-8.html

(2) Patrick Tyler, «Yemen, an uneasy ally, proves adept at playing off old rivals» **New York Times**, December 19, 2002.

(3) Pincus, «Yemen hears benefits».

(4) Tyler, «Yemen, an uneasy ally».

الفصل السابع

حرب جديدة
شتاء 2001

في فندق دي كريلون القريب من الإليزيه في قلب باريس، جلس صالح وفريقه الأمني يضعون خطة بعد اللقاء مع بوش في اليوم السابق في العاصمة الأميركية. أدرك أن عليه التصرف بسرعة، ولكنه كان يريد منح الدبلوماسية القبلية فرصة أخيرة، فأي مواجهة عسكرية في مناطق اليمن القبلية قابلة لأن تخرج عن السيطرة، واتفقت السي آي إي وغالب القامش على أن هدفهم الأكبر[1]، أبو علي الحارثي، المتحصن في مجمعه في شبوة، بينما مساعده محمد الأهدل على الأغلب في المنطقة الوسطى المتململة من مأرب، وقلصت التقارير الاستخباراتية اليمنية القادمة من مأرب النطاق أكثر، مقترحة أن القبلي المحلي غالب الزيدي منح الأهدل الحماية.

واستدعى الرئيس بعد وصوله إلى صنعاء الرجل القبلي، وخاف الزيدي من نوايا الرئيس، فأحضر حفنة من أقربائه وأفراد عشيرته لحمايته[2]، ولم يضع صالح الكثير من الوقت، فقال للزيدي: «لقد أَمَرت بتوفير الحماية للأهدل»[3].

«بلى» أجاب الزيدي بحذر، «التقيته كوسيط لأنه مسلم ولم أكن أعلم من هو».

كان الزيدي أطول من معظم اليمنيين، ويرتدي سترةً زرقاء غامقة فوق ثوب أبيض

(1) Edmund Hull, High Value Target: **Countering al-Qaeda in Yemen** (Washington: Potomac Books, 2011), 29.

(2) «Interview with Ghalib al-Zayadi» (Arabic), **Mareb Press**, January 5, 2009.

(3) المصدر نفسه.

جميل، وله لحية مشذبة بدقة تتلاءم مع نظاراته المدورة ذات الإطار العريض فتمنحه طابعًا مثقفًا، وهو طابع تدعمه شهادتان في الدراسات القرآنية والعمل الدعوي.

«أريدك أن تقوم بشيءٍ من أجلي»، قال صالح أخيرًا: «أريدك أن تقنع أبو عصام بأن يسلم نفسه» مستخدمًا لقب الأهدل الجهادي.

هز الزيدي رأسه ببطء موافقًا بينما الرئيس يشرح خطته؛ طلب صالح من الزيدي تسليم رسالةٍ إلى الأهدل، وفي داخلها كل شروط تسليمه نفسه وضمانات حمايته، وناوله صالح إياها مشددًا على أهمية الأمر.

وبعد مغادرة رجال القبيلة، التقى صالح أدموند هول السفير الأميركي في وزارة الدفاع، ونقل إليه صالح مبتسمًا وبهدوء أنه يحقق تقدمًا في قائمة السي آي إي وأن المفاوضات على استسلام الأهدل جارية[1]، وأضاف صالح أنه إذا لم تنجح المفاوضات خلال يومين سوف يأمر بهجوم، وبعد يومين، بعد مرور موعد صالح دون أي تحرك، لم يفاجأ هول، ذلك أنه، كدبلوماسي شاب في القاهرة، تعلم حكمة يكررها لنفسه في مثل هذه الحالات: «أي عمل سوف يتطلب ضعف الوقت الذي تتوقعه، ولكنك سوف تجد أن لديك ضعف الوقت الذي كنت تظن أنك تملكه لإنجازه»[2].

على مدى بضعة الأيام التالية، أبقى صالح الضغط مستمرًا، ولكن كلًا كان يحمل عذره، فادعى الزيدي أن الأهدل ببساطة اختفى قائلًا لصالح: «لم أعد أراه بعد اجتماعنا»، فشك الرئيس في أنه يكذب أو على الأقل يتستر على الهارب، ولكنه لم يكن كذلك، فالأهدل اختفى فعلًا، ولكن الحارثي انتقل إلى مأرب برفقة مساعد مصري، وفي 17 كانون الأول/ ديسمبر، بعد أكثر من أسبوع على لقائه الزيدي، تخلى صالح عن الدبلوماسية وأمر بالهجوم.

في أول الصباح الباكر من اليوم التالي، هبطت الوحدات العسكرية على أهدافها في مأرب وشبوة والجوف، فتحركت الدبابات والجنود المدرعون مدعومين بالنفاثات والطائرات المروحية نحو القبائل في قوس الجبال والرمال الممتدة من الحدود السعودية جنوبًا إلى خليج عدن، وكل شيء في هذه المناطق متروكٌ للقبائل، إلا بعض نقاط التفتيش

(1) Hull, High Value Target, 29.

(2) المصدر نفسه.

المتناثرة التي يقوم عليها بعض الجنود، وكان الجيش في العادة يُعْلِم القادة المحليين قبل أي حركة كبيرة للعسكر، ولكن صالحًا لم يخبر أحدًا هذه المرة، وسببت هذه الغارة المفاجئة موجات من القلق والتنبه عبر المنطقة، فكان المحليون يقدمون تقارير عن تقدم الجنود أسرع مما يستطيع الجنود الحركة في الأرض الوعرة.

ولكن في مأرب تغير حظ الجنود، ففي شرق صنعاء تستوي جبال اليمن لتتحول صحراء مفتوحة على مصراعيها من الكثبان والسهول الحصباء، تستمر جنوبًا نحو شبوة قبل أن تلتف إلى الشمال وتدخل رمال الربع الخالي، وهي صحراء عملاقة بحجم تكساس في قلب شبه الجزيرة، وتتربع على حافة الربع الخالي قرية الحسن المبنية على موقع سوق تاريخي وموضع تقليدي لاجتماعات القبائل، وقادت هذه القريةَ عائلةُ الجلال عدة أجيال، وهي أيضًا، حسب مصادر صالح على الأرض، مكان اختباء شخصين من القاعدة، وتبين فيما بعد أن الرجلين هما الحارثي ومساعده المصري[1].

استطاع الجنود في مأرب الوصول إلى قرية الحسن دون تنبيه أحد، إذ كانوا غير معوقين بالجبال الوعرة والممرات الضيقة التي أبطأت رفاقهم الأبعد جنوبًا، وتوقف صليل الدبابات وحاملات الجند على الرمل الصلب، أمام مجموعة من الأكواخ الطينية، بينما انتشر الجنود متباعدين في حلقة حول القرية، وعلى مسافة كبيرة فوق رؤوسهم تحلق مروحية تنتظر الإشارة، إذ كانت الخطة تقتضي عرضًا مخيفًا للقوة العسكرية لإرعاب سكان القرية، ولكن هؤلاء أعضاء من قبيلة العبيدة، وهي مجموعة شرسة الاستقلال من العشائر وفروع العشائر أرسلت فيما مضى عدة مقاتلين إلى أفغانستان في الثمانينيات يقودها حمد بن علي جلال[2]، وهو شيخ يافع مندفع لا يزال يتأقلم مع دوره القيادي بعد موت والده قبل ثلاثة أعوام، وقد تحركت ثلة من رجال القبيلة للقاء الجنود.

شرح الضباط أن لا مشكلة لديهم مع أي من سكان القرية، فهم لا يريدون إلا مشتبهي القاعدة، ولكن الحارثي، وهو قبلي من شبوة، كان ماهرًا في استغلال «العرف»، القانون القبلي والتقاليد التي تحكم معظم اليمن، فشدد على أصوله المشتركة طلبًا للحماية، وما

(1) Ibrahim al-Banna, «The Martyrdom of the Commander Abu Ayman» **Inspire** 8 (Fall 2011), 13-15.

(2) Al-Maqhafi, **The Yemeni Geographical and Tribal Dictionary**, vol. 1, 344.

أن مُنحت، باتت القبيلة مُلزمة بشرفها بحمايته، فأسقط في يد جلال، الشيخ الزعيم في الحسن، وحَارَ بين قرون من السوابق القبلية ومطالب الحكومة، فشرح للجنود أنه يود مساعدة الجيش، ولكنهم يعرفون القواعد. وعلى بعد ياردات من الشيخ صغير السن، وقف عدة أفراد من القبيلة دفاعًا عن الشيخ وضيوفهم حاملين رشاشات الكلاشنكوف وتشكيلة من البنادق أكثر قدمًا موجهين إياها عبر بيوتهم المصنوعة من لبن الطين على شكل قلاع صغيرة ذات فتحات للبنادق لتتحمل حصارًا، وكان معظم رجال القبيلة يعرفون الحارثي ومساعده شخصيًا فقد عاش الرجلان أسابيع معهم، وفي هذا الوقت أظهروا أنفسهم كرجال أتقياء يحترمون الأعراف المحلية ويتعاملون بشرف.

وبدأ الجند بالتململ والتشنج في بدلاتهم الشتوية لما طال النقاش بين الضباط والشيوخ القبليين المومئين برؤوسهم، فالصوف الثقيل غير مريح في الشمس، وفجأة، حطم صوتٌ عالٍ هدوء الصباح، ففتح رجال القبيلة النار على الجنود المنتشرين حول القرية، فالنفاثة اليمنية حطمت لتوها حاجز الصوت وغابت عن النظر(1)، فظن أهل القرية أنهم يتعرضون لهجوم، وعادوا إلى عماراتهم الطينية السميكة، ساحبين قاذفات الصواريخ والقنابل اليدوية من ترساناتهم الفردية، وكانت النيران شديدة، واستطاع رجال القبيلة تدمير عدة عربات عسكرية قبل أن تبتعد البقية عن مداهم(2)، وحاول بعض الجنود رد النار في أثناء انسحابهم، ولكن لم يكن ثمة أهداف، فرجال القبيلة مختبئون خلف جدران الطين، ورمت إحدى مجموعات الجنود أسلحتها واستسلمت بسرعة لما وجدت نفسها مفتوحة على النيران في العراء، فانتهت المعركة خلال دقائق، مخلفةً جثث تسعة عشر جنديًا حول ناقلات الجند المحترقة، وحوالي العشرين ينزفون من جروح الشظايا، وأُسر خمسة وثلاثون آخرون(3).

أعادت بقية الوحدات العسكرية التجمع وشكلت فريق تفاوض على إطلاق الأسرى، وفي ارتباك القتال، تسلل الحارثي ومساعده إلى خارج القرية واختفيا.

قرابة ذلك الوقت من الشتاء، وعلى بعد حوالي 2000 ميل في جبال شرق أفغانستان، كان مئات المقاتلين الآخرين في القاعدة ينسقون هروبهم الخاص، فالقاعدة تعرضت

(1) Frank Gardner, «Yemen's al-Qaeda supporters,» **BBC.co.uk**, August 3, 2002.

(2) Hull, High Value Target, 30.

(3) المصدر نفسه.

لأسابيع من الهجوم، ودفعتها شرقًا حملةُ قصف شرسة دمرت منازلهم وحطمت كهوفهم، فانسحب الرجال إلى قرب الحدود الباكستانية إلى رقعة من الجبال والمرتفعات بمساحة ستة أميال مربعة تُعرف باسم تورا بورا، هناك على ارتفاع 14000 قدم عن سطح البحر اختبأت القاعدة، وكانت هذه، حسب قول ابن لادن لرجاله، ستكون وقفتهم الأخيرة.

قبل أسابيع من ذلك، في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر، بدأت الولايات المتحدة حملة قصف جوي منسقةً على نحو جيد على مواقع القاعدة وطالبان على امتداد أفغانستان، فتحطمت، بين ليلةٍ وضحاها البنية التحتية البسيطة التي استطاعت طالبان ـ المليشيا الإسلامية ذات العمامات السوداء التي تتحكم بمعظم أفغانستان ـ أن تلمها على بعضها خلال السنوات القليلة من حكمها، فخرج نظام الدفاع الجوي البدائي من الخدمة خلال ساعات، وسُحقت معسكرات طالبان التدريبية وصارت أعمدة من اللهب، ومع ذلك، صمدت صفوف طالبان إثر وصول متطوعين جدد متحمسين من باكستان، وبعد أسبوع من بدء حملة القصف، التقت القوات الخاصة الأميركية مع التحالف الشمالي(*) قرب مدينة مزار شريف على الحدود مع أوزباكستان، قريبًا من المكان الذي خرجت منه القوات السوفييتية قبل أكثر من عقد، وكانت هذه المجموعة من الرعاع الطاجيك القبليين والأقليات الإثنية الأخرى على شفير الهزيمة قبل شهر من هذا فقط، عندما اغتال نشطاء القاعدة قائدهم أحمد شاه مسعود، قبل يومين من 11 أيلول/ سبتمبر، وهو نفسه قائد مجموعة حرب العصابات الذي صادقه عبد الله عزام قبل وقت قصير من مقتله قبل أكثر من عقد من الزمن، وقضى مسعود السنوات التالية لذلك يخوض وحيدًا حربًا ضد سيطرة طالبان على بلاده، وبرحيله، توقفت حرب الولايات المتحدة في أفغانستان على تحالف رخو بين القوى المعادية لطالبان التي خلفها وراءه.

خلال تشرين الأول/ أكتوبر، استخدمت القوات الخاصة الأميركية الليزر لتحديد مواقع طالبان للغارات الصاروخية الدقيقة النازلة من حاملات القنابل المحلقة عاليًا فوق قمم أفغانستان الجبلية الحادة، وبحلول تشرين الثاني/ نوفمبر، أضعف القصف المتواصل قوة طالبان بحيث صار الاجتياح الأمامي ممكنًا، فهرع مئات من مقاتلي التحالف الشمالي

(*) الجبهة الإسلامية المتحدة لإنقاذ أفغانستان، تشكلت عام 1996، بعد استيلاء إمارة أفغانستان الإسلامية (طالبان) على كابول. وهي تتألف من مجموعة من القادة الإسلاميين، مثل برهان الدين رباني، وأحمد شاه مسعود. عمل التحالف الشمالي ضد حكومة طالبان وتلقى دعمًا من عدة دول مثل: روسيا، الهند، طاجيكستان.

عبر جسر الإمام البكري إلى مزار شريف، وعلى بعد 200 ميل من ذلك جنوب شرق المعركة، في كابول، جلس ابن لادن على الفطور مع حامد مير، وهو صحفي باكستاني يعرفه منذ سنوات، وأخبر ابن لادن الرجل الأقصر منه أن القاعدة تملك الحق في ضرب أميركا[1]، ومن ثم عاد قائد القاعدة إلى التنقل مجددًا مسافرًا نحو الشرق على طول طريق سريع باتجاه جلال آباد، وخلفه سقطت كابول بيد قوات التحالف الشمالي.

حارب عدة أعضاء من القاعدة في إثر مرور قائدهم مدافعين عن تراجعه الشرقي[2]، متقهقرين من قرية إلى قرية حتى وصلوا إلى جلال آباد على بعد 45 ميلًا وحسب عن الحدود الباكستانية، وكان بعض منهم موجودًا خلال حصاره للمدينة قبل اثني عشر عامًا، وكان مقاتلو ابن لادن الجدد أفضل تدريبًا، ويحملون معدات أفضل من التي حملها أتباعه قبل عقد، ولكنهم لا يزالون غير كفء للتعامل مع هجوم جوي مستمر. التقى ابن لادن الرجال عند تدفقهم إلى جلال آباد، عيونهم مستوحشة وشعرهم أشعث بعد أسابيع من القصف، وملابسهم ممزقة ومبقعة ولحاهم معفرة بنثار من الطين الجاف، فحاول أن يحافظ على معنوياتهم بالخطب والصلوات، ولكنه كان يعلم أن المدينة لن تصمد.

كان ابن لادن يخطط لهذا اليوم منذ سنوات، فكان يخبر أولاده وزواره أنه لا يشعر بالأمان حقًا إلا في الجبال[3]، وهو في 1987، في قمة الجهاد ضد السوفييت، بنى طريقًا يتسلل شمالًا خارج باكستان وصعودًا عبر الممرات في تورا بورا قبل أن يهبط إلى جلال آباد[4]، إذ لفتت الكهوف الطبيعية شمال الحدود نظره في ذلك الوقت، وقضى شهورًا يوسعها لتصبح ترسانات سلاح متداخلة لتخزين الأسلحة، وعندما عاد إلى أفغانستان في 1996، كان قد عمق الكهوف ووسع الترسانات، والآن في أثناء هروبه من حاملات القنابل الأميركية، أمر رجاله بإعادة التجمع في تورا بورا.

تحتاج الرحلة ذات الثلاثين ميلًا من جلال آباد عبر الطريق الضيق المتعرج ثلاث ساعات إذا كانت الظروف جيدة، ولكن الرجال لبردهم وقلة طعامهم لم يستطيعوا

(1) Peter Bergen, «The Battle for Tora Bora: The Definitive Account,» **New Republic**, December 22, 2009.

(2) Turki al-Suhayl, «Jabir al-Fayfi: trained in al-Faruq camp» (Arabic), al-**Sharq al-Awsat**, December 22, 2010.

(3) مقتبس من Bergen, The Longest War, 69.

(4) المصدر نفسه.

الإسراع على الطريق نحو الجنوب، فكان أولئك الرجال المتناثرون على منحدرات تورا بورا الوعرة كل ما تبقى من منظمة ابن لادن في أفغانستان. أحد الرجال، أحمد الفيفي، وهو شاب سعودي ذو ستةٍ وعشرين عامًا بدأ الصلع يغزو رأسه، لم يكن له في أفغانستان إلا شهور، فبعد إهدار معظم فتوته في المخدرات والكسل، أملَ الفيفي في أن أفغانستان ستغفر له ذنوبه، ولكن لم تشبه الحقيقة شيئًا مما توقع، فهو لم يحلق شعره أو لحيته منذ وصل، وكلاهما بات طويلًا ومعفرًا بالتراب والأوساخ، وكان دومًا جائعًا وبردان، وهذه صعوبات لم يتوقعها أبدًا لما باع سيارته ليمول جهاده، وبدا الأمر وكأنه سيموت في جبال تورا بورا.

جمع قادة القاعدة المحليون الرجال حسب جنسياتهم بحيث يفهمون اللهجات العربية المختلفة على نحوٍ أسهل في حالة إطلاق النار[1]، فكان يوجد، إلى جانب اليمنيين والسعوديين، وحدات من المصريين والمغربيين والجزائريين، وكلٌّ له دور، فحتى المتطوعون الأغرار مثل سلمان الربيعي، وهو أخو فواز المراهق، دُفع بهم إلى الخدمة، وفي مكان ما أسفل الجبل كان سكرتير ابن لادن الشخصي ضئيل الحجم رابضًا في مخبأ تحت التراب مع حفنة من اليمنيين الآخرين، وتحرك ابن لادن والظواهري بين الرجال يديران تحضيرات الدقيقة الأخيرة[2].

لكن الهجوم لم يأتِ، على الأقل ليس كما توقعه ابن لادن، فقد حفر العرب وحلفاؤهم الأفغان الأرض المتجمدة خلال أول أسبوعين من رمضان تحضيرًا لهجوم أميركي على الأرض، وبدلًا من ذلك، طوقت الولايات المتحدة المنطقة بحوالي ألفين من المرتزقة الأفغان وأطلقت أكثر من 1100 صاروخ نحو الجبال[3]، لكنّ شيئًا من هذا لم ينفع.

كان المرتزقة الأفغان تحت قيادة أميري حرب متنافسَين، هزارت علي وحجي زمان غمشريك[4]، وعلي حاصل على تعليم بمستوى الصف الرابع وذو سمعة مشبوهة، بينما غمشريك مهرب مخدرات معروف، كان يعيش منفيًا في فرنسا حتى أقنعته السي آي إي

(1) Suhayl, «Jabir al-Fayfi».

(2) Bergen, «The Battle for Tora Bora».

(3) Tora Bora Revisited: How We Failed to Get Bin Laden and Why «it Matters Today» Report for Senate Committee on Foreign Relations, November 30, 2009, 11; Bergen, The Longest War, 72.

(4) «Tora Bora Revisited» 11.

بالعودة إلى أفغانستان مقابل حقيبة ممتلئة بالنقود، وكان الرجلان يكرهان بعضهما بعضًا، ويرفضان تنسيق خطة بينهما، وبالنسبة إلى العملاء الأميركان على الأرض فإن فكرة تصدير الحرب إلى هذين الاثنين وأتباعهما ذوي التدريب السيئ كانت خطأً كارثيًا، فقام غاري برينستن، قائد السي آي إي في كابول، ودالتون فيوري[1] قائد فريق الدلتا في تورا بورا، كلاهما بطلب جنود أميركيين إضافيين[2]، فمع وجود أقل من 100 عنصر من القوات الخاصة في المنطقة، كانا يخافان أن تقع الولايات المتحدة في كارثة من صنعها: «نحتاج جنودًا أميركيين على الأرض»، قال برينستن سائلًا الدعم عبر هاتفه المتصل بالأقمار الصناعية مع مخططي الحرب في الولايات المتحدة: «إن فرصة إنهاء ابن لادن ورجاله تضيع من بين أيدينا»[3].

على الطرف الآخرمن الخط، رفض الجنرال تومي فرانكس، قائد العملية في أفغانستان، طلبات عملائه المذعورة على الأرض، إذ كان يحاول الحفاظ على ما يدعوه البنتاغون «بصمة قدم خفيفة»[4]، فالولايات المتحدة لا تريد تكرار أخطاء الاتحاد السوفييتي فتجد نفسها عالقة في أفغانستان لعقدٍ من الزمن.

في وقتٍ مبكر من 3 كانون الأول/ ديسمبر، بدأ قصف تورا بورا بجدية، قصفت الطائرات الأميركية، بتوجيه من رجال فيوري على الأرض، أهدافها على مدى المنحدرات المتجمدة، وعلى مدى الأيام الأربعة اللاحقة، وفي سلسلة من الغارات شبه المتتالية، ألقت الولايات المتحدة 700000 باوندًا من الذخائر على منطقة القتال المؤلفة من 6 أميال مربعة[5]. لم يرَ المقاتلون العرب شيئًا كهذا في حياتهم، فالكهوف لم توفر الكثير من التغطية من القصف الثقيل المتساقط عليهم كالمطر، فحط الدخان والغبار على كل شيء، ومنح الرجال منظرًا رماديًا، وما كانوا يستطيعون أن يردوا النار على الطائرات المحلقة على ارتفاع آلاف الأقدام عنهم، ولم يكن لديهم إلا القليل من الأهداف القابلة للضرب على الأرض، فلم يكن لدى رجال القاعدة المحاصرين

(1) دالتون فيوري هو الاسم المستعار الذي اختاره القائد في تورا بورا.

(2) Bergen, The longest War, 74.

(3) Gary Berntsen, Jawbreaker: The attack on Bin Laden and al-Qaeda: A Personal Account by the CIA's key Field Commander (**New York**: Crown, 2005), 290.

(4) Bergen, The longest War, 73.

(5) Bergen, «The Battle for Tora Bora».

خيارٌ إلا تحمل اندفاع الهجوم، فخلال النهار، يدفعهم رجال هزارت علي وغمشريك أعلى نحو قمم الجبال، مما يقلص من خياراتهم، وفي المساء يحصلون على وقت قصير للتنفس، إذ كل ما غابت الشمس يعود المرتزقة الأفغان إلى الجبال ليفطروا بعد صيامهم، وطعام القاعدة قد نفد منذ زمن، فكان أعضاء القاعدة مثل الفيفي يشاهدون بغيرة ويقضمون ما يتسنى لهم أن يجدوه[1].

بعد ستة أيام من المعركة، في 9 كانون الأول/ ديسمبر، رمت الولايات المتحدة قنبلة بوزن 15000 باوند بحجم ثلاث سيارات فولكسفاكن بيتل، تعرف في الجيش باسم «قاطعة الأقحوان»، وهي مصممة في الأساس لتفريغ مساحة هبوط بشكل سريع للحوامات في أدغال فيتنام، وقد خرج هذا النوع من الخدمة تقريبًا خلال العقد السابق وكساه الغبار، لكن البنتاغون ظن أنه يمكن إعادة استخدامها كـ«محطمة كهوف»، وهي أكبر من أن تحمل بنفاثة، فدفعها رجال القوات الجوية من فتحة طائرة شحن من طراز سي -130 [2].

هز الانفجار الجبال على مسافة أميال ودفع بسحابة ضخمة من الدخان والغبار جعلت من المستحيل على الطيارين تقدير الضرر الذي سببته، لكن على الأرض لم يكن ثمة شك، فقد احترق مجموعة من الرجال في أحد الكهوف بفعل الانفجار، وتطايرت قصص القنبلة العملاقة بين صفوف القاعدة، فسببت حالة من الذعر لما بدأ حلفاء القاعدة المحليون بالتخلي عمن كانوا أصدقاءهم، وانقلب القرويون على العرب في محاولة لدفعهم إلى خارج الجبال[3].

وخلال كل ذلك بقي ابن لادن يتحرك في استمرار، فيغير موقعه كل بضع ساعات، ولكن في وقت متأخر من بعد ظهيرة 10 كانون الأول/ ديسمبر ظن فريق دلتا أنهم رأوه مباشرة على بعد أكثر من ميل بقليل، فجلس فيوري يفكر بالمعلومات بضع دقائق متصارعًا بصمت مع القرار، فقد كان هزارت علي قد انسحب وقتها، وكان لدى فيوري أوامر مباشرة بأن لا يدخل القتال في المقدمة، وتردد القائد الأميركي في تقديره للوضع، فثلاثةٌ من رجاله مشتبكون في إطلاق نار، والليل في طريقه، وأخيرًا، تذكر تعليماته وأمر جنوده

(1) Suhayl, «Jabir al-Fayfi».

(2) «Tora Bora Revisited» 2.

(3) Suhayl, «Jabir al-Fayfi».

بالتراجع[1]، ولسوف تمرُّ عشرون سنة أخرى قبل أن تحظى الولايات المتحدة بفرصة جديدة لإمساك ابن لادن.

بعد يومين من ذلك، ومع استمرار القنابل بالهطول على مواقع القاعدة، وفر غمشريك – مهرب المخدرات السابق والمتحالف مع الولايات المتحدة الآن – مهربًا للقاعدة، وقد كانت القوات الأميركية التقطت إرسالًا لاسلكيًا لابن لادن يعطي فيه رجاله الإذن بأن يستسلموا، أنا آسف لأننا وضعنا أنفسنا في هذا الفخ، قال بن لادن نادمًا عبر التشويش.[2]

أخبر غمشريك فيوري الآن أن مجموعة كبيرة من مقاتلي القاعدة تود تسليم نفسها في ما بعد ظهيرة هذا اليوم حوالي الساعة 4 مساءً[3]، ولم يثق فيوري بهم، ولكنه، لقلة رجاله على الأرض، لم يكن يملك من الخيارات إلا أن ينزل عند إرادة المرتزقة الأفغان، فوافق بامتعاض على وقف قصير لإطلاق النار، ولم تأتِ القاعدة، وبدلًا عن ذلك أخبروا غمشريك على الراديو أنهم بحاجة إلى المزيد من الوقت لجمع الجميع والنزول عبر الجبل، واقترحوا الثامنة صباحًا من اليوم التالي، 13 كانون الأول/ ديسمبر، موعدًا جديدًا لتسليم أنفسهم، ففقد فيوري، الذي كان فارغ الصبر أصلًا بسبب إيقاف إطلاق النار، أعصابه لما عرف بالتمديد، فالقاعدة ليست مستعدة للاستسلام، ولكنهم يراوغون للحصول على الوقت[4]، ولما اقتنع أنه خُدع، طلب غارات جوية أميركية جديدة، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل الكثير دون دعم المقاتلين الأفغان المشرفين على وقف إطلاق النار الذي وافق عليه قائدهم، وفي تلك الليلة، تسلل 800 مقاتل من القاعدة إلى خارج الجبال نحو باكستان[5].

وتخلف عن الهرب ابن لادن ومئات آخرين، وحاول قائد القاعدة أن يجمع من تبقى من مقاتليه، مخبرًا إياهم أن «يسلحوا النساء والأطفال»، ولكن لا بد أنه كان يخاف في داخله من أن هذه هي النهاية[6]. وعلى مدى أيام، بينما كان القتال حوله محتدمًا، جلس

---

(1) Dalton Fury, Kill Bin Laden: A Delta Commander's Account of the Hunt for the World's Most Wanted Man (**New York**: St. Martin's Press, 2008), 191.

(2) «Tora Bora Revisited» 7.

(3) Bergen, «The Battle for Tora Bora» 77.

(4) Fury, Kill bin Laden, 210-228.

(5) «Tora Bora Revisited» 11.

(6) Bergen, «The Battle for Tora Bora» 77.

ابن لادن يكتب وصيته الأخيرة، وفي 14 كانون الأول/ ديسمبر، آخر أيام رمضان، أنهى كتابتها، وتوسل زوجاته ألا يتزوجن من بعده، ومن أولاده المغفرة، وقال في الختام: «أنصحكم ألا تعملوا مع القاعدة»[1].

لاحقًا، في ذلك اليوم، قام ابن لادن - المكتئب، والمصاب ربما - مع بعض حرسه بمصارعة الطريق نزولًا على الجبال وإلى خارج تورا بورا[2]، ولحق به باقي رجاله من كهوف الكوارتز والفلدسبار، ولما صعد فريق فيوري الجبال بحذر في 17 كانون الأول/ ديسمبر وجدوا الكهوف خالية والقاعدة قد رحلت.

بعد تورا بورا، تحرَّك ابن لادن وأحد أولاده وبعض حراسه متجهين جنوب - شرق نحو مناطق باكستان القبلية التي تلي الحدود مباشرة قبل أن يلتفوا عائدين إلى أفغانستان، بينما اتخذ الظواهري وأحد أبناء ابن لادن وآخرين طريقًا مختلفةً عند خروجهم من الجبال[3]، وهرب بقية الرجال بأحسن طريقةٍ استطاعوها، فانطلقت مجموعة الوحيشي من المقاتلين جنوب - غرب، معانقةً الحدود الباكستانية، ومتعثرة عبر الجبال حتى وصلت إلى المسطح الصحراوي الذي يقع وراء قندهار بعدة أيام، واستداروا في النهاية شرقًا نحو إيران، وخرج الفيفي وحوالي 300 سعودي ويمني - ممن تخلفوا ليغطوا انسحاب ابن لادن - من تورا بورا في أول أيام عيد الفطر، وكان الرجال منهكين من الجوع وغير مستعدين بشكل جيد لشتاء المرتفعات[4]، فمشوا متعثرين بخط واحد بين أشجار الصنوبر، بينما استمرت الحرارة بالهبوط كلما تقدموا نحو الشرق، يترنحون عبر الرياح المثلجة، وظن أحد القادة أنه عقد صفقة مع الجيش الباكستاني للسماح لهم بعبور الحدود بأمان، وعندما وصلوا المعبر الحدودي في 19 كانون الأول/ ديسمبر، أخبرهم الحراس أنهم يستطيعون دخول البلاد، ولكن عليهم التخلي عن سلاحهم، فوافق الرجال المتعبون والمتضورون جوعًا على مضض، ونقلهم الجيش إلى مسجد كبير في قرية قريبة، وأكد الباكستانيون للعرب الهاربين: سوف تكونون في أمان هنا.

(1) مقتبس من نفس المصدر نفسه.، 85.

(2) المصدر نفسه.

(3) مقتبس من نفس المصدر السابق، 78.

(4) Suhayl, «Jabir al-Fayfi».

لأسابيع على مدى سقوط القنابل داخل أفغانستان، كانت الولايات المتحدة تمارس ضغطًا على باكستان للإمساك بالعرب المارين من الحدود، ونزل الجيش الباكستاني وعدد من صيادي الجوائز إلى المنطقة الحدودية تجذبهم وعود المكافآت، لالتقاط العرب و«الأجانب» الآخرين الذين باعوهم فيما بعد للولايات المتحدة.

بعد وقت قصير من رمي الجيش الباكستاني لمجموعة الفيفي في المسجد أعادوا تحريكهم، وفي هذه المرة أنزلوهم في داخل مجمع ذي جدران ضخمة.

«أين نحن؟» سأل الفيفي أحد الجنود: «ما هذا المكان؟»

«إنه سجن» رد الرجل مكشرًا.

وفي النهاية تسلم بعض الأميركان وصاية السجناء وشحنوهم عبر الحدود إلى أفغانستان مجددًا، وبعد أسبوعين من ذلك، هبط الفيفي وباقي الرجال في المطار العسكري في خليج غوانتنامو، كوبا، ونزل الرجال معصوبي الأعين ومقيدي الأيدي، فلم تكن عندهم أي فكرة عن المكان الذي هم فيه، «مرت ثلاثة شهور قبل أن أدرك حتى أنني في كوبا» يتذكر الفيفي[1].

وسلمت باكستان، إلى جانب مجموعة الفيفي، عشرات من السعوديين كثيفي الذقون إلى الولايات المتحدة، من ضمنهم رجل اسمه سعيد الشهري، وخلال شهور بات عند الولايات المتحدة مئات الرجال قيد الاعتقال في خليج غوانتنامو.

في آذار/ مارس 2002، بعد أربع شهور من عملية اليمن المخفقة في مأرب، استدعى صالحُ غالب الزيدي، القبلي الذي طلب مساعدته في شأن القاعدة لاجتماع جديد، وسافر الزيدي إلى صنعاء وحيدًا هذه المرة، «احتاج مساعدتك مجددًا» قال صالح، «أريدك أن تعمل معي لنقبض على الأهدل أو نقتله».

وأكمل صالح أنه بالمقابل: «سوف أمنحك منصبًا رسميًا، وخمسة ملايين ريال، وسيارة»، ويعني المنصب الرسمي مرتبًا شهريًا دون صعوبة الحضور للعمل كل يوم - وهذا ما يدعوه المتبرعون لليمن بالموظفين الأشباح أو الوهميين، وأما الملايين الخمسة من الريالات فتترجم إلى ما يزيد على 5000 دولار بقليل، زيادة على المرتب، والمطلوب من الزيدي، كما أكمل صالح، قد يكون قليلًا جدًا إلى حد أنه مجرد إيصال معلومات إلى

(1) Turkki al- Suhayl, «I was influenced by takfiri ideology while I was detained at Guantanamo» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, December 29, 2010.

الحكومة بخصوص مواضع تواجد الأهدل حتى يستطيعوا إلقاء القبض عليه[1].

جلس الزيدي صامتًا يفكر في العرض بينما ينتظر صالح رده، «ولكنني لا أعرف شيئًا» همهم القبلي أخيرًا بصوت ضعيف.

عبس صالح وتعجب، «كم مرة خاب ظني فيك»، ومن ثم أضاف، «لن أكون سعيدًا إن كان هذا هو موقفك»، وأجاب الزيدي بأن الأمر كذلك.

وقبل أن يستطيع الزيدي أن يخرج من البوابة الخارجية، طوقه الحراس ورموا به في مؤخرة سيارة وأخذوه إلى مقر قيادة الأمن المركزي، الذي يرأسه ابن أخ الرئيس، يحيى، وهو أيضًا، في أدغال سياسة القصر الرئاسي المعقدة، زوج ابنته، وقوات الأمن المركزي جناح مسلح لوزارة الداخلية، فاشتغل عملاء يحيى في الزيدي، متناوبين بين التهديد، والوعود بالمال لو تعاون فقط، فكان الرجل القبلي يشتعل غضبًا: «لقد جئت إلى صنعاء للنقاش» قال مشيرًا إلى العرف القبلي تجاه الشرف والاحترام: «لم أتوقع أبدًا أن أعامل بمثل هذه الطريقة»، وبعد يومين، حوله يحيى إلى غالب القامش ومنظمة الأمن السياسي.

وبدلًا من غرفة استجواب الأمن المركزي، سرعان ما وجد الزيدي نفسه عميقًا تحت الأرض، في أحشاء أحد سجون اليمن السرية، فوضع الضباط أغلالًا ثقيلة على رجليه، وساعدوه ليتهادى نزولًا نحو دهليز رطب عفن، متجاهلين احتجاجاته بالبراءة، ودفعه الحراس إلى زنزانة صغيرة مظلمة بالكاد تتسع لرجلٍ واحد.

وجد الزيدي في الزنزانة المقابلة له خمسةَ كاميرونيين، ثلاثة مسلمين ومسيحيين، قد مر عليهم في السرداب 11 عامًا، لم يتهم أحد منهم بجريمة ولا حتى رأى قاعة المحكمة، وضحك الحراس من طلبات الزيدي بالمزيد من الطعام، ولم يبالوا بطلباته برؤية طبيب. عليك أن تفهم، أخبره أحد سجانيه أخيرًا، هذا الأمن السياسي، «ليس عندنا قوانين وحقوق إنسان هنا، فكر بنفسك كخروف ونحن الرعيان»، فتراجع الزيدي نحو الوراء مقتنعًا بأنه لن يخرج من هناك أبدًا.

(1) «Interview with Ghalib al-Zayadi».

الفصل الثامن

التآكل

2002

في السنوات التي سبقت 11/ 9، استطاع ابن لادن، وهو متخفٍ في المنفى على بعد آلاف الأميال من العالم العربي، ومحاطٍ بأتباع نادرًا ما يشككون برؤيته للمستقبل، أن يقنع نفسه بأن الولايات المتحدة وحلفاءها العرب ضعفاء كما كان السوفييت ضعفاء في الثمانينيات،[1] وكان يفترض بالخلايا الصغيرة التي أعادها إلى السعودية واليمن في صيف 2001 أن تشكل وتقود الثورات التي ظن أنها ستعقب ضربات نيويورك وواشنطن، ولكن بدلًا من أن يجتمع المسلمون حول راية القاعدة السوداء، كانوا مرعوبين، في جميع أنحاء العالم، من العنف الذي أطلقه ابن لادن باسم الإسلام، وإخفاقُه في نقل رسالته البسيطة التي تبدو مبرهنة لذاتها إلى المسلمين في الشرق الأوسط ترك فيه أثرًا ثقيلًا، وفي أثناء كتابة وصيته خلال الهجوم على تورا بورا، تفكّر في مرارة في نقص الدعم الشعبي، ففي لحظة حاجته الكبرى خذلته حتى طالبان[2].

في اليمن، فهم فواز الربيعي، قائد الخلية الذي أعاده ابن لادن إلى اليمن في آب/ أغسطس 2001، أخيرًا تعليمات الشيخ قبل مغادرته، فالتقى أبا علي الحارثي، قائد القاعدة في اليمن وعرض على الرجل الأكبر منه سنًا طاعته، وكان عمر الربيعي 22 عامًا فقط، وكان قد سمح لشعره أن ينمو في أفغانستان وباتت موجاته السوداء اللامعة تصل إلى ما بعد كتفيه الآن، فتتناقض بوضوح مع شعر الحارثي القصير ولحيته المشذبة، ولكن الرجلين اللذين

Soufan, The Black Banners, 353-345. (1)

Wright, The Looming Tower, 371: (2)

تفصل بينهما أربع وعشرون سنة وجدا أن بينهما الكثير من القواسم المشتركة، وكانا على الوجبات في الصحراء يتشاركان قصص أفغانستان ويناقشان العمليات الممكنة، فالحارثي يريد أن يجذب عبد الرحيم ناشري، عميل القاعدة الذي نظم الهجوم على المدمرة كول قبل عامين، ليتعاون معه، إذ تصاعدت أقساط التأمين على ميناء عدن بشكل صاروخي بعد الهجوم وصارت السفن تمكث بعيدة، ولكن إلى شرق خليج عدن، على بعد 400 ميل وإلى جانب مدينة المكلا، فلا يزال أحد موانئ اليمن النفطية قابلًا للاستهداف، وناشري يعرف المدينة بسبب عمله في أثناء مراقبة المدمرة كول، وفي شباط/ فبراير 2002 أرسل إلى الحارثي 40000 دولار من أجل العملية[1].

في بروفة من تحضيرات الهجوم على المدمرة كول، اشترى رجال الحارثي قاربًا صغيرًا في مدينة الحديدة المطلة على البحر الأحمر، ومن ثم نقلوه مئات الأميال عبر البلاد إلى شاطئ اليمن الجنوبي، وفي المكلا استأجر فريق القاعدة بيتًا مطلًا على الميناء، تمامًا كما فعلوا في عدن قبل عامين.

في الوقت نفسه، في الصحارى إلى شمال غرب المكلا، بدأت الولايات المتحدة بدورها بوضع استراتيجيتها لما بعد 11 أيلول/ سبتمبر قيد العمل، فبعد أيام من شراء فريق القاعدة للقارب، سافر السفير إدموند هول إلى مأرب، وهذه إحدى رحلاته الأولى خارج المجمع المحصن في صنعاء، فقد أراد هول أن يرى بنفسه ما الذي ستضطر الولايات المتحدة لمواجهته في مناطق اليمن القبلية، وهذه هي المنطقة نفسها التي وجد فيها الحارثي والأهدل ملاذًا في الأيام التي تلت 9/ 11، وفي أثناء لقاءاته مع مسؤولي الحكومة والشيوخ المحليين على طريقه شرقًا، حاول السفير أولَ مرة أن يأخذ انطباعًا عن الشخصيات المشاركة، وأعجب هول بشكل خاص بالشيخ ربيش، وهو قائد قبلي كبير في العمر ذو لحية بيضاء كثة، يتزعم قرية صغيرة على جانب الطريق السريع إلى مأرب مباشرة، وفي اجتماع متأخر في طريقه عائدًا إلى صنعاء، أخذ الشيخ ذو الفرق المباعد ما بين أسنانه السفير من يده، وقاده حول القرية يرافقهما عشرات رجال القبيلة.

أراه الشيخ، وهو يجره إلى الأمام، كوخًا طينيًا متهدمًا ذا غرفة واحدة ونوافذ مغلقة بألواح الخشب، وفوق بابه ثمة خربشة تقول: «مستشفى»، هذا ما نحتاج إليه، قال الشيخ

(1) Soufan, The Black Banners, 349; Hull, High Value Target, 33.

بأسى، ولما شعر هول بفرصة لكسب صديق في منطقة يقل فيها أصدقاء الولايات المتحدة قام ببضعة حسابات سريعة، ووجد أن بالإمكان دفع ثمن مشفى وأبنية سكن لطاقم دائم بسهولة عن طريق فائض في الأموال تمكنت السفارة من ادخاره في عهد بودين.

«أعدكم» أخبر هول الشيخ والحشد اللاحق بهما من رجال القبيلة، «سوف تبني لكم الولايات المتحدة مستشفى جديدًا»[1].

ولما عاد إلى صنعاء شرح هول لطاقم عمله طريقة تفكيره: «عليكم تقوية الوجود الحكومي في هذه المناطق النائية»[2]، لقد أراد أن يستخدم التطوير والمساعدات ليحارب جذب القاعدة للناس، فالمنظمة الإرهابية ما كانت تقدم لأعضائها إلا المشقات والموت، وكان هول مقتنعًا بأنه إذا استطاعت الولايات المتحدة أن تقدم موقفًا إيجابيًا أكثر فباستطاعتها بسهولة أن تضعف دعم القاعدة في المناطق القبلية، فأخبر واشنطن أن مستشفى بسعر 250000 دولار ثمن رخيص للإخلاص[3].

أعجبت الربيعي خطة الناشري للقيام بهجوم كهجوم المدمرة، ولكن التخطيط يتطلب وقتًا وقوات الأمن اليمني اعتقلت والد الربيعي توًا لإجباره على تسليم نفسه، وبمباركة من الحارثي، قام الربيعي بتجنيد أخيه الأكبر أبي بكر وصديق آخر، حزام مجلّي، من أجل حملة تفجير منفصلة، وفي أوائل آذار/ مارس، في أثناء عملهم في بيت آمن في ضواحي صنعاء، صنع الرجال الثلاثة حفنة من القنابل البدائية، وقبل طلوع الفجر بقليل على يوم 16 آذار/ مارس هاجموا مبنى الطيران المدني في مركز مدينة صنعاء[4]، وبعد يومين من ذلك زرعوا عبوة مؤقتة أخرى خارج منزل محمد الصرمي ضابط الأمن السياسي قوي البنية الذي سلم خائن القاعدة إلى عبد السلام الحيلة قبل أربع سنوات، وضربوا أيضًا منازل اثنين آخرين من ضباط الأمن السياسي في صنعاء، مخبئين المتفجرات في أكوام مغبرة من القمامة، وفي 4 نيسان/ أبريل ضربوا مقر منظمة الأمن السياسي في صنعاء، فأحرقوا الجدار الحجري المحيط بالمبنى دون إحداث ضرر حقيقي، لم يكن مقصودًا من القنابل

(1) Hull, High Value Target, 46..

(2) Interview with Edmund Hull, «In Search of al-Qaeda» Frontline, **PBS**, aired October 6, 2002, available at: http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/search/interviews/hull.html.

(3) Hull, High Value Target, 46.

(4) المصدر نفسه، 34.

أن تقتل، بل كانت تحذيرًا: القاعدة تعرف أين يعيش الضباط اليمنيون ويعملون.

بعد أسبوع واحد من الهجوم على قيادة الأمن السياسي، قاد الثلاثة السيارة حول صنعاء في ضوء ما قبل الفجر، ملقين مئات المناشير من سيارتهم، لقد كانت الرسالة واضحة ومباشرة: أرادوا إطلاق سراح 173 سجينًا من ضمنهم فواز ووالد أبو بكر[1]، وإذا لم يتم تحرير الرجال[2]، كما يحذر المنشور، فإن القنبلة القادمة سوف تزهق أرواحًا، أولًا من ضباط الأمن السياسي ومن ثم من السياسيين، ومع الحكومة ثلاثون يومًا كي تتصرف، ووقعوا المناشير: «المتعاطفون مع القاعدة».

مر **الموعد النهائي** في 10 آذار/ مارس، ولكن الهجمات التي هددوا بها لم تحصل، فالقاعدة ما كانت تملك البنية التحتية ولا الأعداد التي تمكنها من الإيفاء بتهديداتها، والمخيمات التي بناها الحارثي في أوائل التسعينيات تدمرت كلها أو هجرت في السنوات التي أعقبت الحرب الأهلية في 1994، وفي مأرب، لا يزال الأهدل هاربًا، وبقية منظمة القاعدة في اليمن تتألف من الخلايا البضع التي أرسلها ابن لادن قبل هجمات 9/ 11. لقد كان الحارثي متفاجئًا مثل الجميع بالهجمات، ولما خابت ثورات ابن لادن المتوقعة اضطر إلى إعادة التأقلم والتنظيم وهو هارب، وبعد الهجوم على قرية الحسن في كانون الأول/ ديسمبر 2001 بدأ بأخذ احتياطات أمنية إضافية، فتجنب الحارثي الحديث عبر الهاتف مفضلًا لقاء الرجال شخصيًا، مما جعل التخطيط صعبًا، وقد طلب الرئيس صالح أيضًا من قبيلة الحارثي أن يسلموه إلى الدولة[3]، فرفضت القبيلة، لكن قائد القاعدة سمع إشاعات تقول بأن الحكومة وضعت جائزة مقابل رأسه.

من الخارج، بدت الأمور مختلفة، فقد أعطت التفجيرات في آذار/ مارس ونيسان/ أبريل، صورة مشوهة عن قوة القاعدة الحقيقية والمبالغ فيها بعيدًا عن الحقيقة، فدخلت صنعاء في حالة من الاستنفار الشديد، وعامل الموظفون الأميركان الزائرون البلاد كمنطقة حرب، فكانت طياراتهم تهبط في حلازين ضيقة لأجل اجتماعات موجزة في المطار قبل أن يقلعوا ثانية تحت أمن محكم، وعندما حضر نائب الرئيس ديك تشيني استخدم طيارة وهمية لإلهاء أي هجمات ممكنة بوساطة مناورات مراوغة على متن طائرة

(1) «Al-Qaeda sympathizers claim bomb responsibility» **Yemen Times**, April 15-21, 2002.

(2) Hull, High Value Target, 34.

(3) «Biography of Abu Ali al-Harithi».

من طراز سي – 17 مزودة بتقنية مضادة للصواريخ بدلًا من طائرة إير فورس تو[1].

تصاعدت التوترات على مدى الصيف بينما استمرت الحكومة باعتقال الرجال الذين قلقت من أنهم ربما يتعاطفون مع القاعدة أو ابن لادن، وكما حصل وقت جمع المشتبه بهم بعد الهجوم على المدمرة، كان البعض مذنبًا والبعض الآخر لا، فرمي مئات الرجال في سجون سرية مبعثرة على مدى البلاد، وكانت هنالك عدة تفجيرات صغيرة وهجمات بالأسلحة، ولكن استحال التمييز تقريبًا بين هجمات القاعدة والتعبيرات القبلية عن نفاد الصبر من عمليات الحكومة العنيفة المضادة للإرهاب، وفي تموز/ يوليو، خدش الرصاص حوامة علي محمد صالح، أحد أقرباء الرئيس ونائب قائد الجيش، الذي كان في جولة جوية على المرابض القريبة من الحدود السعودية، وقدمت معظم وسائل الإعلام الحادثة على أنها هجوم للقاعدة، ولكن كان من المستحيل التوثُّق.

المسؤولون الأمنيون في السفارة الأميركية كانوا في حالة استنفار شديدة أيضًا، ففي أفغانستان، كان علي صوفان، عميل الإف بي آي الذي ربط لأول مرة بين أحداث 9/ 11 وابن لادن، قد كشف خطوط عملية الناشري البحرية في اليمن خلال تحقيق مع مشتبه به في القاعدة كان تحت الاعتقال الأميركي[2]، فكتب صوفان تقريره كما يجب بخصوص السجين، الذي كانت السي آي إي قد اختارت تسليمه إلى عملاء أجانب، على أمل أن يستطيع هؤلاء – غير المقيدين بالقانون الأميركي – استخراج المزيد من المعلومات منه، فطلب صوفان، الذي كان يعتقد أن الرجل يتعاون، المزيد من الوقت من السي آي إي، ولكن العميل في القيادة رفض، مدعيًا أن السجين يضلل الإف بي آي عن قصد. إن حروب الصلاحية والسلطة بين المؤسسات التي كانت سببًا في إخراج محاولات الولايات المتحدة لضرب القاعدة عن طريقها في السنوات التي سبقت 9/ 11 لا تزال هي ذاتها مستعرة الآن، «ليس ثمة شيء يمكنك أنت أو الإف بي آي أن تفعله»[3]، قال مسؤول السي آي إيه غاضبًا: «لا يمكنك إيقاف التسليم»، ولأن صوفان كان مقتنعًا بأنه على حق وأن شيئًا ما سيحدث، قام بتوزيع مذكرته المحذرة من هجوم قريب على ناقلة نفط في اليمن إلى عدة وكالات حكومية[4].

(1) Hull, High Value Target, 37.

(2) Soufan, The Black Banners, 489-505; Susan Schmidt, «Yemen recovers huge cache of explosive from blast sitre» **Washington Post**, September 10, 2002.

(3) Soufan, The Black Banners, 500.

(4) المصدر نفسه، 3-502.

في صنعاء، أتى الحارثي والربيعي بخطة أخرى بينما كانا ينتظران موافقة الناشري لفريق المكلا، فاختلط بعض من عملاء القاعدة مع المارة خارج السفارة الأميركية، نزولًا من الشيراتون، وراقبوا هدفهم القادم، وعلى مدى عدة أيام تبادلوا الأدوار على مراقبة السفارة، ملاحظين الأنماط ودارسين دفاعاتها، ولم يكن أحد من الرجال قد شارك في تفجيرات السفارات في كينيا وتنزانيا عام 1998، ولكن كلهم يعلمون كيف استخدمت القاعدة قنابل محملة على شاحنات لقتل أكثر من مئتي شخص في ضربات منسقة، إلّا أنّ هذه المقاربة لم تبد ممكنة هنا، فالسفارة هدف صعب، فهي بعيدة عن الطريق، ومبنية على منحدر، فالهجوم المباشر خارج الحسابات، وبدلًا عنه، أوصى الرجال بهجوم صاروخي.

مرة أخرى، عادت القاعدة إلى أنماط قديمة، فكما فعلوا وقت الهجوم على المدمرة كول، اشترى الرجال المتفجرات من سوق الطلح الجامح للأسلحة قرب الحدود السعودية، وأشرف الحارثي على التبضع بنفسه، فاختار صاروخين، وأكثر من 700 باوند من المتفجرات البلاستيكية من نوع سيمتكس[1]، وعدة قنابل قابلة للقذف، ووضب الرجال الأسلحة بحذر في صناديق بلاستيكية، مبعثرين بضعة أكياس من الرمان فوقها، وليس ذلك تمويهًا جيدًا، ولكنه كافٍ للمرور حول نقاط التفتيش حول صنعاء[2]، وقرر الفريق يوم الإثنين 13 آب/ أغسطس، اليوم الأول من أيام أسبوع العمل الغربي، للقيام بالهجوم على الرغم من أن السفارة الأميركية تلتزم بجدول عمل يمني - من السبت حتى الأربعاء - لأن الرجال ظنوا أن عددًا أكبر من الأميركيين سوف يكون موجودًا يوم الإثنين.

وفي تحضير للهجوم تجمع الفريق في مبنى في ضواحي صنعاء، وفي مساء الخميس، قبل أربعة أيام من الهجوم، خرج الربيعي وأخوه الأكبر أبو بكر إلى غرفة صغيرة ليحصلا على بعض الراحة بينما عبث الرجلان الباقيان بالصواريخ، وبعد وقت صغير من خروجهما، أيقظهما انفجار ضخم، فاندفعا إلى الغرفة مرتديين البيجاما، وحدقا في المشهد الذي أمامهما[3]، لقد تسببت الكهرباء الساكنة بانطلاق أحد الصاروخين في أثناء مرور وليد الشيبه أمامه، فضربته القذيفة في الصدر تمامًا، ولم يكن الربيعي محتاجًا إلى

(1) Hull, High Value Target, 53.

(2) Soufan, The Black Banners, 500.

(3) «Yemeni security forces kill two of the most dangerous members of al-Qaeda» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, October 2, 2006.

التأكد حتى، كان من الواضح أن الرجل ميت، وكان دمه يملأ الأرض، وقد اختفى معظم قفصه الصدري، وفي الزاوية كان الرجل الثاني، سمير الحدأ، يبكي من الألم ويمسك معصمه المبتور، وكان الربيعي يرمش ليتبين عبر الدخان الكثيف، فاتخذ قراره؛ عليهم الخروج من المبنى، والرجل المجروح في حاجة إلى طبيب، وقد بات الطابق مخططًا ببصمات الأرجل المدماة، لقد ألغي الهجوم[1].

بعد أيام، عبر الخليج الفارسي في جنوب باكستان، واتى الحظُّ الولايات المتحدة مرة ثانية، فبعد تورا بورا، تسلل المئات من مقاتلي القاعدة إلى باكستان، والكثير منهم اعتقلوا وشحنوا إلى غوانتنامو، ولكن عدة من القادة ذي الرتب العالية هربوا من فخ نصب لهم، وكان العملاء الأميركيون قد تعقبوا هؤلاء الرجال شهورًا في أثناء تحركهم بين البيوت الآمنة، وفي 11 أيلول/ سبتمبر 2002 التقطوا أحدهم.

مبكرًا في ذلك الصباح، طوقت الشرطة الباكستانية مبنى شقق متعدد الطوابق في مدينة كاراتشي الساحلية الفقيرة، كانوا يطاردون رمزي بن الشيبه، وهو عضو يمني في القاعدة وأحد المساهمين في أحداث 9/ 11، وفي الثامنة والنصف صباحًا تحرك ضباط الشرطة الباكستانية إلى داخل المبنى، وحاولوا أن يبقوا الضجة منخفضة، ولكن كان عليهم اعتقال رجلين وهم صاعدون على الدرج، وقد نبهت المشاحنة المقاتلين الموجودين على ارتفاع بضع طوابق فوقهم[2]، ولما حدق مقاتلو القاعدة من نوافذهم رأوا الطوق الذي ضربته الشرطة في الشوارع أسفلَ، وقرر الرجال أن يحاربوا ليفتحوا طريقًا للهرب، وعلى مدى الساعات الأربعة التالية رموا القنابل اليدوية وأطلقوا آلاف الرصاصات صارخين «الله أكبر»، وأحاط قناصو الشرطة والجيش بالمبنى، فمزقوا الجدران الخارجية برصاصات من العيار الكبير وقتلوا اثنين من الرجال، وأخيرًا بعد الظهر بقليل، قرر الثمانية الباقون من أعضاء القاعدة، بعد أن تعبوا ونفدت ذخيرتهم الاستسلام، فأحكمت الشرطة وثاقهم وغطت أعينهم قبل إنزالهم على الدرج، وفي أثناء اقتياد الشيبه من المبنى صرخ قائلًا: «الله أكبر» مرة أخيرة[3]، وبعد ثلاثة أيام من ذلك سلمته باكستان إلى الولايات المتحدة.

(1) ثمة رواية مختلفة قليلًا عن هذا السرد في .Soufan, The Black Banners, 504-505

(2) David Rohde, «Karachi raid provides hint of al-Qaeda rise in Pakistan» **New York Times**, September 14, 2002.

(3) المصدر نفسه.

في الأسبوع نفسه استلمت الولايات المتحدة الشيبه من باكستان، وقام المسؤولون الأميركيون بالموافقة على عملية للتعاون مع عملاء الاستخبارات المصرية لاختطاف بعض المشتبه بعملهم مع القاعدة في القاهرة.

في الشهور التي تلت الهجمات، راجع خبراء الاستخبارات سنينًا من التقارير باحثين عن أي شيء قد يكون غاب عنهم في المرة الأولى، وكان هذا عملًا محبطًا ومستهلكًا للوقت، ومن بين الأشياء التي كشفوها كانت الأشرطة التي سجلها الإيطاليون لعبد السلام الحيلة، ضابط الأمن السياسي اليمني، وهو يتحدث عن «طائرات» وهجوم قادم، وإلى جانب هذه التسجيلات كان ثمة تسجيل لأحد إخوة الحيلة يناقش فيه محاولة مخفقة لدخول الولايات المتحدة، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 2001، سلمت صحيفة وول ستريت جورنال السي آي إي حاسبًا مستعملًا اشتراه أحد مراسليها في سوق في كابول[1]، ويوجد على القرص الصلب للكمبيوتر ما يقارب 1000 مستند نصي، من ضمنها واحد يفصل دور الحيلة في خداع الخائن في منظمة الظواهري في أوائل 1998، وبدت الأدلة المتكشفة إلى الوراء لعينة، فإذا لم يكن الحيلة عضوًا في القاعدة، فقد كان بالتأكيد متعاطفًا معها، هذا إضافة إلى عمله الاستخباراتي الذي يستطيع التصرف عن طريقه، ونظرًا لموقع الحيلة كعميل في أعلى وكالة استخبارات في اليمن، فقد يكون فرصة السي آي إي الوحيدة هي خطفه من القاهرة.

إضافة إلى عمل الحيلة في منظمة الأمن السياسي عمل أيضًا ممثلًا لليمن في شركة المقاولين العرب، وهي أكبر شركة إعمار في مصر، وفي خريف 2002 أخبره مكتب الإدارة الأساسي في القاهرة أن عليه أن يراجع حسابات ويحصل على أجوبة عن بعض الأسئلة بخصوص تعهداته الحديثة[2]، ولم يفكر الحيلة في استدعائه كثيرًا، فهو كان يسافر إلى مصر كثيرًا، حتى إنه يحتفظ بهاتف جوال مصري، وعلى الرغم من ذلك، ولمجرد التأكد، استفسر من أحد معارفه في السفارة المصرية في صنعاء، فأخبره الموظف ألا يقلق، وأن اسمه لم يكن على أية لائحة مراقبة[3].

(1) Alan Cullison, «Inside al-Qaeda>s Hard Drive,» Atlantic Monthly, September 2004.

(2) Human rights Watch, Black Hole, 36.

(3) Department of Defense, «JTF-Gitmo Detainee Assessment of Abd al-Salam al-Hilah» September 24, 2008, Released **via Wikileaks**.

بعد لقائه بوسيطه في السفارة المصرية، حجز الحيلة رحلة في 19 أيلول/ سبتمبر، وأخبر أخاه أن الرحلة لا يجب أن تأخذ وقتًا طويلا[1]، وحجز الحيلة غرفة في فندق سميراميس الدولي، وهو فندق فخم ضخم ذو خمسة نجوم على ضفاف النيل في وسط مدينة القاهرة. وجرى كل شيء كما كان مخططًا له في بضعة الأيام الأولى، فذهب إلى اجتماعاته وبقي على اتصال دوري مع عائلته في صنعاء، فكان يتصل بهم عدة مرات في اليوم ليتشاور مع أخيه، ومن ثم في 24 أيلول/ سبتمبر، لم يتصل، وحاولت عائلته الاتصال بجواليه المصري واليمني، ولكن ما من مجيب.

في اليوم التالي، اتصل الحيلة أخيرًا بهم، ورد عليه أخوه الصغير عبد الوهاب، وأخبره الحيلة بتردد: «لقد دعيت إلى اجتماع مع بعض الأشخاص»، وحاول عبد الوهاب أن يفهم الموضوع أكثر ولكن الحيلة لم يُفصِّل، لم يسمع عبد الوهاب أخاه يتحدث بهذا الشكل المراوغ والمتوتر من قبل قط، فالحيلة كولونيل في الأمن السياسي وضابط استخبارات محنك، ولكن كان خائفًا على نحو واضح، «الجو هنا غائم ومظلم» أخبر أخاه بغموض قبل أن يغلق الهاتف.

بعد ساعات من الاتصال، دفع فريق صغير من العملاء المصريين ذوي التدريب عالي المستوى بالحيلة إلى مؤخرة سيارة منتظرة، وقادوه إلى سجن سري في الطرف الآخر من المدينة، وأبقى الرجالُ مسؤولَ الاستخبارات اليمني موقوفًا ثلاثة أيام، وترك العملاء المصريون هواتف الحيلة مفتوحة كي يستطيعوا تتبع من يحاول الاتصال به، فكانت كل المكالمات الفائتة تقريبًا قادمة من عائلته في صنعاء، وفي 28 أيلول/ سبتمبر، سلم المصريون الحيلة لنظرائهم في السي آي إي الذين وضعوه على متن طائرة خاصة في مطار القاهرة الدولي ليذهب في رحلة مدتها ساعتان ونصف إلى باكو، أذربيجان، وقبل وقت قصير من الإقلاع أطفأ أحدهم جوالي الحيلة.

حصلت الاستخبارات الأميركية في أثناء عملها مع المصريين على اختطاف الحيلة في القاهرة، على المزيد من المعلومات الجيدة من مكتبها في صنعاء، فقد حصلوا على بعض الأدلة أخيرًا من المبنى الذي خططت، وألغت، القاعدة فيه الهجوم على السفارة، فبعد حادث انفجار الصاروخ، تسلم التحقيق ضباط من قوات الأمن المركزي، تحت قيادة ابن أخ الرئيس،

(1) . من أجل سرد لخطف الحيلة انظر: .Human Rights Watch. Black Hole, 34-39

يحيى، وباتوا يعتقدون الآن أنهم كشفوا منزلًا آمنًا آخر للقاعدة في ضاحية شمالية.

تحركت مجموعة من الجنود بسرعة محيطة بالمنزل، وفي وقت متأخر من تلك الليلة، دق ضابط على الباب الأمامي بينما استعد الباقون كلهم لاقتحام المنزل، «أبو سيف» صرخ في محاولة لجذب المشتبه بهم إلى الخارج، «افتح الباب»[1]، ومرت ثوان دون جواب، ومن ثم اندلعت نيران الرشاش من المنزل، فجرحت أحد الجنود في رجله، وعاد بقية الرجال إلى الخلف جارين الجندي المصاب معهم، ولم يكونوا مستعدين لاقتحام المنزل المحصن بشكل جيد، فأمر أحد الضباط رجاله بأن ينتقلوا إلى الغاز المسيل للدموع، وبعد دقائق، في أثناء امتلاء المنزل بالغازات الحارقة، انفتح الباب الخلفي وتعثر مشتبه به نحو الخارج، ففتح عدة جنود النار سوية فقتلوا الرجل على بعد أقدام من الباب، وكان القتيل هو يحيى مجلي، وهو الأخ الأكبر لحزام مجلي، الذي كان متورطًا في تفجيرات آذار/ مارس ونيسان/ أبريل[2].

في مدينة **المكلا** الساحلية، تابع فريق القاعدة الأخبار القادمة من صنعاء بإحباط متزايد، ففي الشهور الثمانية التي مرت بعد أن أرسل الناشري لهم الأموال اللازمة لتنفيذ العملية حافظوا على عدم جلب الأنظار وتجنبوا لفت الانتباه، وفي آذار/ مارس، بعد بضعة أسابيع من انتقالهم، وصل الرئيس صالح إلى المدينة للقاء السفير هول على بعد دقائق فقط من منزلهم الآمن[3]، وحتى بعد مذكرة صوفان التحذيرية، بقيت الولايات المتحدة تركز بشكل حصري تقريبًا على الهجمات على مينائي اليمن الآخرين: عدن والحديدة[4]، بينما بدا صالح مهتمًا بأمنه الشخصي في معظم الأمر.

كان معظم الرجال قد عادوا إلى اليمن كجزء من خلية الربيعي منذ أكثر من عام، وكانوا ضجرين من الانتظار، والقارب مستعد والقنبلة جاهزة، فاستمع الناشري والحارثي إلى شكاويهم، ولكن الرجلين كليهما طلبا منهم الصبر، فتذمر الفريق ولكن اتبع أوامرهم، ومن ثم في أواخر أيلول/ سبتمبر سمعوا أخبار يحيى مجلي وإطلاق

(1) Karl Vick, «Yemen Pursuing terror its own way: tactics, results vary, but target is al-Qaeda» **Washington Post**, October 17, 2002.

(2) Hull, High Value Target, 52.

(3) المصدر السابق، 36.

(4) المصدر السابق، 51.

النار في صنعاء، وكانوا كلهم يعرفون يحيى وأخويه الأصغر سنًا، حزام وعارف، وهؤلاء الرجال ترعرعوا على العرف القبلي المتعصب في اليمن، وجلبوا رغبة الانتقام هذه معهم إلى القاعدة، فالمنظمة باتت قبيلتهم الآن، ويحيى واحد منهم، وموته يتطلب ردًا.

كان الناشري والحارثي يفهمان ما يمر الرجال به وهم مكدسون في منزل آمن بانتظار الأوامر، وبعد وقت قصير من موت يحيى في أوائل تشرين الأول/ أكتوبر، منحهم الناشري أمر الانطلاق[1]، وكان فريق الهجوم مقررًا منذ أسابيع، فكما في تفجير المدمرة كول سوف يقود القارب اثنان انتحاريان: حسن البدوي وناصر الكندي[2]، والرجلان كلاهما تطوعا للعملية، وكان الكندي ـ وهو شخص ممتلئ الجسم، أحول قليلًا، ترعرع قريبًا من المكلا ـ يحلم بهذا اليوم منذ أعوام، فقد كان هذا هو السبب الذي ترك من أجله رتبته في الجيش وسافر إلى أفغانستان، والسبب الذي أعاده إلى اليمن أيضًا، فالشهادة سوف تحرره من ذنوب سنوات خدمته في جيش علي عبد الله صالح.

بعد التاسعة صباحًا بقليل في 6 تشرين الأول/ أكتوبر، اندفع الانتحاريان، وكان الجو صافيًا ومعتدلًا، في يوم جميل هادئ على شاطئ اليمن الجنوبي، وجلس هدفهم ساكنًا في الماء على بعد عدة مئات من الياردات، ناقلة نفط عملاقة صدئة ورمادية، وبدأ القارب بالإسراع شيئًا فشيئًا مع ابتعاده عن الشاطئ، وبحلول الوقت الذي اقترب فيه من الناقلة، كان الشيء الوحيد الذي رآه ضابطٌ صغيرُ الرتبة على متنها هو مركبة صغيرة «تقترب بسرعة»[3].

ضرب القارب في 9:15 صباحًا، واخترق الانفجار ثماني ياردات عبر جانبي هيكل السفينة، ليصل إلى الخزان المملوء بالنفط الخام، وتردد صدى الانفجار عبر المحيط، نافثًا اللهب في الخزان وراميًا قطع القارب عشرات الأقدام في الهواء، وكانت ناقلة النفط ليمبورغ، وهي ناقلة ترفع العلم الفرنسي وتحمل ما يقارب 400000 برميل من النفط، تحترق، وكان أحد أفراد الطاقم مفقودًا، وفي ارتباك الهجوم ذُعر فنيٌّ بلغاري ذو 38

(1) Hammadi, «Interview with Nasir al-Bahri» August 3, 2004.

(2) Abu Nasir al-Kathiri, «Martyr Biography of Nasir al-Kindi,» translated by Flashpoint Partners, November 23, 2010.

(3) «Craft ‹rammed› Yemen oil tanker» **BBC**.co.uk, October 6, 2002.

عامًا باسم أتاناس أتانوسوف، وقفز من على السفينة، وغرق على بعد أقدام منها مصارعًا للسباحة في ملابسه وحذائه، وقضى بقية طاقم الناقلة المؤلف من 25 رجلًا، الغير مدركين لمصيره، الساعات الثلاث التالية لذلك في محاربة النار، وفي الظهر، أعطى القبطان بيتر ريس أمرًا بترك السفينة، ومن ثم رفعتهم الحوامات إلى الشاطئ، بينما عملت فرق إنقاذ على إطفاء النيران وإيقاف تسرب النفط.

وفي مصادفةٍ غريبة، كان علي صوفان قد عاد إلى اليمن ليشهد الهجوم الذي توقعه قبل شهور في التقرير الذي سوف يُعرف قريبًا باسم «مذكرة كرة الكريستال»[1]، وبعد وقت قصير من اصطدام البدوي والكندي في ناقلة النفط، رن هاتف صوفان في شيراتون صنعاء، وجاء صوت الكولونيل البحري من الطرف الآخر قائلًا: «افتح تلفازك»[2].

«ما المشكلة؟»

«لقد فعلوها» قال الكولونيل: «إن ناقلة نفط تحترق على شاطئ المكلا».

(1) Soufan, The Black Banners, 504.

(2) المصدر نفسه.502-3.

الفصل التاسع

النصر

2003 - 2002

بعد وقت قصير من تفجير ناقلة النفط ليمبورغ، طلب إدموند هول من طاقمه تنسيق رحلة ثانية إلى مأرب، فقد كان السفير، الذي لم يتهاون في تقييماته الخاصة، لا يزال يعتقد أن الولايات المتحدة تحقق تقدمًا، وفي دبي اعتقلت الشرطة عبد الرحيم الناشري، وهو الرجل الذي مول الهجوم، وحسَّنت اليمن من تعاونها مع الولايات المتحدة، فكانت طيارات البريديتور بلا طيار تطير من جيبوتي ممشطة اليمن بحثًا عن أهداف[1]، وفي مأرب، حيث افتتحت توًّا العيادة الطبية الممولة أميركيًا، أعلن الشيخ ربيش قريته منطقة خالية من الإرهاب[2]، وأخبر هول طاقمه في اجتماع في السفارة في صنعاء أن الولايات المتحدة في «المنطقة الحمراء»[*]، ولكنه حذر قائلًا: أنّ هذه الياردات العشرين الأخيرة كثيرًا ما تكون الأكثر صعوبة، وبوجود أبي علي الحارثي طليقًا، أراد هول أن يأخذ نظرة أخرى إلى المحافظة الصحراوية التي يعتقد أنها مفتاح الانتصار، وحددت السفارة تاريخ الزيارة في الأحد 3 تشرين الثاني/ نوفمبر.

بطريقة ما، تسرب خبر زيارة هول، لم يكن فواز الربيعي يعرف كل التفاصيل، ولكنه يعرف ما يكفي ليخطط لكمين، وافترض الربيعي أن هول سوف يتحرك بالحوامة إلى مأرب، فنظم فريقًا من ستة رجال وضع أحدهم في بناء داخل المطار تقتضي تعليماته أن

(1) Neil MacFarquhar, «Unmanned US planes comb Arabian desert for suspects» **New York Times**, October 23, 2002.

(2) Hull, High Value Target, 92.

(*) المصدر السابق، 59. المنطقة الحمراء هي الياردات العشرين الأخيرة قبل تحقيق الهدف في كرة القدم الأميركية.

يتصل عندما تقلع الحوامة، واختبأ الباقون في منخفض رملي شرق المطار، تحت خط طيران الحوامة مباشرة[1]. في السادسة صباحًا من الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر، بينما كانت الشمس تهم باستراق النظر من فوق الجبال شرق صنعاء، اختبأ المهاجمون في المكان، وكانت الخطة تقتضي من الربيعي إطلاق صاروخ أرض جو روسي الصنع على الحوامة، بينما يطلق عليها حزام وعارف مجلي النار من رشاشات الكلاشينكوف، وكان الرجلان لا يزالان في حداد على خسارة أخيهما الكبير يحيى، الذي قتل قبل أسابيع، وهذا الكمين سيكون انتقامهما، وسوف يصور العملية أخو الربيعي الأكبر أبو بكر، بينما يجلس العضو الأخير من المجموعة محمد الديلمي متأهبًا في مقعد السائق في إحدى السيارات في حال اضطروا إلى الهروب السريع[2].

في 6:45 صباحًا جاء الاتصال من مراقب المطار، وبعد دقائق، حلقت الحوامة إلى مجال نظرهم تهدر بلطف فوق الأرض الجرداء، فجهز الربيعي الأنبوب الأسطواني الذي يحمل الصاروخ على كتفه وضغط الزناد، ولكن بدلًا من الانفجار، شاهد الربيعي الصاروخ يئز مارًا بعد الحوامة تاركًا خلفه خطًا رفيعًا من الدخان، وإلى جانبه أشبع الأخوان مجلي الهواء بالرصاص، وما كان أحد من الرجال على الأرض يستطيع أن يميز إذا ما أصاب شيئًا، ولكن الحوامة مالت بحدة وتراجعت نحو المطار، فبالكاد كان ثمة شيء يصوره أبو بكر، مجرد صاروخ لم يصب هدفه ودفقة من رصاص الرشاشات.

وفي عجلة الهروب من الموقع، رمى عارف مجلي رشاشه تحت المقعد الأمامي بينما يسارع لدخول السيارة الثانية إلى جانب أخيه[3]، وفي أثناء تقافز السيارة على الرمال والأحجار الوعرة في طريقهم إلى خارج المنخفض، انطلقت رصاصة من الرشاش الذي أهمل عارف تأمينه وأصابته في قدمه فتقلب المراهق من الألم ووقع خارج السيارة بينما أبطأ أخوه من سرعة السيارة حتى توقفت، واكتشف الرجال بسرعة الرشاش تحت المقعد وساعدوا عارف على ولوج السيارة غير مخلفين وراءهم في الرمل إلا صندلًا داميًا وحيدًا[4].

(1) نفس المصدر السابق، 60.

(2) نفس المصدر السابق، 59.

(3) Soufan, The Black Banners, 506.

(4) Hull, High Value Target, 60.

على الرغم من كل تحضيرات القاعدة، لم يكن هول على الحوامة أصلًا، على أي حال، اخترقت رصاصتان كابينة الحوامة فجرحت اثنين من موظفي شركة هانت أويل على نحو طفيف[1]، وقدم ضباط الأمن في السفارة تقريرًا موجزًا للسفير على الهاتف في أثناء ركوبه شرقًا إلى مأرب في موكب من السيارات، وبعد ساعات من ذلك، عاد الفريق الأمني على الهاتف ومعه تطور في الوضع.

كانت وكالة الأمن القومي في فورت ميد، ماريلاند، على مدى أكثر من عام، تراقب عددًا من أرقام الهواتف ذات الصلة بالحارثي، ولم يكن ثمة شيء يسمعونه معظم الوقت، فبعد المداهمة في مأرب في كانون الأول/ ديسمبر وتعطيل عقدة اتصالات القاعدة في صنعاء، بات الحارثي يتجنب الحديث على الهاتف[2]، وبدلًا من ذلك اعتمد على السعاة وعلى اللقاءات وجهًا لوجه، فيتنقل عبر البلاد ليتحدث مع رجاله، فعندما لا يستخدم الهاتف يختفي بالنسبة لفريق التتبع الأميركي، ومرت شهور دون أن تسمع وكالة الأمن القومي شيئًا، ومن ثم، في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر دخل أحد الأرقام التي كانوا يتتبعونها قيد الاستعمال.

كان الهاتف، كما استطاع الخبراء في فورت ميد أن يحددوا بسرعة، في مكان ما في مأرب[3]، وأكد فريق أميركي - يمني منفصل في صنعاء الموقع، ومن ثم مرروا المعلومات إلى فريق للسي آي إي عبر البحر الأحمر في قاعدة الطائرات بلا طيار في جيبوتي.

كان الحارثي قد طلب اجتماعًا في مأرب للحديث مع الرجال، وعند الظهر تقريبًا، اصطفت مجموعة الرجال للصلاة في وسط الصحراء راكعين وقائمين مع بعضهم بعضًا، ومن ثم قعدوا حول مجموعة أطباق مشتركة على الغداء، وكعادته بالكاد لمس الحارثي الطعام[4]، فهو مثل ابن لادن، لا يأكل إلا ما يسد رمقه، مؤمنًا بأن تأديبه لنفسه يقربه من الله، واسترخت المجموعة الصغيرة من مقاتلي القاعدة وأخذت تتبادل أطراف الحديث في حرارة ما بعد الظهيرة حتى نادى أحدهم على صلاة العصر.

كان الحارثي في مزاج حزين طوال اليوم، قائلًا أنه يود الموت شهيدًا، وبعد الصلاة

(1) المصدر السابق.

(2) «Biography of Abu Ali al-Harithi».

(3) James Bamford, «He's in the Backseat» **Atlantic Monthly**, April 2006.

(4) «Biography of Abu Ali al-Harithi».

عاد إلى الموضوع، ولم يكن أي من هذا غير معتاد بالنسبة لأعضاء القاعدة الذين كثيرًا ما يحاولون إلهام بعضهم بعضًا عبر الحديث عن رغبتهم في تقديم حياتهم لله في جهاد عنيف، ولكن الحارثي ما كان يترك الموضوع، وفي النهاية ضجر بعض الرجال من حديث قائدهم السوداوي وحثوه على الصبر وانتظار اختيار الله للوقت، «الشهادة الأعظم هي أن يقتل المرء في سبيل الله»[1]، رد الحارثي مستخدمًا تورية للجهاد، فهز الرجال رؤوسهم ولكنهم كانوا يريدون الحديث عن شيء آخر.

ووضَّب الحارثي وستة رجال آخرون الأغراض وغادروا المخيم بعد الصلاة بوقت قصير، وبينما هم يتكومون في زوج من السيارات، رن أحد هواتف الحارثي، فقام قائد القاعدة ذو الستة والأربعين عامًا بفتح الهاتف على نحو عفوي وقبول الاتصال.

تطلب الأمر من الولايات المتحدة أقل من 4 ساعات منذ اللحظة التي قبل فيها الحارثي الاتصال لتجهيز طائرة بريديتور بلا طيار بصاروخيّ هيلفاير موجهة إلى السيارة في أثناء قيادتها عبر كثبان الصحراء ورمالها على بعد ساعات من صنعاء، وكانت السي آي إي وسينتكوم في تامبا قد وقعتا على الضربة، وبات بإمكان قائد الطيارة أن يطلق النار على السيارة متى أصبحت معزولة، فناور الطيار بالتحكم واضعًا الطائرة بطول 36 قدمًا في الموقع الصحيح وأطلق النار، فاصطدم الصاروخ الأول في الرمل بقرب السيارة وانفجر دون أن يؤذيها.

داخل السيارة، استوعب الحارثي فورًا خطأه فرمى الهاتف من النافذة وصرخ بالجميع أن يخرجوا من السيارة، ولكن لم يكن ثمة مكان يذهبون إليه، فهم في وسط الصحراء وعلى بعد أميال من أي شيء يمكن أن يغطيهم، وانتظر الطيار، الذي كان يتحكم بالطائرة من على بعد آلاف الأميال في الولايات المتحدة بضع ثوان قبل أن يضغط الزر لإطلاق الصاروخ الثاني. لم تكن عنده سوى محاولة واحدة باقية، وإذا أخطأ هدفه قد يهرب الحارثي قبل أن تستطيع الولايات المتحدة إيصال طائرة أخرى إلى المكان[2].

أطلق للمرة الثانية وانتظر، فلمعت الشاشة أمامه للحظة بينما انفجرت السيارة لهبًا، فلوى التحكم وطار في حلقات حول الحطام ليتوثق من عدم وجود ناجين، ولم يكن ثمة

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

أي منهم، أو على الأقل لم يرَ أحدًا، واتضح فيما بعد أن أحد الرجال، رؤوف ناصب، قد نجا من الضربة[1]، ولكن الحارثي وخمسة من مرافقيه، من ضمنهم كمال درويش، يمني يحمل جنسية أميركية، قد قتلوا، وبعد بضع لفات أخرى، أخلت الطيارة المنطقة لما وصل فريق داخلي يمني بواسطة حوامة لتأمين المنطقة.

لقد سمح الرئيس صالح بالضربة على شرط أن تبقى سرًا، ولأجل ذلك على اليمن أن تنظف الموقع وتتحكم بالقصة في الصحافة، وخلال ساعات نقلت البي بي سي والأسوشيتد بريس الخبر، ناقلة عن مصادر رسمية في الحكومة اليمنية قولها أنّ المقاتلين ماتوا جميعًا في انفجار قنبلة كانوا ينقلونها، لكن الولايات المتحدة على أي حال لم تكن تستطيع أن تبقى صامتة بخصوص العملية، وذلك في جزء منه بسبب الفخر بنجاح ضربة الطائرة بلا طيار الأولى خارج أفغانستان لهذه الدرجة، ولكن ثمّة أيضًا عنصر له علاقة بالحسابات السياسية، فالضربة حصلت في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 2002، أي قبل يومين من الانتخابات النصفية الأميركية، وكانت إدارة بوش تتوق إلى نصر واضح في الحرب على الإرهاب، فأرادت أن تنشر النجاح بأسرع ما يمكن في محاولة لمساعدة الجمهوريين في الانتخابات البرلمانية القريبة.

بعد وقت قصير من التوثق من موت المقاتلين، ظهر بول ولفويتز، نائب وزير الدفاع على سي إن إن ليتفاخر بالضربة، فقال للقناة: «علينا وحسب أن نبقي الضغط في كل مكان نستطيع، وعلينا أن نمنعهم من الملاجئ... لقد كانت ضربة الهيلفاير عملية تكتيكية ناجحة جدًا»، وشاهد المسؤولون اليمنيون في صنعاء بإحباط نائب الوزير (المولدن) يكشف سر العملية في بث حي على تلفزيوناتهم، لقد كانت النقاط السياسية التي يسجلها وولفويتز في بلده على حسابهم.

«هذا ما يجعل من الصعب عقد الصفقات مع الولايات المتحدة» قال بغضب يحيى المتوكل، نائب الأمين العام في حزب صالح الحاكم، لـ**كريستيان ساينس مونيتر** بعد أيام، «هذا ما يجعلنا ممتعضين من العمل على قرب معهم، هم لا يضعون اعتبارات للظروف الداخلية في اليمن، في الأمور الأمنية، عليك ألا تنذر العدو»[2].

(1) Hull, High Value Target, 98.

(2) Philip Smucker, «The Intrigue behind the Drone Strike» **Christian science monitor**, November 12, 2002.

وبينما يتعامل هول مع عقبات ضربة الطائرة، كان فريق من الإف بي آي في السفارة في صنعاء منهمكًا في ملاحقة خيوطه، ففي الأسابيع التي تلت 9/ 11، عندما كانت الحفرة في موقع الهجوم الإرهابي لا تزال تستعر على بعد بضعة أحياء، دخل رجل عربي قصير ذو بشرة فاتحة وشعر أجعد إلى مكتب للإف بي آي في نيويورك وعرض نفسه كمخبر، كان محمد الأنسي في أواخر أربعيناته وهو جزء من المجتمع اليمني الذي انتشر في شارع أتلانتيك أفينو في بروكلين، ومع أنه لم يمض عليه في الولايات المتحدة إلا أقل من عام في ذلك الوقت، فقد كان الأنسي يصارع ليؤمن معيشته، فحاول في البداية في السياحة مستأجرًا مساحة على شارع كورت في بروكلين ليبدأ فيه شركة دعاها مأرب ترافل[1]، وعندما لم يفلح في ذلك، انتقل إلى العمل مع صديق يعمل كوسيط لليمنيين الذين لا يثقون بالبنوك وكثيرًا ما لا يملكون الأوراق الثبوتية اللازمة لإرسال الأموال إلى بلادهم، وكان الاثنان يعملان على ميزانية ضيقة، فكثيرًا ما يدكّان الأوراق المالية داخل شحنات من العسل لتجنب الضرائب والقيود الدولية.

بدأ الأنسي ببطء مع الإف بي آي، فكان يخبر عن شريكه السابق في عمل تحويل الأموال، ولاحقًا، لما انتهت تلك القضية، أكمل ليخبر عن عشرات اليمنيين الآخرين الذين كان يعرفهم في بروكلين، وكانت الإف بي آي (المختصة إلى حد كبير في الجريمة المنظمة منذ تأسيسها في 1908) في ذلك الوقت، في بضعة الشهور الأولى بعد أحداث 9/ 11، يائسة للحصول على خيوط بخصوص القاعدة، وسجله في تلك الفترة أكسبه عدة معجبين بعمله ضمن الوكالة، إذ قدم الأنسي ما شهد العميل الخاص روبرت فولر فيما بعد بأنه أداء ممتاز، فخلال ثلاثة شهور وحسب، شارك في تحقيقات أدت إلى اعتقال عشرين شخصًا ووضع اليد على حوالي مليون دولار، وسرعان ما بدأ الأنسي بإثارة المتعاملين معه في الإف بي آي بآفاق قضية أكبر من ذلك حتى، فأخبر العملاء أنه يعرف أحدًا مقربًا من ابن لادن، ولكن، حذر الأنسي، أنه سوف يحتاج إلى المزيد من المال وإلى التزام أكبر من جانب الإف بي آي، وقدم له مكتب نيويورك كليهما.

كان عند الأنسي فكرة كيف تدور اللعبة، فقد عمل لحكومة الولايات المتحدة من قبل، ففي 1979، وظفته السفارة في صنعاء كمنسق للسفر وطردته بعدها بوقت قصير،

(1) William Glaberson, «Terror case hinges on wobbly key player» **New York Times**, November 27, 2004.

ومن ثم منحه دبلوماسيو الولايات المتحدة فرصة ثانية في 1984، ولكنهم اضطروا لطرده مرة ثانية[1]، وأجبرته متاعب المال في اليمن، حيث ثمة مذكرتان منفصلتان لاعتقاله، على الانتقال إلى الولايات المتحدة في عام 2000، ولكن من غير الواضح كم كان عملاء الإف بي آي يعرفون عن خلفية الأنسي عندما وافقوا على عرضه، وعلى الرغم من ذلك، فحتى في بروكلين ذاع صيته كمحتال، فهو عند البعض شخص ينسج قصصًا معقدة عن المشكلات القلبية والفواتير الطبية، بينما يقنع آخرين بحكايات عن مشكلات عائلية، ولكن عملاء الإف بي آي الذين استفادوا من المعلومات التي يقدمها، أخذوا صورة مختلفة جدًا عن الرجل الذي وصفه زميل يمني آخر بأنه «لا يوثق به»[2]، وباستثناء علي صوفان وحفنة من الآخرين، لم يكن العملاء يعرفون أي شيء عن مكافحة الإرهاب، وفي هذا العالم المربك الجديد من الجهاد المتطرف، أصبح الأنسي مرشدهم.

بعد الاجتماع في كانون الأول/ ديسمبر 2001، عندما أخبر الأنسي العملاء أن شيخ جامعه القديم في اليمن يؤمن مالًا ورجالًا للقاعدة، وافقت الإف بي آي على تمويل رحلة إلى اليمن[3]، فأعطى العملاء تعليمات للأنسي لأن يرى ما إذا كان الشيخ، محمد المؤيد، لا يزال ناشطًا في القاعدة، وكانت القصة التي لفقتها الإف بي آي بسرعة من أجل لقاءات الأنسي الاستكشافية هي أنه رجل واجهة لعضو سابق ثري في حزب بلاك بانثر(*) يريد أن يتبرع بالمال للجهاد.

لم يكن محمد المؤيد الهدف الأكثر وضوحًا، فعندما أخبرت الإف بي آي السفارة في صنعاء أنها تحقق في أمره، سارع هول لمعرفة عمن كانوا يتحدثون[4]، والمؤيد شيخ مربوع الجسم ذو لحية بيضاء كثة، يبدو مثل (بابا نويل) وذو نظارات شديدة السماكة وهاتف جوال، تيتم في عمر صغير، ووجد العزاء في الدين، وتخرج في النهاية حاصلًا على شهادة في الدراسات الإسلامية، وفي أواخر السبعينات عندما انتقل المؤيد إلى حي جديد يجتاحه الفقر في جنوب صنعاء، كان أول ما فعله هو فتح جامع، ويتذكر ابنه

---

(1) Glaberson, «Terror case».

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(*) حزب اشتراكي للسود في أميركا نشط في الستينيات.

(4) Hull, High Value Target, 68-69.

الأكبر إبراهيم: «قبل أن يصبح لدينا بيت حتى، كان والدي يعمل في المسجد من أجل الفقراء واليتامى»[1].

تحول المسجد الذي بناه المؤيد إلى مركز اجتماعي لفقراء الحي يؤمن لهم الدروس والخبز والبطانيات، وبحلول التسعينيات، بات مركز الإحسان يخدم 9000 شخص يوميًا، مما منح المؤيد لقب: «أبو الأيتام»، ومثل أي شخصية دينية يمنية أخرى، كان يجند اليمنيين للجهاد في أفغانستان خلال الثمانينيات، ومثلهم أيضًا، كان مؤيد يدعم حماس بنشاط، وهي مجموعة ميليشيا فلسطينية مصممة على دمار إسرائيل، ولكن كذلك كان الجميع تقريبًا في اليمن، حيث كان دعم القضية الفلسطينية علامة على تقى الفرد الإسلامي، وشكّت معارف السفارة المحلية في صنعاء في أن تكون للمؤيد أي علاقات مع القاعدة[2]، وكان الشيء الوحيد الذي يميزه عن بقية رجال الدين في المدينة هو أن الأنسي يعرفه.

في كانون الثاني/ يناير 2002، عاد الأنسي إلى نيويورك وأخبر الإف بي آي أن المؤيد مذنب، فأخبرهم في أثناء تقديمه موجزًا أنه يشتري الأسلحة للقاعدة ويرسلها إلى المقاتلين، وأخبر العملاء أيضًا أن المؤيد يتبجح بأنه أعطى لابن لادن 20 مليون دولار شخصيًا، ولخوف العملاء مما يمكن أن يفعله مثل هذا المبلغ طالبوا بالمزيد من التفاصيل، ولكن الأنسي لم يسجل أيًا من حواراته مع المؤيد، وفي النهاية كان على الإف بي آي أن تثق بكلمته.

على مدى بضعة شهور تلت ذلك، أرسلت الإف بي آي الأنسي، الذي كان يسمى CI1 (اختصارًا للمخبر السري رقم واحد) في وثائق المحاكم، إلى اليمن مرتين لتحضير فخ للمؤيد، والتقى الأنسي مع الشيخ عدة مرات طالبًا منه أن يقبل المال من عضو حزب بلاك بانثر الذي ادعى تمثيله، فتردد المؤيد أولًا، على ما يبدو محاولًا أن يوازن بين المخادع الصغير الذي يتذكره ودور الأنسي الجديد كوسيط قوي، ولكن مع مرور المزيد من الوقت في جلسات الاثنين بدأ المؤيد بمعاملة الأنسي باحترام أكبر، وفي أيلول/ سبتمبر 2002 دعا الأنسي كضيف في حفل زفاف جماعي ساعد في تنسيقه، فقبل مخبر الإف بي

(1) «Who is Shaykh al-Muayyad» (Arabic), available at: http://www.almoayad-zayed.net/view_news.asp?sub_no=1_2006_06_14_50030.

(2) Yemen General and Islah Party Reacts to Arrests, «US diplomatic cable, January 14, 2003» Released **via Wikileaks**.

آي بترحيب، وسأل حتى إذا ما كان بوسعه أن يحضر كاميرا فيديو لتصوير الاحتفالات لـ«صديقه» في الولايات المتحدة[1].

كان الزفاف طويلًا لأن كلًا من الرعاة خاطب الحشد والصف الطويل من العرسان ذوي العباءات البيضاء في الكراسي البلاستيكية[2]، وحفلات الزواج الجماعية شكل معتاد للرعاية السياسية في اليمن، ولها شعبية عند فقراء البلاد، الذين يجدون الأعراس الفردية مكلفة على نحو مستحيل، فتحدث المؤيد مبكرًا في الاحتفال مقدمًا عظة جافة عن الله والإحسان، وتلته قافلة من رجال الدين ذوي اللحى الكثيفة الذين قدموا الخطاب الممل نفسه حتى ظهر محمد صيام، وهو ممثل لحماس في اليمن، على الخشبة، إذ كانت عنده أخبار عاجلة يشارك بها الحضور.

أعلن للحشد أنه تمت «عملية لحماس في تل أبيب»، وقتل ستة يهود وجرح أكثر من ستين آخرين في تفجير لباص سوف يسمعون عنه «غدًا في الصحف»، فتعالت صيحات «الله أكبر» تحت الخيمة بينما ابتسم صيام ورفع يديه للجمهور طلبًا للصمت.

«لقد أقاموا الزفاف هنا ليتواقت مع الزفاف هناك،»[3] أضاف مشيرًا إلى التورية الجهادية المعتادة للتفجير الانتحاري، فانفجرت الخيمة مرة أخرى بالتهليل، وكان الأنسي يقف في أحد الجوانب يسجل الأمر كله.

بعد أربعة شهور، في كانون الثاني/ يناير 2003 وافق المؤيد على لقاء راعي الأنسي الأميركي، واتفق الاثنان على ألمانيا، وفي 5 كانون الثاني/ يناير، سافر المؤيد ومساعد له إلى فرانكفورت، وبعد ثلاثة أيام التقى الاثنان الأنسي وعميلًا من الإف بي آي متخفيًا بهيئة عضو سابق في حزب بلاك بانثر في غرفة فندق قرب المطار، وكان عملاء الإف بي آي قد زرعوا أجهزة تنصت في الغرفة وأعدوا كاميرا مخفية بالتعاون مع نظرائهم في القوات الأمنية الألمانية، وقبل أن يلتقي المؤيدُ ومساعدُه الأميركيَّ، نبههما الأنسي إلى أن يوافقا على كل ما يقوله الرجل، مذكرًا إياهما أن المهم في الموضوع أن «نحصل على مساعدته»[4].

(1) William Glaberson, «Video, previously excluded, is shown at sheikh's terror-financing trail» **New York Times**, February 24, 2005.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(4) «Glaberson» Terror case.

عرَّف الأنسي الرجال إلى بعضهم بعضًا وبدأ الترجمة إلى العميل المتخفي الذي لم يكن يتحدث العربية، مباشرة تقريبًا، بدأ العميل، المتخفي في دوره كعضو سابق في حزب بلاك بانثر باحث عن إضعاف الولايات المتحدة، يطلب من المؤيد تفاصيل عن أية هجمات قادمة للقاعدة، فبدا المؤيد متوترًا وأجاب على نحو غير مفهوم متحدثًا عن عمله الخيري، وفي لحظة معينة سأل العميل المتخفي بشكل مباشر إذا ما كانت الهجمة المقبلة سوف تكون ضد إسرائيل أم الولايات المتحدة؟ فهمهم المؤيد إجابة مبهمة أخرى، ولكن الأنسي طالبه بإجابة واضحة: «إذن، هل تخططون لهذا؟»[1]

أجاب المؤيد: «الآن لا، نحن نريد إعادة ترتيب أوراقنا».

ترجم الأنسي هذه الإجابة إلى العميل المتخفي على أنها: «سوف يبدؤون بالتخطيط بخصوص المكان الذي سيحدث فيه الأمر».

استمر اللقاء في اليوم التالي، فالعميل يريد أن يدفع المؤيد إلى الاعتراف بشيء ما على التسجيل، ولكن لا يريد دفعه إلى حد يجعله ينكفئ، بينما سعى المؤيد إلى استرضاء داعم ثري، وفي وسط كل ذلك كان الأنسي.

أنكر المؤيد أي معرفة مسبقة بأحداث 9/ 11، ولكن عندما تحدث الأنسي بحيوية مباركًا أسامة بن لادن، وياسر عرفات، و«جهودهما ضد اليهود»، جاراه المؤيد في الكلام، فقال الشيخ موافقًا: «نسأل الله ذلك»، وكان أكثر انفتاحًا بكثير بخصوص عمله مع المنظمة الفلسطينية، قائلًا: أنه يستطيع «الاتصال بحماس وتنسيق الأمور»، ولكن الولايات المتحدة ما كانت تريد أن تسمع عن حماس، بل كانت مهتمة بصلاته بابن لادن، وخصوصًا العشرين مليون دولار في تقرير الأنسي السابق، كيف أوصلها إليه؟ ومتى أرسلها؟ ولماذا أرسلها؟ ولكن هذه الأسئلة مرت دون أجوبة، فتحدث مؤيد عن ابن لادن بالفعل الماضي، مشيرًا إلى وقتهم في جهاد أفغانستان في الثمانينات ـ لم يكن يعرف أي شيء عنه الآن، ولم يكن ثمة ذكر لأية أموال.

في 10 كانون الثاني/ يناير قامت الإف بي آي بحركتها، والمؤيد لم يكن قد تحدث في أي شيء مهم بعد، وقد بقي على موعد طائرته بضع ساعات، فكان عند العملاء أحد خيارين: اعتقال الشيخ ومساعده الآن على أمل الأفضل في المحكمة، أو تركهما

(1) المصدر السابق.

يعودان إلى اليمن والمخاطرة في ترك المؤيد يعيد الاتصال بابن لادن، ولم يكن ثمة من خيار أصلًا، فاقتحم العملاء الألمان، الذين كانوا ينتظرون في مكان قريب، غرفة المؤيد وكبلوا الشيخ العجوز ومساعده ذا التسعة والعشرين عامًا.

بعد شهرين من ذلك، وفي أثناء شهادة أمام لجنة مجلس الشيوخ القانونية، أعلن المدعي العام جون أشكروفت الاعتقال، ووجد ادعاء الأنسي الأكثر شرًا، والذي لم يستطع عملاء الإف بي آي أن يوثقوه على الشريط، طريقه بشكل ما إلى ملاحظات أشكروفت المعدة مسبقًا، فأخبر أشكروفت، الجالس خلف مايكروفون أسود رفيع، السيناتورات في اللجنة أن «عملية الإف بي آي المتخفية وجدت معلومات تفيد أن المؤيد سلم بن لادن 20 مليون دولار شخصيًا جمعها من شبكته لدعم الإرهاب»[1].

كانت قضية الحكومة الأميركية كلها تقف على رواية مخبر واحد وضع في جيبه أكثر من 100000 دولار من هذا العمل[2].

بينما تلاحق الإف بي آي أشباحًا في ألمانيا، كانت القاعدة الحقيقية تلتقي في اليمن لتقرر الخطوة القادمة، فقد كان موت الحارثي ضربة كبرى، إذ هو رجل ابن لادن في اليمن منذ البداية وهو الذي أسس المعسكرات التدريبية الأولى للقاعدة في البلاد وحوَّل كثيرًا من المتطوعين الشباب إلى مقاتلين متمرسين، ولم يكن محمد الأهدل ولا فواز الربيعي، وهما مساعداه الأكثر قربًا، مستعدين لأن يخلفاه، فالأهدل سكرتير مالي أكثر منه قائدًا، وكان لا يزال مختبئًا من صالح مع القبائل في مأرب، والربيعي قد يصبح قائدًا جيدًا في يوم ما، ولكنه في هذه اللحظة أصغر عمرًا وأقل خبرة من ذلك، فآخر هجوم خطط له على مروحية شركة هانت أويل انتهى باستخدام قوات الأمن اليمنية لصندل عارف مجلي الدامي وإخبارية من مواطن في المنطقة للوصول إلى عارف المصاب في مشفى في صنعاء[3].

لكن على أحدهم أن يتسلم القطع المبعثرة لشبكة القاعدة في اليمن، وعندما التقى الرجال لتحديد كيفية الرد على اغتيال الحارثي، تسلم الربيعي زمام الحديث، فشرح - وشعره الأسود

---

(1) John Ashcroft, «The Terrorist Threat: Working Together to Protect America» prepared remarks to senate Judiciary Committee, March 4, 2003, available at: http://www.justice.gove/archive/ag/testimony/2003/030403senatejudiciaryhearing.htm.

(2) Glaberson, «Terror case».

(3) Soufan, The Black Banners, 506.

الطويل الذي يرفض حلاقته يحدد وجهه - أن الولايات المتحدة قد قتلت قائد القاعدة في اليمن، وأن على القاعدة، حتى تنتقم، أن تقتل المسؤول الأعلى لأميركا في اليمن[1].

على مدى أسابيع في آخر شتاء وأول ربيع 2003، كان ثلاثي من عملاء القاعدة يلاحق مراقبًا موكب هول كلما غادر السفارة[2]، وعلى الرغم من كل التدابير الأمنية، لم يكن للمواكب الخارجة من السفارة إلا خياران، فتستطيع التوجه يمينًا نحو دوار مروري، أو يسارًا نحو آخر، واعتقد الربيعي أن نقطتي الاختناق هاتين كلتيهما تنفعان بشكل مثالي لكمين، ولكن قبل أن ينفذ خطته تعثرت الاستخبارات اليمنية بالبيت الآمن في حي المذبح في شمال غرب صنعاء، فداهمت القوات الأمنية المنزل في أوائل آذار/ مارس، ولكن خطأً في الاتصال جعلهم يخفقون في تطويق المبنى تمامًا، فاستطاع الربيعي وحزام مجلي أن يهربا وهما يطلقان سيلًا من رصاص الرشاشات والقنابل[3]، واستطاعا أن يعبرا مئات الأميال جنوبًا في سيارتهما قبل أن يوقفهما ضابط في نقطة تفتيش على طريق خليج عدن الساحلي السريع في أبين، وشك الجندي في ادعاء الربيعي بأنه نسي بطاقته التعريفية، فصعد في السيارة مع الرجلين وأمرهما بالقيادة ثلاثين ميلًا غربًا نحو عدن حيث يستطيع هنالك التأكد من قصصهما، لكن ما أن أصبحوا بعيدين عن مسمع نقطة التفتيش، صارع الربيعي ومجلي الجندي فجرداه من سلاحه وأطلقا عليه النار[4]، ورميا جثته على جانب الطريق، وعكسا اتجاههما نحو مأرب على أمل إيجاد ملاذ بين القبائل، لكن الحبل بات يضيق حول رقبة القاعدة والخيارات تنفد منها بينما استمر صالح في حملة اعتقالاته، وبعد أسبوعين من قتلهما الجندي، قبضت القوات اليمنية على الربيعي ومجلي في مأرب.

بالكاد استطاع هول أن يهنئ صالح على الاعتقالات قبل أن تهدد حادثة أمنية أخرى بتدهور العلاقة مجددًا، ففي 11 نيسان/ أبريل، هرب عشرة سجناء من سجن منظمة الأمن المركزي في عدن عبر حفر حفرة في جدار الحمام، وكان بين الهاربين جمال البدوي وفهد القصع وهما عضوان من القاعدة لعبا أدوارًا داعمة في تفجير المدمرة كول.

(1) Hull, High Value Target, 63.

(2) المصدر السابق، 72.

(3) المصدر السابق، 73.

(4) Yemen Times, April 7-13, 2004.

«لم يتم حتى إعلامنا بنقلهما إلى عدن»[1]، أخبر هول واشنطن شارحًا أن السفارة اعتقدت أن السجناء لا يزالون في صنعاء.

بعد أسابيع من هروبهم من السجن، وصل مدير الإف بي آي روبرت ميولر إلى صنعاء للقاء الرئيس صالح، وكان مدير الإف بي آي منزعجًا من عودة رجلين تلوثت يداهما بدماء أميركية أحرارًا، فكانت رسالته واضحة وصريحة: على صالح أن يلقي القبض على الرجلين مجددًا.

بعد خمسة شهور، استطاع ميولر المرور في صنعاء ليتفقد شخصيًا مطاردة الرجلين، ولم يبد أن شيئًا قد تغير، فالبدوي والقصع لا يزالان طليقين، ولم تبد اليمن مهتمة على نحو خاص، وكانت البلاد في منتصف رمضان، وخلال النهار تبدو صنعاء كمدينة أشباح، فتغلق المكاتب ويقضي المسؤولون معظم النهار يقيلون وينتظرون غروب الشمس كي يستطيعوا الإفطار، فامتعض ميولر من قلة النشاط وسلم الرئيس صالح، مرة أخرى، رسالة قوية وغير دبلوماسية.

حاول وزير الداخلية رشاد العليمي أن يلطف الاختلافات عبر دعوة ميولر وصالح إلى الإفطار في بيته، فرفض ميولر عرضه ببرود، وشعر صالح ووزيره بالإهانة من سلوك ميولر وخصوصًا رفضه مشاركة وجبة، وهو تصرف له معنى ثقيل في العالم العربي، وفي طريق العودة إلى المطار فقد هول - وهو الذي أُجبر على أن يتحول إلى وسيط بين صالح وميولر - أعصابه، وأفْهَم مدير الإف بي آي إخفاقات الولايات المتحدة، بينما شرح له أن اليمنيين في الواقع يحرزون تقدمًا في الحرب ضد القاعدة[2].

وكانوا كذلك فعلًا، فبعد وقت قصير من مغادرة ميولر حصل عملاء يمنيون على إخبارية بخصوص مكان تواجد محمد الأهدل، وقالت الاستخبارات أنه قادم من صنعاء ليحضر زفافًا، وبعد اغتيال الحارثي واعتقال الربيعي بات الأهدل آخر قائد كبير للقاعدة في البلاد، فإذا استطاعت اليمن القبض عليه، فسوف يقضى على بنية قيادة المنظمة الإرهابية وسوف تكون قائمة الأسماء التي قدمها بوش كاختبار مصيري قبل سنتين مضتا قد أُنجزت.

بوضع مخاوف المحللين الأميركيين جانبًا، كانت القاعدة في اليمن في تفكك كامل،

(1) Hull, High Value Target, 84.

(2) المصدر نفسه، 93.

فقد دمرت ضربة الطائرة بلا طيار قبل عام بنية المنظمة التحتية في اليمن، لأنه بدون الحارثي لا تستطيع القاعدة في اليمن أن تعمل، وتم اعتقال أعداد ضخمة من نشطاء القاعدة، وأولئك الطلقاء مثل البدوي والقصع مطاردون وهاربون، فوجد الأهدل نفسه مثل جنرال بلا جيش، تحركاته مقيدة باستمرار بمداهمات وتسريبات أمنية، فبدلًا من التخطيط لهجمات جديدة كان مستغرقًا في المحافظة على خطوة أمام الاستخبارات اليمنية، وعندما تعقبه رجال صالح أخيرًا إلى حفل زفاف في صنعاء، عرف الأهدل أن هذه ستكون النهاية، وأنه سيموت بدلًا من أن يؤخذ حيًا[1]، كذلك أخبر البقية الأخيرة من أتباعه وهو يحصن نفسه داخل المنزل.

قام الرئيس صالح، لتصميمه على تجنب إطلاق نار في العاصمة، بإرسال مستشار يثق به إلى الموقع، وقضى المفاوض ساعات يتحدث إلى الأهدل، عارضًا عليه صفقة صالح وشارحًا له عقبات عدم الالتزام[2]، وقد تضمنت تفاصيل الصفقة، التي لم يفصح عنها في ذلك الوقت، حكم السجن بثلاثة أعوام على الأهدل مقابل وعده بعدم العودة إلى الجهاد، على الأقل ليس في اليمن، إما السجن وإما الأميركان، ختم مبعوث صالح قوله، فخرج قائد القاعدة الأخير في اليمن من المنزل محنيًا رأسه يعرج على رجله الصناعية نحو السيارة التي قادته عبر المدينة إلى سجن الأمن المركزي.

(1) «Interview with Ghalib al-Zayadi.»

(2) المصدر السابق.

الباب الثاني

النسيان

الفصل الأول

إعادة التأهيل

2002 - 2004

قبل أكثر من عام من استسلام الأهدل، وصل الرئيس علي عبد الله صالح إلى قرار سيكون له عقبات واسعة التأثير على الحرب ضد القاعدة.

بحلول أواخر آب/ أغسطس 2002، باتت المشكلة واضحة أمام الرئيس اليمني، إذ لم تؤد شهور الاعتقالات والتعاون مع الولايات المتحدة إلى أكثر من ملء سجونه وتغريبه عن قاعدته الشعبية، فكان الشيوخ القبليون، الذين يحتاج إلى دعمهم للمحافظة على الاستقرار في البلاد، يتذمرون بخصوص الاعتقالات، فالرئيس يأخذ أكثر من اللازم من شبابهم اليافعين، كما قالوا متذمرين، وكان صالح مأزومًا: فلا هو يستطيع إطلاق سراح السجناء ببساطة ولا هو يستطيع إبقاءهم في السجن، وكان في حاجة إلى مخرج.

في 24 آب/ أغسطس 2002، اتصل صالح بعبد المجيد الزنداني وعبد الوهاب الديلمي وهما رجلا الدين (ذوا الشعر المصبوغ بالحناء) اللذان جندا أعدادًا كبيرة للجهاد في أفغانستان، ودعاهما إلى القصر الرئاسي ودعا أيضًا عدة رجال دين آخرين، وبعد ستة أيام من ذلك، وبعد أن أنهوا خطبة الجمعة، دخل ثلاثون رجلًا ذوو لحى كثيفة في أثواب طويلة وصنادل مفتوحة الأصابع إلى إحدى صالات استقبال صالح للاستماع إلى عرضه.

الكل يعرف الوضع، قال صالح مفتتحًا، وحدق صفوف من رجال الدين فيه، قليل من الرجال الموجودين في الغرفة كانوا من الذين دعموا تحالف صالح مع الولايات المتحدة

أو الحملة الداخلية القمعية الكبيرة التي تلت ذلك، لقد تجاهل صالح مشورتهم وقتها، والعديد منهم يشك في أن السبب الوحيد الذي يريد من أجله نصيحتهم الآن هو أن يحصل على غطاء ديني أمام القبائل[1].

على مدى بضع دقائق تلت، وضع صالح أمامهم ما يراه حلًا أنيقًا لمشكلة المساجين، فمعظم الرجال في السجن، كما اعترف، اعتقلوا من باب الشبهة وحسب، بأنهم يتعاطفون مع القاعدة، وقليل منهم، إن كان ثمة قليل، يمكن أن يوضعوا أمام المحكمة فعلًا، وبدلًا من وضعهم أمام المحاكم، أراد صالح أن يعمل مع رجال الدين ليخلق برنامجًا لإعادة دمجهم في المجتمع، فختم صالح قائلًا: دعونا نعيد تعليمهم ونطلق سراحهم.

ما إن أنهى صالح كلامه حتى بدأ النقد، فاستشهد بعض العلماء الأكبر سنًا، منحنين على عكازاتهم، بحالة محمد الذهبي، رجل الدين المصري والوزير السابق الذي اغتالته جماعة متطرفة في 1977 بعد أن ترأس برنامجًا مشابهًا في القاهرة[2]، وعبَّر آخرون عن قلقهم من أن الرجال قد يوسمون بأنهم أضحوكة، خاضعون للأميركيين، لأنهم وافقوا على عرض الرئيس، واستطاع صالح رؤية الأمور إلى أين تتجه، وقطع النقاش بسرعة قبل أن يصل رجال الدين إلى إجماع ضد خطته، فقال صالح لهم: فكروا في الموضوع بضعة أيام، ومن ثم قرروا كيف يجب أن يبدو الموضوع، لم يكن هذا طلبًا.

من جانبهم كره المسؤولون الأميركيون فكرة صالح، فقد كانوا قلقين من أن ما يدعوه صالح إعادة تأهيل قد يخلق بابًا لإعادة التدوير، فما النفع في مشاركة المعلومات الاستخبارية مع اليمن ومساعدتها في اعتقال هؤلاء، تساءل المحللون، إذا كانوا سيطلقون سراحهم بعد بضعة شهور من ذلك؟ لكن صالح كان عنيدًا، فخطته قد تنجح.

بعد أيام على تقديم صالح لعرضه التقت مجموعة الثلاثين رجل دين مرة أخرى، هذه المرة بدون الرئيس. لم يكن أحد منهم قد غير رأيه، وكان المخالف الوحيد لإجماعهم هو رجل دين صغير في العمر، هو ـ حسب اعترافه ـ أحد أصغرهم وأقلهم كفاءة، وعندما

(1) وصف اللقاءات الأصلية مبني على مقابلات الكاتب مع حمود عبد الحميد الهتار في 16 تموز/ يوليو 2004 و10 آب 2005، وجرت المقابلتان كلتاهما في بيت الهتار في صنعاء، وكان مترجمي وقتها ناصر الربيعي.

(2) مقابلة الكاتب مع حمود الهتار في 16 تموز/ يوليو 2004، وللمزيد بخصوص الذهبي انظر، Gilles Kepel, Muslim Extremism in Egypt, translated by Jon Rothschild (Berkeley: University of California Press, 1986).

عقدوا اجتماعهم الأخير في 4 أيلول/ سبتمبر، شرح حمود الهتار، وهو قاضي محكمة محلية هادئ الكلام، أنه لا يستطيع أن يقف إلى جانب زملائه، وبدلًا من ذلك، طلب موافقتهم على أن يقدم تقرير أقلية منفصل يدعم خطة الرئيس.

بعد ساعة من ذلك، قبل أن يبدأ القاضي بالكتابة حتى، اتصل صالح به على الهاتف يسأله كيف كان الاجتماع[1].

«ليس جيدًا»، اعترف الهتار.

«أجل، ولكن ماذا عنك؟ ماذا قلت أنت؟»، أصر الرئيس.

«عبرت عن اعتراضي على القرار، وقلت أنني سوف أدخل في الحوار، حتى لو اضطررت لفعل ذلك وحدي»، أجاب الهتار.

«أحسنت»، قال الرئيس، لقد حصل على رجله، وسأل صالح إذا ما كان الهتار قد فكر في فريق.

«ثمة ثلاثة زملاء أود العمل معهم»، رد القاضي ذو السبعة والأربعين عامًا، وكان هذا كل ما يحتاج الرئيس إلى سماعه، وترك العمل اللوجستي وباقي التفاصيل للهتار.

بدأت الجلسات، أو «الحوارات»، كما يفضل أن يدعوها القاضي، في اليوم التالي.

الهتار رجل قصير ذو شعر مقصر بعناية ولحية من لون (الليفة المعدنية المبرقشة)، فله مظهر بروفسور جامعي، وبصفته متحدرًا من عائلة النبي محمد، فهو عضو من طبقة اليمن العليا، ولكن أصول الهتار الأرستقراطية تخبئ نزعة معارضة عميقة، فمخالفته زملاءه وموافقته على ريادة فكرة صالح بالحوار الديني مع المشتبه بتعاونهم مع القاعدة لم تكن المرة الأولى التي ينشق فيها عن الجماعة.

في 1985، بعد عام من تعيينه رئيس محكمة صنعاء الجنائية الأولى، وهو شرف نادر لقاض يافع، وصل اسم الهتار إلى عناوين الصحف القومية عبر تمريره حكمي إعدام في اثنين من المسلمين قتلوا يهوديًا، فعلى الرغم من أن اليهود ومعهم المسيحيين أقلية محمية تقنيًا، فكثيرًا ما يعاملون في اليمن كمواطنين من الدرجة الثانية، وخلال القرنين التاسع

(1) Muhammad Maruf, «Yemeni judge on dialogue with al-Qa'ida supporters» **al-Quds al-Arabi**, translated by FBIS, December 18, 2004. The date of the original article in Arabic is not supplied.

عشر والعشرين، أصدر الأئمة قوانين تحد من حجم منازل اليهود وطريقة لباسهم، ومنع حكام آخرون اليهود من ركوب الحيوانات في وجود المسلمين، على أساس أن الركوب يسمح لهم أن ينظروا بدونية إلى من هم أفضل منهم، فسبب حكم الهتار قدرًا كبيرًا من الغضب والارتباك.

ما كان يجب أن يتسبب في ذلك، يشرح الهتار بتنهدٍ محبط[1]. أجل، لقد تجاهل كل السوابق القانونية والشرعية المعاصرة، ولكن هذا لأنها خاطئة، فقد عاد إلى جذور المشكلة، وهي في هذه الحالة القرآن والسنة المنقولة عن النبي محمد، فجادل أن هذه المصادر لا تفرق بين المسلم وغير المسلم في حالات القتل، وقد طبق هذا الفهم ببساطة على القضية أمامه، فالاستهجان الشعبي، كما يؤكد الهتار، نتيجة سوء فهم وتطبيق للشرع الإسلامي على مدى سنوات.

تخيل الهتار أن شيئًا مشابهًا سيحصل بخصوص سجناء القاعدة في السجن، فهو يستطيع أن يفند سنوات من الفقه والممارسة الدينية الخاطئين وأن يشرح لهم ما يقوله القرآن فعلًا، فالبرنامج، كما كان يقول للصحفيين كثيرًا، هو «تصرف محبة».

حوالي الساعة 10 صباحًا من الخامس من أيلول/ سبتمبر 2002، دخل الهتار وفريقه المختار بعناية من العلماء إلى سجن في وسط مدينة صنعاء ليباشروا جلستهم الأولى، ودخل الهتار يحمل نسخًا من القرآن والدستور اليمني، وهما وثيقتاه المعتمدتان، مرتديًا القبعة الصغيرة المستديرة والثوب التقليديين، وقبل أن يدخلوا إلى الغرفة، طلب أحد الحراس من الهتار أن يخلع (الجنبيه) الخنجر الضخم المحني الذي يدكه معظم اليمنيون في أحزمتهم.

«لماذا؟» طالب القاضي.

«من أجل الأمن»، قال الجندي.

فضاحكه الهتار ودخل إلى الغرفة، وكان يجلس حول الطاولة حفنة من الرجال في لباس السجن الأزرق، فمشى الهتار مارًا بالسجناء حتى وصل إلى مقدمة الغرفة ووضع القرآن والدستور على الطاولة، وبعد ذلك فقط رفع نظره وبدأ بالحديث، فوضح خطوط البرنامج بعبارات قصيرة منمقة: القرآن والدستور سيكونان الحَكَم بيننا، قال شارحًا، فعند الهتار، ليس ثمة أي فرق قانوني بين الوثيقتين. وانطلق الهتار

(1) مقابلة الكاتب مع Hamud Abd al-Hamid al-Hitar, August 10. 2005.

في حديثه ليشرح للسجناء أن المادة الثالثة من الدستور: «الشرع الإسلامي مصدر كل التشريع» ليثبت للسجناء أن كل شيء في الدستور متوافق مع القرآن: «إن وجدتم شيئًا هنا يعارض كلام الله، أخبروني وسوف أغيره، ولكن إن لم تجدوا شيئًا عليكم أن توافقوا على إطاعة الدستور»[1].

أراد الهتار أن يكون واضحًا منذ البداية: «إن كنتم على حق فسنتبع رأيكم، ولكن إن كنا على حق، عليكم أن تتبعوا رأينا»، فقد كان السجناء، والكثير منهم لم يتم توجيه التهم إليهم بعد، قلقين، فلقد كُذب عليهم وأسيئت معاملتهم مدّةَ سنوات، وماذا يستطيع قاض واحد أن يفعل؟

أكمل الهتار: «لقد عينني الرئيس لهذا البرنامج، وإني أنفذه باسم الله ورسوله».

على مدى الأسابيع العشرة التي تلت، التقى الهتار وفريقه 104 سجينًا في محاولة لإقناع الرجال بأن فهمهم للإسلام شوهه وحرَّفه منبوذون جائعون للسلطة مثل ابن لادن والظواهري، إذ إن اليافعين الذين رآهم أمامه كانوا كلهم حسني النية، ولكنهم مضللون وعُلِّموا خطأ، والهتار يرى أنهم مشدوهون بالتعقيدات اللغوية والقواعدية في القرآن، فهؤلاء الرجال «ليسوا علماء قرآن وعلى ذلك يمكن لهم أن يخطئوا عددًا من الأخطاء في أثناء قراءة القرآن»، كذلك يلاحظ في تقاريره، «فكثيرًا ما كانت هنالك مقاطع يأخذونها خارج السياق أو ببساطة يفسرونها خطأ لأنهم لا يضعون التشديد الملائم على حرف معين في كلمة معينة».

ضايق تعالي الهتار العلمي بعضَ السجناء، فصحيح أنهم ربما لم يدرسوا مثله، ولكنهم درسوا القرآن ويحترمون ابن لادن، وقائد القاعدة - كما يعرفه أكثرهم عن تجربة شخصية - أدار ظهره لملذات الحياة وعاش وأطاع أصعب أوامر الله، فكان يصوم أيامًا لا تعد، كثيرًا ما يقضيها دون ماء، حتى إنه في أفغانستان اختار مزرعة خربة منزلًا له، فهل يستطيع الهتار أن يفعل ذلك؟ كان ابن لادن يعامل رجاله باحترام، ويتحدث إليهم كأنداد لا كأطفال مدارس مشوشين. لم يحتج المساجين درسًا في القرآن، فهم يحفظون الكتاب عن ظهر قلب أصلًا[2]، فكانوا يقولون لبعضهم بعضًا في نقاشاتهم في آخر الليل: إن هذا

(1) مقابلة الكاتب مع Hamud Abd al-Hamid al-Hitar, July 16, 2004.

(2) Hammadi, «Interview with Nasir al-Bahri» August 3, 2004.

القاضي مستعد لأن يقول ويُشَرْعِن أيًا كان ما يقوله صالح، فهو دمية، كما قالوا لبعضهم، يحرف الإسلامَ وراء التصور.

حدَّد الهتار أحد عشر موضوعًا مختلفًا للنقاش، ولكن الرجال قضوا معظم الوقت مستمعين إلى محاضراته عن توافق الدولة الحديثة مع الإسلام، من يملك السلطة للحديث باسم الإسلام؟ ابن لادن والقاعدة، أم الهتار والدولة اليمنية؟

الإجابة عن هذا السؤال هي التي سوف تحدد نجاح البرنامج، ولهذا كان الهتار مصرًا جدًا على ربط القرآن بالدستور، فإذا استطاع إقناع المساجين أن القانون المدني متحدِّرٌ من الشرائع القرآنية، كما يدَّعي هذا القانون، فهو يظن أنه ربما يقدر على نزع فتيل الرجال الذين دعاهم في حديث خاص: «قنابل موقوتة»[1]، ولكن وجهة نظر الهتار على أي حال أجبرته على دخول مناطق فكرية غير مأهولة، وفي النهاية قادته إلى خلق عالم موازٍ من المواقف والسلطة ليس لها إلا القليل من الإسناد في الفقه الشرعي الإسلامي.

كل شيء في الإسلام، كما أخبر حضورَه من السجناء، منعكس في الدولة الحديثة اليمنية، ففي عالم الهتار الموازي، الرئاسة، مثل الخلافة في بدايات الإسلام، هي منصب سياسي وديني في آن واحد؛ السلطة الأعلى في البلاد، ويعني هذا أن صالح هو الرئيس ومن يدعوه الهتار ولي الأمر، وهو مصطلح ديني يشير إلى المسؤولية. كانت تعقيدات هذا النقاش ضخمة، فإذا قبل السجناء فرضية الهتار فإنّ الدولة اليمنية هي التي سوف تحدِّد تصرفاتهم وقتها، وليس قسم القاعدة، أي إطاعة القرآن تعني إطاعة الدولة، وما هو أكثر أهمية للسجناء، يعني أن صالح هو الوحيد الذي يحق له تشريع الجهاد، ولا يمتلك أيُّ أحدٍ آخر - لا ابن لادن ولا الظواهري، ولا أي رجل دين آخر - السلطة القرآنية لفعل ذلك.

جعلت قراءة الهتار المجددة للفقه الإسلامي المواطنةَ العنصرَ الأكثر أهمية في حياة المرء الدينية، وقد شرح الهتار وجهة نظره مهيئًا للتحديات الفكرية في نظريته، فادَّعى، في جلساته مع السجناء المحدقين فيه تحديًا بجرأة، أن كل فعل تقوم به الدولة مبني على سابقة إسلامية صحيحة من حياة محمد، فليأخذوا ميثاق الأمم المتحدة على سبيل المثال، إن عضوية اليمن في المنظمة الحديثة تسمح بها حقيقة أن محمدًا وقع اتفاقية

(1) مقابلة الكاتب مع Hamud Abd al-Hamid al-Hitar, July 16, 2004.

المدينة في 622[1]، وهذه في وقتها كانت نوعًا من الرابطة للقبائل التي تعيش إلى حد كبير مستقلة عن بعضها بعضًا، وقال مضيفًا: أنه يمكن تطبيق المنطق نفسِه في أي معاهدة وقعتها اليمن.

كان الأمر أشبه بمشاهدة عالم رياضيات فذٍّ يشرح نظريات على لوح الطبشور: ممتع الغموض، ومربك في معظم الأمر، وغير واضح تمامًا كيف يرتبط بالحياة الواقعية، فمهما شرح الهتار نظريته، محصِّنًا إياها بالسوابق والأمثلة، يظلُّ كل شيء مبنيًا على افتراض الشرعية الإسلامية في الدولة والحاكم، وقد وجد السجناء، الذين استطاعوا أخيرًا التقاط جوهر وجهة نظر الهتار، صعوبةً في تخيل صالح قليل العلم، ذي السمعة بالويسكي والنساء، سلطةً دينية، لكن كذلك كانت الصفقة: اعترِفوا بأولوية الشرعية لصالح ووقِّعوا تعهدًا بالامتناع عن العنف، أو التزموا بمعتقداتكم وابقوا في السجن.

في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 2002، بعد مرور أسبوع على رمضان، أنهى الهتار جلسته الختامية، وأوصى بإطلاق سراح 36 سجينًا من أصل الـ 104 كمجموعة اختبار[2]، وفي نهاية الشهر أطلق صالح سراح الرجال كجزء من برنامج عفو بمناسبة الشهر المقدس، وكشرط لإطلاق سراحهم، طُلب من الرجال أن يراجعوا مسؤولي الأمن مرة شهريًا.

بدأ الهتار الجولة التالية في ربيع 2003، ولكن كان ثمة شيء جديد يتعامل معه هذه المرة، ففي آذار/ مارس، غزت الولايات المتحدة العراق، وتغير كل شيء.

لم يتفاجأ صالح، فمنذ حواره في المكتب البيضاوي مع بوش في تشرين الثاني/ نوفمبر 2001، كان يعرف أن هذا اليوم قادم، وعلى الرغم من ذلك، فعل الرئيس اليمني كل ما يستطيع ليحذر الولايات المتحدة من حرب جديدة، فكرر للسفير إدموند هول أن هذا سوف يسبب «مشكلات ضخمة»[3]، وسمع كل أميركي جاء إلى اليمن الرسالة نفسها: نائب الرئيس تشيني، الجنرال تومي فرانكس، وحفنة من السكرتاريا المساعدين والضباط

(1) R.B. Serjeant, «**The Constitution of Medina**» Studies in Arabian History and Civilization (London: Variorum Reprints, 1981), 12.

(2) Interview with Hamud al-Hitar «(Arabic), 26th of September, November 11, 2004. The first» dialogue session ran from September 5, 2002, to November 11, 2002.

(3) Hull, High Value Target, 70.

العسكريين كلهم استمعوا إلى وجهة نظر صالح، وكرر هول بصدق قلق الرئيس في برقيات إلى واشنطن، ولكن أيًا منها لم تحدث أيَّ فرق.

حطم العراق عالم الهتار الموازي من السوابق الإسلامية التي تبرر الأفعال الحديثة، وفي كانون الأول/ ديسمبر 2003، بعد عام من إطلاق السراح الأول، أوصى الهتار بإطلاق سراح 29 مقاتلًا آخر ممن غيروا رأيهم، فأخبر الرئيس صالح بأن مجموعة الاختبار قد احترمت عهدها بعدم العودة إلى العنف والتطرف، ودارت الأمور بشكل أسرع بكثير بعد ذلك.

أعلن اليمن البرنامج في الصحافة العربية واصفًا الهتار بأنه وجه الإسلام المعتدل، وأنه شخص يستطيع أن يجادل ابن لادن «في أي مكان وأي وقت»، كما كان القاضي يقول مازحًا للصحفيين، وسافر الهتار إلى محافظات مختلفة لينشر برنامجه، فما عاد يعقد النقاشات الصغيرة الشخصية التي حكمت طبيعة البرنامج في السنة الأولى، بل بات الهتار يحاضر في عشرات المساجين مرةً واحدة، وشارك في البرنامج ناصر البحري حارس ابن لادن الشخصي السابق، وكان السجناء يرون في القاضي، كما شرح البحري، «مفتاح إطلاق سراحهم»،[1] لقد جاء ليتحدث، ولكن «لم يكن ثمة حوار»، فالقاضي يتحدث «ونحن نستمع ومن ثم يطلق سراحنا، لم يغير رأي أحد»[2].

كان الهتار بطاقةَ خروجهم من السجن، فأقسم الرجال لبعضهم بعضًا أنه بينما تلفظ أفواههم فإن ما في قلوبهم لن يتغير أبدًا، وأكد السجناء الأكثر تطرفًا لزملائهم المترددين أن الشرع الإسلامي يسمح بتوقيعهم على وثيقة الهتار حتى لو لم تكن عندهم نية الالتزام بشروطها، فالغاية تبرر الوسيلة، كما قالوا.

في أوائل 2004 بدأت عيوب برنامج الهتار تظهر، فعاد عدة سجناء أطلق سراحهم إلى القتال[3]، وتوجهوا إلى العراق، حيث كانت الحرب مغناطيسًا ضخمًا للمجاهدين اليمنيين. ففي ظل انعدام قيادة للقاعدة في الوطن، ووجود جيش غربي في قلب العالم الإسلامي، بات المنطق واضحًا، فعراق 2003 و2004 مثل أفغانستان الثمانينيات، والفرق

(1) Tim Whewell, «Crossing Continents» **BBC Radio**, aired October 13, 2005.

(2) مقابلة الكاتب مع ناصر البحري، صنعاء، 21 تموز/ يوليو 2006. جرت المقابلة بالعربية.

(3) Whewell, «Crossing Continents».

الوحيد هو أن الحكومة اليمنية دعمت أحدهما وليس الآخر، ولاحظ من كانوا لا يزالون في السجن هذا التناقض بسرعة.

علنيًّا، أصر الهتار على أن العراق «ليس موضوع الحوار»[1]، ولكنه لم يكن يستطيع أن يهرب من موضوع الحرب داخل السجون اليمنية، فعند أكثر اليمنيين، يوجب وجود قوات الولايات المتحدة المسلحة في العراق مبدأ الجهاد في القرآن بشكل واضح، لقد كانت حالة بسيطة: جنود غير مسلمين يهاجمون مسلمين في بلاد المسلمين، لم يكن قتال الولايات المتحدة مسموحًا ببساطة وحسب، بل كان واجبًا.

حاول الهتار أن يلتف على المشكلة عبر المجادلة بأن العراق ليس هو الموضوع، فالقتال في العراق ليس غير مبررًا كما أخبر غرفًا ممتلئة بالسجناء، بل هو ببساطة غير مسموح به، إذ وحده الرئيس صالح يمكن له إعلان الجهاد شرعيًا، وإذا فعل سيصبح القتال مسموحًا، وإذا لم يفعل، لا يستطيع الرجال المشاركة، ولكن لم تنفع المناورة، إذ قاومها السجناء مجادلين أنه إن لم يعلن صالح الجهاد في مثل هذه الحالة الواضحة فمن المؤكد أنه ليس قائدًا إسلاميًا حقيقيًا. كان الأمر واضحًا عند الرجال الذين شاهدوا وقفة ابن لادن غير المهادنة في القتال؛ فابن لادن يتبع القرآن مهما كانت العواقب، بينما صالح والهتار ليسا كذلك.

على الرغم من الصعوبات، تابع برنامج الهتار لإعادة التأهيل متخبطًا، واستمر المساجين بالتوقيع على الخط المنقط متعهدين بحسن السلوك إذا أطلق سراحهم، وسرعان ما تخلى الهتار عن محاولة تغيير نظرتهم الأيديولوجية، وتحول البرنامج إلى نوع من معاهدة وقف العنف الضمنية بين الحكومة والمقاتلين، فما عاد السجناء مضطرين للتخلي عن الجهاد العنيف، بل أصبح كل ما عليهم الموافقة عليه هو عدم تنفيذ ضربات في اليمن، لقد قامت الدولة بتسوية خطيرة: لا تهاجمونا ولن نهاجمكم.

ونجح الأمر، مدّةً ما على الأقل، فبعد اعتقال الأهدل في أواخر 2003، اختفت القاعدة من اليمن، قادتها إما مقتولون وإما مسجونون، ومن لم يكونوا كذلك انتقلوا إلى العراق، وبدت اليمن هادئة، وشعر الهتار بأنه أثبت نفسه فكان يشير إلى نهاية القاعدة في اليمن عندما يُسأل عن مئات السجناء الذين أطلق سراحهم، فيقول بفخر: «الإثبات في النتائج...

(1) المصدر السابق.

منذ أن أطلقنا المجموعة الأولى من السجناء لم يحصل أي تفجير إرهابي في اليمن».

على مدى 2004، بينما بدا أن تهديد القاعدة في اليمن قد تبخر، كيَّف الهتار عمله ليواجه تحدي الحكومة الجديد، فعلى مدى العامين السابقين، تصاعد الاستياء في الشمال البعيد من البلاد، لم يكن التهديد هذه المرة قادمًا من مجموعات سنية متطرفة مثل القاعدة ولكن من عصبة من الثوار الزيديين الذين يعتنقون الإسلام الشيعي ولكنهم منفصلون عقائديًا عن الشيعة «الاثنا عشرية» في إيران[1]، ولم يكن التحديان منفصلين بقدر ما هما تجسيدان للمشكلة نفسها: التطرف المتزايد في المشهد الديني في البلاد، وبقدر ما كانت المجموعتان تكرهان الاعتراف بالأمر، فإن السنة والشيعة في اليمن كانتا مرتبطتين بشكل متين يتعذر فكه، وقد أدى صعود الأولى إلى ردة فعل الأخيرة.

بدأت المشكلات في 2002، قبل شهور من بداية برنامج الهتار لإعادة التأهيل، في محافظة صعدة قرب الحدود السعودية، فمبكرًا من ذلك العام، في 17 كانون الثاني/ يناير، بدأت مجموعة صغيرة من المزارعين والطلاب الغاضبين بالهتاف خارج مسجد محلي في عاصمة صعدة المحلية التي تحمل الاسم نفسه، فرنت أصواتهم في هواء الجبل الساكن: «الله أكبر! الموت لأميركا! الموت لإسرائيل! اللعنة على اليهود! النصر للإسلام!».

وفي مقدمة المجموعة، وقف قائدهم حسين الحوثي مرتديًا ثوبًا أبيض طويلًا يناقضه معطف رياضي غامق، وللحوثي هذا هالة قيادية، فهو ممتلئ البدن وذو بشرة داكنة ولحية ممتلئة وعيون رقيقة، وقد أخبر مستمعيه: إن مجتمعنا يتعرض للهجوم، وسوف ينتهي الزيديون قريبًا.

كان الرجال في الساحة يعرفون عم يتحدث، فعلى مدى قرون كانت العائلات الكبيرة كالحوثيين ملكية محلية، تقدم الأئمة الذين يحكمون شمال اليمن، ويأخذ الزيديون اسمهم من حفيد حفيد حفيد محمد زيد بن علي، الذي قتله عام 740 م (طاغية سني)، ومن ثم مُثِّل بجثته وقطع رأسه بعد عدة أيام، وقد تبنى الحوثيون مرونة المجموعات المهمشة، فأوجدوا نوعًا من الحل الوسط بين السنة والشيعة، فهم «الخمسية»[2]، المدرسة غير الرسمية الخامسة

(1) الشيعة الإثنا عشرية، نسبة إلى الأئمة الاثني عشر، مختلفة تاريخيًا مع الإسلام السني، على عكس الشيعة الخمسية التي يعتنقها الحوثيون، والتي هي قريبة إلى حد كبير من الإسلام السني.

(2) J.Leigh Doouglas, **The Free Yemeni Movement** 1962-1935 (Beirut: American University of Beirut Press, 1987), 7.

من الإسلام السني وأتباع الإمام الخامس في الإسلام الشيعي، وفي اليمن، يستحيل التمييز تقريبًا بينهم وبين جيرانهم السنة في الأراضي المنخفضة، عدا في أن الزيديين يضيفون سطرًا إلى الأذان ويضعون أيديهم بشكل مختلف أثناء الصلاة[1]، وكانت المجموعتان تتزوجان من بعضهما بعضًا، وتصليان في جوامع بعضهما بعضًا، ومن ثم جاءت الثورة والحرب الأهلية التي أطاحت بالأئمة في صنعاء ودمرت الدولة الزيدية.

لما انتهت الحرب الأهلية ذات الثمانية أعوام في 1970، تغيرت اليمن، إذ اجتثت الإمامة الزيدية لصالح جمهورية، فصار لليمن بدلًا من الإمام رئيس، بينما طبقة حاكمة من الأسياد، أو المتحدرين من النبي، الذين كانوا على مدى أكثر من ألف عام الوحيدين الذين يصح وصولهم إلى المنصب الأعلى في الدولة، وجدوا نفسهم فجأةً بلا سلطة، وكان هذا وقتًا مربكًا لعائلات الأسياد مثل الحوثيين، فقد جاء عبد الله السلال، أول رئيس للجمهورية، من عائلة لحامين من طبقة فقيرة، فبات رجلٌ يعتبره الحوثيون دونهم يرأس الآن الدولة.

استغل أعداء الزيديين السياسيون والدينيون سقوطهم فأرسل المبشرون الوهابيون، الذين يعتبرون الزيديين كفرة، المال من السعودية إلى المدرسين في الجنوب، فبنوا المدارس ومولوا المعاهد الدينية في ما كانوا يرونه منطقة صالحة للتبشير بالدين، وفي 1979، عاد إلى المملكة مقبل الوادعي، وهو رجل قبلي زيدي سخر منه الأسياد مثلما سخروا من الحوثيين يومًا ما بسبب خلفيته ذات البيئة المتواضعة، ولقد أغرى خطاب الوادعي بالمساواة والإسلام السني مئات الشباب اليافعين الكارهين للتراتبية الاجتماعية العتيقة التي تمنعهم من الزواج من طبقة الأسياد.

مثل الجهاديين الذين دمروا المقابر في أعقاب حرب 1994 الأهلية، خصَّ الوادعي، الذي كان متأثرًا بالفقه الوهابي نفسه، أضرحة الزيديين الشبيهة بالمقامات بأنها خطيئة فاضحة تقود الناس إلى عبادة البشر دون الله، فوضع الزيديون حراسًا مسلحين حول مقابرهم، ولكن أتباع الوادعي اليافعين تمكنوا على الرغم من ذلك من إيجاد طرق للتسلل إلى الداخل وتحطيم أحجار القبور، وكانت صعدة أيضًا أحد أول الأماكن التي أنشأت فيها القاعدة معسكرات للتدريب في أوائل التسعينيات، وهي أيضًا المكان الذي اشترت منه المتفجرات المستخدمة

(1) Dresch, A History of Modern Yemen, 15:.

في عمليتي تفجير المدمرة يو إس إس كول، وناقلة النفط ليمبورغ، ووجدت العائلات المشابهة للحوثيين أنفسها هدفًا لتحالف ثنائي المحاور مصرٍ على تدميرها.

كان الرجال الذين خاطبهم حسين الحوثي في الساحة ذلك اليوم يعرفون التاريخ، فقد عاشوه، وذكرهم الحوثي بوعود صالح المنكوثة ببناء المستشفيات وتوسيع الشبكة الكهربائية نحو صعدة؛ فالزيديون مستهدفون بسبب دينهم.

في أوائل 2003، بعد عام من تنظيم حسين الحوثي للمظاهرة الأولى، مرَّ صالح عبر صعدة في طريقه إلى السعودية، ولمَّا توقف لأداء الصلاة، رحب به رجال الحوثيين بالمزيد من هتافاتهم[1]، وضمن صيحات النصر على أميركا واليهود سمع صالح نقدًا مشفَّرًا لحكمه، فكان الرئيس يعرف حسين الحوثي شخصيًا من الوقت الذي كان فيه هذا القائد الزيدي عضوًا في البرلمان في منتصف التسعينيات، حتى إن صالح دعم رسالة ماجستير الحوثي في السودان بعد رفضه الترشح مرة ثانية عام 1997، وكان هذا الدعم جزءًا مما يدعوه صالح رقصة الأفعى، ففي ذلك الوقت كان صالح يقوي الزيديين على حساب منافسيهم الإسلامويين، وفي الواقع، لم يعد الحوثي إلى وطنه في صعدة في عام 2000 إلا عندما تغيرت حسابات صالح، وسقط الزيديون مرة أخرى من حظوته، ووصل الدعم المالي الرئاسي إلى نهايته.

استطاعت خطابات الحوثي البليغة والدينية بعمق أن تجد لها مكانًا في تيار الاستياء في اليمن، ودفعت حكومة فاسدة بشكل ضخم، ترفع أسعار الطعام، ومعدل البطالة العالي، بالناس إلى التحرك، ليس فقط في صعدة، ففي كل يوم جمعة وبعد الصلاة، صار النشطاء الزيديون يهتفون خارج الجامع الكبير في صنعاء مستلهمين من الحوثي وأتباعه، وأصبح جامع صنعاء الأقدم المدكوك عميقًا في المدينة القديمة، والذي بناه أحد صحابة النبي، رمزًا للمقاومة، وبحلول حزيران/ يونيو 2004، كانت قوات الأمن قد اعتقلت 800 محتجًا في صنعاء وحدها[2]، وباتت الحركة تنتشر بسرعة، وعلى مدى المدن الجبلية في شمال اليمن – عبر الجوف وعمران وحجة – بات الرجال يرددون الهتافات.

---

(1) «President's speech in his meeting with some Zaydi ulama» (Arabic), 26th of September, July 3, 2004. Reprinted in Adal al-Ahmadi, The Flower and the Stone: The Shi'a Rebellion in Yemen (Arabic) (Sanaa: Markaz 'Ubadi, 2004), 259.

(2) «Interviews with Hasan Zayd» (Arabic), **Elaph**, October 2. 2009.

الفصل الثاني

ثورة في الشمال
2004 - 2005

بعد وقت قصير من ظهيرة يوم الجمعة 18 حزيران/ يونيو 2004، تدفق عشرات من الرجال عبر الأبواب الخشبية العريضة للمسجد الكبير في وسط مدينة صنعاء، وخلال دقائق ترددت أصداء الصيحات التي باتت الآن مألوفة عبر أزقة المدينة القديمة الضيقة: «الله أكبر! الموت لأميركا! الموت لإسرائيل! اللعنة على اليهود! النصر للإسلام!»، ولكن هذه المرة كان رجال صالح مستعدين، فأجبر ضباط الأمن باللباس المدني وعشرات رجال الشرطة في البذات الموحدة المتظاهرين على التراجع بالهراوات والعصي واعتقلوا عددًا منهم.

على بعد 150 ميلًا إلى الشمال، في مدينة صعدة القديمة المبنية بلبن الطين كان أتباع حسين الحوثي قائمين على حملتهم الخاصة، فاستولوا على جامع حكومي، وطردوا شيخه الذي يقبض مرتبًا من الحكومة ودفعوا بخادمه إلى الشارع(1)، وأعلنوا عبر مكبرات المسجد أنْ لن تذاع أكاذيب الحكومة من هذا المكان بعد اليوم.

راقب صالح التقارير على مدى ما بعد الظهيرة، ولكن بات من الواضح أن الاشتباكات الأسبوعية وصلت نقطة الأزمة، فتوجه الرئيس اليمني مرة أخرى نحو صديق طفولته علي محسن الأحمر للمساعدة، فالرجل ذو الفرقة في أسنانه كان أساسيًا في هزيمة الاشتراكيين الجنوبيين في الحرب الأهلية قبل عقد، والآن يحتاج إليه صالح في الشمال.

(1) Rashad al-Alimi, «Report from the minister of the Interior to Parliament» (Arabic), 26th of September, July 3, 2004. Reprinted in al-Ahmadi, The Flower and the Stone, 267.

خرج جنود الفرقة الأولى مدرع، من قاعدتهم في صعدة متوجهين نحو منزل الحوثي على بعد قرابة ثلاثين ميلًا، وأدت الغارة العسكرية المفاجئة إلى ردة فعل مباشرة، ففتح رجال الحوثي القبليون، الذين كانوا مبعثرين في الجبال فوق الطريق، النار على الجيش، فردَّ الجنود على النار[1]، وعلى بعد مئات الأميال إلى شمال القتال، جلس الشيخ عبد الله الأحمر، وهو قائد قبلي ذو سلطة في مشفى في الرياض حيث كان يتعالج من السرطان، يستمع إلى تقارير الوضع في أثناء تكشفها[2]، وخاف الشيخ من تطور حرب على بعد أميال لا أكثر من بيته في عمران، فطلب الشيخ من صالح أن يمنح الحوثي مهلة: أعطه فرصة ليسافر إلى صنعاء ويسلم نفسه، توسل الشيخ، فوافق صالح على مضض وقال: أربع وعشرون ساعة لا أكثر[3].

ولكن الوقت الذي حدده صالح مر، وحاول الجنرال يحيى العمري، محافظ صعدة الذي عينه الجيش، الوصول إلى مزرعة الحوثي مرتين، ولكنه في كل مرة أعاده رجال يحملون الأسلحة، وفي المرة الثانية في 20 حزيران/ يونيو سافر المحافظ مع عدد ضخم من الجنود، واندلع إطلاق النار عندما رفض أتباع الحوثي المسلحون جيدًا مرة أخرى أن يسمحوا للجنود بالمرور[4]، وكان إطلاق النار غير المحسوم هذا في سفوح اليمن المنبسطة هو المعركة الافتتاحية لثورة دامت ثمانية أعوام، سوف تدفع بالبلاد إلى حافة الإفلاس وتشتتها عن حربها ضد القاعدة، لقد بدأت حروب الحوثيين.

بعد أسبوع من بداية القتال وبعد أن قطعت خطوط الهاتف عن مزرعة حسين الحوثي، جلس الحوثي يكتب رسالة إلى الرئيس، فيعترف بأنه مرتبك، ما هو سبب غضب صالح منه إلى هذه الدرجة؟: «أنا واثق أنني لم أفعل شيئًا يقود إلى مثل هذا الشعور، أنا لا أعمل ضدك»، خربش في خطوط مائلة مزدحمة، «أنا إلى جانبك، فلا تستمع إلى المنافقين والمؤججين وثق بأنني أَصْدَقُ معك منهم»، كذلك ختم

(1) المصدر السابق.

(2) على الرغم من أن كلًّا من الشيخ عبد الله الأحمر وعلي محسن الأحمر ينتميان إلى قبيلة حاشد، ألّا أنهما غير مرتبطين دمويًا.

(3) «Interview with Hasan Zayd».

(4) Iris Glosemeyer, «Local Conflict, Global Spin: An Uprising in the Yemeni Highlands» translated by Do Reneau, **Middle East Report**, Fall 2004, 44-46.

الحوثي رسالته ذات الصفحة الواحدة بتفاؤل، فقد كان لا يزال يؤمن بأنهما يستطيعان حل الخلافات: «عندما نلتقي إن شاء الله سوف أتحدث إليك في مسائل ذات أهمية شديدة لك»[1].

رفض صالح الذي ما زال ملدوغًا من تحديات الحوثي العلنية، التواصل المباشر مع قائد الثوار ذي الثمانية والأربعين عامًا، وبدلًا من ذلك، أرسل فريق تواسط شمالًا نحو الجبال، وكان من بين المفاوضين أخو الحوثي الصغير يحيى الذي كان عضوًا في البرلمان ممثلًا حزب صالح الحاكم، وأيضًا أبوهما ذو الثمانية والسبعين عامًا الصغير والهزيل. تحكم بابنك، قال صالح لأب عائلة الحوثي، مهددًا إياه على نحو مخفي، وحاولت العائلة، ولكنهم في كل مرة يهندسون وقفًا لإطلاق النار، يستخدم علي محسن فريق التفاوض غطاءًا لهجوم على مواقع الثوار برشاشات الحوامات[2].

فوق أعالي الجبال المقفرة، حلقت النفاثات العسكرية من صنعاء لتنفذ غارات ضد مواقع الحوثي المشتبهة، وقدرت الحكومة أن للحوثي 3000 مؤيد من ضمن تعداد سكان يبلغ 700000 مبعثرين في المزارع والبيوت على مدى مساحة تقارب نيوجرسي، ولكن الرياضيات البحتة مضللة في هذه الحالة، فجغرافيا اليمن الوعرة، ذات القمم التي ترتفع ميلًا ونصف فوق مستوى البحر، تعمل كقوة مضاعفة، بينما الكهوف العميقة الواسعة توفر ملجأً من القصف الجوي، ووصف وزير الخارجية أبو بكر القربي المنطقة بأنها «تورا بورا اليمن»[3].

وعقَّد القصف غير الدقيق من المشكلة، فحرثت قنابل القوات الجوية مزارع الفلاحين مدمرة عامًا من الزراعة والاستثمار ورامية عائلات كاملة في الديَّن، وبعيدًا عن المزارع، انتقلت القوات الأمنية التي كانت تلاحق القاعدة في آخر عامين ونصف إلى قتال الحوثيين، وأحضروا معهم تكتيكات الاعتقال الجماعي ومصادرة الأملاك ذاتها إلى الحرب الجديدة، فاعتقل آباء المقاتلين العجائز وإخوتهم الصغار وحفنة من أولاد عمومتهم في أثناء تفتيش البيوت في صعدة، وكان الزيديون، مثل الجهاديين، مذنبين حتى تثبت براءتهم، وكانت الحكومة تتحكم بمعظم المناطق المدنية في صعدة، ولكن يلزمها لهزيمة الحوثيين أن

(1) Muhammad bin Salam, «Al-Huthi Appeals» **Yemen Times**, June 28, 2004.

(2) Muhammad bin Salam, «Interview with Yahya al-Huthi» **Yemen Times**, June 20, 2005.

(3) Lutfi Shatarah, «al-Qirbi: Our battle with al-Huthi resembles the battle of Tora Bora» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, September 30, 2004.

تحيّد الريف، وأثبت العمل انتقالًا من قرية إلى قرية أنه شائك وبطيء وهدام، فعقوبات الجيش الجماعية دفعت بالمئات من أفراد القبائل الحياديين إلى معسكر الحوثيين.

في أوائل تموز/ يوليو 2004، طلب صالح من حمود الهتار، القاضي الذي كان يعمل على إعادة تأهيل سجناء القاعدة، أن يعدل برنامجه ليتعامل مع مقاتلي الحوثيين الذين أمسكت الحكومة بهم.

لا يمكن فعل ذلك، أخبره الهتار بعد أسبوعين من الجلسات: «الفرق بين القاعدة والحوثيين» شرح للرئيس «أن القاعدة تتبع الكتاب، يعني هذا أنك عندما تظهر لمقاتل القاعدة شيئًا من القرآن يناقض ما قيل له، يصدقك». والأمر مختلف مع المقاتل الحوثي، أكمل الهتار، «فهو يتبع رجلًا لا كتابًا، ومحاربة هذا أصعب بكثير»[1].

بعد أسابيع، التقى قائد الجيش الجنرال محمد علي القاسمي، عددًا من الصحفيين في صعدة، ليقدم لهم بعض الأخبار الجيدة، فأعلن: «لقد أصبحنا في مرحلة التنظيف»[2]، ويجب أن تنتهي الحرب خلال أربع وعشرين ساعة.

على مدى الصيف، وبينما استمرت جهود التواسط وإعادة التأهيل بالتعثر، أغلق الجيش المنطقة بالجنود، دافعًا مؤيدي الحوثي عميقًا نحو الجبال، وكان القصف الثقيل قد دمر معظم المنطقة، واقترحت التقديرات الأولية أن سنينًا سوف تمر قبل أن تشفى صعدة، وفي 5 آب/ أغسطس، كان الجيش قد قتل أكثر من 140 مؤيدًا للحوثي في معركة ضارية، «لقد انتهى كل هذا الآن»، أعلن القاسمي بفخر، «التمرد ضعيف ومحدود»[3].

شرح الجنرال، الذي كان مثل الكثيرين في الرتب العليا من الجيش عضوًا من قبيلة صالح سنحان، أن مقاتلي الحوثي باتوا محصورين في قطاعين يبعدان عن بعضهما بعضًا قرابة ثلاثين ميلًا، وإلى الغرب من عاصمة المحافظة، استمر حسين الحوثي وعشرات من الرجال صامدين، بينما يقود المجموعة الثانية، إلى الشمال من المدينة مساعده عبد الله الرزامي - وهو عضو سابق آخر في البرلمان - وسوف يحسم الصراع في هاتين المواجهتين الأخيرتين، كما توقع القاسمي بجرأة.

(1) مقابلة الكاتب مع Hamud Abd al-Hamid al-Hitar, July 16, 2004.

(2) Husayn al-Jarabani, «Yemeni chief of staff: We are entering the finale battle with al-Huthi» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, August 8, 2004.

(3) المصدر السابق.

ولكن المتمردين لم يستسلموا، فهم يدافعون عن ذات الجبال التي لعبوا فيها أطفالًا، فخلال النهار تحارب القوات الحكومية، مدعومة من ميليشيات القبائل التي رأت في الأمر فرصة لإضعاف منافسيهم من أتباع الحوثي، فتتقدم نحو الجبال، ولكن سرعان ما تجبر على التقهقر في الليل، فالحوثيون محاربو عصابات بالفطرة، وأوقع أسلوبهم في الضرب والهرب خسائر في آليات اليمن العسكرية الثقيلة والدبابات البطيئة.

بعد يومين من توقّع مؤتمر القاسمي الصحفي، نصبت مجموعة من مقاتلي الحوثيين كمينًا لدورية عسكرية وقتلت عشرات الجنود، وكان من بين القتلى عبد العليم الهتار، وهو كولونيل في الجيش ذو خمسة وثلاثين عامًا وشقيق حمود الهتار الأصغر[1]، فردت نفاثات القوات الجوية ثائرة، وزادت من غاراتها على صنعاء، ولكن الطيارين لا يزالون يعملون دون الكثير من الاستخبارات المفيدة، فكل ما يستطيعونه رمي المزيد من القنابل والأمل في أن بعضًا منها سوف يصيب الأهداف الصحيحة.

وعلى نحو مثير للعجب، أصابت إحداها هدفها في الجبال الوعرة والأميال الواسعة من المنطقة، فدمرت غارة محظوظة نظام مياه معقد بناه الحوثي في مخبئه في كهف إلى الغرب من مدينة صعدة، فحاصرت الحوثي في الداخل مجموعات الجنود ورجال القبائل المتجولين الذين يجتاحون الجبال بحثًا عن مكافئة الـ 55000 دولار، وجلس الحوثي وبعض أفراد عائلته ينتظرون في الظلام.

في العاشر من أيلول/ سبتمبر، بعد ثلاثة أيام من نفاد المياه، أرسل الحوثي اثنتين من زوجاته، وإحداهن ترضع، إلى خارج الكهف ونحو نور النهار في محاولة لكسب الوقت[2]، وكانت المرأتان تلبسان الأسمال وملطختين بالتراب بعد أيام في الظلام، فبدتا كلاجئتين، وحدد الجنود الحكوميون موقعهما بسرعة وأمروا الحوثي بالخروج رافعًا يديه، فردَّ صارخًا: «أريد الحديث مع الرئيس، لن أستسلم إلا له».

هذا الطلب الأول الذي طلبه منذ اندلاع القتال، ومع ذلك لا يمكن تحقيقه، وبدأ الرجل المرهق يمشي ببطء نحو مدخل الكهف، وفي أثناء وصوله إلى النور ظن أحد الجنود أنه

(1) Husayn al-Jarabani, «Yemen: tens killed, among them a brigade commander in an ambush prepared by supporters of al-Huthi» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, August 24, 2004.

(2) Abd al-Rahman al-Mujahid, **The Shi'aization of Sa'dah**, Vol. II: The Thought of the Believing Youth in Balance (Arabic) (Sanaa: 2007), 129-131.

رآه يمد يده نحو جيبه، ففتح النار وأصابه عدة إصابات في الصدر، فتهاوى الجسد المتسخ نحو الخلف إلى فم الكهف، ومات الحوثي بعد دقائق من ذلك غير قادر على قول كلمة أخرى بينما يتحول التراب حوله إلى طين.

لا نعرف فيمَ كان يفكر؟ كذلك اعترف أحد الجنود الذين كانوا موجودين لاحقًا: «لا نعرف إذا كان الحوثي يريد الهجوم فعلًا أم أنه أراد أن يستسلم؟»، وعندما فتش الجنود جثته وجدوا مسدسًا في جيبه.

أوقعت شهور حروب العصابات في الشمال خسائر كبيرة بالجيش اليمني، فقدَّر الجيش خساراته بـ 473 قتيلًا و2588 جريحًا، على الرغم من أن التقديرات المستقلة تضع أرقامًا أكبر بكثير. ووصلت خسارة المعدات والأسلحة وحدها إلى ملايين الدولارات، ويقدر أن الحوثيين كانوا الأسوأ حظًا في هذه الحرب، ولكن الثمن في الجانبين يضمحلُّ أمام القتلى المدنيين والضرر الاقتصادي الذين سببتهما ثلاثة شهور من الحرب، لقد بات اقتصاد اليمن، الذي لم يكن في يوم من الأيام آمنًا، في مشكلة حقيقية الآن.

في أوائل أيلول/ سبتمبر، بعد وقت قصير من مقتل الحوثي، وصل مساعد وزير الخارجية الأميركي لينكولن بلومفيلد الابن إلى صنعاء لالتقاء صالح وقادة عسكريين آخرين رفيعي المستوى، وكانت الولايات المتحدة قلقة من أن صواريخ الأرض جو المعروفة بأنظمة الدفاع الجوي المحمولة أو MANPADS، قد تقع في أيدي القاعدة وتهدد الطيارات المدنية، فبدأت الولايات المتحدة برنامجًا عالميًا لإعادة شرائها، وكانت اليمن تملك 1500 من هذه القطع في المخازن، وثمة تقارير بوجود عشرات أخرى في أيدي تجار السلاح حول البلاد.

بلومفيلد دبلوماسي مميز عمره خمسون عامًا يشبه رونالد ريغان بعض الشيء، لقد كان قلقًا من تسرب في مخازن سلاح اليمن، فالقاعدة قد استخدمت بالفعل إحدى أنظمة الأسلحة (عندما أخطأ فواز الربيعي بالكاد وأخفق في إنزال مروحية شركة هنت أويل قبل عامين مضيا) وعلى الرغم من أن معظم المنظمة في السجن، أراد بلومفيلد أن يتجنب تكرار أداء مشابه، فأخبر صالح أن الولايات المتحدة سوف تشتري كل ما تملكه اليمن من الـ MANPADS.

وكان صالح قلقًا أيضًا من صواريخ الأرض جو، ولكنهم الحوثيون الذين يبقونه مستيقظًا في الليل، فبالنسبة إلى صالح القاعدة إزعاج بسيط في بلد متأزم، لكن الحوثيين

خطر وجودي، فثورة دموية في أرض الزيديين تستطيع تحدي حكم صالح بطريقة لا تستطيع القاعدة أن تقوم بها أبدًا، والمتمردون قد استخدموا الـ MANPADS محدثين تأثيرات مدمرة خلال حرب الثلاثة شهور، فأسقطوا حوامات وطائرات، لقد كان السماح لهم بوضع أيديهم على أسلحة اشتروها من تجار السلاح في صعدة «خطأ كبيرًا»، كما قال صالح موافقًا بلومفيلد.

«لا تقلق، سوف لن تحوي اليمن مثل هذه الأسلحة بعد اليوم»، أكمل الرئيس «ولكن لكل شيء سعر، فعليكم أن تدفعوا» توقف مفكرًا في الرقم «مليون دولار لكل قطعة»[1].

بعد بضع لحظات من الصمت الغريب ضحك صالح، واستدار المترجم اليمني نحو بلومفيلد وهمس بتوتر: «أشعر أنه من واجبي التأكد من أنك تفهم أن هذه نكتة»، فهز بلومفيلد رأسه متفهمًا، ولكنه لم يستطع إلا أن يتساءل كم هو الرقم الذي سوف يجعله الرئيس الضاحك يدفعه من أجل السلاح الذي يكلف ألفي دولار؟

إن المبلغ الذي سوف تدفعه الولايات المتحدة، عاد يكرر لصالح، هو «ثابت ولكنه فوق ما نعتقد أنه سعر السوق بمبلغ جيد».

لم يكن صالح الوحيد الذي يريد المزيد من الولايات المتحدة، ففي اليوم السابق، أعطى بلومفيلد قائد الجيش محمد القاسمي اتفاق ترخيص لطائرة النقل الثقيلة سي - 130، والتي ستسمح للولايات المتحدة بالقيام بإصلاحات، «هذه القطع المعدودة لطائرة النقل تمثل الخطوة الأكبر في تعاوننا العسكري - العسكري منذ سنوات»، لاحظ الجنرال ساخرًا وهو يوقع الوثيقة.

كانت اليمن تتوقع أكثر بكثير مقابل هزيمة القاعدة، فصالح يريد الدبابات والنفاثات، ليس قطع الغيار، «نحتاج إلى طيارات الإف - 5 في صعدة»، تذمر صالح، فالحوثيون يهربون في الشمال، ولكن صالح يعرف أن الحرب بعيدة عن نهايتها.

بعد موت الحوثي، تحول القتال في الشمال إلى وقف إطلاق نار حذر بينما تنسحب قوات الحكومة نحو المدن، تاركة مقاتلين مسلحين ليتحكموا في بعض القطاعات. ولخوفه من استفزاز المزيد من الصدامات وجولة محتملة أخرى من القتال، بقي الجيش

(1) «President Saleh to A/S Bloomfield, ‹No New MANPADS›», US diplomatic cable, September 2, 2004. Released **via Wikileaks**.

في قواعده وترك الحوثيين وشأنهم، وكانت الحكومة لا تزال تملك مئات المساجين حول البلاد واعتقد صالح أنه يستطيع مبادلتهم مقابل إيقاف إطلاق نار دائم.

في كانون الثاني/ يناير 2005، نزل بدر الدين الحوثي، أب العائلة العجوز ذو الثمانية والسبعين عامًا، من الجبال ليشرف على مفاوضات ما بعد الحرب، فبعد أن مات ابنه، عادت المسؤولية على بدر الدين العجوز والمريض لحماية الرجال الذين حاربوا من أجل عائلته، وبدر الدين أقصر من معظم اليمنيين، فرجل الدين المنحني إلى الأمام ذو اللحية البيضاء العنيدة لم يكن خيارًا جيدًا كمفاوض، وكونه عالم دين وذو صبر قليل، فقد كان غير مرتاح بين السياسيين الحديثين ومجاملاتهم الدبلوماسية.

أحضر بدر الدين معه زوجاته ومعظم عائلته إلى صنعاء، وانتقل القوم كلهم إلى شقة ابنه يحيى الضيقة التي كان يملكها في العاصمة، وما كان يحيى يستخدم هذه الشقة المهلهلة والحاوية على تسريبات إلا كإقامة مؤقتة عندما ينعقد البرلمان، فيقضي هناك بضع ليال كل مرة قبل أن يعود إلى بيته، ولما استطالت الأيام إلى أسابيع ولم ينعقد اجتماع مع الرئيس، توترت الأعصاب في المساحة المحتشدة، فتذمرت نساء الحوثي، اللاتي كثيرًا ما كن مقسمات بغيرة بين بعضهن بعضًا، من التبلل عند نزول المطر وهمهمن بأن الحياة تحت ضفة نهر أفضل، فالشقة الصغيرة بعيدة عن بيوتهن الشبيهة بالقصور التي اعتادوا عليها في صعدة[1].

لكن العائلة عالقة، ولخوف الناس من نقمة الحكومة وعدم تأكدهم مما هو مقبول، لم يجرؤ أحد في صنعاء على تأجير الحوثي، وفي النهاية أشفق عالم زيدي زميل لبدر الدين، كان قد أعلن معارضته لموقف حسين الحوثي السياسي، على العائلة، وعرض عليهم أن يسكنوا أحد منازله في المدينة[2]، وعندما سمع صالح بوضع بدر الدين المعيشي السيء، تحسس فرصة، فقال لأحد مساعديه: اعرضوا عليه بيتًا في صنعاء، شيئًا يكون كبيرًا بحيث يكفي كل نسائه.[3]

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي حاولت الحكومة فيها أن ترشي كبير عائلة الحوثي،

(1) Muhammad al-Khamari, «Interview with Yahya Ali al-Imad» (Arabic), **al-Wasat**, August 11, 2005.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

ففي 1979، في أثناء الحملات الجارية بين الزيديين ومقبل الوادعي في صعدة، كتب بدر الدين كتابًا يسخر فيه من كبير مفتيي المملكة العربية السعودية، عبد العزيز بن باز، ورجل الدين الأعمى هذا، الذي أشرف كمعلم على أسامة بن لادن، أخذ الهجوم بشكل شخصي وأمر بقتل منافسه.

غادر بدر الدين اليمن هربًا من (القتلة السعوديين) في منفى متنقل مدَّةَ سنوات قبل أن ينتهي أخيرًا في إيران[1]، حاول رجال الدين الإيرانيون، الخارجون توًا من الثورة الإسلامية، أن يحولوا اليمني من الشيعة «الخمسية» إلى الشيعة «الاثني عشرية» التي يعتنقونها، فرفض بدر الدين عرض آيات الله عليه «بيتًا جميلًا»، فقد كان كما دعاه أحد أصدقائه الزيديين «غير قابل للإفساد»[2]، أخبر بدر الدين الإيرانيين أن له عقيدته الخاصة، ونقل في 2005 وسيط صالح الرسالة نفسها:[3] بدر الدين لا يريد منزلًا، بل يريد الاجتماع مع الرئيس واستعادة جثة ابنه.

وليأسه المتزايد من التطور البطيء الذي كان يحرزه في صنعاء، فقد بدر الدين أعصابه، وفي أوائل آذار مارس، تحدث في مقابلة نادرة مع صحيفة في صنعاء، ولما سئل عن وضع المفاوضات من أجل السجناء وإذا ما كان قد التقى الرئيس قطع الحوثي السؤال قائلًا: «لم التقه»[4].

«أبدًا؟» سأله محاوره.

كحال ابنه قبله، لم يحصل بدر الدين على اللقاء، وكانت المقابلة محاولته الأخيرة، ولكنه غادر صنعاء عائدًا إلى وطنه قبل أن تنشر حتى.

في **19 آذار/ مارس 2005**، في اليوم نفسه الذي نشرت فيه مقابلة بدر الدين، بدأت الحرب الحوثية الثانية، وبدأ القتال خارج مدينة صعدة مباشرة في سوق الأسلحة الجامح سوق الطلح، حيث اشترت القاعدة الذخائر المستخدمة لهجومي المدمرة كول وناقلة النفط ليمبورغ، وفي منتصف أحد الطرق ذات القمامة المتناثرة، تجمعت عصبة من رجال القبائل أمام كوخ صغير يساومون بعض الجنود على بيع بعض الأسلحة، والأخذ

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

(4) Jamal al-Amr, «Interview with Badr al-Din al-Huthi» (Arabic), **al-Wasat**, March 19, 2005.

والرد في مثل هذه الصفقات العارضة أمر شائع في سوق الأسلحة، حيث كثيرًا ما يفرِّغ الجنود معدات حكومية ليبيعوها بالمال، ومن ثم يدعون أنهم أضاعوها أو أنها سرقت، وبشكل ما، ساءت الصفقة فصار الجدال قاتلًا، ففتح أحد الجنود النار قاتلًا اثنين من القبليين، الذين صادف أنهما من مؤيدي الحوثي، وهرب الجنود من السوق جارين رفيقهم المجروح خلفهم[1].

أعيد رسم خطوط المعركة بسرعة حول المحافظة، فالكثير من المناطق الريفية التي أهملتها الحكومة من أجل التهدئة في الشهور التي أعقبت موت الحوثي عادت لتحمل السلاح ضدها، وفي أول نيسان/ أبريل، قام الرئيس صالح بمحاولة نصف جادة لتهدئة الوضع[2]، معلنًا فرصة جديدة للحوثيين لتسليم أنفسهم، ولكن سياسة صالح بالرقص على حافة الهاوية، والتي خدمته جيدًا جدًا في ثلاثة عقود من الحكم تقريبًا، بدأت بالتراجع، ففي صنعاء، خمن الناس أن صالحًا إما يريد الحرب أو أنه خسر لمسته، ولكن صالح كان مرتبكًا كالجميع، فما كانت عنده أي فكرة عما يريده الحوثيون أو كيف يحملهم على وقف القتال، فقال منزعجًا أمام المسؤولين السياسيين في السفارة الأميركية: «إنهم محاصرون ولكنهم يستمرون بالقتال مثل الحمير»[3].

في وقت مبكر من 8 نيسان/ أبريل، تسلل قناصو الحوثيين عبر نقاط التفتيش العسكرية نحو صعدة، وأخذ الهجوم المنسق على نحو جيد الجيش على حين غرَّة،[4] ولقناعته بضرورة تجنب حرب مدنية، أمر الجنرال علي محسن بدعم إلى قلب المدينة القديمة المتشابكة في صعدة، وتطلب الأمر من الجيش يومين لتمشيط متاهة الأزقة الضيقة والشوارع المغبرة، فانتقل الشبان المتعبون والمتعرقون من بناء إلى بناء، مادين رؤوسهم في ظلام الغرف بحثًا عن القناصين. وفي 10 نيسان/ أبريل، أتمَّ الجنود المنهكون التمشيط

(1) Husayn al-Jarabani, «Yemen: two commanders from the shabab al-Muminin were killed and four wounded in a clash with security forces in Sadah» (Arabic), **al-Aharq al-Awsat**, March 20, 2005.

(2) Husayn al-Jarabani, «Yemen: delay for supporters of al-Huthi the elder to surrender themselves» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, April 3. 2005.

(3) «Saleh Discusses Security Concerns with Ambassador,» US diplomatic cable, April 10, 2005. Released **via Wikileakes**.

(4) «Yemen: al-Huthi's supporters enter into street war with security forces in Sadah» (Arabic). **al-Sharq al Awsat**, April 9, 2005.

وباتوا مستعدين للرد، فنزل جنود موالون لعلي محسن باتجاه قطاع بدر الدين المحلي خارج المدينة، ولكن رجل الدين العجوز لم يكن في المنزل، فقد هرب قبل وصولهم إلى قرية صغيرة على الحدود السعودية[1]، وسوف تكون هذه آخر مرة يرى فيها أي أحد غير الحوثيين رجل الدين الضعيف والمريض، ولعدم قدرتهم على تحقيق انتقامهم من الرجل، دمر الجنود المنزل، وكانت هذه هي الخطة.. ما جاء بعدها لم يكن ضمن الخطة.

لا بد وأن مشاهدة الجدران تتساقط بدت مرضية بشكل غريب للجنود المتعبين بعد الساعات الطويلة من الخوف والقلق التي قضوها يبحثون عن القناصين في الأبنية المظلمة، فعندما سقط بيت الحوثي، استدار الجنود إلى بيت جاره، ومن ثم البيت الذي بعده، وبعد ساعات من التدمير المسعور، كان الجيش اليمني قد خلق أعداءً لم يعادوه من قبل.

بدا الجيش، وهو مصدر سلطة صالح الأساسي، غير منضبط وغير كفؤ، فسارعت الحكومة إلى إعلان نهاية الحرب الثانية في 13 نيسان/ أبريل 2005 خوفًا من الإدراك الشعبي لقلة كفاءته، وتباطأ القتال بينما يعيد كلا الطرفين التجمع، وأبقت حوادث صغيرة - هجوم بقنبلة يدوية في صنعاء في أواخر نيسان/ أبريل ومحاولة اغتيال ضابط في الجيش في أوائل أيار/ مايو - الجيش متأهبًا، ولكن بحلول منتصف أيار/ مايو حل محل المعارك امتناع متوتر.

أمر صالح، سرًا، متوسطين بالتفاوض مع عبد الملك الحوثي، الوريث اليافع لوالده وأخيه الكبير، وتعثرت الحوارات على مدى الصيف دون تقدم حقيقي، فمثل أبيه من قبله، سرعان ما نفد صبر عبد الملك ذو الخمسة والعشرين عامًا من العملية، إذ أن عروضًا قدمت، وتفاصيل نوقشت، ولكن لا اجتماع مع صالح، الذي بدا أنه مصمم على عدم الرضوخ إلى طلب العائلة، وبدون تدخل الرئيس الشخصي، بدت المسألة عالقة في أعراف بيروقراطية غريبة.

في آب/ أغسطس، تحدث عبد الملك علنًا عن المفاوضات، فأخبر الصحيفة نفسها التي تحدث إليها والده قبل خمسة شهور انه سوف يقطع كل المفاوضات مع الحكومة،

(1) Husayn al-Jarabani, «Yemen: al-Huthi the elder escaped» (Arabic), al-**Sharq al-Awsat**, April 12, 2005.

فقال: «إني أفعل هذا، لأن الحكومة تعذب السجناء في صعدة وصنعاء»[1]، وكانت هذه الادعاءات مستحيلة الإثبات، ولكنه بعد شهور من المفاوضات دون ورود أي جديد، لم يكن ثمة شيء يبقى على طاولة المفاوضات من أجله.

الأكثر أهمية من ذلك هو أن حروب الحوثيين خلقت صدعًا في المجتمع اليمني، فبالغ صالح في ردة الفعل، لأنه كان قلقًا من أن الحوثيين يريدون إحياء الإمامة وتحديه على السلطة في الدولة، فبدلًا من أن يستهدف الحوثيين وحدهم، بدأ عملية تهميش عائلات زيدية قوية تشكل دعامة الدولة، وبمرور الوقت، سوف يتحول القتال الذي بدأ في الشمال إلى منافسة بين زيديي اليمن ذوي السلطة، وسنتها الأكثر عددًا، مما سيضعف صالح وجيشه بينما يشجع مجموعات مثل القاعدة.

(1) «al-Huthi announces that he is cutting off his negotiations with the authorities» (Arabic), **al-Wasat**, August 3, 2005

الفصل الثالث

زنازين السجون

2004 - 2005

بعد خمسة عشر شهرًا زجّت منظمة الأمن السياسي بغالب الزيدي في الحبس الانفرادي وعادوا إليه مجددًا، فسحب الحراس في صنعاء الرجل القبلي الذي رفض التعاون مع صالح في القبض على مقاتلي القاعدة من الحفرة ومشوا به صاعدين الدهليز الرطب، لقد بقي على قيد الحياة، ومع أن الشهور التي مرت بلا زيارات، وفي الخوف المستمر، والشكوك الضاغطة في الزنزانة الصغيرة، كلها قد فعلت فعلها فيه، ولكنه لم يستسلم للظلام.

لم يكن الزيدي يعلم إذا ما كان صالح قد سامحه أو أن ضغوط القبيلة قد نفعت أخيرًا، وفي أي حال بات خارج الانفرادي، فساعد الحراس السجين في المشي عبر المجمع، وعيونه ترمش من نور الشمس، إلى السجن الرئيسي.

هذا السجن مبني في ضواحي صنعاء من السبعينيات، وتظهر إلى جانبه الانحدارات الحجرية البيضاء التي تميز حافة المدينة الغربية فتقزمه[1]، وفي مركز المجمع يقع البناء متعدد الطوابق الطويل ذو الشكل الأسطواني والجانبين المسطحين ، وفي داخله يعيش أكثر نزلاء السجن، واحدهم فوق الآخر، فينحشر عشرون رجلًا في حجرات أبعادها خمسة بأربعة أمتار، بحجم غرفة النوم، والأقفاص الرطبة مكان مثالي لاحتواء البكتيريا والأمراض التي تجتاح المبنى قاضية على أعداد كبيرة من السجناء الذين لا يأكلون إلا ما

(1) «Interview with Ghalib al-Zayadi».

ترسله لهم عائلاتهم، وتزيد العناية الطبية السيئة الطين بلة، وتساعد الرشوات أحيانًا في دخول الطبيب عبر الحراس، ولكن أنظمة اليمن القبلية القوية هي وحدها التي تستطيع أن تصنع للسجين فرقًا على المدى الطويل، فكان الحراس يخافون مما يدعوه اليمنيون الثأر، القتل انتقامًا، فيتجنبون رجال القبائل، ويركزون بدلًا من ذلك على الفرائس السهلة، من اليمنيين غير ذوي الصلات والأجانب، هؤلاء هم الرجال الذين يجدون أنفسهم مجرورين عبر غرف الإسمنت الخشن داخل المبنى حيث يحرَّقون بقضبان الكهرباء ويعلقون من أيديهم حتى يغيبوا عن الوعي.

صارع الزيدي النحيل وفاقد التركيز من شهوره تحت الأرض لكي يفهم عالمه الجديد: مئات الرجال غير المستحمين في بدلات السجن يتحركون ويصلّون، وبعد الصمت الخارق الذي اعتاد عليه في الانفرادي باتت الأصوات تجفله، فعادت الحياة إليه أجزاءً: الأكل مع الآخرين، الصلاة جماعة، كل الأشياء التي نسيها خلال الخمسة عشر شهرًا التي قضاها في الظلام، وساعده في ذلك بعض الرجال، فعلى العشاء في أحد الأيام التقى فواز الربيعي قائد القاعدة اليافع المندفع، الذي عرفه إلى الآخرين في السجن، كان الرجال يرون في سجنهم امتحانًا، شيئًا يجب أن يتحملوه، فقالوا له: «سوف نصبح أقوى بسبب هذا».

لم يهدر الربيعي الوقت، فبعد اعتقاله في مأرب في أواخر 2003 بوقت قصير، نُقل إلى سجن الأمن المركزي في صنعاء، وهناك في زنزانته بدأ عملية طويلة لإعادة بناء ما هدمه صالح والولايات المتحدة، وساعده في تجنيد السجناء قاسم الريمي وحمزة القعيطي، وهما صديقاه من أفغانستان وقد أصبحا الآن رفيقي سجن، هؤلاء الثلاثة كلهم قضوا وقتًا تحت إرشاد ابن لادن – أدار القعيطي بيت ضيافة وعمل الريمي مدربًا في معسكر للتدريب – وكانوا يرون أنفسهم قادة القاعدة الطبيعيين في اليمن، ففي أثناء حبسهم في سجن اليمن الأسوأ سمعة، بدأ الثلاثة مجددًا، فتحولت نثرات الحديث في الدهاليز إلى همسات في أواخر الليل في زنازينهم، ونظموا حلقات دراسة سرية وأشرفوا على عدد متزايد من المتطوعين، يعلمونهم كيف يستخدمون القرآن مرشدًا في السياسة الحديثة.

وجدت رسالة القاعدة صدى داخل السجن مع المساجين الذين لم تقدم لهم التهم من قبل قط، فكان الريمي يخطب في الزنزانة كل يوم جمعة، مندِّدًا بغضب بقلة العدل وما يدعوه «التحالف الصهيو – صليبي»، فقال مخاطبًا المحتشدين حوله: هم من وضعونا هنا، اليهود وعملاؤهم، وبدا أن الاتهامات تطير من لحية الشاب ذي الستة والعشرين عامًا

السوداء، وكان يضع جورج دبليو بوش وعلي عبد الله صالح في المعسكر نفسه، وإن كان ثمة فرق، فالرئيس اليمني أسوأ، فهو يدعي أنه مسلم بينما هو في الحقيقة مع الأميركيين، من وضعنا هنا؟ تساءل الريمي في همسة محتقنة، أي جريمة ارتكبنا؟

تحدث الريمي عن أفغانستان وعن وقته في الخطوط الأمامية، معيدًا النقاش دومًا إلى الله والنبي، فيقول أن الدراسة القرآنية تقود إلى الجهاد، وقبل أن يغادر الريمي إلى أفغانستان في أواخر التسعينيات حفظ كامل سور القرآن المئة وأربع عشرة، وبات الآن يشجع الآخرين على فعل الشيء نفسه، وكان السجين المربوع يجسُّ أبعدَ من ذلك حتى سائلًا السجناء الأصغر منه عمرًا: هل من الخطأ العمل على فرض شرع الله؟ ما الذي فعلتموه غير أنكم اتبعتم القرآن؟ إذا كنتم مذنبين، فلماذا لا يقدمون لكم التهم؟ فكان الموضوع أكبر من مجرد تفسير، كان الريمي وبقية شبكة القاعدة في السجن يقدمون برنامجًا سياسيًا، طريقةً لتدارك الأخطاء وتشكيل المستقبل، حتى أولئك الذين لم يتفقوا مع رسالتهم احترموا تقاهم، فيقول الزيدي: «كنت أختلف معهم في بعض النقاط»، ولكن «لديهم رغبة مشتعلة بالقتال من أجل دينهم»، ويكمل: إنهم الرجال، رجالٌ كهؤلاء هم «الذين سوف يؤسسون يومًا دولة إسلامية».

كثيرًا ما كان الربيعي والريمي والآخرون يصومون خلال النهار بينما يتمشون ليأخذوا بيد المساجين المرتبكين عبر النقاط الصعبة في العقيدة، وعندما يأكلون، يشركون الضعفاءَ في وجباتهم الضئيلة، ويجدون وقتًا للصلاة مع السجناء، بينما تترابط شبكة القاعدة في السجن أكثر متحولة إلى مجتمع، فيتذكر الزيدي: «لقد وجدتهم رجالًا متواضعين أتقياء، كانوا عقلانيين وحكماء». القعيطي أكبر بعقد من الربيعي والريمي كليهما، فاستلم حمزة دور رجل الدولة الكبير في العمر، فتعامل القعيطي ذو الأربعة والثلاثين عامًا الأصلع مع التذمرات الصغيرة ومنغصات السجن اليومية، ومثل كل أعضاء القاعدة اليمنيين، مثل ابن لادن نفسه، ولد القعيطي في السعودية لأب يمني، وقد شكلت المملكة وعقيدتها المحافظة توجهه المبكر ووضعته على طريق الجهاد وأفغانستان، وفي خليته في صنعاء، استخدم القعيطي الغضب واليأس اللذين وجدهما ليساعد على تشكيل جيل القاعدة المستقبلي من المقاتلين الذين سيخلفونه يومًا ما.

بعد بضعة شهور من وصول الزيدي من الانفرادي، أعاد ثلاثي القاعدة الاتصال بناصر الوحيشي، وهو صديق قديم آخر من أفغانستان، وكان الوحيشي وهو اليمني

اليافع الضئيل الذي جعله ابن لادن سكرتيره الشخصي، قد تغير في السنوات التي أعقبت 9/ 11، فقد كان في أفغانستان ظلَّ ابن لادن، يلحق به في كل مكان، وبات الآن يبدو أهدأ وأكثر ثقة بنفسه، وأخبرهم الوحيشي بطريقته الهادئة في الحديث عن فظائع تورا بورا، فبعد هروبه في كانون الأول/ ديسمبر 2001 توجه جنوبًا وقطع في النهاية الحدود داخلًا إيران حيث اعتقل، وأعطته السنتان في السجون الإيرانية الكثير من الوقت ليفكر في خطة؛ لقد نجحت هجمات 11/ 9 أبعد مما كانت القاعدة تتخيل، ولكن منذ ذلك الوقت وقعت المنظمة في أخطاء أكثر من اللازم، وهذه يجب تصحيحها، كما قال الوحيشي، وكان يملك خطةً.

كانت سنوات الوحيشي الأربع مع ابن لادن دورة تدريبية عملية في بناء المنظمات الإرهابية، فأشاد الوحيشي بجهد الربيعي والآخرين في السجن، وجاء الآن وقت الخطوة التالية، فسهر الرجال ليالي يخططون ويتآمرون، مشرَّحين أخطاء الماضي في اليمن وأفغانستان ومتجادلين في كيفية تجنبها في المستقبل.

خارج السجن، وعلى بعد مئات الأميال في العراق، كانت مقاومة الاجتياح الأميركي تنمو، فكما ذهب اليمنيون إلى أفغانستان في الثمانينيات، توجه جيل جديد من المقاتلين إلى العراق، وبحلول أوائل 2004، انتشرت شبكات التهريب عبر اليمن لتساعد المجندين في السفر شمالًا إلى الأردن وسوريا، حيث يستطيعون التسلل عبر الحدود نحو العراق، وأعلن صالح - تحت ضغط من الولايات المتحدة - قانونًا جديدًا يمنع سفر اليمنيين تحت سن الخامسة والثلاثين إلى الأردن وسوريا دون موافقة مسبقة من الحكومة، وسرعان ما صار رجال صالح يعتقلون المئات من الشباب اليمنيين في المطارات والمعابر الحدودية، ومرة أخرى، ما كان عند الرئيس اليمني الكثير من الخيارات إلا أن يرمي بالمشتبه بهم في السجن، فرمت الأجهزة الأمنية هؤلاء الشباب الغاضبين والمحبطين في زنازين تزداد احتشادًا مسلِّمينَ إياهم إلى قلب شبكة القاعدة الوليدة في السجن دون أن يعلموا.

الوحيشي كان يجلس أمام السجناء الجدد كل يوم، وكثير منهم داخلٌ السجنَ أولَ مرة، يفرد أمامهم رؤية تفسر كل شيء من اجتياح الولايات المتحدة للعراق وحتى اعتقالهم الشخصي، فوجد المتطوعون عزاءً وسلوى في كلمات الوحيشي، وأنصتوا للمحارب المخضرم في القاعدة يخبرهم أنهم جزء من حرب عالمية، فهم الأميركان، كما أسرَّ الوحيشي إليهم، هم وداعموهم اليهود يتحملون اللوم، وكانت هذه نسخته من التحالف

الصهيو - صليبي عند الريمي؛ السبب الأعلى لكل المعاناة في العالم. ومثل الريمي، حفظ الوحيشي القرآن خلال وقته في معهد ديني في جنوب اليمن، وكان يدعم آراءه بآيات منتقاة بعناية، وأثارت إشاراته الاعتيادية إلى حواراته الخاصة مع أسامة بن لادن إعجاب الشباب، وفي السجون حول البلاد، أعاد الجهاديون المخضرمون نسخ شبكة الوحيشي، إذ بينما كان يركز صالح على تمرد الحوثيين في الشمال، والولايات المتحدة تضخ المال والرجال نحو العراق، كانت القاعدة تنمو في الظلال.

كان الرجال الذين وجدهم الوحيشي يحتاجون إلى التوجيه، إذ كانوا متحمسين ولكن غير متعلمين، مخلصين ولكن غير متمرسين، وكان عثمان الصلوي أحد هؤلاء السجناء[1]، وهو شاب في العشرينات ترك مدرسته الثانوية في المنطقة المرتفعة المركزية حول تعز، وقضى وقتًا خلال التسعينيات يدرس في معهد ديني في صنعاء، ولكن بعد حوالى السنتين، خسر اهتمامه وترك دراساته، وعاد إلى المعهد بعد 9/ 11، متجدد الطاقة وممتلئًا بالأسئلة، وعلى مدى العامين التاليين، درس القرآن والفقه الإسلامي تحت إرشاد شيخ محلّي.

في يوم من الأيام، قدمه صديق في المعهد إلى مقاتل عائد من العراق تحدث إليه عن علم الجهاد، فشرح له الرجل في نزهات وهم يتمشون في الأودية الوعرة خارج صنعاء أن الجهاد أكثر من مجرد قتال، بل هو أسلوب حياة، وتفانٍ وتضحية.

انضم الصلوي إلى مجموعة من التلاميذ يحضرون للتوجه إلى العراق، متشاركين القليل الذي يملكونه من المال ليمولوا سفرهم بشكل مشترك حالمين بالعمليات التي سوف يقومون بها ضد قوات الولايات المتحدة، وأحد أعضاء الخلية، وهو رجل اعتبره الصلوي معلمه، كان أول الواصلين إلى العراق وقام بعملية انتحارية ضد القوات الأميركية في بغداد[2]، وفي صنعاء، استمع الرجال إلى أخبار هجومه مبتسمين وصارخين «الله أكبر»، ولكن قبل أن يستطيعوا تهريب أنفسهم خارج البلاد دهمت القوات اليمنية الجامع واعتقلت الخلية كلها.

كان الصلوي في البداية خائب الظن قانطًا، ومن ثم بات يرى في اعتقاله إرادة الله، فالسجن أوصله إلى التواصل مع القاعدة وعلمه الصبر، وأعاد الوحيشي والريبعي خلق

(1) «Uthman Ali Numan al-Sulawi» (Arabic), martyr biography, **Sada al-Malahim** 14 (2010), 67.
(2) «Uthman Ali Numan al-Sulawi» 68.

ما بناه ابن لادن والظواهري بالكتب والحواسيب في أفغانستان، ولكن هذه المرة بالورق والمخيلة في السجن، وحوَّل مخيم التدريب العقلي هذه المواد الخام مثل الصلوي إلى مقاتلين جاهزين.

على بعد قارتين، على الحافة الجنوبية الشرقية من كوبا، في منشأة الاحتجاز الأميركية الأحدث، كانت مجموعة أخرى من محاربي القاعدة المخضرمين تعمل في برنامجها الخاص، وعلى الرغم من أن غوانتنامو أكثر قيودًا من سجون اليمن، فقد وجد المحتجزون فيه طريقة على الرغم من ذلك.

بعد وقت قصير من اكتمال السجن في أوائل 2002، بدأ السجناء أمثال جابر الفيفي، السعودي الأصلع من تورا بورا، بالهبوط في مدرج الطيارات الصغير، وصل الفيفي مقيدًا ومغطى الرأس، وتسد أذنيه سدادات تمنع كل صوت، فلم تكن عنده فكرة عن أين كان[1]، جذبته أذرع خشنة من الطائرة، دافعة إياه إلى الأمام بينما يتعثر محاولًا مجاراتهم، وفي النهاية، دفعته الأذرع حتى يتوقف ودفعته نحو الأسفل، وللمرة الأولى منذ أيام كان ثمة سكون، لا جدران طيارات مهتزة ولا حراس يدفعون، فحرك الفيفي رجليه بهدوء متحسسًا أطراف الإسمنت الخشن عبر بنطاله، كانت هذه نقطة تواصله الوحيدة مع العالم.

اجتذب الحراس المساجين واحدًا واحدًا إلى الوقوف على أرجلهم، وساروا بهم نحو خيمة التحضير لأخذ البصمات، وفي الداخل، أزال أحد الرجال غطاء رأس الفيفي وسماعات أذنيه ووضع ورقًا وأقلامًا على الطاولة أمامه وقال آمرًا: «لم لا تكتب رسالة»، فجلس الفيفي، الذي كان لم يتواصل مع عائلته منذ شهور، وبدأ الكتابة، ولم يكد ينجز الافتتاحية التقليدية: «بسم الله الرحمن الرحيم»، حتى انتزع أحد الحراس الورقة من يده، «كل ما كانوا يريدونه هو عينة من خط يدي»، يتذكر الفيفي.

تطلبت قوانين غوانتنامو بعض الاعتياد عليها، فالسجناء لا يمكن لهم وضع أيديهم خارج البطانيات، والحديث ممنوع، والأكثر إحباطًا لمعظم المحتجزين كان منعُ رفعِ الأذان بصوت عالٍ. رفض الحراس الصامتون كل طلب دون أن ترمش لهم عين، فكانوا لا يتحدثون إلى المحتجزين، كما بدأ البيت الأبيض يدعوهم، «نريد فقط معرفة اتجاه الصلاة» تذمر بعض الرجال بالإنكليزية.

(1) Suhayl, «Influenced by takfiri ideology».

كانت الولايات المتحدة تريد الرجال مرتبكين ومشوشين بقدر الإمكان، وكان المسؤولون الكبار في البنتاغون يوزعون بينهم نسخًا من النص السوسيولوجي الصادر في السبعينيات **العقل العربي**[1].

يجادل الكتاب، بتعميمات شاطحة، أن العرب لا يفهمون إلا القوة، فكل شيء يألفونه أو هو من علائم الحياة العادية، مثل اللحى التي يطيلها معظم الرجال، تجب إزالتها حتى يفقد المحتجزون ملامحهم - كما تأمل السي آي إي - ودفاعاتهم، وغُيِّرت عادات الدخول إلى الحمام وأوقات النوم إلى شكل جديد صادم يدعوه علماء السيكولوجيا «العجز المكتسب»[*]، وهي مصممة لتحطم معنويات المحتجزين وتجعل التحكم بهم واستجوابهم أسهل.

لقد فعلت هذه المعاملات غير المختبرة فعلها بالسجناء، وأكثرها وضعه زوج من المستشارين الخارجيين، جيمس ميتشل وبروس جينسين[2]، اللذين استخدما دليلًا يستخدمه الجيش الأميركي بخصوص النجاة في أثناء التعذيب، وقاما بإعادة تصميمه رجوعًا، وأخذ بعض الرجال يجن ببطء، وهم محبوسون في غرف تقوم فيها محققات إناث برش أجسادهم العارية بمياه متجمدة أو الاعتداء عليهم بأصوات حادة، رافضات تركهم ينامون، وتدهورت أكثر، أوضاعُ آخرين وصلوا إلى غوانتنامو ومعهم مشكلات عقلية سابقة، فأحد اليمنيين مثلًا الذي ادَّعى أنه سافر إلى باكستان بحثًا عن علاج طبي رخيص لحالة من الأذية الدماغية قبل أن يعتقل في صيد الجوائز الذي تلا أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، لم يبد عليه أنه يفهم التهم الموجهة إليه قط، فيخلط بين القاعدة المنظمة الإرهابية، والمدينة ذات نفس الاسم في مرتفعات اليمن.

«أنا من مدينة أردي في اليمن، لست من مدينة القاعدة»[3]، أخبر المحكمة العسكرية

(1) Seymour Hersh, «The Gray Zone: How a Secret Pentagon Program Came to Abu Ghraib» **New Yorker**, May 24, 2004.

(*) Learned helplessness

(2) Scott Shane, «Two US architects of harsh tactics in 9/11>s wake» **New York Times** August 11, 2009.

(3) Allal Ab Aljallil Abd al Rahman, Combatant Status Review Tribunal Transcript, published by the **New York Times**, http://projects.nytimes.com/guantanamo/detainees/156-allal-ab-aljallil-abd-al-rahman/documents/4.

التي أسست لتحديد إذا ما كان قد صُنِّف على نحو صحيح كمقاتل عدو، وأكمل «مدينتي بعيدة جدًا عن القاعدة».

أعاد الضابط شرح تهمه مرة ثانية، شارحًا له عبر مترجم أن القاعدة منظمة وليست مدينة.

«سواء كانت مدينة أم منظمة، أنا لست من القاعدة»، قال السجين المرتبك مكررًا: «أنا من مدينة أُردي».

وكان للفيفي صراعه الخاص، فجلس أمام حلاق غوانتنامو غاضبًا بصمت بينما حلق الأميركي لحيته المجدولة[1]، وفي الجانب الآخر من المعسكر، في غرف مبنية على نحو خاص، كرر قصته لطواقم متغيرة من المحققين، وبعد أربعة شهور، ظهر الطاقم الجديد وبات عليه أن يكرر العملية مجددًا، ولما كادوا ينهون الجولة الأولى من الأسئلة فلت من لسان المترجم أنهم في كوبا، وبدأ الفيفي يتغير ببطء بينما يستقر واقع اعتقاله في عقله. خففت سلطات السجن من منع الكلام السابق، وأخذ المعتقلون المخضرمون يحاضرون من زنازينهم، فتعلوا أصواتهم كل مساء نحو الزنازين المجاورة مهدئة من روع المساجين الوحيدين والمحطمين بعربية مألوفة.

كحال مقاتلي القاعدة في السجون اليمنية، فسر المعتقلون في غوانتنامو احتجازهم بأنه امتحان، فهم في حرب مع الولايات المتحدة، وحكوماتهم في الوطن تخلت عن الشريعة الإسلامية ووقفت إلى جانب الأميركان، حتى إن بعض الدول، مثل السعودية، أرسلت محققين ليساعدوا في تقييم السجناء، وهذا إثبات، كما ناقش العقائديون في السجن، أن هذه حرب على جبهتين: في الوطن والخارج، وبغياب أية وجهات نظر منافسة، وبمواجهة نوبات الضرب الدورية التي تدعوها إدارة بوش «أساليب تحقيق متطورة»، تعلق المعتقلون بالأصوات التي تصدح بين الزنازين، متشربين رسالتهم القاسية غير المساومة على أنها حقيقة.

«كانت هذه المرة الأولى التي أتأثر فيها فعلًا بالفكر التكفيري»، يتذكر الفيفي أوقاته في غوانتنامو مستخدمًا المصطلح المفخخ لطرد الرفاق المسلمين من الرحمة[2]، وهي نفس

(1) Suhayl, «Influenced by takfiri ideology».

(2) المصدر نفسه.

الفكرة التي استخدمها ابن لادن والظواهري لتبرير هجماتهما ضد الزعماء المسلمين، فالتكفير يقول: بأن كل شخص لا يعمل على تثبيت الشرع الإسلامي لا يعتبر مسلمًا حقيقيًا وبالتالي - في عالم مقسوم بين الخير والشر - هو هدف شرعي.

«لم يكن التفكير متطرفًا حقًا في أفغانستان، كنا نقاتل وحسب»[1] يضيف الفيفي، ولكن في غوانتنامو، تقرحت تلك الأفكار، مع تطور اعتقادات الفيفي، تطور كذلك سلوكه، فيلاحظ أحد التقارير الداخلية أنه «يزداد قلّة انضباط وعدائية اتجاه الحرس والطاقم»[2]، وشارك الفيفي دوريًا في اضطرابات في الزنازين، حتى إنه رمى بولًا في وجه أحد الحراس، لقد حوله غوانتنامو من مدمن مخدرات يتعافى إلى جهادي مختمر.

وصل عدد المعتقلين في غوانتنامو، في قمته في 2003، إلى 680 معتقلًا، ومن ضمنهم أخوا فواز الربيعي وقاسم الريمي الأصغران، وبعد عام من ذلك، في أيلول سبتمبر 2004، وصل عبد السلام الحيلة، عميل الأمن السياسي اليمني الذي اختطفته الولايات المتحدة في مصر، بعد سنتين من التجوال في مواقع السي آي إي السوداء حول العالم، واستقبل خليج غوانتنامو أيضًا سعيد الشهري، السعودي ذو الواحد والثلاثين عامًا الذي غادر وطنه إلى أفغانستان بعد وقت قصير من 9/ 11، والشهري تكفيري منذ سنوات، يرى العالم بالأسود والأبيض، ولم يزده غوانتنامو إلا قناعة بصواب طريقه.

لم يسبب الشهري الاضطرابات ولا قاد تمردات، وعلى الرغم من ذلك شكّ المسؤولون بأن الرجل الهادئ ذا الشعر المرقش بالرمادي قد يكون «قائدًا سلبيًا»[3]، فوضعه المقيّمون السعوديون على قائمة المساجين السبعة والثلاثين الأخطر، وكانت الولايات المتحدة تعتقد أنه مدرب على مقاومة التحقيق، وبقيت قصته ثابتة لسنوات كما هي؛ قابلة للتصديق ولكن تحوي الكثير من الخفايا الملحّة، ولعدم قدرة المسؤولين على كشف تخفيه، أصدروا تقارير كل بضعة أسابيع توصي بإبقائه قيد الاعتقال، وانتظر الشهري، صامتًا، ومتعاونًا في الظاهر، منتظرًا اليوم الذي سوف يخرج فيه.

(1) Jabir al-Fayfi relates his experience «(Arabic), Hamumana, Saudi Television, December», 2010 available at: http://www.youtube.com/watch?v=5zj66sAeFec&feature=related.

(2) Department of Defense, «Jabir al-Fayfi: JTF GTMO Detainee Assessment», December 16, 2005. Released **via wikileakes**.

(3) Department of Defense, «Said Ali al-Shihri: JTF GTMO Detainee Assessment», April 13, 2007. Released **via Wikileaks**.

حتى عندما حاولت الولايات المتحدة أن تعمل عبر النظام القضائي الداخلي عانت من صعوبات، في أيلول/ سبتمبر 2003، بعد شهور من التشاحن الدبلوماسي، استقبلت الولايات المتحدة محمد المؤيد، رجل الدين اليمني الذي اعتقلته الإف بي آي في ألمانيا منذ شهور، ومن أجل تأمين ترحيل المؤيد ومساعده من ألمانيا وعدت الولايات المتحدة بعدم وصول حكمهما إلى الإعدام أو إرسالهما إلى غوانتنامو، وبينما محامو وزارة العدل يحضرون لمحاكمة في نيويورك، وجد محققو الإف بي آي أن عندهم مشكلة، فنجمهم المخبر محمد الأنسي، الرجل الذي دفعت له الإف بي آي أكثر من 100000 دولار لعمله على القضية، صار يسبب المشكلات، فبدأت الوكالة بالتحقيق معه بلا ضجيج.

بدد الأنسي كثيرًا من أموال الإف بي آي خلال شهور من العيش الرغيد، فكان يترك 100 دولار بقشيش في المطاعم واستثمر في عدة أعمال مشبوهة، وكانت الضربة الكبيرة هي مشروع تنظيف ملابس بقيمة 68000 دولار اشتراه في نيويورك، وعندما نفدت أمواله، توقف ببساطة عن تسديد الدفعات، ووزع شيكات بلا رصيد عبر الولاية مما خلّف حشدًا من الدائنين الغاضبين في أعقابه، وحاول الأنسي أن يتوسل المساعدة من مواطنيه اليمنيين في بروكلين، ولكن سجله الممتلئ بالإخفاقات والعمل مع الإف بي آي لم يدع الكثيرين ليساعدوه، فانطلق جنوبًا باحثًا عن بداية جديدة نحو فولز شيرش، فيرجينيا، خارج واشنطن مباشرة.

بدأ الرجل اليمني في فيرجينيا يصب مشكلاته على مجموعة جديدة من الغرباء، فأقنع مديرة خدمة غرف في فندق أن تقرضه 3800 دولارًا لم يسددها أبدًا، تقول السيدة: «لقد بكى حرفيًا وهو يتحدث عن مشكلاته، صدقته لأنه بدا رجلًا ناجحًا يعاني من بعض الحظ السيء وحسب»[1].

وسرعان ما تزايد حظ أنسي السيء، ففي أيار/ مايو 2004 اتهمته الإف بي آي باحتيال مصرفي والذي يعني أن الحكومة باتت الآن تقاضي شاهدها النجم[2]، والأنسي هو الشخص الوحيد الذي سمع المؤيد يتبجح بتسليمه ابن لادن عشرين مليون دولار، فإذا لم يشهد، لا قيمة للدليل.

(1) Glaberson, «Terror case».

(2) المصدر نفسه.

أخبر أنسي عملاء الإف بي آي أنه كان في حاجة شديدة للمال، وعندما لم ينفع ذلك، قال: إنه كان مريضًا وفي حاجة إلى أن يدفع ثمن دواء السكري وجراحة عاجلة، ومن ثم عرض أن يشهد في قضية المؤيد مقابل رحلة إلى اليمن لزيارة زوجته التي ادعى أنها مريضة، وكان العملاء يعودون كل مرة إلى الجواب نفسه: الـ 100000 دولار التي أخذها مسبقًا هي كل ما سوف تدفعه الحكومة له، ولكن الأنسي تذكر محادثة مبكرة مع عميل أخبره أنه سوف يصبح مليونيرًا، وأراد أن تفي الإف بي آي بهذا الوعد[1].

في الوقت نفسه تقريبًا، تسرب اسم الأنسي ودوره في اعتقال فرانكفورت، وعندما التقطت صحيفة يمنية القصة، بدأت عائلته في اليمن بتلقي هواتف التهديد، وكانت هذه دلالة ثانية اتخذها الأنسي على أن الإف بي آي أخفقت في أن تفي باتفاقها الأصلي، فالعملاء أخفقوا في حماية هويته، ولم يعطوه إقامة دائمة في الولايات المتحدة، ولا يزالون يرفضون أن يعطوه المزيد من المال، فقال لغرباء: «إن خطئي الكبير أنني تعاونت مع الإف بي آي، لست مجنونًا حتى أدمر حياتي وحياة عائلتي كي أحصل على مئة ألف دولار»[2].

في خريف 2004، ذهب الأنسي، المدين واليائس، إلى صحيفة واشنطن بوست للمساعدة، معتقدًا أن مقالة في الجريدة عن محنته قد تضغط على الإف بي آي لتوفير المزيد من الأموال، وعندما أخفقت خطته الأخيرة هذه قرر أن يقوم بعرض أكثر علانية، ففي 15 تشرين الثاني/ نوفمبر، جلس في شقته المستأجرة في فيرجينيا وكتب رسالتين مضطربتين مرتجفتين يخاطب في الأولى روبرت فيولر وهو الذي كان يتعامل معه في الإف بي آي وهو الذي شهد قبل سنوات أن الأنسي مخبر «ممتاز».

«اليوم الإثنين 04/ 15/ 11، سوف **أنتحر** نفسي» كتب اليمني اليائس في رسالته المتكلفة، واضعًا خطًّا تحت كلمة (أنتحر) المكتوبة بخط عريض وبحروف كبيرة كلها، «سوف أحرق نفسي في مكان غير متوقع وتأكدوا أنني سوف أتصل بكم قبل 15 دقيقة» أكمل العبارة، فيما بعد مصححًا العبارة بإضافة «في نيويورك» إلى الجملة في محاولة واضحة لكي يضلل الإف بي آي عن ملاحقته، ولم يستطع الأنسي أن يقاوم محاولة أخيرة

(1) Caryle Murphy and Del Quentin Willber, «Terror informant ignites himself near White House» **Washington Post**, November 16, 2004.

(2) المصدر نفسه.

ضد الرجل الذي بات يلومه على كل مشكلاته، «أرجو أن ترسلوا جثتي إلى عائلتي في اليمن مع أغراضي الشخصية (الحقائب موضبة) في شقتي، (أرجو أن تكون سعيدًا)»[1].

وأرسل الرسالة الثانية إلى كاريل مورفي، وهو أحد المراسلين الذين تعاون معهم في الصحيفة، مكررًا تهديدات الانتحار ومحذرًا إياها من أنه سوف يتصل بها قبل عشر دقائق من انتحاره المخطط له، أرسل الأنسي رسالة فيولر بالفاكس إلى مكتب الإف بي آي في نيويورك ونسخًا من الرسالتين إلى صحيفة واشنطن بوست، وفي ذلك اليوم، أتبع الأنسي رسالته باتصال هاتفي إلى الصحيفة كرر فيه تهديده بأن يحرق نفسه في مكان غير معلوم، واتصل بالجريدة مرتين أخريين، وفي المرة الأخيرة قبل الساعة الثانية مساءً بقليل، أخبر المراسلين أنه قد بلل نفسه بالبنزين وسوف «يحرق نفسه بعد دقيقتين، وليس عشر، وأن ذلك سيحصل قرب البيت الأبيض»[2].

بعد أن أغلق الهاتف، مشى الأنسي نحو الحرس الشمالي الغربي للبيت الأبيض في بنسلفانيا أفينيو وطلب من أحد الحراس إيصال رسالة شخصية إلى الرئيس بوش، وعندما رفض الضابط، تراجع الأنسي خمسة عشر قدمًا وأخرج قداحة من جيبه، وأشعل طرف سترته، فتحرك ضباط الخدمة السرية مباشرة، فأوقعوه على الأرض وأطفؤوا النيران قبل أن تحرقه حتى الموت.

وجد الأطباء فيما بعد أن الأنسي يعاني من حروق في 30% من جسمه، وبينما هو يتعافى تحت الحراسة المسلحة وضعت صحيفتا نيويورك تايمز وواشنطن بوست دوره كمخبر سري تحت النقد بمقالات مطولة، وشكك الصحفيون في الصحيفتين في كيفية استطاعة شخص ذو ميول انتحارية وغير مستقر على نحو واضح، أن يقنع الإف بي آي، بقليل من الأدلة، بأن تلاحق محمد المؤيد.

في 28 كانون الثاني/ يناير 2005، بعد أقل من شهرين من محاولة الأنسي الانتحار بدأت محاكمة المؤيد ومساعده في محكمة في بروكلين، واختار مدَّعو حكومة الولايات المتحدة أن لا يدعوا الأنسي، الذي كان لا يزال في المستشفى، إلى الشهادة، وكان غيابه يعني أن كثيرًا من القضية التي تقول أن المؤيد عضو في القاعدة يجب التخلص منها،

(1) Muhammad al-Ansi, letter to Robert Fuller, reproduced in **Washington Post**, November 16, 2004.

(2) Murphy and Wilber, «Terror informant».

وبدلًا من ذلك، ركزوا على ارتباطات رجل الدين اليمني بحماس، والتي هي مصنفة منظمة إرهابية في قانون الولايات المتحدة، وحاولوا أن يبنوا معظم قضيتهم حول فيديو الزفاف الجماعي الذي صوره الأنسي في أيلول/ سبتمبر2002، فالشريط يظهر بوضوح المسؤول في حماس يعلن عن تفجير انتحاري في إسرائيل، وكان الادعاء يخطط لأن يقول بأن دور المؤيد كمنظم لحفل الزفاف يعني أنه كان يعرف مسبقًا بالتفجير، وحكم القاضي أنه سوف يقبل بدخول الشريط في الأدلة إذا ما شهد الأنسي، وخوفًا من مصداقية شاهدهم بعد محاولة انتحاره رفضت الحكومة ذلك وركزت بدلًا منه على ضحايا التفجير الانتحاري في إسرائيل.

تحدث غيديون بلاك، وهو طالب قانون إسكتلندي وأحد الناجين من التفجير، عن ابن عمه الأصغر الذي مات في التفجير[1]، وفي شهادة عاطفية، وأحيانًا دامعة، استحضر الشاب ذو الواحد والعشرين عامًا اليوم، واصفًا للقضاء لحظة التفجير: كان هنالك «زجاج ومعدن وشظايا تطير في كل الاتجاهات وخصوصًا نحو مؤخرة الباص»، وبعد الانفجار، أكمل «كان ثمة صمت مهيب لبعض اللحظات، ومن ثم دوت الصفارات، والصراخ، والذعر»[2].

بعد أربع أسابيع من بداية المحاكمة، بعد أن انتهى الادعاء من المرافعة، قامر محامو المؤيد المعينون من قبل المحكمة ودعوا الأنسي إلى المنصة كشاهد معادي لقضيتهم، كانوا يريدون أن يظهروا المخبر اليمني مختلًا وحاقدًا، وكانت هذه الاستراتيجية المخاطرة تعني أن الحكومة يمكنها الآن أن تتهم المؤيد بأنه عضو في القاعدة، وسوف يحصل فيديو الزفاف على بث كامل على شاشة تلفاز كبير تدفع على عجلات إلى غرفة المحكمة، ولربما كان الأنسي رجل احتيالات غير متوازن على الورق، ولكن شخصيًا لا يزال يستطيع أن يؤدي على نحوٍ آسر، وفي سياق شهادته أظهر السحر نفسه والحركات التي استخدمها طوال حياته.

ادعى الأنسي أن المؤيد بصفته «رجل خطر» دائمًا ما كان يسافر بصحبة حرس مسلح، ولعدم معرفته بأن الحرس المسلحين يحيطون اعتياديًا بالشخصيات السياسية والدينية

(1) Glaberson, «Video, previously excluded».

(2) United states v. Al Moayad, available at: http://caselaw.findlaw.com/us-2nd-circuit/1029782.html.

في اليمن، اعترض أحد محامي الدفاع، هاورد جيكوبز، على الاتهام قائلًا: «إذا كان هذا صحيحًا، فأين هؤلاء الحراس في شريط الزفاف؟»[1]، وبينما هيئة المحلفين تشاهد، طلب الأنسي من جيكوبز أن يعيد شريط الزفاف إلى الخلف وأن يعرضه مرة أخرى.

«توقف» صاح الأنسي مشيرًا إلى الشاشة، وكان هنالك في الشاشة المتوقفة المشوشة رجل يقف حاملًا رشاشًا[2].

في العاشر من أيار/ مايو، بعد خمسة أيام من التشاور، عادت هيئة المحلفين بحكمين للرجلين، فبرّؤوهما من دعم القاعدة، وهي تهمة لم يحاول الادعاء أن يثبتها أصلًا، ولكنهم أدانوهما بالدعم المادي لحماس، وحكم القاضي على المؤيد بخمسة وسبعين عامًا في سجن تحت الحراسة المشدّدة في فلورنس كولورادو وغرمه بـ 1.25 مليون دولار.

في اليمن، تابع الناس قضية المؤيد تتجه إلى نهايتها، ولم يستطيعوا فهم كيف يستطيع رجل يعرفون أنه «أبو الأيتام» أن يحاكم في الولايات المتحدة لمساعدة حماس، فالمؤيد يمني ما سافر خارج الولايات المتحدة قبل ترحيله قط، ودعم حماس بالمال أمر قانوني بل ومشَجَّع عليه في اليمن، وفي سجن الأمن المركزي، حاضر الوحيشي وبقية قيادة القاعدة في القضية، مشيرين إلى أنها مثال آخر على عدائية الولايات المتحدة[3]، فهي تظهر «عنجهيتهم الضخمة»، كما أخبر قائد القاعدة رفاقه في السجن، ناصحًا إياهم أن يصلوا لإطلاق سراح الشيخ.

في أوائل ذلك الربيع، بينما كانت قضية المؤيد تصل إلى نهايتها في بروكلين، خطرت فكرة لأحد السجناء، حسام مجلي، مقاتل القاعدة الذي كان جزءًا من الهجوم على مروحية شركة هنت أويل قبل ثلاث سنوات، فقد سمع بمحاولة جريئة للهروب من سجن أبو غريب الأميركي في العراق عن طريق نفق، ومع أن المحاولة قد اكتشفت وأخفقت فقد أعجبت الطريقة الشاب ذا الستة والعشرين عامًا: «لماذا لا نستطيع فعل هذا هنا»[4] قال سائلًا رفاقه في السجن.

«مستحيل» رد أحدهم، «ليست هذه بطريقة نخرج بها».

---

(1) Glaberson, «Video, previously excluded»; United states v. Al Moayad.

(2) Glaberson, «Video, previously excluded»; United states v. Al Moayad.

(3) Hamil al-Masik, «Three years to escape, part 1» (Arabic), **Sada al-Malahim** 7 (January 2009), 18.

(4) المصدر نفسه.

وانتهى النقاش، ولكن على مدى الأيام التالية قال عدد من الرجال بأنهم حلموا بنفق يعج بالسجناء الزاحفين[1]، وبسبب الازدحام الذي جلبته اعتقالات حرب العراق، نقلت منظمة الأمن المركزي عددًا من المشتبه بهم في القاعدة من مبنى السجن الرئيسي إلى ملحق قريب من الحائط الجنوبي، حتى إن إحدى الحمامات كانت تطل على الشارع وعلى جامع مجاور، وقرر الرجال أن الجامع هو الهدف، وقدروا أن عليهم أن يحفروا حوالي 50 ياردة ليصلوا إليه، وباستخدام المعالق المعدنية التي أرسلتها عائلاتهم مع الطعام اقتلع الرجال بلاط الأرض وبدأوا الحفر.

وبينما هم يباشرون الحفر، أعلنت محكمة يمنية أنها سوف تمرر حكم الإعدام لعلي الصواني، وهو إسلاموي أُدين بقتل سياسيٍّ اشتراكيٍّ محليٍّ في أواخر 2002، ولم يكن أحدهم يعرف الصواني شخصيًا، ولكنهم كانوا جميعًا يقدرون سلوكه، فغضبوا من قرار المحكمة، وطلب ثلاثي من السجناء يقودهم قاسم الريمي، الواعظ الملتهب الذي كان مدربًا في أحد معسكرات ابن لادن في أفغانستان، مقابلة مدير السجن.

«لقد ضحيتم بما يكفي للصليبيين» قال الريمي ثائرًا على المدير دفاعًا عن الرجل المحكوم عليه: «أعطيتموهم رجالًا مثل أبو علي الحارثي» قال صارخًا: «يكفي، لا يحتاجون المزيد من أبنائنا»[2].

بينما الريمي يرتجف من الغضب وهو يصرخ، قال: إن اليمن يجب أن لا تقتل الصواني لمجرد إرضاء سادتها الأجانب، «ولكن إن فعلتم» هدد الريمي «فسوف نرد بالمثل».

عندما عرف غالب القامش، الرئيس الجَلِد العنيد والمخضرم لمنظمة الأمن السياسي الذي عمل مرة مع علي صوفان، بتهديدات الريمي، أمر بتقييد الثلاثة ورميهم في الانفرادي، ومن ثم أخذ ستة سجناء آخرين من زنزانة الريمي، من ضمنهم الوحيشي وفواز الربيعي ورماهم في الانفرادي أيضًا، مما قطع رأس قيادة المجموعة وأخَّر محاولة الهرب.

كان الأمر كله غلطة، كتب الوحيشي فيما بعد «ما كان علينا أن نتدخل في قضية الصواني»[3]، وسوف تمر تسعة شهور أخرى قبل أن تستطيع القاعدة أن تحاول مجددًا.

(1) Nasir al-Wihayshi, «The new leader of al-Qaeda in Yemen relates the details of the escape of al-Qaeda members from an intelligence prison» (Arabic), **al-Ghad**, June 25, 2007.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

الفصل الرابع

تغيُّر في السياسة
2005

في 17 تموز/ يوليو 2005، دعا الرئيس علي عبد الله صالح مجموعة من أصحاب المقام إلى القصر الرئاسي في صنعاء للاحتفال. قبل سبعة وعشرين عامًا مضت، بعد الاغتيال الوحشي لسلفيه المباشرين، أقسم صالح وأصبح رئيسًا، وكان الاجتماع السنوي غالبًا ما يستخدم كخطاب بخصوص شؤون الدولة في هذا العام، يقدمه صالح عادة بلغة عربية قاسية ومقطّعة تعلّمها وهو جندي، وبينما كان الشيوخ القبليون في أثوابهم الطويلة يختلطون بالسفراء الغربيين في حللهم المكلفة في غرف الاستقبال الفاخرة، صعد صالح خفية على الأرضية المرفوعة التي وضعها معاونوه وراء المنبر وبدأ يتحدث.

تحدث عن «نقل السلطة السلمي»[1] الذي أدى إلى وصوله كرئيس، قبل أن يبدأ بنقاش التحديات التي اضطرت الدولة لتخطيها في العقود الثلاثة المنصرمة، فقال صالح معددًا، وهو يتوقف دوريًا لينظر في ملاحظاته: لقد أدى العنف القبلي والقتل والثأر إلى حرب أهلية وهو يهدد الاتحاد، ولكن على الرغم من كل ذلك استمرت الدولة، وما كان أيٌّ من هذه النجاحات - تدارك صالح - ليكون ممكنًا لولا دعم اليمنيين الوطنيين في حزبه الوطني والمعارضة كليهما، ومن ثم، بينما بدأ خطابه يتوجه نحو الختام، قدم صالح إعلانًا صادمًا: «أنا لست، وسوف لن أقدم نفسي، مرشحًا في الانتخابات الرئاسية القادمة»، أعلن

(1) Ali Abdullah Salih, speech, July 17, 2005 (Arabic), in The speeches and Interview of President Ali Abdullah Salih for 2005 (**Sanaa: Information Documentation Center, 2006**), 39.

صالح تقاعده محدقًا في الكاميرات مباشرة، سوف لن يحاول الترشح مرة أخرى في 2006، قال: «إن بلادنا تحتاج دمًا جديدًا».

وعلى طول خطابه، كان صالح يستخدم ضمير جمع الشخص الثاني متحدثًا عن الصراعات المعتادة والانتصارات المشتركة، ولكنه الآن قطع منتقلًا إلى الشخص الأول المفرد، ودعا صالح، متطلعًا إلى بحر من الوجوه المصعوقة، كل الأحزاب إلى البحث عن مرشحين كفوئين بين صفوفها، «لقد حان وقت انتقال سلمي آخر للسلطة».

خلال أيام من إعلان صالح، بينما بدأ اليمنيون الحديث عن ديمقراطية حقيقية وخيارات حقيقية، انكشف قناع الخطاب وبان أنه مسرح سياسي، إذ كان تعهد صالح مصممٌ ليصدَّ النقد القادم بسبب قرار لا شعبية له بتخفيف دعم الحكومة على الديزل والبنزين.

خلال العقد السابق، أحجم صالح عن رفع الدعم في ثلاث مناسبات منفصلة، قائلًا لمستشاريه من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي: إن الحركة سوف تسبب شغبًا، ولكن مع اقتصاد اليمن المصارع ليبقى متوازنًا بعد جولتين من الحرب ضد الحوثيين في الشمال، بات المتبرعون متفقين: على الدعم أن ينتهي، فاستمع صالح إلى طروح المؤسسات الدولية، ولكنه كان يعرف أن نصيحتهم بإنهاء الدعم بشكل تدريجي هادئ سوف يكون كارثة سياسية، إذ سينقلب عليه حلفاؤه ما إن يرتفع سعر الطعام، الذي يعتمد على الوقود الرخيص لنقل البضائع، وسوف يؤثر رفع الدعم في كل جزء من الاقتصاد اليمني.

في وقت متأخر من 19 تموز/ يوليو، بعد يومين من خطاب صالح، أعلن التلفزيون الحكومي أنه بدءًا من منتصف الليل سوف يرفع كل الدعم عن الوقود، وخلال ساعات، صار الناس يتدافعون على الوقود بينما زاد سعره ضعفًا ومن ثم ضعفين في البلاد كلها، وفي الصباح التالي بدأت أحداث الشغب التي تنبأ بها صالح، فمشت العصابات المسلحة عبر الشوارع هاتفة وناهبة. لقد نقل صالح اللوم، عن طريق وعده بعدم الترشح، إلى رئيس وزرائه المسن عبد القادر باجمال، الذي لم يكن أكثر بكثير من رئيس وزراء صوريٍّ، وبينما لامت الحشود المصارف والمؤسسات الدولية التي اعتبروها مسؤولة جزئيًا، كان صالح يفاوض بالسر على ما سيدعوه لاحقًا بحلٍّ «وسطيّ»، فقد كان يعرف أن رفع الدعم بأي شكل، مهما كان قليلًا، سوف يسبب الشغب، فوجه مسؤولي الحكومة إلى أن يعلنوا

عن رفع كامل للدعم يستطيع لاحقًا أن يعدله إلى نسبة طلبها الداعمون الدوليون منذ البداية، وبعد ثلاثة أيام من أحداث الشغب التي خلفت ما يقارب خمسين قتيلًا في البلاد، فعل صالح ذلك تمامًا، مخبرًا عامة الشعب أنه أمر الحكومة بأن تعيد الدعم جزئيًا بينما تختصر ضرائب البيع إلى النصف وتزيد مرتبات الموظفين الحكوميين 10% في الوقت نفسه[1]، فصار صالح، كما أعلنت وسائل الإعلام، منقذ البلاد، وكان هذا السيناريو مألوفًا لدى معظم اليمنيين، ففي 1995، آخر مرة أنقصت فيها الحكومة الدعم بشكل كبير، قام صالح بحركة مشابهة، وكانت هذه هي الطريقة التي يلعب بها صالح السياسة: يحلُّ أزمة بخلق أخرى.

جلس المسؤولون الأميركيون في السفارة في صنعاء يتفرجون على مسرحية صالح التي يدور في خلفيتها الشغب والسيارات المحترقة، وباتوا يشكون في أن الرئيس كان جديًا ولو جزئيًا في تعهده بعدم الترشح مرة ثانية، ففي كل سنة تزيْن وزارة الخارجية الخلفاء الممكنين لصالح، وفي كل سنة لا تجد شيئًا[2]، وربما كانت هي هذه النقطة بالضبط، كما خمنت برقية دبلوماسية، فحين يصل الموضوع إلى الرئاسة فإن صالحًا هو «الرهان الوحيد الموجود»[3]، فليس لأي من لاعبي اليمن الأكثر قوة - الشيخ عبد الله الأحمر والجنرال علي محسن الأحمر - أي رغبة في المنصب، فكلا الرجلين أكبر في العمر من صالح، وكلاهما يحبُّ دوره كصانع للملوك.

عندما استدرك صالح عهده بعد أحداث الشغب، اختارت حفنة من اليمنيين أن تتصرف وكأنه كان جديًا بخصوص التنحي، وأعلنوا أنفسهم كمرشحين للرئاسة، وعلى الفور تقريبًا، هبت شبكة مؤيدي الرئيس إلى العمل، فتراجع أحد المرشحين، ناصر صبر، وهو عضو في حزب صالح، بعد أن رميت قنبلة يدوية على سيارته في أثناء لقائه مسؤولين في السفارة الأميركية[4]، ونقلت الصحف أن مرشحًا آخر، كان يسكن القاهرة وكان متورطًا

(1) Gregory D. Johnsen, «Salih's Road to Reelection» **Middle East Report Online**, January 13, 2006.

(2) Laura Kasinof and Scott Shane, «Radical cleric demands ouster of Yemen leader» **New York Times**, March 1, 2011.

(3) US diplomatic cable 05SANAA2766, September 17, 2005. Released via Wikileaks.

(4) «Explsion near US Embassy targets potential presidential candidate in Yemen» **News Yemen**, November 11, 2005.

في محاولة انقلاب قبل سنوات مضت، سوف يعتقل إذا رجع إلى اليمن، وأعيق منفيون آخرون بطريقة مشابهة، أحدهم، أحمد نعمان، أخو نائب وزير خارجية اليمن، الذي أعلن ترشحه من أوروبا، فسأل صالح نائب وزيره ممازحًا: «هل سوف تغادر لإدارة حملته؟»[1]، وفهم نعمان التلميح، واختفت حملة أخيه الانتخابية بين ليلة وضحاها، وكانت الرسالة واضحة: إذا لم يترشح صالح، فلن يترشح أحد.

بعد لقاء صالح الرئيسَ بوش في المكتب البيضاوي في تشرين الثاني/ نوفمبر 2001 صبت الولايات المتحدة ملايين الدولارات نقدًا ومعدات عسكرية إلى اليمن، وذهب معظمها إلى أقارب صالح وحلفائه في الجيش، مشحِّمة أسنان نظام الوصاية الذي يبقي حكمه مستمرًا، فتجول تدفق ثابت من المستشارين العسكريين الأميركيين عبر معسكرات التدريب التي بنتها أموال دافعي الضرائب الأميركيين خارج صنعاء مباشرة، هؤلاء رجال ذوو لحى كثيفة ونظارات شمسية، لا يعرفون عن أنفسهم إلا بأسمائهم الأولى، عملوا مع ابن صالح الأكبر، أحمد، الذي يقود الحرس الجمهوري والقوات اليمنية الخاصة أيضًا، وبعد إحدى جلسات التدريب، أخذ أحمد ضابطًا أميركيًا جانبًا وقال له أنه يود أن يصبح جنديًا في البحرية الأميركية.

«هل تعرف السباحة؟» سأله الرجل.

«لا، ولكن يمكنك أن تعلمني» قال أحمد.

«حسنٌ، سوف نرى»[2]، أجاب الأميركي مراوغًا، ولكنه في سره كان قلقًا من أن خلف صالح الواضح يتفرج على الكثير من أفلام الإثارة.

وقال لرؤسائه: أنه يأمل في أن الطلب كان مجرد واحدة أخرى من نزوات أحمد العابرة.

عمل مدربون آخرون مع وحدة مكافحة الإرهاب في قوات الأمن المركزي، تحت قيادة يحيى صالح، ابن أخ الرئيس، وكان ثمة حواسيب وأجهزة كشف جديدة لوحدة ضبط الحدود في مطارات صنعاء وعدن، حتى إن الولايات المتحدة بنت لصالح حرسًا ساحليًا من الصفر، فقدمت كل شيء من المراكب إلى التمويل والتدريب والحواسيب.

(1) US diplomatic cable 05SANAA2766.

(2) مقابلة الكاتب مع مسؤول عسكري أميركي في صنعاء في آب/ أغسطس 2009، وأغفل الاسم بناء على طلبه.

عندما ربح الرئيس بوش الانتخابات في 2004، أخبر صالح سفير الولايات المتحدة الجديد في صنعاء، توماس كراجيسكي، أنه يريد أن يكون بين أوائل القادة الأجنبيين الذين يزورون واشنطن ويقدمون التهاني رسميًّا، فهنالك أشياء لا يمكن مناقشتها إلا وجهًا لوجه، أضاف صالح محفِّزًا[1].

امتنعت الولايات المتحدة، فمع التوقف الظاهر لعمل القاعدة، لم يكن ثمة الطارئ الذي كان موجودًا قبل ثلاث سنوات، وليس هذا الوقت الصحيح للزيارة، كتب كراجيسكي من صنعاء[2].

كراجيسكي طويل، ذو لحية تشبه تناثر الملح والفلفل، مولود في غروفلاند، ماساتشوستس، إلى جانب نهر ميرميك على بعد 45 دقيقة من بوسطون، واختار كراجيسكي أن يبقى قريبًا من بيته فدرس في جامعة ماساتشوستس في أمهيرست. وهو ضابط متمرس في الخارجية، وهو في الأساس خبير في الشؤون الروسية، ولكنه غيَّر تخصصه نحو العالم العربي حين انتهت الحرب الباردة، وقبل وصوله إلى صنعاء، قضى كراجيسكي سنتين في العراق كمستشار سياسي لبول بريمر، وشاهد من المنطقة الخضراء في بغداد بعينيه كيف تداعت البلاد إلى الفوضى والحرب الطائفية، وكراجيسكي مختلف عن هول الأكثر عقلانية، وقد بقي هذا الأخير ليساعد في النقلة، فحاول كراجيسكي أن يتغلب على الفجوة بين شخصيتيهما عبر طلب الإرشاد من الرجل الأكبر منه بالعمر، وهو لم يعمل في مكان يشبه اليمن في أي شيء من قبل، فأوروبا الشرقية والدول - المدن في الخليج الفارسي أمثلة سيئة على نظام البلاد القبلي المعقد، وحتى العراق وحربه الفوضوية بدت بشكل ما أقل تعقيدًا من فيض الأسماء ومراكز السلطة التي عليه أن يفهمها الآن.

أعطاه هول دورة مكثفة في سياسات صنعاء، مقدمًا إياه للشخصيات حول العاصمة وحاثًّا إياه أن يجعل الاقتصاد والإصلاح الاقتصادي ضرورته العليا، وقبل وقت قصير من مغادرته للبلاد، لخص هول أيام النقاشات بنصيحة أخيرة: «اجعلْ اليمن تتأهل لمنظمة تحدِّي الألفية»[3]، وهي وكالة دعم خارجي أسستها إدارة بوش في 2004، واسمها الكامل

(1) «Yemen President Saleh Wants Washington Trip», US diplomatic cable, December 6, 2004. Released **via Wikileaks**.

(2) المصدر نفسه.

(3) Hull, High Value Target, 112.

منظمة تحدي الألفية، وتقودها فكرة أن البلدان سوف تتطور بشكل أكثر فعالية إذا ربطت الولايات المتحدة الدعم بالحكم الجيد والحرية الاقتصادية.

قضى كراجيسكي الكثير من سنته الأولى متبعًا نصيحة هول، ولكن ما أن تأهلت اليمن مؤقتًا في أوائل 2005، حتى بدأ تقديرها ينحدر في المعايير الثلاثة - الحكم العادل، الاستثمار في الشعب، الحرية الاقتصادية، وعلى مدى الربيع، حذر كراجيسكي صالحًا من أن عليه أن يلتزم، ووضح السفير أن المتبرعين الدوليين لن يكونوا راضين بالكلمات، بل يحتاجون إلى الأفعال، ولكن بينما كان صالح يهزُّ رأسه متفهمًا في الاجتماعات، استمرت التقارير القلقة بالوصول إلى السفارة.

في أواخر أيار/ مايو أخبر مخبر يمني رفيع المستوى مسؤولي الولايات المتحدة أن صالحًا بات أكثر جشعًا وارتيابًا من أي وقت من قبل، واصفًا إياه بأنه «واثق بشكل غير واقعي وغبي»[1]. بعد أسبوعين من ذلك، اختبر كراجيسكي خلاصات المخبر في محادثة خاصة مع صالح، مهنئًا إياه على قرار تطوير مرفأ عدن عبر الاستثمار الدولي، فقال: «دبي بورتس انترناشيونال شركة ممتازة وذات خبرة ولها سمعة دولية، إنها الخيار الصحيح لتطوير القدرات الكامنة الضخمة في ميناء عدن ومنطقة عدن الحرة».

«لقد اخترتها بنفسي»، قال الرئيس مبتسمًا[2].

استمع كراجيسكي، المرتفع طولًا بأكثر من قدم من الرئيس اليمني، إلى شرح صالح المهنئ لنفسه، وكانت الولايات المتحدة معجبة باختيار دبي بورتس ولكنها كانت مهتمة أكثر في الطريقة التي صنع بها القرار، فخفف كراجيسكي من نقده في برقية داخلية، ولكن كل شيء، كما ختم، «لا يزال يُقرَّر في النهاية حسب نزوات الرئيس»[3].

في تشرين الثاني/ نوفمبر 2005، بعد ما يقارب سنة من طلب صالح الأول، وافقت الولايات المتحدة على زيارة دولية، وعلى مدى شهور في ذلك الصيف، وفي برقيات بين السفارة في صنعاء ومقر القيادة في العاصمة واشنطن، حاولت وزارة الخارجية أن تجد طريقة للتعامل بشكل أمثل مع الرئيس اليمني، إنه لغز، اعترف المحللون في مكتب

(1) US diplomatic cable 05SANAA1352, May 23, 2005. Released **via Wikileaks**.

(2) «Good News for Yemen>s Investment Climate: Dubai» US diplomatic cable, June 14, 2005, Released **via Wikileaks**.

(3) المصدر نفسه.

الاستخبارات والبحث التابع لوزارة الخارجية، في أثناء صراعهم لكتابة بروفايل عنه، فمثل الجهاديين المسلمين في التسعينيات، وجد الأميركيون أن صالحًا يرمي حاميًا وباردًا، فهو مندمج ومتعاون في اللقاءات الخاصة ولكنه كثيرًا ما يكون محاربًا على العلن، أيهما صالح الحقيقي؟ هل ثمة صالح حقيقي؟ واستمر المخبرون المأجورون ذوو الوصول إلى الرئيس بتمرير قصص عن صالح يمازح في أنه يستطيع أن يسحب الصوف من أمام عيون الأميركيين.[1]

اقترح مساعد كراجيسكي الأعلى، نبيل خوري، وهو معاون رئيس مهمة، والعربية لغته الأم، بأن تتصرف الولايات المتحدة بصلابة عندما يصل صالح إلى واشنطن: «يجب أن ترفع أقدامه نحو النار بخصوص ما بقي حتى الآن لغو كلام... يجب أن تستعمل عضوية منظمة تحدي الألفية كجزرة وعصا في الوقت نفسه»، وهذا توازن دقيق، أكمل خوري: «يجب أن يطمئن صالح إلى المنافع الملموسة لشراكته مع الولايات المتحدة، ولكن يجب أن لا يسمح له بمغادرة واشنطن معتقدًا أن بإمكانه المحافظة على صداقة الولايات المتحدة وهو يتصرف وكأن الأمور كالمعتاد»[2].

شيء ما يجب أن يتغير، كان ذلك المقدار واضحًا على الأقل، لم تنفع تحذيرات كراجيسكي الشخصية للرئيس اليمني في شيء، فالسفير الأميركي يكرر وصالح يهز موافقًا، ولكن لم يكن ثمة أي فعل، فالفساد استشرى وخرج عن السيطرة، وضباط الجيش يشترون الديزل بالسعر المدعوم قبل تهريبه إلى خارج البلاد لبيعه بالسعر الأعلى[3]، والأفراد في مكتب الأمن القومي - وهي وكالة الاستخبارات الجديدة التي ضغطت الولايات المتحدة لتأسيسها في 2002 كي تحل مكان منظمة الأمن السياسي الممتلئة بالجهاديين - كانوا متورطين بالعمق نفسه في تهريب الديزل كنظرائهم في الأمن السياسي، وكذلك كان يحيى صالح وضباطه في قوات الأمن المركزي، التي تتلقى هي أيضًا تمويلًا وتدريبًا أميركيين.

كان الفساد مشكلة في اليمن على مدى عقود صادرت فيها عائلة صالح وحلقته المقربة

(1) «Priorities for Washington Visit: Saleh Needs to be part of the Solution» US diplomaticcable, June 28, 2005. Released **via Wikileaks**.

(2) نفس المصدر السابق.

(3) US diplomatic cable 05SANAA1352, May 23, 2005. Released **via Wikileaks**.

أراضيَ على مدى البلاد من أجل مصالحها الاستثمارية المختلفة، ولكن جيل النصابين الحذرين القديم، الرجال الذين جاؤوا بصالح، أفسحوا الطريق إلى الصغار المدللين الذين يعتقدون أنه يحق لهم فعل ما يشاؤون: كان يحيى صالح يملك مزارع تجارية كبيرة في الجنوب ومصانع على مدى البلاد، بينما يضع إخوته الثلاثة في جيوبهم الملايين من تجارة الديزل في السوق السوداء، وكان بعض أعضاء العائلة الآخرين أفضل حالًا من ذلك حتى، فيحصدون الرشاوى والعقود المعسولة من المستثمرين الأجانب، وقد حذرت السعودية، المتبرع الأكبر لليمن، الولاياتِ المتحدةَ من وضع المال في البلاد قائلة: بأنه عادةً ما ينتهي في حسابات في البنوك السويسرية[1].

في أوائل تشرين الأول/ أكتوبر، قبل شهر من رحلة صالح إلى الولايات المتحدة، أفشى كراجيسكي نقده على العلن وأخبر صحيفة معارضة أن الإصلاح الديمقراطي في اليمن قد «توقف»[2]، وإذا كان السفير الغر يتطلع لإجابة، فهو لم يضطر للانتظار كثيرًا، ففي اليوم التالي، هاجمه قطيع اليمن من الصحفيين الرسميين ممزقين إياه في الجرائد وعلى التلفزيون الحكومي، محذرين كراجيسكي من التدخل في شؤون اليمن الداخلية، وكان الجهد المركز والرسالة شبه الجماعية يفوحان برائحة أوامر وصلت من الأعلى، وبدا أن الولايات المتحدة قد حصلت أخيرًا على انتباه صالح، وعلى أي حال، لم يكن كراجيسكي يتوقع ردة فعل حادة كهذه، فتراجع مطيعًا، مدعيًا أن مشاعره الحقيقية ضاعت في الترجمة، فقد أعطى المقابلة بالإنكليزية، كما شرح، وترجمها أحدهم إلى العربية.

بعد أربعة أيام، وبينما موظفو السفارة يجاهدون عبر المقالات والأعمدة التي تدين ملاحظات كراجيسكي، طلب السفير من صحيفة يمن أوبزرفر المنشورة بالإنكليزية أن يحاول مجددًا إجراء تصريح. كانت يمن أوبزرفر في معسكر صالح بثبات، إذ ينشرها فارس السنباني، وهو يمني حذق يافع متغرب يعمل أيضًا أمين سر صالح الصحفيّ ومتحدثًا باسمه، وشرح كراجيسكي في المقابلة أنه قصد أن يقول أن الديمقراطية في اليمن قد «همدت»، أو «تباطأت» وهو ما ترجم: «توقفت»، هذا هو الأمر، كما قال السفير: خطأ بسيط.

---

(1) Abeer Allam and Roula Khalaf, «Saudis prepare to abandon Yemen» **Financial Times**, March 22, 2011.

(2) Johnsen, «Salih's Road to Reelection».

لم يفهم صالح رسالة كراجيسكي، فعلى الرغم من كل إشاراته ومحاولاته في الحذاقة، أخفق كراجيسكي على ما يبدو في أن يوصل تغيُّرَ سياسة الولايات المتحدة إلى الرجل الأكثر أهمية في الموضوع، وعندما غادر صالح إلى واشنطن في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر، كان يتوقع أن يكافأ كحليف مقرب ولا يمكن التخلي عنه، فهو، على أي حال، خلال السنوات الأربع منذ أن التقى بوش، قد فعل كل شيء أرادته الولايات المتحدة، فقد قضى على كامل الأسماء التي كانت في القائمة التي أعطته إياها السي آي إي، فالحارثي ميت، والأهدل والريبعي في السجن، ولم يحدث هجوم للقاعدة منذ تفجير ناقلة النفط ليمبورغ قبل ثلاث سنين، ففي كل مرة ظهر خطر أمني تعامل معه، فعندما ظهرت خلية متبجحة من المقاتلين في 2005 مهددة السفارة الأميركية في صنعاء ومجبرة إياها على الإغلاق لوقت قصير اعتقل جنود صالح الرجال المسؤولين خلال أيام، قال صالح للسفارة: «أنا أستجيب إليكم مباشرة عندما تحتاجون شيئًا»[1].

كان لحسابات الرئيس اليمني عدة أفكار بخصوص كيف يمكن لبوش أن يرد له جزاء تيقظه وتصرفه السريع، ففي عقل صالح كانت الرحلة إلى واشنطن جولة تسوُّق، وهبط في العاصمة ومعه قائمة بما يتمناه، إذ ثمة حرب جديدة ضد الحوثيين - وهي الثالثة - تبدأ في صعدة، والرئيس يحتاج إلى ملء مستودعات أسلحته مجددًا، لقد ساعد الولايات المتحدة في شأن القاعدة والآن يريد مساعدة في شأن إرهابييه.

في اليوم الأول من رحلته التي ستدوم ثلاثة أيام، تذوق صالح مقدار تغير الأمور، إذ أخبرته وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس أن اليمن سوف تستبعد من منظمة تحدي الألفية، وسوف يكلف هذا اليمن عشرين مليون دولار من المساعدات، ولم يستطع الرئيس اليمني، الذي لم يكن متحضرًا للاجتماع، إلا أن يغمغم محبطًا بينما رايس «تمسح على رقبته» بخصوص الفساد وقلة الإصلاح[2]، وإذا لم يتغير شيء، كما أكملت رايس، سوف لن ترى الولايات المتحدة صالحًا مرشحًا شرعيًا لانتخابات الرئاسة في 2006، وكان كارجيسكي يقول الشيء ذاته على مدى شهور، ولكن صالحًا لم يصدق تمامًا أن الولايات

(1) «Saleh on Kanaan: We've Got Him» US diplomatic cable, April 13, 2005. Released **via Wikileaks**.

(2) مقتبس من Sarah Phillips, Yemen and the Politics of Permanent Crisis (**New York: International Institute for Strategic Studies and Routledge**, 2011), 42.

المتحدة جادة، فبدا له أن الولايات المتحدة، بين ليلة وضحاها، غيرت أسلوب تفكيرها بخصوص الدعم المالي.

كان لدى صالح في اليوم التالي اجتماع في مقر البنك الدولي، على بعد بضعة شوارع من البيت الأبيض في بنسلفانيا أفينيو، ويرأسه بول وولفويتز، وهو الشخص نفسه الذي سرب عن قصد تفاصيل ضربة الطائرة بلا طيار التي قتلت الحارثي في 2002، فلم يتوقع صالح الكثير، ولم يضيع مسؤولو البنك الدولي الوقت، فقالوا: إن اليمن قد تراجعت كثيرًا في المؤشرات الرئيسية، ونتيجة لهذا سوف يقلص البنك الدولي المساعدات للبلاد من 420 مليون دولار إلى 220 مليون دولار، وكما فعلت رايس، ذكروا فسادَ الحكومة واسعَ الانتشار بوصفه عاملًا محدِّدًا.

بعد يومين من ذلك، في رحلته إلى الوطن، فقد صالح أخيرًا عقله، فأخذ يصرخ على مساعديه وطرد كامل فريق مستشاريه الاقتصاديين خلال دقائق من الإقلاع، ولم يكن الشباب اليافعون، المتعلمون في الغرب والمتحدثون للإنكليزية يستطيعون الانتظار حتى وصول الطائرة إلى صنعاء للهروب من رئيسهم الغاضب، يتذكر أحدهم قائلًا: «كان الأمر فظيعًا، أطول رحلة طائرة في حياتي»[1].

بعد أسابيع، عندما هدأ صالح، أعاد تعيين معظمهم، وسأل أحد الرجال اليافعين، الذي هو، في عالم السياسة العائلية المتشابك، قريب زوجة صالح الأحدث: «هل تعتقد فعلًا أنه إذا غيرت منظمة بيت الحرية والآخرون تقييمنا، سوف يحدث ذلك أي فرق؟»

«طبعًا» أجاب المساعد المتوتر «هذا هو سبب تقليصهم لها في المقام الأول».

فابتسم صالح وهز رأسه: «الأميركيون يعطون النقود لمن يريدون وقت يريدون»[2].

هذه الرحلة كانت نقطة تحول في العلاقات الأميركية ـ اليمنية، فقد بدأ المال الذي كان يتدفق إلى البلاد منذ 9/ 11 بالجفاف، وبحلول بدايات 2006 ـ لما تدنى الدعم الأمني المالي إلى منخفض جديد قدره 4.6 مليون دولار ـ قررت الولايات المتحدة أن القاعدة في اليمن ما عادت خطرًا وأن باستطاعتها وضع أموالها ومواردها في مكان آخر، فاليمن ليست إلا بلدًا فقيرًا آخر بدون القاعدة.

(1) مقابلة الكاتب مع دبلوماسي يمني في صنعاء في آب/ أغسطس 2009، وأغفل الاسم بناء على طلبه.

(2) المصدر نفسه.

بعد شهر واحد من زيارة صالح إلى الولايات المتحدة، لحقه إلى واشنطن حمود الهتار وهو القاضي الذي أدار برنامج إعادة التأهيل في اليمن، فقد تخلت الولايات المتحدة، بصمت، على مدى العام السابق عن الكثير من معارضتها لبرنامجه، حتى إن السفارة في صنعاء استقبلت الهتار في وجبة رمضانية، إذ استوعبت الولايات المتحدة، كما استوعب المسؤولون في اليمن، أنه لم يعد بمقدورها إبقاء مئات المشتبه بهم محتجزين إلى أجل غير مسمى، وكان سبب ذلك عند صالح الضغط القبلي والمخاوف الداخلية، وعند إدارة بوش، غوانتنامو والنظام القضائي، وكان عدة مسؤولين صغار في وزارة الخارجية يعتقدون أن برنامج الهتار لإعادة التأهيل يقدم حلًا ممكنًا لبعض المحتجزين اليمنيين في غوانتنامو، وكان الهتار قد تحدث بالفعل إلى الدبلوماسيين الأوروبيين في باريس ولندن، ولكن هذه كانت رحلته الأولى إلى الولايات المتحدة.

في عشرة كانون الأول، بعد مرور بضعة أيام على رحلته، نشرت القدس العربي، وهي صحيفة قومية عروبية تصدر من لندن، مقالة على الصفحة الأولى تدعي أن ثلاثة يمنيين على الأقل من المعاد تأهيلهم على يد الهتار قد نفذوا هجمات انتحارية ضد قوات الولايات المتحدة في العراق[1]، فقرأ الهتار المقالة في غرفته في الفندق في واشنطن، وهو غير مصدق نوعًا ما، فهناك من يحاول تخريب عمله.

اتصل في تلك الليلة بخالد الحمادي وهو الصحفي اليمني الذي كتب القصة وقال: «أنت تعرف ما أحاول فعله هنا... كيف يمكنك أن تفعل هذا بي؟»[2].

تبرم الحمادي على الهاتف، فهو يؤدي عمله، ينقل ما تمنحه مصادره، لكن الرجلين كليهما كانا يعرفان أن البرنامج قد مات.

«كان ثمة معسكران في الوزارة في ذلك الوقت» يتذكر الهتار لاحقًا، «أحدهم يؤيد عملي وآخر ليس كذلك»[3].

كان الناقمون على الهتار في وزارة الداخلية قد حاولوا تكتيكًا مشابهًا قبل شهور، مسربين قصة مشابهة عن سجناء أطلق سراحهم باتوا يقاتلون في العراق إلى أسوشيتد

(1) Khaled al-Hammadi, «Yemeni sources report failure of dialoge» **al-Quds al-Arabi**, translated by FBIS, December 10, 2005.

(2) مقابلة الكاتب مع خالد الحمادي في صنعاء في 7 تموز/ يوليو 2006. (جرت المقابلة بالإنكليزية)

(3) مقابلة الكاتب مع حمود عبد الحميد الهتار في 5 آب/ أغسطس 2009. (جرت المقابلة بالعربية)

بريس[1]، وعندما لم ينجح ذلك، انتظر أعداء الهتار وصوله إلى الولايات المتحدة عشية اجتماعه الكبير، والتزم المسؤولون الأميركيون بالاجتماع، ولكنهم ما كانوا أبدًا ليوصوا ببرنامج الهتار إذا كان ثمة سجناء أطلق سراحهم أكملوا فيما بعد وقتلوا جنودًا أميركيين في العراق.

واستخدم آخرون في إدارة بوش - كانوا دومًا قلقين من الهتار وادعاءاته - المقالة وسيلة نهائية للضغط على صالح من أجل إنهاء البرنامج، ولما وصل الهتار إلى اليمن، كانت إعادة التأهيل قد انتهت.

Paul Garwood, «Yemen said linked to guns in Saudi attack,» **Associated Press**, October 11, 2005. (1)

الباب الثالث

الجيل الجديد

الفصل الأول

الهروب الكبير

2006

في اليوم الذي أعقب موت برنامج إعادة تأهيل الهتار على الصفحة الأولى في الجريدة، حصلت شبكة القاعدة في السجن على فرصة جديدة، إذ قضى ناصر الوحيشي وبقية القادة مدَّتهم في الحبس الانفرادي وعادوا الآن إلى زنزانتهم المشتركة المؤلفة من غرفتين، وفي تلك الليلة بعد الصلاة أعاد الرجال إحياء خطتهم بحفر نفق نحو الجامع الذي يستطيعون رؤيته من الملحق الموجود إلى جانب حائط السجن الجنوبي، وبينما الرجال يتحدثون في المساء، قام فواز الربيعي، قائد الخلية ذو الكاريزما الذي أعاده ابن لادن إلى اليمن قبل 9/ 11، وهو الآن يدخل عامه الثاني في السجن، متوجهًا إلى الغرفة الداخلية وبدأ ينتزع البلاطات[1]، كان هذا في 11 كانون الأول/ ديسمبر 2005.

رجع الرجال إلى التدابير الأمنية التي تعلمها الكثير منهم في معسكرات أفغانستان، فتعهدوا بعدم جلب الانتباه إلى أنفسهم، فلا يجب أن يعرف أحد خارج الخلية بخصوص الخطة، وبعد ذلك رفعوا بلاطات الأرضية، فوجد الرجال طبقة من التراب كشطوها بالمعالق والأطباق المعدنية التي ثنوها لتتحول إلى مجاريف يدوية معدلة، ويمنع باب الغرفة الداخلية الحراس في الممر من رؤية ما يحصل في الداخل، بينما في الغرفة الأكبر الأقرب إلى الخارج، يتناوب السجناء الذين لا يحفرون على قراءة القرآن في محاولة لإخفاء الأصوات القادمة من داخل الزنزانة، «حاولنا أن نقرأ بأعلى صوت ممكن» يقول الوحيشي.

(1) يستمد هذا القسم كثيرًا من: Wihayshi, «The new leader of al-Qaeda relates details of the escape»

يبدأ الحفر كل صباح بعد أذان الفجر وينتهي عندما يسمع السجناء الأذان الخامس والأخير مع خشخشة مكبرات الصوت. كان التقدم بطيئًا في البداية، وبعد بضعة إنشات وصل الرجال إلى طبقة إسمنت سيئة المزج، فشحذ السجناء أطباقهم على البلاطات المقتلعة وحولوها إلى معاول بدائية استخدموها لتكسير الإسمنت، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل لم يتقدموا سوى قدم واحد، أما بعد أن عبروا الإسمنت، فقد عادت لتواجههم مشكلتهم الدائمة الأكبر: ماذا يفعلون بالتراب؟ في أحد الأوقات، حاول بعض السجناء أن يصبوه في المجرور، ولكن التمديدات الرخيصة انسدت وطاف الحمام قرب الزنزانة، ومن ثم اقترح أحد الرجال استخدام الحمامات بلا مقعد، وهي ليست أكثر من حوض سيراميكي مع أماكن لوضع الأقدام حول حفرة في الأرض، وهي شائعة في اليمن، وظن الرجل أن باستطاعتهم خلط التراب مع الماء وصبه في الحفرة، ونجح ذلك بعضَ الوقت، ولكن مع مرور الزمن انسد الحمام أيضًا، ومن ثم حاولوا تخبئة التراب تحت وسائد السجن الموحدة التي تجلس على الأرض إلى جانب الجدران، وفي النهاية بدأ الرجال بتعبئة التراب في أكياس بلاستيكية رخيصة كثيرًا ما تأتي مع طعامهم وبإخفائها في الحمام بعيدًا عن نظر الحراس المارين.

في أوائل كانون الثاني/ يناير 2006، وبينما استمرت اليمن في الصراع مع ازدحام السجون، نقل الأمن المركزي خمسة سجناء آخرين إلى الزنزانة، وبات فيها الآن ثلاثة وعشرون رجلًا في غرفتين صغيرتين، وأحد الرجال الجدد، جمال البدوي، كان متورطًا في الهجوم على المدمرة كول وهرب سابقًا من سجن للأمن المركزي في عدن في 2003، والبدوي في أربعينياته، له عيون كهرمانية قاسية ولحية كاملة بدأ الشيب يغزوها توًّا، وهو صبور ويميل إلى التأمل الهادئ، فمن النادر أن يبتسم، مفضلًا أن يخبئ صفًا من الأسنان المعوجَّة والمصفرَّة، لقد أخمد وقت البدوي في السجن رغبته في الجهاد، وما كان يريد دورًا في خطة الوحيشي، ففي آخر مرة هرب فيها أمر قاضي يمني بإعدامه رميًا بالرصاص، ومع أن محكمة الاستئناف نقضت الحكم في آخر المطاف، فما كان للبدوي رغبة في المخاطرة بإدانة ثانية، فجلس الوحيشي مع الرجل الأكبر منه عمرًا مذكرًا إياه بقسم القاعدة الذي أقسمه كثير من الرجال، فهم جميعًا جزء من الصراع نفسه، كما شرح سكرتير ابن لادن السابق، ومن المؤكد أن بدوي لن يتخلى عن أصدقائه في لحظة حاجتهم الأشد إليه، استمر حديثهما ساعات وعندما انتهى كان البدوي قد وافق على المساعدة.

لم يكن لدى السجناء الكثير من المعدات غير الصحون والملاعق وزوج من كرات القدم المشطورة إلى نصفين لنقل التراب، فاستخدموا أسلاكًا انتزعوها من مروحة لتغذية إنارة مرتجلة للنفق، بينما أُدخل وعاء ماء في الخدمة كدلو، وعملت شرائط القماش المجدولة عمل حبل الرفع، ولاحقًا، وجد أحدهم قضيبًا معدنيًا مدفونًا في التراب تحت السجن. وفي أحد الأيام، عندما كان السجناء قد حفروا معظم الياردات الخمسين، دخل جندي زنزانتهم ومعه أوامر بإصلاح باب مكسور، وخافوا أن يرى الجندي التراب الطافح في الغرفة الداخلية المرئي من تحت الباب الذي يفصل بين الغرفتين، فبدأ أحد السجناء جدالًا في محاولة لتشتيت انتباه الحارس، ريثما أنهى الجندي قياساته ومن ثم غادر دون أن يفتح الباب، يتذكر الوحيشي: «كان الأمر كما لو أن حجابًا أسدل على عينيه فما استطاع رؤية التراب».

في بداية شباط/ فبراير 2006، تحسن حظهم مجددًا، إذ كان مسؤولو السجن قد أمروا بجولة أخرى من الإصلاحات لزنزانتهم وخاف الرجال من أنهم لن يستطيعوا تخبئة التراب هذه المرة، فاقتنعوا بأن عليهم الهروب قبل أن يبدأ عمال الإصلاح عملهم يوم السبت، وهو اليوم الأول من أسبوع العمل اليمني، فقاد قاسم الريمي فريقًا من أربعة رجال إلى أسفل النفق الضيق مساء الخميس من أجل دفعة أخيرة، فحفر الرجال بضعة الإنشات المتبقية من التراب تحت أرضية الجامع، وضرب الريمي القضيب المعدني باتجاه بلاطات الأرضية بأقوى ما يستطيع، فتردد صدى قرقعة الحديد الحادة على البلاط في هواء الليل الساكن، مترجِّعًا عبر الجامع الفارغ وعائدًا باتجاه جدار السجن على بعد 15 ياردة، فتنبه أحد الحراس في برج المراقبة للصوت وأطلق النار، وقال فيما بعد لمشرفيه: أنه سمع انفجار قنبلة يدوية، وفي النفق تجمد السجناء، منتظرين طلقة ثانية، ومرت الدقائق بينما الرجال يتلقون همسات من المساجين في الزنزانة فوق تُعلِمهم بما يحدث، وعندما أصبح من الواضح أن أحدًا لن يأتي للتحقيق في أمر الصوت، عاد الريمي إلى العمل بحذر، وبعد ساعات اخترق الرجال «المتألمون والمتعبون من جهودهم بالقضيب المعدني»، البلاطة الأخيرة ودخلوا الجامع، فاندفع الهواء النظيف إلى الحفرة بينما كان الرجال يبتسمون ويهمسون في آذان بعضهم بعضًا: «الله أكبر».

كان السجناء يأملون في أن يخرجوا في مغسل الأموات، ولكنهم لما مدوا رؤوسهم عبر البلاطات المكسورة استوعبوا أنهم في حمام النساء، وهي الغرفة الأقل استخدامًا

في الجامع، وارتاح الأربعة إلى أن البناء مهجور، فزحفوا عائدين إلى الزنزانة ليتشاركوا الأخبار الجيدة مع رفاقهم.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، فقرر الرجال أن ينتظروا صلاة الفجر قبل تنفيذ هروبهم، فيستطيع السجناء وقتها أن يستخدموا المصلين في الجامع في الصباح الباكر غطاءً لهروبهم، وعلاوة على ذلك، سوف يسمح لهم هذا أن يؤدوا صلاتهم الأولى كرجال أحرار في ظل السجن الذي حبسوا فيه وقتًا طويلًا، وبعد الثالثة صباحًا بقليل نزل السجناء في الحفرة مرة أخيرة.

داخل حمام النساء في الجامع، نفض الرجال الغبار عن ملابسهم وعانقوا بعضهم بعضًا في صمت منتظرين الأذان، وكيلا يثيروا الشبهات، قرروا أن يؤدوا صلاتهم في الغرفة المغلقة المخصصة للنساء، والتي كانت نادرًا ما تستخدم، وعندما انتهت الصلاة في حوالى الخامسة والثلاثين دقيقة صباحًا، مشى الرجال نحو الباب الأمامي في مجموعات من اثنين وثلاثة، مختلطين مع بقية المصلين النعسين في ظلال ما قبل الفجر، وشاهدوا وهم يمشون مبتعدين عن الجامع رجال الحي يعودون إلى جوانب الشوارع والأزقة ليحصلوا على ساعتين زيادة من النوم، لقد كان صباح الجمعة 3 شباط/ فبراير 2006، والقاعدة قد عادت.

خلصت الولايات المتحدة بسرعة إلى أن السجناء الثلاثة والعشرين لا بد حصلوا على مساعدة من الداخل، فاحتمالات حفرهم خمسين ياردة بلا تحضيرات من زنزانة سجن إلى حمام نساء في جامع مجاور ببساطة أكبر من المعقول، وهذا السجن على أي حال تديره منظمة الأمن المركزي، وهي المنظمة نفسها التي أنتجت عبد السلام الحيلة، المحتجز في غوانتنامو الذي أخطر ابن لادن والظواهري مرة بوجود خائن بين صفوفهم، وما كان المحللون في السي آي إي والإف بي آي يستطيعون إلا أن يخمنوا حجم المؤامرة: لا نعلم «كم عدد الأشخاص المتورطين»[1] اعترف أحد المسؤولين. اقترح البعض في واشنطن أن الهروب من السجن قد يكون رد صالح على الاقتطاع من المساعدات قبل أربعة شهور، وخمن بعضهم الآخر أن الحرس المتعاطفين ببساطة تجاهلوا علامات الحفر.

(1) Hassan M. Fatah, «Some Yemenis back fugitive terror figures» **New York Times**, February 16, 2006.

كان اثنان من الهاربين، جمال البدوي وجابر البنا، على قائمة الإف بي آي لأكثر المطلوبين: البدوي لدوره في الهجوم على المدمرة كول، والبنا لتورطه في قضية لاكوانا 6 في بوفالو، نيويورك، التي اتُّهم فيها ستةٌ يمنيون - أميركيون بتوفير الدعم المادي للقاعدة بناء على رحلة إلى أفغانستان قاموا بها في صيف 2001، وحاول صالح أن يخفف من حدة النقد له، فتعهد بمكافأة 25000 دولار لكل مشتبه به[1]، ولكن الرئيس اليمني كان عنده أشياء أخرى يتعامل معها، ففي الشمال كانت حرب اليمن الثالثة ضد الحوثيين تجري على نحو سيء، إذ لم ينفع شيء مما حاوله جنرالات صالح - حصار، واجتياح، وحتى سياسة الأرض المحروقة - في إحداث أي فرق، باتت اليمن تغرق في مستنقع تمردها الخاص، وكان عند صالح أيضًا إعادة انتخاب يفكر فيها، فعلى الرغم من أنه كرر تعهده بعدم الترشح كل بضعة أسابيع، إلّا أنَّ أحدًا في اليمن لم يصدقه تقريبًا، وقبل شهرين، في مؤتمر حزبه لتزكية مرشح، لمح صالح إلى أنه قد يقتنع بأن يبقى ولاية رئاسية أخرى، فقط إذا تعذر إيجاد «الدم الجديد» في الوقت الملائم.

في أواخر شباط/ فبراير، بعد أسابيع من الهروب من السجن، أعلن صالح أن الحوارات السرية في القنوات السرية مع الحوثيين قد أنتجت تقدمًا، وكجزء من الصفقة، استبدل صالح بمحافظ صعدة شخصية أكثر حيادية، وأطلق سراح 500 سجين حوثي، وأعلن صالح في مقابلة في الشهر نفسه أنه يتواصل مع السجناء، وأنهم سوف يعودون إلى قبضة الدولة قريبًا[2]، وتوجه صالح سريًا إلى الشيوخ على مدى البلاد، مخبرًا إياهم أنه مستعد لعقد صفقة مع الهاربين، فمن الممكن أن لا يتهم معظم الرجال بجريمة، وإذا وافقوا على عدم القيام بأية تفجيرات في اليمن، يعدُ صالح بأنه سوف يعفو عنهم.

إلى شمال الحدود في السعودية، كانت المملكة تنظف بقايا مشكلة القاعدة عندها، ففي كانون الثاني/ يناير، أرسل ابن لادن، بعد وقت قصير من هروبه من تورا بورا، عشرات المقاتلين السعوديين إلى المملكة[3]، إذ بعد خسارة مئات الرجال في صيد الجوائز في باكستان بات يريد أن يحفظ ما يكفي من المريدين لإعادة التجمع والتخطيط لمزيد من

(1) Nasser Arrabyee, «Yemen announces reward for news on al-Qaeda fugitives,» **Gulf News**, February 15, 2006.

(2) Ghasan Shirbil, «Interview with Presudent Salih» (Arabic), **al-Hayat**, February 26, 2006.

(3) Thomas Hegghammer, «The Failure of Jihad in Saudi Arabia» **West Point Combating Terrorism Center**, February 25, 2010, 12.

العمليات، وكان الجهاديون المتعبون قد قطعوا طريقهم عودة إلى الوطن بأفضل ما استطاعوا ذلك الشتاء، مهربين أنفسهم عبر باكستان وإيران متدفقين عودة إلى السعودية، وما إن وصل رجاله إلى مكانهم حتى بدأ ابن لادن يضغط عليهم لتنفيذ الهجمات، فرد القادة المحليون بأنهم يحتاجون لمزيد من الوقت، فخاف ابن لادن من أن رجاله يحذرون حيث يجب أن يكونوا جريئين، فنقد قادته على الأرض وأمرهم بالهجوم[1].

في 12 أيار/ مايو 2003، بعد ما يقارب شهرين على الغزو الأميركي للعراق، نفذ الجناح السعودي هجمته الأولى، فتسللت أربع سيارات، الساعة 11 مساءً تحمل المتفجرات عبر شوارع العاصمة السعودية الرياض، وعلى الرغم من مخاوفهم من قلة وقت التحضير، كان الرجال قد خططوا جيدًا، ففي تفجيرات شبه متزامنة، ضربوا ثلاثة مجمعات سكنية تقدم خدمات للغربيين في شرق الرياض، وفي اثنين من المجمعات، قاتلوا الحراس الخارجيين حتى وصلوا بسياراتهم وفجروها على الطرقات السكنية الهادئة في الداخل، فحطمت الانفجارات نشائج الإسمنت من أبنية الشقق القريبة، وعندما خرج الناجون مسرعين إلى الشارع، فتح رجال القاعدة النار، فخلفت الهجمات المتواقتة أكثر من 30 قتيلًا، من ضمنهم تسعةُ أميركيين، وجُرح مئات آخرون في المجزرة التي ستتطلب أسابيعَ لاستيعابها[2].

قال الرئيس بوش في خطاب في اليوم التالي في ولاية إنديانا أن الهجوم «قتل بلا رحمة»[3]، وتعهدت السعودية بملاحقة المسؤولين، أمر الأمير نايف، وزير الداخلية ذو السبعين عامًا الذي (قلل من أهمية دور ابن لادن في هجمات 9/ 11)، مساعده محمد بن نايف بأن يقود تحقيقًا في التفجيرات، وعلى مدى الصيف، اعتقل جنود نايف عشرات المشتبه بهم وقتلوا يوسف العييري، وهو قائد ابن لادن الأعلى في البلاد، ولكن في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر، ضربت القاعدة مجددًا.

تنكر مقاتلو القاعدة على هيئة رجال شرطة، وهاجموا مجمع المحيّى السكني على الطرف الغربي من الرياض الذي يبعد أقل من نصف ميل عن أحد بيوت نايف الخاصة،

(1) المصدر السابق, 13.

(2) المصدر السابق.

(3) More than 90 dead in Saudi blast, « **Guardian**, May 13, 2003.

فهز تفجير السيارة الضخم نوافذ قصر الأمير[1]، لكن بدون وجود العييري لإرشادهم، أساءت القاعدة الحساب كثيرًا، فبدلًا من الأميركيين والغربيين، كان المجمع يحوي بمعظمه عربًا أجانب يعملون في المملكة، وكان من بين القتلى السبعة عشر خمسةُ أطفال مسلمين، وصور هذه الجثث التي ظهرت على التلفاز ونشرت في الجرائد صعقت المجتمع السعودي المحافظ، وللمرة الأولى خطب الشيوخ في السعودية مدينين القاعدة وطرقها الدموية، فقد باتت المنظمة آلة قتل تضرب بوحشية في كل البلاد، «كان الناس من قبل يستطيعون إيجاد الأعذار» كما قال بروفيسور سعودي لمراسل غربي في الأيام التي تلت الحادث «لقد بات الأمر لا عقلانيًا إلى حد أنك لا يمكنك أن تفسره، لا يمكنك أن تدافع، لا يمكنك أن تفهمه»[2].

بعد تفجير المحيى، تبخر الدعم الداخلي للقاعدة وتذمر أعضاؤها أنَّ حتى عائلاتهم قد انقلبت ضدهم[3]، فما كان السعوديون يتغاضون عنه، على أنه أفعال عنيفة يقوم بها البعض، أصبح شيئًا يستهدفهم كلهم، فلم يستطيعوا تحمل القتل الجماعي للمسلمين على عتبات دورهم، ومع تقلص عدد البيوت الآمنة والمال القليل بدأ أتباع ابن لادن اليافعون باستهداف قوات الأمن السعودية، وأدت حملة الضربات الصاعقة إلى سلسلة من عمليات الخطف وقطع الرؤوس أمام كاميرات الفيديو، ولكن هذا كان متأخرًا جدًا، فقلة في السعودية هم الذين فهموا ما الذي كان المقاتلون يفعلونه، فإذا أرادت القاعدة أن تقتل الأميركيين – كما قالوا متسائلين – لم لا يذهبون إلى العراق؟[4]

في أوائل نيسان/ أبريل 2005، أحاط الجنود السعوديون بمزرعة قرب بلدة الراس في وسط البلاد، ودامت المعركة النارية ثلاثة أيام، وخلفت في نهايتها أربعة عشر عضوًا بارزًا في القاعدة قتلى، وأعلنت وزارة الداخلية أن خلية القاعدة في السعودية قد هزمت.

على هوامش تلك العمليات وقف أخوان سعوديان يافعان اسمهما إبراهيم وعبد الله العسيري، لم يكن أي منهما من منظمة القاعدة داخل المملكة، فقد أرادا المحاربة في

(1) Dominic Evans, «Suicide attack kills up to 30, injures about 100, in Riyadh residential complex,» **Reuters, November** 9, 2003.

(2) Neil MacFarquhar, «Among the Saudis, attack has soured Qaeda supporters,» **New York Times**, November 11, 2003.

(3) مقتبس من Hegghammer, «The Failure of Jihad» 22.

(4) MacFarquhar, «Among the Saudis».

العراق، وليس السعودية، وقد رباهما الأب، حسن، العضو في القوات المسلحة السعودية، في بيت صارم ومحافظ، وحسن هذا رجل قصير وذو بأس، أصلع مع لحية بيضاء كالثلج، كان لا يسمح لأي من أولاده السبعة - أربعة أبناء وثلاث بنات - بمتابعة التلفزيون أو الاستماع إلى الموسيقى[1]، وكان يشجعهم، بدلًا من ذلك، على حفظ القرآن والتركيز على دراستهم، وحاول كل الأبناء إرضاء أبيهم، ولكن عبد الله وحده نجح فعلًا، فيتذكر إبراهيم: «منذ أن كان صغيرًا، كان دومًا هو الأفضل، كان اسمه دومًا في الأوائل في الجامع والمدرسة»[2].

إبراهيم أكبر بخمس سنوات من أخيه النحيل وأكثر جاذبية منه، وكان يحب عبد الله، فكان الاثنان عادة ما ينضمان بعد المدرسة إلى مجموعة من أولاد الجيران ليلعبوا كرة القدم قبل العشاء والصلاة، وكان عبد الله حساسًا وضعيفًا، ودائمًا ما يتطلع إلى تصحيح المظالم اليومية التي يراها حوله في كل مكان، ولأنه غير ذي قوة وحده، كان يعتمد على إبراهيم لتطبيق أحكامه غير المهادنة.

في 2002، بعد شهور من 9/ 11، دخل عبد الله عامه السادس عشر وبدأ أولَ مرة يشكك في الافتراضات التي تقود حياته، وكان إبراهيم منشغلًا بدراسة الكيمياء في جامعة الملك سعود في الطرف الثاني من المدينة، وسرعان ما بدأ عبد الله يقضي معظم وقت فراغه في جامعٍ في الحي، وكان رجال الدين يحبون الشاب الهادئ الخجول الذي يتعلق بكل كلمة يقولونها، وكانوا كثيرًا ما يطلبون منه أن يرفع أذان الصلاة، فيصدح صوت عبد الله المراهق عبر مكبرات الجامع ويدعو الحي إلى المجيء إلى الصلاة[3]، وبينما زاد تقى عبد الله الظاهري زادت كذلك رغبته في الأجوبة، فالسعودية تفتخر بأنها دولة إسلامية، وفي عام 1986، في السنة ذاتها التي ولد فيها عبد الله، غير الملك لقبه الرسمي، وبات المنصب، كما نص مرسوم ملكي، يعرف الآن ببساطة بـ «خادم الحرمين الشريفين» في إشارة إلى مكة والمدينة، المدينة التي ولد فيها النبي محمد والمدينة التي

(1) Salim al-Najadi, «The Biography of Abu al-Khayr, Abdullah Hasan Tali Asiri» (Arabic), **Sada al-Malahim** 11 (November 2009), 50.

(2) نفس المصدر السابق.

(3) Abdullah al-Oreifij, «Suicide Bomber Named,» Saudi Gazette, September 1, 2009: Nasir al- Haqabani and Faysal Mukrim, «Saudi Ibrahim Asiri constructed the two package bombs» (Arabic), **al-Hayat**, November 1, 2010.

وفرت له الحماية في يوم من الأيام، وكان النظام القانوني السعودي، منذ البداية، مبنيًا على الشريعة، ويحمل علم السعودية الشهادة، على علم أخضر فوقه سيف، واختارت القاعدة التي تدعي أنها لا تريد إلا تطبيق الشريعة ـ عبر السيف إذا لزم الموضوع ـ في ما بعد شيئًا مشابهًا في علمها: علم أسود مختوم بالشهادة بالخط الأبيض. وعلى كل شهادات المملكة بالإيمان، لم يطابق ما رآه عبد الله فيها ما قرأه في القرآن، فقد أصبح المجتمع السعودي، كما اعتقد المراهق، أمة من المنافقين، يتجاهلون أوامر الله الواضحة باعتيادية، ففي كل عطلة نهاية أسبوع يقضي الرجال صلاة الصباح في الجوامع قبل أن يسرعوا عبر الممر إلى البحرين القريبة ليقضوا أمسية في البارات والديسكوهات المحرمة في المملكة، وفي المنازل، ترمى كتب القرآن جانبًا مثل أي كتاب آخر، فتكدس على الأرض وتعامل بلا اهتمام. كان عبد الله يعتقد أن على الناس معاملة كلمة الله بالاحترام التي تستحقه وعندما لا يفعلون يخسر أعصابه، وكبر الشاب الحساس الراكض في ملعب كرة القدم فتحول إلى متعصب ذي ستة عشر عامًا يحاضر رجالًا أكبر منه بعقود في معيب حلق ذقونهم.

بينما هو وإبراهيم يمران بالسيارة أمام مدرسة في أحد الأيام لمح عبد الله صندوقًا من القمامة ممتلئًا بالجرائد القديمة، فأوقف السيارة إلى جانب الطريق وكادت أن تنفجر دموعه، فتلك الصحف قد تحوي بعض أسماء الله التسعة والتسعين كما أخبر أخاه، «يجب التخلص منها باحترام، لا خلطها مع القمامة الأخرى أو استخدامها للف الطعام»، وعلى مدى الساعة التالية، جلس الأخوان يسحبان الأوراق الوسخة المخضلة من الصندوق، ويتذكر إبراهيم: «لم يتوقف حتى أزال كل قطعة من الأوراق»[1].

وقفت السعودية، بعد 9/ 11، إلى جانب الولايات المتحدة وأيدت حروبها في أفغانستان والعراق. كيف لهذا أن يكون؟ سأل عبد الله نفسه، لقد دعم السعوديون في الثمانينيات والتسعينيات الجهاد في أفغانستان والشيشان، فما الذي تغير؟

كان عبد الله، في معظم حياته يعتبر آراء علماء الدين الحكوميين هي الحقيقة التي يريدها الله، ولكنه الآن، لما تحولت اهتماماته من المجتمع نحو السياسة، بدأ يشك في إجاباتهم الحذرة، فالمسلمون مازالوا يحمون أرضهم ويحاربون غير المسلمين، كما

(1) Al-Najdi, «Biography of Abu al-Khayer» 51.

فعلوا في الثمانينيات والتسعينيات، ولكن الفرق هو العائلة الملكية، فبدلًا من أن تدعم الجهاد، وضعت أمنها المالي وحياتها الرغيدة أمام واجباتها كقائدة للمسلمين.

في 2004، مع تدهور الحرب في العراق نحو حلقات وحشية من العنف، انضم عبد الله وإبراهيم إلى مجموعة من السعوديين اليافعين المحضرين للانتقال عبر الحدود، وبينما ينهمر المتطوعون حصل شقاق في الخلية، فبقي كل أخ في إحدى المجموعتين، وقبل وقت قصير من موعد مغادرة إبراهيم - الذي ترك الجامعة ليركز على التدريب - إلى الرياض، أغارت قوات الأمن على بيتهم الآمن واعتقلت الخلية كاملة، «حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف أن الحكومة السعودية تخدم الصليبيين» لاحظ إبراهيم فيما بعد[1].

زار عبد الله أخاه الأكبر في السجن، واستمع إلى تذمر إبراهيم من معاملة قوات الأمن له قائلًا: «هؤلاء كفار مختبئون في ثياب دين الله».

ظروف السجن ساعدت على دفع الأخوين إلى التطرُّف، وأقنعتهما بأنه لم يعد بالإمكان اعتبار حكام السعودية مسلمين حقيقيين، فباتوا الآن يفهمون لماذا تضرب القاعدة داخل السعودية، إذ إن العائلة الملكية اختارت طريقها لتقف مع الولايات المتحدة واليهود بدلًا من الضعفاء والمضطهدين، وعندما أُطلق سراح إبراهيم بعد شهور، انجذب الأخوان نحو سعوديين يافعين غاضبين آخرين لإعادة إقلاع حملة القاعدة الداخلية، وعلى الرغم من أن هذه الخلايا سيئة التنظيم وهاوية، فقد ظهر العديد منها في كل أنحاء البلاد في أواخر 2005.

في 24 شباط/ فبراير 2006، حاولت إحدى الخلايا أن تقود سيارتين مفخختين نحو مصفاة نفط بقيق في المنطقة الشرقية من السعودية، وبقيق أكبر منشأة لمعالجة النفط في العالم، فتعالج ثلثي صادرات السعودية من النفط يوميًا، وهذا وحده يساوي عشرة بالمئة من الإنتاج العالمي، وأخفق هجوم ما بعد الظهيرة الأهوج، ولكن الصدمة سببت ارتفاع أسعار النفط دولارين للبرميل[2].

في وزارة الداخلية في الرياض كان ابن الأمير نايف محمد يستشيط غضبًا، فقد كان

(1) نفس المصدر السابق،، 52.

(2) Khaled R. al-Rodhan, «The Impact of the Abqaiq Attack on Saudi Energy Security,» **Center of Strategic and International Studies**, February 27, 2006.

يعتقد أنه قضى على شبكة القاعدة في السعودية قبل عام في بلدة الراس، وتعهد الأمير ذو الستة والأربعين عامًا بحملة لا هوادة فيها، وسرعان ما قضى جنوده على عدة خلايا، وفي أواخر حزيران/ يونيو ضربوا بيت القاعدة الآمن في شمال الرياض، ولما سمع إبراهيم شذرات التقارير عن الغارة التي حدثت ذلك العصر، اقترح أن يهربوا: «علينا الذهاب إلى اليمن»(1)، فتردد عبد الله، إذ كان غاضبًا لاعتقال أصدقائه ويريد البقاء والقتال، لا الهروب، وأخيرًا، وبعد نقاش حام، انصاع إلى توسلات أخيه؛ لقد حان وقت الهروب.

والدهما مولود في عسير، محافظة جبلية على الحدود اليمنية، وبعض عائلته لا يزال يعيش هناك، فتوجه الأخوان جنوبًا في حذر مبتعدين عن الطرق الرئيسية، فدوريات الحدود السعودية تتجول بين طرق الصحراء باحثة عن اللاجئين الاقتصاديين والمهربين الذين يقطعون الحدود من اليمن، وتحرك الأخوان ببطء في الصحراء، وليس معهم إلا مسدس صغير، مخيمين حيث استطاعوا في الصحراء القليلة السكان، وكلما رأوا إحدى سيارات الدفع الرباعي التي يقودها الحرس السعوديون تلمع يسارعان إلى الاختباء والانتظار، وكان الاثنان متسخين ومتعرقين في صيف تموز/ يوليو بينما تضرب أرجلهم الأرض عبر الجبال المنخفضة باتجاه اليمن.

ازدادت الدوريات لما اقتربوا من الحدود، وفي إحدى الأيام اعتقدا أن حراسًا رأوهما، فأمر عبد الله أخاه بالاختباء خلف صخرة كبيرة بينما اختبأ هو مقرفصًا خلف أخرى قائلًا: «عندما يمرون من هنا تطلق النار عليهم من المسدس، ومن ثم نأخذ أسلحتهم»(2).

نظر إبراهيم إلى وجه أخيه ذي العشرين عامًا المبلل بالعرق وبدأ بالضحك، فهذه الخطة من طباع عبد الله تمامًا: الأمل والتفاؤل فوق الواقع، فهما رجلان معهما مسدس صغير ضد دورية سعودية مدججة بالسلاح، فذكر إبراهيم أخاه: «ليس لدينا إلا ثلاث رصاصات»، وانتظر الاثنان، لكن الجنود لم يأتوا، وبعد بضعة أيام في 1 آب/ أغسطس، بعد خمسة أسابيع من مغادرتهم الرياض، عبر الاثنان الحدود إلى اليمن.

بعد الوضع الخانق في الرياض، حيث رجال نايف يغيرون باستمرار على بيوتهم الآمنة، وجد الأخوان عسيري في أمن اليمن الرخو تغيرًا مرحَّبًا به، فقد اندلع القتال في

(1) Al-Najdi, «Biography of Abu al-Khayer» 53.

(2) المصدر نفسه, 54.

الشمال، قريبًا من المكان الذي عبر فيه إبراهيم وعبد الله الحدود، بينما يعزز الحوثيون سيطرتهم على الريف، وفي صنعاء، بعد ثلاثة أيام مما دعته الصحف الحكومية «مظاهرات عفوية» قوامها العمال الحكوميون وطلاب المدارس، وافق صالح أخيرًا على أن يترشح مرة ثانية، وكانت الولايات المتحدة مشغولة مثله بانتخاباتها، فالديمقراطيون الكونغرسيون، يضغطون بقوة ضد حرب العراق وبدوا مهيئين لربح الأكثرية في المجلسين للمرة الأولى منذ سنوات، وكلما ساءت الحرب، تحسنت حظوظهم في الاستطلاعات، وحتى الضربة الجوية التي قتلت أبو مصعب الزرقاوي في حزيران/ يونيو 2006 لم تفعل الكثير لتخفيف قلق الرأي العام المتزايد، وفي آب/ أغسطس وصلت معارضة الحرب في العراق إلى مستوى جديد، فأجاب أكثر من 61% ممن شاركوا في استطلاع السي إن إن بأنهم لا يوافقون على الحرب، بينما لا يوافق 57% على أداء بوش بالمجمل[1].

وكان ثمة عقبات أخرى أقل حجمًا للحرب، فبدا العراق ثقبًا أسود عملاقًا يمتص موارد الحكومة وخبراتها حتى كاد ألّا يبقى أحد للعمل على بقية المنطقة، والطواقم الأساسية المتبقية في السي آي إي ووكالات الاستخبارات الأخرى - الممتلئة بالموظفين غير المتمرسين وذوي المهارات اللغوية المحدودة - لا وقت لديها، ولا هي تملك التدريب لملاحقة ثلاثة وعشرين سجينًا هربوا في اليمن.

بعد الهروب من السجن قبل ستة أشهر، في شباط 2006، كان الهاربون قد اختفوا، وكان الرجال يتحركون في مجموعات من اثنين وثلاثة، باحثين عن ملجأ أينما استطاعوا، وافترق ناصر الوحيشي وفواز الربيعي عن قاسم الريمي في ذلك الصباح، وخوفًا من أن تراقب منظمة الأمن السياسي عوائلهم وأصدقاءهم في صنعاء ركز الاثنان على معارفهما العرضيين، ولكن أحدًا من الرجال الذين تواصلوا معهم لم يقبل أن يساعد، فالكل مرتعب، وفي وقت متأخر من ذلك الصباح، وبينما بدأ الاثنان يفقدان الأمل، وافقت امرأة عجوز في مركز مدينة صنعاء على تخبئتهما[2]، وكانت تعيش على بعد ميل من مقر للأمن وكان ثمة ضباط يتجولون في دوريات في حيها، ولكنها لم تتردد

(1) «Poll: Opposition to war at all-time hight,» **CNN News**, August 21, 2006.

(2) Abu Hana al-Qarshi, «The women of Yemen and the crusade's war» (Arabic), **Sada al-Malahim** 11 (November 2009), 22.

أبدًا كما كتب الوحيشي فيما بعد مبديًا إعجابه بها، إن لطف تلك السيدة العجوز في ذلك الصباح الأول هو الشيء الوحيد الذي أنقذ الرجلين اللذين سوف يعيدان إحياء القاعدة في اليمن.

كما أراد الربيعي في أعقاب اعتقال أبيه في 2002، أراد الآن أن يجهز هجومًا فوريًا، فنصحه الوحيشي بالصبر، ولكن مع استمرار مضاعفات مفاوضات صالح القبلية، بدأ الرجلان بوضع خطة، إذ خلال أسبوعين، سلم أربعة من الهاربين أنفسهم مقابل أحكام مخففة، واعتقلت القوات اليمنية في نيسان/ أبريل هاربًا آخر في غارة على مبنى شقق في صنعاء، وكان ثمة ملهيات أخرى أيضًا، ففي ذلك الصيف مرض والد الربيعي العجوز، وبعد معرفة الربيعي بدخول والده إلى المشفى، تنكر على هيئة مريض ودخل إلى المستشفى ليزوره[1]، وجلس الربيعي إلى جانب سرير والده المريض مرتديًا بيجامة المستشفى، وأطلعه على ما حدث في الشهور التي أعقبت الهروب، فأخبر فواز ذو الستة والعشرين عامًا والده أنه قد خطب فتاة، ولم يره أبوه بهذه السعادة من قبل، وأكمل يشرح له أن الفتاة من عائلة جيدة، فأبوها يحيى مجلي مقاتل القاعدة الذي قتلته القوات اليمنية في أواخر 2002، وكان الربيعي مقربًا من أخوي الفتاة، حزام وعارف، اللذين أصبحا وليي أمر الفتاة، وفي السجن وضع الثلاثة تفاصيل الزواج الذي اعتقدوا أنه سوف يوحد عائلتين من أعظم عوائل اليمن الجهادية، فاستمع والد الربيعي إلى ابنه يتحدث عن أحلامه والزواج والعائلة التي يأمل في أن تكون، وعلى مدى الساعات الأربع التالية، تحدث الاثنان بالهمس، وأخبر يحيى الربيعي ابنه كم هو يقدره، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي سوف يتحدث فيها الاثنان إلى بعضهما بعضًا.

بعد إخفاق الحملة السعودية في 2003 – 2004، كان ابن لادن قد أصدر رسائل صوتية متكررة يدعو فيها إلى هجمات على صناعة النفط في الخليج الفارسي، وكانت محاولة التفجير في بقيق في شباط 2006، إحدى الاستجابات إلى هذه الرسائل، وفي ذلك الخريف وضع الربيعي خطة مشابهة في اليمن فقرر الربيعي، مع بعض السجناء الهاربين الآخرين وبمباركة الوحيشي، أن يهاجموا مرفأ النفط في حضرموت على ساحل اليمن الجنوبي، ومصفاة للنفط في الصحراء إلى الشرق من صنعاء.

(1) Al-Shar'abi, «From the house of Fawaz al-Rabi'i».

في 15 أيلول/ سبتمبر 2006، قبل خمسة أيام من انتخابات اليمن الرئاسية، أعطى الربيعي الأمر، وكان قد نظم زوجًا من الفرق الانتحارية في كل منها رجلان؛ وكل فريق يقوده أحد الهاربين من السجن وفيه مساعد متطوع أصغر في سيارة منفصلة، وكانت الخطة بشكل أساسي هي تفجير سيارتين متلاحقتين، السيارة الأولى تضرب الحراس على البوابة، حتى تستطيع السيارة الانتحارية الثانية من الدخول بدون عوائق باتجاه الهدف داخل المجمع. فأدى الرجال صلواتهم في صباح الهجوم وحمَّلوا السيارات الأربع بأسطوانات غاز مفخخة بالتي إن تي، وتنكر الفريق الأول كعامل نفط وشرطي، فضرب ميناء ضبى في حضرموت في الساعة 5:15 صباحًا، ولكن أي من السيارتين لم تستطع أن تخترق البوابة فانفجرتا تحت وابل من نيران الرشاشات قرب البوابة. وبعد خمس وثلاثين دقيقة من ذلك، في الساعة 5:50 صباحًا، قاد الفريق الثاني سيارتيه نحو المحيط الأمني حول مصفاة مأرب شرق صنعاء، وأخافت السيارات المسرعة الحراس ففتحوا النار وفجروا السيارتين قبل أن يخترقا البوابة.

كتب عمر جار الله، وهو المفجر الأساسي في هجوم مأرب، في وصيته قبل خمسة أيام من الهجوم ناصحًا رفاقه المقاتلين بألا يستسلموا مهما كانت النتائج: «هذا طريق محفوف بالمخاطر والصعوبات والمشاكل والمشقات»[1].

Umar Jarallah, «The last will and testament of Umar Jarallah» (Arabic), **Sada al-Malahim** 10 (1) (September 2009), 48.

الفصل الثاني

إحياء القاعدة

2006 - 2007

خلال أقل من أسبوع من محاولة التفجير المخفقة، فاز صالح في إعادة الانتخابات بنسبة 80 بالمائة من الأصوات، ومن ثم بدأ بملاحقة القاعدة، ففي 1 تشرين الأول/ أكتوبر، حاصرت القوات اليمنية منزلًا بطابقين على مشارف صنعاء، حيث اعتقدوا أن فواز الربيعي وهاربًا آخر، محمد الديلمي، يختبئان، والمنزل الضيق المصنوع من الطوب مبني إلى جانب الطريق على منحدر خفيف محشور بين موقعٍ للبناء وجدارٍ من اللبن طوله 6 أقدام يجتمعان معًا ليشكلا ممرًا ضيقًا يفضي إلى المنزل، وفي حوالي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم، تمركز الجنود في ظلال المبنى المجاور الذي لا يزال قيد الإنشاء بينما رابض آخرون خلف الجدار، وكانوا قد أغاروا، قبل عدة أسابيع، على بيتٍ آمنٍ آخر من بيوت القاعدة في صنعاء، وهو البيت الثاني الذي يقتحمونه منذ عملية الهروب من السجن، وفي كلتا المرتين السابقتين استسلم الهاربون بدون أي مقاومة، لكن أُحيط الجنود علمًا أن يتوقعوا شيئًا مختلفًا هذه المرة، فقد يقاوم الربيعي، وأمل بعض الرجال سرًا أن يقاوم حقًا، فقد هرب الربيعي منهم مرةً، قبل عدة سنوات، وخلال أسابيع هروبه بعد تلك المداهمة في 2003، قام بقتل جنديٍّ نقطة تفتيش في أبين.

صرخ الجنود قائلين للأشخاص الموجودين في الداخل أن يخرجوا، ومن ثم أخذوا نفسًا عميقًا وانتظروا، لم يكن هنالك أي استجابة لمدة دقيقة، من ثم رن صوت رصاصةٍ واحدة، ففتحوا النار على البيت حسب أوامرهم، وركزوا نيرانهم على نافذتي الطابق العلوي، فحطم وابل النيران الجدران الخارجية فدفع بالكثير من اللبن والإسمنت في

الهواء، ورد الرجال النار من داخل المنزل، فقذفوا القنابل اليدوية وأصابع الديناميت من النوافذ الضيقة، وأصيب الديلمي برصاصات أحد الجنود بين عينيه تقريبًا[1]، فقتلته على الفور، وعندما خفت صوت الأسلحة الأوتوماتيكية، سمع الجنود الربيعي يصرخ من داخل المنزل بأنه كان مستعدًا للاستسلام، ولم تدم المعركة سوى دقائق قليلة.

رمى الربيعي مسدسه على التراب بينما كان يختلس النظر من خلف باب الطابق الأرضي نحو الكاراج، ورفع الربيعي قميصه ليثبت أنه لم يكن يحمل قنبلةً مشدودةً إلى صدره، ومن ثم بدأ بشق طريقه ببطء محاطًا بالجدار الطيني على يمينه، والبناء نصف المشيد على يساره في الممر الضيق، ووجه أحد الجنود من مكان ما سلاحه وضغط على الزناد، فأصابت الرصاصة الربيعي في صدره[2]، فقُتِل آخر قادة القاعدة الأصليين في اليمن والمختار من قبل ابن لادن شخصيًا على بعد أقدامٍ من الباب. لقد ادعت وسائل الإعلام الرسمية فيما بعد أن الديلمي والربيعي ماتا في إطلاق النار المتبادل[3]، لكن الخبر انتشر داخل مجتمع المجاهدين: الربيعي قتل أعزلَ، وكانت الرسالة واضحة: إذا قتلتَ القاعدة جنودًا، فإن الجيش سيرد بالمثل.

لم يصدق والد الربيعي، يحيى، الرواية الرسمية أبدًا، وبينما كان يتلقى التعازي بعد عدة أيام في خيمة للعزاء في المدينة، سرح عقله في مصير أولاده الأربعة، ففواز مات، وأبو بكر الذي قاتل لحساب القاعدة أيضًا في السجن، أما سلمان أصغر أولاده الذي لم يره منذ خمس سنوات في غوانتنامو، وحسن أكبر أولاده لم يكن يقبل التحدث إليه حتى، بعد سنواتٍ اعتقلته الحكومة فيها كلَّ مرةٍ أرادت أن تضغط على إخوته.. بطريقةٍ أو بأخرى، كل أولاده قد رحلوا، وسهر يحيى الربيعي على جثة ابنه وحيدًا، وعلى الرغم من ذلك قال للرجال الذين جاؤوا ليمسحوا على يديه ويهمسوا في أذنه أن يفخر بموت فواز: «عاش ابني كالأسد، ومات كالأسد»[4].

فتح موت الربيعي الباب أمام الوحيشي ليتحكم بشكلٍ مطلق بعملية إعادة بناء القاعدة،

(1) Murad Hashim, «Report from Sanaa» (Arabic), **al-Jazeera**, October 1, 2006.

(2) مقابلة الكاتب مع محمد الأحمدي في صنعاء في آب/ أغسطس 2009.

(3) Arafat Madabish, «Yemeni security services kill two of the most dangerous members of al-Qaeda and arrest a third» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, October 2, 2006.

(4) Shar'abi, «From the houses of Fawaz al-Rabi'i».

وعمل سكرتير ابن لادن السابق طوال ذلك الشتاء على إضافة بصمته الشخصية إلى الجماعة جاعلًا إياها أكثر منهجية وتحملًا، فاستخدم الخطط التي رأى ابن لادن يصقلها في أفغانستان، واستطاع الوحيشي بناء شبكةٍ يؤمن أنها تستطيع البقاء، كان يعرف ماذا حدث في المرة الأولى في اليمن، عندما شل موت الحارثي الشبكة، ورأى الإخفاقات في العراق والسعودية، فقد اضطرت القاعدة أن تتعلم من أخطائها.

سلك الوحيشي قوسًا ضخمًا، فشق طريقه شرقًا خارجًا من صنعاء نحو صحارى مأرب ومن ثم شمالًا نحو الأراضي البور في الجوف قبل أن ينعطف جنوبًا عائدًا إلى جبال شبوة وأبين حيث كان قد ولد، فقام بالتجنيد محليًا، مجتذبًا الرجال بالطريقة ذاتها التي جذبهم بها وهو في السجن، فعلى الرغم من أنه كان بعيدًا عن اليمن منذ عقدٍ تقريبًا، كان لا يزال يعرف الطريقة التي يعمل بها المجتمع، وأهمية الروابط القبلية والعشائرية. لقد وضع الوحيشي، جنبًا إلى جنب مع قاسم الريمي، الأساسات لمنظمةٍ مديدة، فعين أمراء محليين، أي قادة، يقومون بتوجيه عمليات القاعدة من مناطقهم المحلية، ووضع المحاربان القديمان المخضرمان في أفغانستان أولوية للقبائل الكبرى والعائلات البارزة، إذ أراد الوحيشي لرجاله أن يكونوا مرتبطين بالدم والقبيلة إلى بنية السلطة في مناطقهم، فقد كان هذا هو ضمانه ضد الضغط الذي لا مفر من قدومه.

خلال أشهر الشتاء القاسي والجاف في اليمن، جلس الوحيشي في مجالس مزدحمة على طول قوس جغرافية نفوذه، يصنع الخطط ويستمع إلى الاقتراحات، وفي وقتٍ مبكر من عام 2007، انتخب أحد هذه المجالس الوحيشي رئيسًا للقاعدة في اليمن، وتمامًا كما فعل معلمه ابن لادن، طالب الوحيشي كل رجلٍ أن يقسم له قسم الطاعة المعروف بالبيعة، لقد أقسم الربيعي منذ 9 سنوات قسمًا مشابهًا لابن لادن واعدًا بأن يطيع أوامر قائده الذي يبجله، والآن بات المجندون الذين ما ذهبوا إلى أفغانستان قط يبايعونه بالطريقة نفسها ويصبحون جزءًا من حلقة ابن لادن؛ تلاميذَ لتلميذه، وكان الوحيشي صلتهم بالثمانينيات والأيام العظيمة للجهاد في أفغانستان.

أقسم بعض المجندين السعوديين، كعبد الله العسيري، فيما بعد قسمًا ثانيًا[1]، وعدوا فيه بتنفيذ هجومٍ انتحاري متى أمر الوحيشي بذلك، وبينما غرزت القاعدة جذورها في

(1) Najadi, «Biography of Abou al-Khayer» 54.

اليمن، بنى الوحيشي سلسلة القيادة، وفي منتصف قوسه، إلى الشرق من صنعاء في محافظة مأرب مباشرة تقريبًا، قام الوحيشي بتعيين علي ضحى قائدًا في تلك المنطقة[1]، وهو قَبَليٌّ ذو وجهٍ طفولي وشارب خفيف كالظل، ووصف ضحى زميلٌ له من أعضاء القاعدة بـ«اللؤلؤةِ الثمينة»، وكان أحد الذين تم تجنيدهم في السجن[2]، لقد كان ضحى صغيرًا، ومعجبًا كثيرًا بالوحيشي وتجربته في أفغانستان، والأهم من ذلك كله، أنه من قبيلة العبيده القوية.

نظّم ضحى بسرعة بعض السجناء السابقين الآخرين في خلية، وكانت مأرب هي مكان ضربة الطائرة بدون طيار التي قتلت الحارثي وأسهمت في تدمير شبكة القاعدة الأولية في اليمن، وبعد هروبهم من السجن، قام الوحيشي ومعاونوه بتجميع لائحة من الأسماء للاغتيال، فركزوا على مجموعتين من الضباط اليمنيين: الذين قاموا بتعذيب أعضاء القاعدة والذين عملوا على نحو وثيق مع الولايات المتحدة، ودعوهم بـ«المذنبين»، وعلى رأس قائمتهم تقريبًا الكولونيل والمحقق الجنائي علي محمود قصيلة ذو الثلاثة والأربعين عامًا، وظن الوحيشي أن محقق الشرطة البدين كان صلة الولايات المتحدة المحلية في ضربتها عام 2002 على الحارثي[3]، وكون قصيلة غريبًا عن مأرب لن ينتج عن موته ثأر من القبائل.

كما علمه ابن لادن، ترك الوحيشي التفاصيل كلها لرجاله على الأرض: مركزية القرار ولا مركزية التنفيذ، ولم يواجه ضحى وخليته المكونة من ثلاثة رجال الكثير من الصعوبة في التخطيط لعملية الاغتيال، فالصلات العائلية والقبلية استطاعت أن تبقي الرجال على اطلاع على تحركات الكولونيل، وخلية ضُحى خبيرة بالجغرافية المحلية: كل المنخفضات المخفية ومجاري الأنهار الجافة التي تعرف باسم **الأودية** التي تتخلل تلك المنطقة.

في وقتٍ متأخر من ليلة 29 آذار/ مارس، نصب الرجال كمينهم على الطريق خارج مدينة مأرب، وعندما خرج الرجال الثلاثة من الظلال المتكونة خلف كثيبٍ رملي أمطروا سيارة قصيلة بالرصاص وتركوا جثة المحقق لا حياة فيها مرتخيةً على مقعده واختفوا.

(1) «Obituary of Abd al-Aziz Juradan» (Arabic) **Sada al-Malahim** 2 (March 2008), 20.

(2) «Interview with with Nayif al-Qahtani» (Arabic), **Sada al- Malahim** 1 (January 2008), 8.

(3) Faysal Mukrim, «Yemen: al-Qaeda announces its responsibility for assassination an officer and threatens others» (Arabic), **al-Hayat**, May 1, 2007.

قامت الحكومة بتأبين قصيلة بمراسم دفن رسمية في صنعاء، لكن التحقيق في موته تعثر وتوقف دون شهود أو مشتبه بهم[1]، ولم يُحدِث هجوم القاعدة الناجح الأول في اليمن منذ سنوات تأثيرًا كبيرًا في صنعاء.

في آيار/ مايو نُشرت مقالة في اليومية القومية العروبية **الحياة** تقترح نقلًا عن مصادر في مأرب أن القاعدة خلف الكمين[2]، فبثّ المقالُ الحياة من جديد في التحقيق الضعيف وقام مسؤولون في وزارة الداخلية بنشر إعلان على نصف صفحةٍ معلنين عن جائزة قدرها 25000 دولار مقابل معلوماتٍ تؤدي إلى اعتقال الخلية المسؤولة[3]، ولكن بينما حاولت الحكومة تدارك الزمن كانت القاعدة مشغولةً بإحكام صفوفها.

كان الجهاد المحلي مثار جدل، حتى بين اليمنيين الذين قاتلوا في العراق و أفغانستان، فالعديد من المحاربين القدماء كانوا ضد فكرة الوحيشي بإعادة بناء القاعدة في اليمن، فسألوا المبعوثين المتحمسين الذين أرسلهم الوحيشي: لماذا هنا؟ ولم يستطيعوا أن يفهموا الحاجة إلى الجهاد في الوطن، فهم ذهبوا إلى العراق وأفغانستان بسبب اجتياح الولايات المتحدة، الذي أثار فكرة الجهاد الدفاعي، وتطلّب مشاركتهم، لقد توجب عليهم القتال دفاعًا عن الأراضي المسلمة، ولكن هل هذه هي الحالة حقًا في اليمن؟ فالولايات المتحدة لم تقم بالاجتياح، وبرغم كل ما تدعيه القاعدة، فصالح لا يزال مسلمًا شكليًا، وقال الرجال: أنه إذا أراد السجناء الهاربون أن يقاتلوا بشدة فعليهم الذهاب إلى العراق أو أفغانستان حيث يمكنهم قتال الأميركيين مباشرةً.

استمع الوحيشي إلى نقدهم، وكان يتفهم الذي يقولونه، فهو نفسه على أية حال غادر اليمن عام 1998 ليحارب في الخارج، لكن الرجال لم يدركوا كم تغيرت الأمور، لقد جادل أنه بعد 11 أيلول/ سبتمبر لم تعد هنالك أطرافٌ محايدة، فاليمن قررت الوقوف إلى جانب الولايات المتحدة، وبالإضافة إلى ذلك، أصر الوحيشي أن ليس عليهم إلا أن ينظروا حولهم ليروا أن اليمن أيضًا ترزح تحت هجوم عسكريٍ غربي، وبصبرٍ بيَّن القائد معسول اللسان للمشككين الأدلة: هجوم الطائرة من دون طيار التي قتلت الحارثي،

(1) Abd al-Was'a al-Hamdi, «The funeral procession of the martyr Ali Qasaylah brings him to his final resting place in Martyr's Cemetery» (Arabic), **al-Thawra**, April 3, 2007.

(2) Mukrim, «Yemen: al-Qaeda announces its responsibility.»

(3) Gregory D. Johnsen, «Is al-Qaeda in Yemen Regrouping?» **Terrorism Focus**, May 22, 2007.

واستهداف الجهاديين الذين لم يرتكبوا أي جرم في اليمن، وقرار الحكومة بمنع السفر إلى العراق، كل هذا تم بأمرٍ من الولايات المتحدة، لكن كل النظر من أي جانب يؤدي إلى نتيجةٍ واحدة: اليمن مسرح شرعي للجهاد، تمامًا كالعراق وأفغانستان.

لم يقتنع سوى قلة من المخضرمين، لقد أنهوا واجبهم في القتال، والجهاد ملعب الشباب الصغار، لكن الوحيشي حذرهم من كون رجاله غير مساومين، فإما أن يكونوا معهم أو ضدهم.

في 22 آيار/مايو استحال الجدال دمًا، ففي 7:30 من صباح ذلك اليوم أخبر فارس الريمي[1]، الأخ الأصغر لقاسم، أمه بأنه سوف يخرج هذا اليوم، ومع أنه ما زال في الثالثة والعشرين من عمره، فقد حارب فارس في أفغانستان والعراق، وكان متعبًا، وبينما اختلست العجوز النظر من النافذة تراقب ابنها وهو يغادر لمحت رجلًا لم تعرفه ينتظر في الشارع، وحيّا ابنها الرجل، مقبّلًا إياه على خده ومسلمًا عليه باليد، ومن ثم خرج الاثنان من مرمى نظرها.

زكريا اليافعي، الرجل الذي كان في الشارع، كان أحد الهاربين الأوائل الذين سلموا أنفسهم ليستفيدوا من عرض صالح بحكمٍ مخفف، لكنه بقي على تواصل مع هاربين آخرين ما زالوا هاربين، ولقد وعد بإرشاد فارس إلى المنزل الآمن الذي يختبئ أخوه فيه، هذا ما قاله اليافعي على الأقل، وكانت القاعدة تضغط على فارس منذ أشهر، وتسأله القيام بهجومٍ في اليمن، لكنه رفضهم في كل مرة، وأخبرهم أن جهاده قد انتهى فهو لا يريد إلا رؤية أخيه.

حوالي الساعة 10:30 صباحًا بعد ثلاثِ ساعاتٍ من توديع فارس لأمه، لاحظ أحد المارة كتلة غير عادية تبرز من التراب والنفايات مكومةً في شارعٍ جانبيٍ ضيق في صنعاء، ولما اقترب الرجل رأى الدم ومن ثم الجسم، لقد تلقى فارس سبع رصاصاتٍ في الرأس والصدر، وأسرعت به إحدى سيارات الإسعاف إلى المشفى، لكنه لم يسترجع وعيه أبدًا ومات بعد أسبوعٍ من ذلك.

اتصل قاسم بوالديه، وشرح لهم أن «عصابة» قتلت أخاه: «لم يكن لي دخلٌ بالموضوع» أقسم لوالده، وعلى أية حال، سوف يتبنى قاسم بعد شهرٍ نوع الجهاد غير المساوم نفسه الذي أدى إلى مقتل أخيه.

(1) Muhammad al-Ahmadi, «Details on the death of Faris al-Raymi» (Arabic), **in al-Ghad**, June 25, 2007.

في 21 حزيران/ يونيو، أصدر الريمي تسجيلًا صوتيًا مدته 21 دقيقة موجهًا إلى حرس القاعدة القديم في اليمن، إلى الرجال أنفسهم الذين حاول هو والوحيشي عبثًا أن يجندوهم على مر العام السابق، وأعلن أن الوقت قد حان ليختاروا أحد الجانبين.

في أول إعلانٍ رسميٍّ عن عودة القاعدة إلى اليمن، قال الريمي أن الجماعة اختارت ناصر الوحيشي قائدًا لها، لكن أغلب رسالته المسجلة كان مناشدةً مطولة، فحذر الريمي بصوته العميق من مخاطر المفاوضات مع حكومة صالح، فقال: أن التسويات التي يقدمها لكم هذا الرئيس ليست أكثر من «تحالف خيانة مع الطغاة»، ولا يمكن إيقاف الجهاد لأي سبب بغض النظر عن مدى نبله، إذ لا يمكن أن تقوم أية مفاوضات أو صفقات، ولا حتى مقابل إطلاق سراح سجناء القاعدة في سجون صالح، فقال الريمي شارحًا: «إذا قُتلوا يصبحون شهداءَ، كيف يمكن إيقاف الجهاد لمصلحة السجناء إذًا؟ عودوا إلى رشدكم»[1].

بعد ستة أيام، أصدرت القاعدة بيانًا آخرَ، و تحدثت القاعدة مباشرةً إلى الحكومة هذه المرة، فنشرت نداءها في صحيفةٍ محليةٍ، وكان لدى الجماعة أربعة مطالب: إطلاق صالح لسراح كل أعضاء القاعدة المسجونين في السجون، وإزالة القيود التي تمنع السفر إلى العراق، وإيقاف التعاون مع أعداء الإسلام وبالأخص الولايات المتحدة، والعودة إلى تحكيم الشريعة[2]، وإذا أخفق صالح في تلبية أيٍّ من مطالبهم فالقاعدة مستعدةٌ للتصرف، كما يحذر البيان.

في الشهر نفسه، وكأنما لتأكيد الخطر المتزايد الذي شكله السجناء الهاربون، أطلقت اليو أس أس **شافيه** - وهي مدمرة يبلغ طولها 508 أقدام تحمل صواريخَ موجهةً تقوم بدورياتٍ في خليج عدن - عدةَ صواريخَ على اجتماعٍ للإسلاميين في شمال الصومال، و كان بين الأموات منصور البيحاني[3]، وهو أحد السجناء الهاربين الذين سلموا أنفسهم للسلطات مقابل حكمٍ مخفف، وفي ذلك الوقت كان البيحاني قد وعد أنه لن يقوم بأي

(1) Gregory D. Johnsen and Brain O'Neill, «Yemen attack revels struggle among al-Qaeda's ranks» **Terrorism Focus**, July 10, 2007.

(2) Al-Shar'a (Arabic), reprinted in **New Yemen**, July 2, 2007.

(3) Muhammd al-Ahmadi, «al-Bayhani first Yemeni from al-Qaeda to be killed in US airstrike» (Arabic), **al-Ghad**, June 20, 2007.

هجومٍ في اليمن، وبينما حافظ البيحاني على وعده في الصفقة ـ مقاتلًا في الصومال بدلًا من اليمن ـ بات من الواضح أن صفقات صالح الشخصية ليست حلًّا.

بعد موت البيحاني بأيام نفذت القاعدة وعيدها بالتحرك في اليمن، ففي 2 تموز/ يوليو، بعد أقل من أسبوع من البيان المنشور، ضربت خلية مأرب التابعة لضحى مجددًا.

بعد اغتيال القصيلة ألح القبليون الثلاثة للحصول على فرصةٍ جديدة، فأرسل لهم العناصر في صنعاء شابًا يمنيًا يدعى عبده محمد الرهيقة جندوه كانتحاريٍ مُفَجِّرٍ، لقد ترعرع الشاب ذو الواحد والعشرين عامًا في قذارة حي المُسيك المزدحم في صنعاء على بعد بضعة مبانٍ من سفارة الولايات المتحدة وحسب، وكانت الخطة هذه المرة هي الهجوم على واحدةٍ من قوافل السياح الذين غالبًا ما يزورون مأرب.

قبل قرونٍ عدة، وبالقرب من نهاية حياته، أمر محمد أتباعه بـ«طرد المشركين من جزيرة العرب»، وكان ابن لادن قد دعا إلى تطبيق النصيحة النبوية قبل خمسة عشر عامًا عن طريق هجوم القاعدة الأول على الفندق في عدن، واستمر الوحيشي والريمي بأخذ النصيحة على محمل الجد، فاستخدم الاثنان الأمر ليبنوا نظريةً في الجهاد تبرر أي هجومٍ أمروا به، فالسياح عند القاعدة ليسوا مدنيين بريئين، بل هم غير مسلمين في شبه جزيرة الرسول وعليه فقد كانوا أهدافًا مشروعة.

لا يزور اليمن الكثير من السياح، لكن القليلين الذين يأتون غالبًا ما يقضون يوم رحلة إلى مأرب لزيارة معبدي ملكة سبأ الأسطورية التي يذكرها الكتاب المقدس معاصرةً للملك سليمان، لم تكن المواقع الأثرية التي تفتقر إلى الصيانة أكثر من بقعتين مسيجتين من الرمال ذواتيْ أعمدةٍ حجرية في الوسط، وبالنسبة إلى القاعدة على أية حال كان ذلك موقعًا مثاليًا؛ فهو موقع منحصر وله مخرجٌ وحيد.

تضمنت خطة ضحى أن يقود الرهيقة سيارةً مفخخة إلى قافلة السياح بينما تخرج من أرض المعبد، إذ إن سرعتهم ستكون منخفضة والسيارات ستكون مكشوفة وعرضة للهجوم بينما يستديرون للعودة إلى الطريق الرئيسي، وبالإضافة إلى ذلك ستكون السيارات محتشدة معًا عند الخروج، مما يعطي القاعدة فرصةً أفضل لتحقيق أكبر قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، وتوجد مشكلةٌ واحدةٌ فقط: أن الرهيقة لا يعرف كيف يقود، وعلى مدى أسابيع

أخذه الرجال إلى الصحراء ليعلموه التوجيه والسرعة في وديان المنطقة الوعرة[1]، وأخيرًا مرر ضحى الكلمة: الشاب بات مستعدًّا.

في الأيام التي سبقت الهجمة لازم مصور من القاعدة الرهيقة كظله مسجلًا وصيته الأخيرة وشهادته، ومصورًا ساعات من فيديوهات التجنيد المستقبلية، وفي ليلة الهجوم قام مصور القاعدة بتصوير الانتحاري المستقبلي يَقيل في بستانٍ لأشجار الفاكهة، بدا الرهيقة كالطفل الصغير، وهو مستلقٍ فوق بطانيةٍ رقيقة وشعره مجعدٌ حول أذنيه، وكبّرت الكاميرا وجهه، كان ناعمًا ومسترخيًا في نومه، وبقيت كذلك بضعَ ثوانٍ قبل أن تتحرك بعيدًا نحو الأشجار والصحراء التي وراءها، عُنْوِن الشريط لاحقًا: «الشهيد يرتاح قبل العملية»[2].

بعد ظهر اليوم التالي، وبينما كانت بقية البلاد تركن إلى جلسة مضغ القات اليومية، حرك الرهيقة سيارته إلى مكانها، ووُضِعَتْ المتفجرات، التي صنعها تقنيو القاعدة للعملية، خلفه في المقعد الخلفي متناثرةً على أرض سيارة التويوتا لاند كروزر موديل 1982، وعلى بعد عدة مئاتٍ من الياردات فوق نتوءين منخفضين وبعيدًا عن الأنظار، جهز المصور معداته وانتظر، واستطاع الرهيقة رؤية السياح وهم يلتقطون الصور الأخيرة بينما كانوا يتزاحمون عائدين إلى سياراتهم التويوتا لاند كروزر المغبرة، وبينما خرجت السيارة الأولى من الموقع، منعطفةً نحو الطريق الرئيسي العائد إلى المدينة، قام بتشغيل المحرك وتوجه نحو منتصف القافلة.

محا الانفجار إحدى سيارات السياح اللاند كروزر تقريبًا، ونشر قطعًا من المعدن واللحم البشري على الإسفلت وخارج الطريق على الرمال، فطار الهيكل المعدني المسحوق لسيارةٍ أخرى ووقع على بعد أقدامٍ من الطريق، حيث احترق لساعات.

على بعد عدة مئاتٍ من الياردات، سمع مصور القاعدة صوت الانفجار قبل أن يراه، وارتفع صوت «البووم» المكتوم فوق تشويش الريح التي تطن في الميكروفون، وقام بمسح مشهد الأرض القاحلة، بينما حمل الكاميرا في يده، مضخمًا بجشع عمود الدخان الذي يرتفع فوق الكثبان الرملية، وحافظ على اللقطة عدةَ دقائق، مراقبًا بصمت الدخان وهو

(1) «The Marib cell» (Arabic), 26th of September, August 2, 2007.

(2) The Video was posted to the al-Ikhlas Web forum on March 29, 2008. See Gregory D. Johnsen, «al-Qa'ida in Yemen's 2008 Campaign,» CTC sentinel, April 2008.

يتقلَّب صعودًا كقبضةٍ مرتفعةٍ قبل أن يتشتت ويتبدد في النهاية، وفي الفيديو الذي أصدرته القاعدة لاحقًا لم يكن ثمة أي تعليق، الصور الصامتة للدخان والرمال وحسب[1].

قضى المحققون أيامًا في تمشيط الرمال، يقومون بعناء بتجميع أجزاءٍ من أجسام السياح الإسبان السبعة والسائقين اليمنيين الذين قتلهم الرهيقة، ومات سائحٌ إسباني ثامن لاحقًا في المشفى.

على الفور تقريبًا، دخلت الحكومة في حالة الطيار الآلي، فدعا صالح لقلقه من تداعيات الأمر إلى مؤتمرٍ صحفي ولام العرب غير اليمنيين على الحادثة[2]، وحاول صالح كما فعل بهجومي اليو أس أس كول وناقلة النفط لمبورغ قبل عدة سنوات إظهارَ بلاده كضحية بدلًا من جزءٍ من المشكلة، فأخبر الصحفيين أن هذا فيروسٌ خارجي يقوم بإيذاء الأمة[3].

في الليلة التالية في 5 تموز/ يوليو قام صالح بمحاولةٍ أخرى ليرمي لوم الهجوم على الغرباء، فحوالى الساعة 10 مساءً حاصرت قوات مكافحة الإرهاب التابعة للحكومة شقةً في غربي صنعاء حيث يعيش أحمد دويدار - وهو مصريٌّ صلب البنية ويوشك على الصلع في الواحد والخمسين من عمره - مع زوجته اليمنية وأولاده، وكان مجاهدًا سابقًا في أفغانستان، وانتقل إلى صنعاء مع موجة المنفيين المصريين في منتصف التسعينيات، وكونه متهمًا غيابيًا في محاكمةٍ إرهابيةٍ ضخمة للعديدين من قبل محكمةٍ مصرية في عام 1999 لم يستطع دويدار مغادرة اليمن لخوفه من الاعتقال، وراقب عملاء صالح السريون المجاهد المتقاعد منذ أكثر من عقد، مسجلين كفاحه ليعيل عائلته ككهربائيٍّ بدوامٍ جزئي، والآن وجدوا استخدامًا له.

بعد شوطٍ من الطلقات التحذيرية سمح الجنود لزوجة دويدار وأولاده بمغادرة الشقة، ولكن توجب عليه أن يبقى في الداخل[4]، وفي الصباح التالي، نشرت صحيفةٌ رسميةٌ أنه قُتِلَ لمقاومته الاعتقال.

---

(1) المصدر السابق.

(2) Faysal Mukrim, «Ali Salih said that the suicide bomber was an Arab not a Yemeni» (Arabic), **al-Hayat**, July 4, 2007.

(3) Abd al-Aziz al-Oudah, «Saleh: Suicide bomber might not be Yemeni» **Yemen Observer**, July 8, 2007.

(4) Abd al-Aziz al-Oudah, «Saleh: Suicide bomber might not be Yemeni» **Yemen Observer**, July 8, 2007.

اعتقد صالح أن رد فعلٍ سريع على تفجير مأرب قد يشتري له بعض الوقت لدى المجتمع الدولي، لكنه عرف أن المشكلة أسوأ مما اعترف به خلال المؤتمر الصحفي، وفي 5 آب/ أغسطس بعد أكثر من شهر من التفجير الانتحاري ترك صالح صنعاء ليحْضر سلسلةً من اللقاءات مع قادة القبائل في مأرب[1]، فحذرهم صالح بأن دعمهم للقاعدة يجب أن يتوقف، إذْ انتهت أيام إيوائهم للهاربين والمجرمين، وعلى قبيلة العبيدة، كما شرح الرئيس، أن تفكر بمستقبلها، ولم يكن ثمة تهديدات صريحة لكن رسالة صالح كانت واضحة. وعلى الفور تقريبًا، شكل الشيوخ نوعًا من أنواع المخابرات، فأخبروا العملاء السريين الحكوميين عن بيت القاعدة الآمن، وبعد ثلاثة أيام توجه الجنود المدعومون بالدبابات والطائرات المروحية نحو البناء الطيني ذي الطابق الواحد، وانتهت الغارة الصباحية المبكرة قبل أن تبدأ، إذ لم يتوفر لمقاتلي القاعدة الأربعة المتفاجئين والمحاصرين الموجودين في الداخل فرصة على الإطلاق، فمات ثلاثةٌ منهم ومن ضمنهم علي ضحى خلال دقائق، وبينما استطاع أحد القبليين أن يخرج من الباب ويطلق نيران سلاحه بصورة عشوائية محاولًا أن يعدوَ عدوًا سريعًا في ثوبه الذي يصل إلى الكاحلين ليجد مخبأً، أردى قناصٌ من خلف كثيبٍ رملي الرجلَ الراكضَ برصاصةٍ دقيقة[2].

لقد تطلب الأمر بعضًا من الوقت لفرز وتركيب الأشلاء في الفوضى الدامية من الثياب والأعضاء داخل الكوخ الطيني ، إذ طار أنف ضحى بفعل الانفجار وبات فمه عبارةً عن خبيص دامٍ من الأسنان واللحم، وفي البداية ظن الجنود أنهم قد قتلوا قاسم الريمي[3] الذي اقترحِ الشيوخ أنه قد يكون مختبئًا في المنزل الآمن، لكن قائد القاعدة لم يكن هناك، و كانوا بدلًا من ذلك قد دمروا خلية علي ضحى في مأرب، فقتلوا القبليين الثلاثة وفتىً في الثامنة عشرة من عمره اعتقدت الحكومة أنه بديل للرهيقة؛ انتحاري تحت التدريب[4].

كان الوحيشي قد خطط تمامًا لمثل هذا النوع من الانتكاسات، ويعرف أن الخسائر

(1) Husayan al-Jarabani, «Yemeni president meets with Abidashaykhs» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, August 6, 2007.

(2) Al-Qaeda in the Arabian Peninsula, «Rubaysh: The Just Punishment» (Arabic), **al-Malahim** video, May 2009.

(3) «In a land and air attack between Marib and al-Jawf, Qasim al-Raymi and three others meet their death» (Arabic), **News Yemen**, August 8, 2007.

(4) «Interior Ministry: The terrorist who were killed in Marib were planning a new operation» (Arabic), **al-Mu'tamarr**, August 9, 2007.

ستحصل، ولهذا أصر على أن تكون كل خلية محتواةً داخل نفسها ومعزولةً عن باقي الشبكة، فتابع الوحيشي التجنيد والتخطيط وتابع الريمي إدارة مخيماته التدريبية المتحركة في الصحراء ناقلًا المهارات التي تعلمها في أفغانستان إلى الجيل الجديد من المقاتلين.

وفي صنعاء، أراد صالح أن يدفع قدمًا بسياسته في الصفقات الشخصية، وفي 6 تشرين الأول/ أكتوبر أعلنت اليمن أن جمال البدوي، الذي ساعد بتنظيم الهجوم على المدمرة كول، قد سلم نفسه إلى السلطات المحلية ووافق أن يتخلى عن الجهاد مقابل حصوله على حريته[1].

أرسل الرئيس بوش، المتفاجئ من أن اليمن تطلق سراح شخصٍ قتل بحارةً أميركيين وهو على لائحة المطلوبين لمكتب التحقيقات الفدرالي، مستشارتَه لشؤون الأمن الداخلي ومكافحة الإرهاب فرانسيس تونسيند إلى اليمن، وشاركت المدعي العام السابقة الحيوية التي تبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا رئيسها إحباطه، فجون أونيل كبير المحققين في الهجوم على المدمرة الأميركية **كول** كان من أصدقائها المقربين، وفي 11 أيلول/ سبتمبر أرسل لها عميل مكتب التحقيقات الفدرالي السابق رسالة مطمئنةً قبل أن يسحق حتى الموت عندما سقط البرج الأول[2]، وأرادت تاونسيند أن تنهي ما بدأه أونيل.

حاول صالح في أثناء الاجتماع في مكان إقامته الشتوي في عدن أن يطمئن تاونسيند، فقال لها: لا تقلقي على البدوي «إنه موضوعٌ تحت مجهري»[3]، وعلى الغداء، شرح صالح أنه تواصل مع البدوي على مدى أشهر، وهذه معلومات لم يقم بمشاركتها من قبل مع حلفائه الأميركيين، وتابع صالح أنه التقى شخصيًا بالهارب منذ أسبوعين من أجل نقاشٍ صريح، وقال صالح لها: «وعد البدوي أنه سوف يتخلى عن الإرهاب وأخبرته أنا أن تصرفاته قد آذت اليمن وصورتها، لقد بدأ يفهم».

---

(1) «Al-Qaeda militant surrenders after Yemen jailbreaks» **Reuters**, October 16, 2007.

(2) Susan B. Glasser and Peter Baker, «An outsider's quick rise to Bush terror adviser», **Washington Post**, August 27, 2005.

(3) «Townsend-Saleh meeting provides opening for additional CT cooperation», US diplomatic cable, October 30, 2007. Released **via Wikileaks**.

واستمعت تاونسيند بصمت بينما يصف صالح الصفقة بأنها نوع من الاعتقال في المنزل، فصحيح أن البدوي يقيم ويعمل في مزرعته خارج عدن لكن الحكومة تراقبه عن كثب، وهو لن يقوم بأي جرائم أخرى كما تعهد صالح.

لم يكن باستطاعة تاونسيند أن تقول الكثير، فالرئيس قد اتخذ قراره، فكافحت تاونسيند لتحصل على شيءٍ ما مفيدٍ من الزيارة، فجربت الأمر من زاويةٍ أخرى، وسألته إن كان باستطاعة الضباط الأميركيين استجواب البدوي، فأجاب الرئيس: طبعًا، ببساطة نسقوا مع منظمة الأمن السياسي.

حاولت تاونسيند عندما شعرت أن صالحًا بدأ يفقد صبره أن تغير الحديث، فسألت عن جهود اليمن لمحاربة تهريب السلاح، ولكن قبل أن تكمل كلامها قاطعها الرئيس، فلديه ضيفٌ آخر يريدها أن تلتقيه، ودخل فارس المناع، القبلي الشمالي الذي حاول الحوثيون أن يغتالوه وواحدٌ من كبار تجار السلاح في اليمن، إلى الغرفة.

قال صالح لمساعد الملحق القانوني في السفارة: «هيه، إف بي آي، إذا لم يتصرف على نحو ملائم يمكنكم أن تعيدوه معكم إلى واشنطن في طائرة تاونسيند أو أن ترسلوه إلى غوانتنامو»، وبينما أحضر طاقم الخدمة كرسيًا للمناع أضاف صالح أن الحكومة قد صادرت مؤخرًا واحدةً من شحنات الأسلحة للمناع مبقيةً إياها للاستخدام العسكري.

«يمكن اعتباره شخصًا وطنيًا الآن»، قالت تاونسيند مازحة.

«كلا»، ضحك صالح: «إنه عميل مزدوج، لقد أعطى أسلحةً للثوار الحوثيين أيضًا».

في برقيةٍ للسفارة مكتوبةٍ بعد أسبوع من ذلك الغداء[1]، حاول ستيفن سيش السفير الأميركي الجديد أن يفهم أداء صالح الغريب، فتعليقات صالح ووجود مناع في القصر تثير - كما كتب السفير بتصريح ديبلوماسيٍّ مُخفِّف - «أسئلةً جدية حول التزام الرئيس بإيقاف تهريب السلاح».

على الرغم من ذلك، كما أشار سيش، فإن هنالك سببًا يدعو للتفاؤل، إذ في 1 تشرين الأول/ نوفمبر، بعد عامين من حرمان اليمن من عضوية منظمة الألفية - المنظمة التي أسستها إدارة بوش لتربط المساعدات بالإصلاحات السياسية والاقتصادية - كان من

(1) المصدر السابق.

المقرر أن تُعاد العضوية،، واختتم سيش: «عمومًا، كان هذا اللقاء بنّاءً أكثر مما قد يظنه بعض المراقبين».

لم يعش تفاؤل السفير طويلًا ففي أثناء الحملة الانتخابية في الوطن، قبض الجمهوري رودلف جولياني - عمدة مدينة نيويورك الذي كان يأمل أن يصبح رئيسًا - على إطلاق سراح البدوي وبدأ بمطالبة اليمن بأن توقف انحيازها إلى جانب الإرهابيين: «كخطوةٍ أولى، أنا أحث حكومة الولايات المتحدة على أن تلغي المساعدات التي تزيد على 20 مليون دولار المقرر وصولها إلى اليمن»،[1] وبعد عدة أيام قامت الولايات المتحدة بفعل ما قال تمامًا، حارمةً اليمن من امتياز منظمة تحدي الألفية للمرة الثانية.

(1) «Giuliani: Cut off aid to Yemen over release of bombing suspect», **CNN News**, October 26, 2007.

الفصل الثالث

أصداء الملاحم

2008

في نهاية عام 2007، اقترح شاب سعودي في القاعدة يدعى نايف القحطاني فكرةً على الوحيشي[1]، فقد كان يريد أن يصدر مجلة، وكان فرع القاعدة السعودي قبل عدة سنوات قد قام بفعل شيءٍ مشابه، فنشر دورية إلكترونية تحتوي على الشروح والمبررات الدينية للضربات في المملكة، واعتقد القحطاني أن شيئًا مشابهًا قد يساعد على التجنيد في اليمن.

خلفية القحطاني وتعليمه المتواضع جعلا منه خيارًا غير مرجحٍ لترؤس هذا المشروع، فقد وصل إلى اليمن قبل عامٍ واحدٍ، وهو في التاسعة عشرة من عمره فقط، وهاربٌ من زواجٍ مترنح وزوجة حامل، وهو الأصغر بين عدة أولاد، وقد تربى على يد أخيه الأكبر بالكامل، الذي اعتنى به بعد وفاة والدهم قبل أكثر من عقدٍ مضى، وأخبر أخوه المراسلين الصحفيين لاحقًا: «هو لا يمتلك أي صفاتٍ قيادية»[2]، واصفًا القحطاني بالهادئ والخجل، ولكنَّ الوحيشي أعجب بسلوك المراهق الجديِّ وأخبره بأن يمضي قُدمًا في فكرته.

جلس الشاب السعودي أمام حاسوبه المحمول لأسابيع يُحَمِّلُ المواد ويكتب التقارير، فكتب عن اعتقال قوات علي عبد الله صالح للمقاتلين اليمنيين، وعن الوضع في فلسطين، وطبعًا عن الحرب في العراق، حتى إنه كتب لمحةً عن نفسه في مقابلةٍ من جزأين وُصِفَتْ

(1) Abu Khalid Assiri, «#4 Martyr Bio», **al-Malahim media**, December 21, 2010; Fahd al-Ray'i, «Weak and Misled Militant not al-Qaeda Material», **Saudi Gazette**, July 19, 2010.

(2) Al-Ray'i, «Weak and Misled Militant».

في المجلة بأنها حوار بين المحررين و«واحدٍ من أبرز المقاتلين السعوديين المطلوبين»[1]، فقد أدرك المحرر الجديد بالبداهة أن النجاح يولد النجاح.

بعد وقتٍ قصير من انتهائه من العمل على المجلة التي دعاها «**صدى الملاحم**»، التقى القحطانيُّ عدةَ مقاتلين آخرين في واحد من مخيمات التدريب المتنقلة في شمال اليمن، وبينما كان الرجال يستريحون في إحدى الليالي بعد التدريبات، بدؤوا بالتحدث عن أحلامهم بالجهاد، فقال عبد الله العسيري، الهارب السعودي النحيل الشاب الذي هرب إلى اليمن مع أخيه الأكبر، أن أمنيته الكبرى هي أن يقوم بما دعاه «عملية استشهادية» في السعودية، وجاءت علامات موافقةٍ وابتساماتٌ من الدائرة.

اعترف القحطاني بهدوء عندما جاء دوره ليتحدث: «أريد أن أُنشئ مؤسسةً لوسائل الإعلام»[2]، وشرح المراهق رؤيته لإمبراطورية نشر سوف تبنى على أساسات المجلة الجديدة، فتصدر كل شيء من تسجيلات الفيديو والصوت إلى مجموعات من الشعر والترانيم الجهادية، حتى إنه ذكر إمكانية كتابة مدونة، فشجع الوحيشي هذا الحديث الطموح، وفي بداية كانون الثاني/ يناير عام 2008، كان قد انتهى من التعديل على مسودة مجلة القحطاني، فأضافت قيادة القاعدة بيانًا يهدد الحكومة اليمنية بهجماتٍ أكثر إن لم تطلق سراح سجناء القاعدة المحتجزين لديها، وفي 13 كانون الثاني/ يناير عام 2008 نُشِرَ العدد الأول من **صدى الملاحم** في العديد من منتديات الجهاد الإلكترونية، وبعد خمسة أيام، ضربت القاعدة.

على بعد أكثر من **300** ميل شرقي صنعاء في وادي حضرموت الصحراوي البديع، أعدَّ حمزة القعيطي رجاله، والقعيطيُّ هو نفسُه رجلُ الدولة الأصلع الكبير في السن الذي ساعد في حل النزاعات في السجن، فحضرموت - والتي تعني «قد أتى الموت» بالعربية - أرضٌ مبيضَّة بالرمال والحجارة حيث لا ينمو شيءٌ تقريبًا، وتقارب مساحتها مساحة داكوتا الجنوبية، وتمتد من خليج عدن إلى الحدود السعودية بمساحة تقارب 75000 ميل مربع، وهي أكبر محافظات اليمن، وتبدو من الجو جرداءَ تمامًا كما يوحي اسمها؛ أميالٌ من المنحدرات البيضاء التي يشطرها وادي طوله 125 ميلًا ويصل إلى أكثر من 9 أميال في أعرض نقطة له،

(1) «Interview with al-Qahtani» (Arabic), **Sada al-malahim** 1 (January 2008), 8.

(2) Assiri, «#4 Martyr Bio».

وأدى نقص الحياة النباتية والحرارة الشديدة منذ قرونٍ عدةٍ مضت إلى نشوء أسطورة مفادها أنه يمكن العثور على بوابات الجحيم في واحدٍ من كهوف المنطقة العديدة.

تقطع ثلاثٌ من المدن القديمة المحاطة بأسوار مركزَ الوادي الموجود في مركز المحافظة، مضيفةً شريطًا ضيقًا من اللون الأخضر إلى المنطقة، أما في كل مكانٍ آخر فيسيطر اللون البني، وهنا على طول واحدٍ من الطرق الجانبية نصب القعيطيُّ كمينه، فأوقف شاحنته الصغيرة على حافة الطريق، وربض في الظل مع ثلاثة رجالٍ آخرين منتظرين قافلة السياح التي عرفوا أنها ستأتي[1]، وغالبًا ما يوقف البدويون في اليمن شاحناتهم على جانب الطريق بينما يسارعون إلى أداء الصلوات أو لاستراحة لدخول الحمام، وأَملَ القعيطيُّ ألّا تجذب شاحنته الفارغة ظاهريًا الكثير من الانتباه من سيارات اللاند كروزر العابرة، وصدقت آمالُه، فلم ينتبه السياح إلى أنهم في خطر حتى انزلق المسلحون نحو مقدمة الشاحنة الصغيرة وأطلقوا رشقاتٍ ناريةً قصيرة وثابتة من رشاشتهم، فتابع الرجال المقنعون إطلاق الرصاص وهم يسابقون السيارات الأربع صارخين «الله أكبر» ومطلقين النار نحوهم مرةً أخيرة.

هرب رجال القعيطيِّ المسلحون بسهولةٍ كما جاؤوا، فتركوا سيارات اللاند كروزر المثقبة بفعل الرصاص مصطفةً في سلسلةٍ على الطريق خلفهم، وبينما تحولت صرخات الهلع بالتدريج إلى عويلٍ مصدوم، مسح الناجون الخمسة عشر الدماء والزجاج ليقيِّموا الوضع، مات سائحان بلجيكيان وسائقان يمنيان، وستستخدم القاعدة هذا النوع من الهجمات الخاطفة بفعالية كبيرة خلال عام 2008، و ستشل في النهاية الهجمات المتراكمة بمعدل ثابت قطاع السياحة في اليمن وتُفاقم انحدار اقتصاد اليمن.

أشارت حكومة الولايات المتحدة إلى العدد المتزايد من الهجمات في تحذير السفر إلى اليمن، لكن تركيزها الأساسيَّ بقي على جمال البدوي وجبر البنا، وهما الهاربان من السجن الموجودان على لائحة مكتب التحقيقات الفدرالي للمطلوبين، وبعد استنكار جولياني في تشرين الأول/ أكتوبر عام 2007 والحرمان من أموال المساعدات، ادَّعت اليمن أنها قد أعادت البدوي إلى السجن، حتى إن صالحًا رتَّب جولة لمسؤولين

(1) Ahmad al-Haj, «2 Tourists killed in Yemen convoy attack» **Associated Press**, January 18, 2008.

أميركيين في سجن عدن حيث يحتفظ بالبدوي[1]، لكن ما إن غادر وفد الولايات المتحدة حتى قام الحراس بتهريب البدوي من الخلف[2]، فالأمر كله كان لعبة ثلاث ورقات مخفية؛ خدعةً من صالح للحصول على أموال الولايات المتحدة بينما يحافظ على وعده للبدوي.

على الأقل كانت لدى السفارة فكرة عن مكان البدوي، بينما لا يعرف أحدٌ شيئًا عن البنا، فقد اختفى ببساطة بعد الهروب، ولم يجدوا له أثرًا طوال سنتين، لا مشاهدات ولا شائعات ولا حتى كلمة على خط وزارة الخارجية الأميركية الساخن للإرهاب، ومن ثم عاد إلى الظهور في 23 شباط/ فبراير.

في وقتٍ مبكر من ظهر ذلك اليوم، دخل رجلٌ ملتحٍ ممتلئ الجسم في ثوبٍ وسترةٍ بيضاء وشالٍ مزخرف ينسدل على كتفيه إلى قاعة المحكمة المزدحمة في وسط مدينة صنعاء ودفع الناس من حوله حتى وصل إلى المقدمة وأعلن أنه جابر البنا، فحدق القاضي والمدعي العام مصدومين، فجابر البنا إرهابيٌّ مطلوب بمكافئة ماليةٍ قدرها 5 ملايين دولار على رأسه، وعرض البنا بطاقة تعريفه وبدأ بالكلام.

قال البنا: «لقد حُكِمَ علي بـ10 سنين في هذه القضية، وثلاث في أخرى، لكن هذا خطأ، فأنا لم أرتكب أي جرائم في هذه البلاد أو في الولايات المتحدة»[3]، وبينما كان واقفًا في منتصف المحكمة التي قاطعها أضاف البنا أنه حرٌّ كونه طرفًا في صفقةٍ شخصية مع الرئيس صالح، وبعد ذلك بينما كانت الكاميرات تطقطق من حوله استدار وخرج من الغرفة، ولم يتحرك أحدٌ من الحراس لإيقافه.

استشاط الرئيس بوش غضبًا، فالبنا مواطن أميركي وإرهابي مطلوب، والولايات المتحدة قد وجهت له التهم لدوره في قضية ليكوانا ستة، ما الذي كان صالح يفعله؟ وهو حليفٌ للولايات المتحدة في الظاهر على الأقل؟ في ذلك الوقت، كانت فرانسيس تاونسيند قد جربت حظَّها مع الرئيس اليمني الغامض، وتقاعدت منذ ذلك الوقت، وطلب بوش في هذه المرة من روبرت مولر أن يضغط على صالح.

---

(1) «US says bomber of US destroyer Cole still jailed» **Reuters**, October 29, 2007.

(2) «Authorities Free al-Badawi a second time» (Arabic), **al-Wasat**, December 5, 2007.

(3) Robert Worth, «Wanted by FBI, but walking out of Yemen hearing» **New York Times**, March 1, 2008.

حط مدير مكتب التحقيقات الفدرالي الشائب ذو الفك المربع في صنعاء في أوائل نيسان/ أبريل ليجتمع مع صالح، وكان يريد البدوي والبنا، لكن ثمة الكثير مما يحتاج إلى النقاش، ففي 13 آذار/ مارس أصدرت القاعدة العدد الثاني من مجلة صدى الملاحم، وبعد خمسة أيام - بدقة شديدة - ضربت المنظمة ثانيةً فأطلقت خمسةَ صواريخ معدلة على سفارة الولايات المتحدة.

لم تصل أيٌّ من الصواريخ إلى هدفها، فوقعت خارج السفارة وضربت بدلًا منها مدرسةً للفتيات، وقتلت بذلك حارسًا واحدًا وتسببت بإصابة عددٍ من الطلاب، ونشرت القاعدة بيانًا عامًا تدعو فيه بالسلامة للطالبات الإناث، وجددت إنذاراتها السابقة للمسلمين بتجنب الاقتراب من مكاتب الحكومة والأجانب واختُتِم البيان: «كنا قد أخبرناكم بأننا سنستهدف هذه الأماكن، لذلك رجاءً لا تقتربوا منها»[(1)].

أمرت الولايات المتحدة طاقم السفارة غير الأساسي بمغادرة البلاد بعد الهجوم المخفق، وأراد مولر أن يؤمن سلامة من بقي، فأكد له صالح أن قواته الأمنية كفؤٌ لهذه المهمة، ولكن بالنسبة لقضية البدوي والبنا، كان الرئيس مراوغًا، وعندما ضغط عليه مولر بخصوص تسليم محتمل للمجرمين، رد صالح بطلب إعادة محمد المؤيد، رجل الدين اليمني الذي استدرجته الولايات المتحدة إلى ألمانيا في عام 2003 وهو الآن يقضي محكوميته التي تبلغ خمسة وسبعين عامًا.

لم يستطع المدير المتحفظ عادةً أن يصدق ما كان يسمعه، فالرئيس اليمني يعقد صفقاتٍ مع الإرهابيين بينما يُقْصَف الدبلوماسيون الأميركيون، والآن يريد أن يطالب بصفقة جديدة، فأنهى مولر الاجتماع، وهو بالكاد يحافظ على غضبه تحت السيطرة[(2)].

في الأسبوع الأول من تموز/ يوليو 2008، عقدت الحكومة البريطانية مؤتمرًا في لندن لمناقشة الخطر المتزايد للقاعدة في اليمن، وأخبر أحد المحللين الفرنسيين مسؤولي وايتهول المجتمعين أن الهجمات ليست أكثر من «مفرقعاتٍ ناريةٍ صاخبة»[(3)]، وخلال الربيع وأوائل الصيف هاجم رجال الوحيشي حواجزَ عسكرية ودوريات أمن ومنشآت

(1) Soldiers Brigades of Yemen, statement #2 (Arabic), March 21, 2008.

(2) Michael Isikoff, «A Tense Impasse in Yemen,» **Newsweek**, April 26, 2008.

(3) استخدم هذه العبارة دارس غربي للشأن اليمني في مؤتمر غير رسمي في لندن عقدته الخارجية البريطانية في تموز/ يوليو 2008.

نفطية والقصر الرئاسي في صنعاء والسفارة الإيطالية ومجمعًا سكنيًا يعيش فيه عدد من الدبلوماسيين الأميركيين، وسببت الهجمات كثيرًا من الضجة، وكسرت بضع نوافذ، لكن هذا هو جلُّ الأمر، كذلك اختتم المحلل بتلويحةٍ صارفةٍ من يده.

بعد أسبوعين من ذلك أصبحت حرب المفرقعات النارية أكثر دموية، ففي 23 تموز/ يوليو أصدر حمزة القعيطي فيديو قصيرًا يهدد فيه اليمن بهجماتٍ أكثر إن لم تتوقف الحكومة عن تعذيب أعضاء القاعدة المحتجزين في السجن، وتحدث القعيطي مباشرةً في وجه الكاميرا وهو يرتدي ثوبًا رماديًا وقناعًا، وكانت معظم رسائله موجهة إلى غالب القامش، وهو رئيس منظمة الأمن السياسي والرجل الذي رماه مرةً في الحبس الانفرادي، «آهٍ منك، أنت يا شارون اليمن»، قال في إشارةٍ إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق أرييل شارون: «أيها النَّهابُ، يا قطعة القمامة، سوف ترى بمشيئة الله كيف سيخرج إخواننا من سجونك».

بعد التسجيل مشى المساعدون إلى الغرفة متثاقلين تحت حمل الستر المفخخة والرشاشات الآلية التي وضعوها في موقع التصوير لتظهر، ومن ثم سمحوا ليمنيٍّ شاب أن يأخذ مكانه بجانب القعيطي ليلتقطوا بعض الصور.

بعد يومين حقق ذلك الشاب أحمد المشجري[1] وعيدَ القعيطيِّ، وقاد سيارة محملة بالمتفجرات إلى داخل مجمعٍ عسكريٍ في حضرموت فقتل ثلاثةً وتسبب بجرح أربعةٍ وعشرين آخرين، وكان المشجريُّ طالبَ طبٍّ يبلغ من العمر ثلاثةَ وعشرين عامًا من مدينةٍ قريبةٍ، وأراد أن يذهب إلى العراق لكن مقاتلين آخرين شجعوه على البقاء في الوطن وانتظار فرصةٍ ما في اليمن، ونشر رجال القعيطي صورًا للاثنين جنبًا إلى جنب مع بيان بخصوص العملية على الإنترنت، وصرخوا فيه: «دم المسلمين ليس مجانيًا»[2]، ذاكرين أسماء خمسة مقاتلين انتقم الهجوم الانتحاري لهم.

بدا تبرير القاعدة فارغًا لمعظم اليمنيين، فغضبَ شيوخُ الجوامع لخسارة أرواحٍ مسلمة وأدانوا الهجوم في أنحاء البلاد، إذ لم يقتل المشجري جنودًا حتى، فمعظم الأموات والجرحى من المدنيين؛ عاملات تنظيفٍ وأطفال صغار، وكما حدث مع السعوديين - بعد هجمة تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2003 على مجمعٍ من العمال العرب في الرياض

(1) Abu Umar al-Hadrami, «The doctor Martyr» (Arabic), **Sada al-Maalahim** 8 (March 2009), 42-43.

(2) Soldiers> Brigades of Yemen, statement 11 (Arabic), July 26, 2008.

- لعن اليمنيون في أنحاء البلاد الإرهابيين وتساءلوا لماذا كانت المنظمة مصرةً على التدمير والعنف؟[1]، وفي وجه هذا الفيض من هيجان العواطف والغضب العارم أصدرت الحكومة اليمنية بيانًا وحيدًا وفاترًا يدين الهجوم، فالحكومة حاولت على مدى سنواتٍ أن تحصل على اليد العليا في القتال ضد القاعدة، والآن عندما قامت الجماعة أخيرًا بتجاوز المجتمع وتنفيره منها أخفقت الحكومة بالتحرك، على عكس الحكومة السعودية التي شنت حملةً ضخمة من مقالات في الصفحات الأولى وإعلانات التلفاز بعد هجوم تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2003، بينما كانت الحكومة اليمنية صامتةً بشكلٍ صادم.

في ثلاثة من البيوت الآمنة أسفل الطريق مباشرةً من المجمع العسكري المتضرر، انتظرت خلية القعيطي أن يهدأ الاهتياج. القعيطي مثل ابن لادن: عائلته أصلًا من حضرموت، وبعد الهروب من السجن عاد إلى موطنه ليبني خليته، فاستقر أخيرًا في مدينة تريم الترابية المتهالكة التي تبعد أكثر من 300 ميل شرقي صنعاء، ومع أن المدينة تفتخر بوجود 365 مسجدًا لديها: مسجدٌ لكل يومٍ في السنة، كان القعيطي يعرف أنها لا تزال مدينةً صغيرة، والكل فيها يعرفون شؤون بعضهم بعضًا، ويعرف أن مرأى عدة رجالٍ ملتحين عازبين يتجولون بين العقارات المستأجرة الثلاث لن يمر مرور الكرام في أحاديث الثرثرة المحلية، ولكي لا يكتشفهم أحد طلب القعيطي من كل رجاله أن يتنكروا في زي نساء عند الخروج، فأخفى النقاب لحاهم وطمست العباءات السوداء أشكالهم، ولكن القعيطي لم يتوقع أن منزلًا ممتلئًا بالنساء قد يشكل مشكلةً تساوي مشكلة منزل ممتلئ بالرجال العازبين.

كانت إحدى جاراتهم تراقبهم منذ أشهر[2]، فأي نوعٍ من البيوت هذا الذي لا يحوي رجالًا؟ سألت أصدقاءها، وكانت قلقةً من أن عنصرًا سيئًا يترسخ في البيت، فقررت أن ترى بنفسها، وعوضًا عن النساء التي توقعت رؤيتهن، فتح رجلٌ ملتحٍ الباب وقال بفظاظة: «النساء لسن هنا حاليًا»،[3] فقفز عقل المسنة الفضولي فورًا من الدعارة إلى المخدرات، وما إن عادت إلى المنزل حتى اتصلت بالشرطة.

---

(1) تم بناء هذا على مشاهداتي ومناقشاتي في اليمن، ومشاهدات عدة يمنيين ونقاشاتهم أيضًا.

(2) Muhammad al-Ahmadi, «Al-Ghad reveals new details about the operation that killed the commander of the military wing of al-Qaeda in Yemen» (Arabic), **al-Ghad**, October 26, 2008.

(3) نفس المصدر السابق.

عندما وصلت دورية الشرطة بعد عدة ساعات[1]، أدركوا بسرعة أنهم قد عثروا على شيءٍ أكبر من عصابة مخدرات، فالشاب الذي فتح الباب إلى الفناء الخارجي أغلقه في وجوههم بمجرد أن رأى زيهم الرسمي وأسرع عائدًا عبر الفناء المسوَّر لينذر الآخرين، وبدأ الرجال السبعة داخل المنزل بإطلاق النار لخوفهم من أن يكون أمرهم قد كُشف، ولم تكن الشرطة مستعدةً للتعامل مع القذائف الصاروخية والرشاشات الآلية التي وجهها المشتبه بهم إليهم، فشكلت نطاقًا أمنيًا واستدعت دعمًا، ودامت المواجهة طوال ليلة 10 آب/ أغسطس، بينما حضر كلٌ من الطرفين للمعركة التي يعرفان أنها قادمة لا محالة.

جاءت وحدة مكافحة الإرهاب في الصباح مع دبابتين، وصرفت رجال الشرطة غير القادرين على السيطرة على الوضع، وحاولت أن تنقضَّ على المنزل القصير المسقوف بالطوب، فلم تستطع الدبابات الاقتراب في متاهة المباني الضيقة، وخسرت الوحدة رجلين في الهجوم المباشر قبل أن تتراجع، وأحسَّ القعيطيُّ بأفضلية لحظية فأمر رجاله بأن يحاولوا بلوغ أحد البيتين الآمنين الآخرين البعيدين عن الطوق الأمني، وترك الستة عبد الله باتيس – وهو مقاتل شاب من قرية القطن الصغيرة في حضرموت – خلفهم ليغطي على انسحابهم.

كان باتيس مُحاطًا بمخزن من القنابل والرشاشاتِ الآلية، فحارب لساعاتٍ في حرارة الصيف متناولًا الأسلحة بالتناوب وصارخًا «الله أكبر» ليحافظ على شجاعته بينما يتحرك ضمن غرف الأسمنت العارية، وفي الخارج، في ركام الطرقات ذات الاتجاه الواحد شديد الحرارة والأزقة غير المعبدة، كانت بقية الخلية في مشكلة، فالقناصة اليمنيون وجدوهم بمجرد أن كُشِفَ غطاؤهم، وبات الوضع يبدو إبادةً أكثر منه معركة، وتطلب الأمر معظم بعد الظهر لإكماله، وعندما انتهى، التقط أحد الجنود صورةً لجثة القعيطي مسجاةً على شكل Z مكومة على التراب، ومن خلية الرجال السبعة [2] مات خمسة، وبات علي الأكبري ومحمد باوايدهان في قبضة الحكومة.

(1) تم تجميع هذه الرواية عن القتال من ثلاث تقارير مختلفة – Ahmadi, «Al-Ghad reveals new details»; «Marib Press exclusive on the Operation in Tarim» (Arabic), **Marib Press**, August 11, 2008; وتم سرد القصة على المنتدى الجهادي «الإخلاص»: Shadad3, «Details of the storming operation of the Yemeni security forces on a house of mujahidin in Tarim, Hadramawt» (Arabic), **al-Ikhlas**, August 14, 2008.

(2) Muhhammad al-Ahmadi, «yemen and al-Qaida», (Arabic), **al-Ghad**, August 18, 2008.

في أعقاب تبادل إطلاق النار ادعت الحكومة اليمنيةَ أن القعيطي هو العقل المدبر لكل عنف القاعدة الذي أنزل الكوارث بالبلاد من هروب شباط/ فبراير عام 2006 من السجن، ولسببٍ غير مفهوم، تقبلت كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة رواية الخلية، الوحيدة، مفرطة النشاط، واستخدم كلا البلدين العملية الناجحة للجيش اليمني على الخلية لتبرير تخفيف تحذير السفر إلى اليمن(1)، وأغفلت طبيعة خلية القعيطي المحلية في الاتصالات الهاتفية والرسائل المُهنئة. فخلية القعيطي كخلية مأرب؛ واحدةٌ من ضمن خلايا كُثر، فخمسةٌ من الرجال فيها من المدينة نفسها، وواحدٌ منهم وحسب من خارج حضرموت.

بعد تسعة أيامٍ من المعركة نعت القاعدة المقاتلين الميتين في بيان على الإنترنت وحذرت من ضربةٍ ثأرية، واختتمت الرسالة: «الدليل سيكون في ما ترونه وليس في ما تسمعونه»(2)، ولم يهتمَّ لذلك في سفارة الولايات المتحدة إلا قليلون، بينما قدم السفير طلبًا بالسماح للموظفين الذين غادروا في الربيع بالعودة.

السنة الهجرية 354 يومًا، وترتبط بحركة القمر، فهي أقل بأحد عشر يومًا من التقويم المستخدم في الغرب، ويعني هذا للمسلمين أن رمضان ـ شهر الصيام والتقشف المقدس ـ يأتي في أوقاتٍ مختلفة كل عام، فأحيانًا يأتي في الصيف وأحيانًا أخرى في الشتاء، وفي 2008 جاءت بدايته في 1 أيلول/ سبتمبر، وقلقَ مسؤولو الولايات المتحدة من أن عملاء القاعدة قد يحاولون استغلال رمضان الذي يعد وقتًا للتفكر ومراجعة الذات لأكثر من مليار مسلم حول العالم، فيشنون هجومًا على الولايات المتحدة إحياءً لذكرى 11 سبتمبر.

زادت المحادثات الإلكترونية خلال الأيام الأولى لشهر أيلول/ سبتمبر، وتركز معظمها في المنتدى الجهادي: الإخلاص، وأدى ذلك إلى رفع المخاوف أكثر، وكان أحد أشرطة الإعلانات على الموقع يغري القراء برسالة قريبة من أسامة ابن لادن. كان قائد القاعدة على مدى سنوات يلمِّح إلى أوراقه عابثًا بخصومه في وكالات الاستخبارات حول العالم، فكان يترك قرائن محيرة تدل على هجومه التالي مخبأةً في تصريحاته العلنية، ومعظمها

(1) Gregory D. Johnsen, «Assessing the Strength of al-Qa'ida in Yemen» **CTC Sentinel** 1, no. 10 (September 2008), 10-13.

(2) Soldierss Brigades of Yemen, statement 13 (Arabic), August 19, 2008.

ماكرة ويصعب قراءتها، ولكنها موجودة، ففي عام 2000 قبل الهجوم على المدمرة كول ارتدى ابن لادن الخنجر اليمني المنحني المدعو بالجنبية مدسوسًا في حزامه عندما ظهر في الفيديو داعيًا لهجمات أكثر[1]، وتساءل العملاء عما إذا كان ابن لادن يتواصل مع مساعديه الأساسيين عبر شيء ما متضمن مخفيٍّ في هذه الرسائل، فربما يعطي عن طريقه الأمر الأخير أو يضع عملية ما قيد التنفيذ.

في وقتٍ متأخرٍ من ليلة 10 أيلول/ سبتمبر، قبل عشر ساعاتٍ من الوقت المفترض فيه إطلاق شريط ابن لادن، خرج موقع الإخلاص من الخدمة، وأرسل الهجوم الإلكتروني موجات من الصدمة عبر المجتمع الجهادي الذي رأى في الإنترنت خلال سنوات ما بعد 11 أيلول/ سبتمبر ملاذًا منيعًا، وسارع إداريو الموقع لحل المشكلة بينما تدفق المستخدمون إلى منتدياتٍ أخرى أصغر باحثين عن شريط ابن لادن، لكن لم يكن ثمة من شريط، وشُلَّ منتدى الإخلاص الذي كان مركز نشر القاعدة الرئيسي مدّةَ سنوات بشكلٍ دائم.

خلال الأيام القليلة التالية بدأ العديد في المجتمع المخابراتي تدريجيًا بتنفس الصعداء نوعًا ما، فبتعطل المنتدى و ذكرى 11 أيلول/ سبتمبر خلفهم، ظنوا أن الولايات المتحدة قد نجت من الخطر.

قبل عدة قرون في 642 ميلادي الموافق للسنة الثانية للهجرة، قاد محمد مجموعةً صغيرةً من أنصاره في غزوةٍ ضد جيشٍ من المشركين العرب أكبر بكثيرٍ من جيشه عند آبار بدر، وهي محطةٌ للسقاية على الطريق بين مكة والمدينة، وفي ذلك الوقت لم يكن للقائد ذي الخمسة والأربعين عامًا باع طويل في السياسة وله القليل من الأنصار الذين كانوا أقل عددًا، فسحقت الجماعة الصغيرة من المسلمين - مدعومةً، كما يقول القرآن، بفيالق من الملائكة نزلوا إلى الأرض ليساندوا المؤمنين - خصومها في اليوم السابع عشر من رمضان، وحضَّرت غزوة بدر - وهي أول انتصارٍ عسكريٍ كبير لمحمد - الساحة للفتوحات الواسعة التي سوف تأتي لاحقًا، وهذه الذكرى هي التي اختارتها القاعدة لهجومها الأكثر جرأةً في اليمن حتى الآن.

يحتل مجمع مباني سفارة الولايات المتحدة عدة أحياءٍ على طول الطرف الغربي من

(1) Wright, The Looming Tower, 318.

الطريق السكنية، منحدرًا من فندق شيراتون في شرقي صنعاء، ولكي يصل المرء إلى البوابة الأساسية عليه أن يعبر حاجزين: واحدًا خارجيًا في الزاوية الجنوبية من المجمع ومن ثم واحدًا آخرَ على بعد 150 ياردة أسفل الطريق قليلًا قبل البوابة الرئيسية، وفي 9:15 صباحًا في 17 أيلول/ سبتمبر أسرع سبعة مقاتلين في سيارتي سوزوكي جيب معدلتين مزودتين بدرعٍ منزلي الصنع نحو الحاجز الأول[1]، فقفز خمسة مسلحين مرتدين زي الجنود من الجيب الأولى وبدؤوا إطلاق النار، فهُرِعَ الحراسُ اليمنيون مسرعين للبحث عن مخبأ ومخلين ممرًا لتمشي عليه السيارة الثانية الممتلئة بالمتفجرات، وبينما يطلق الخمسة النار وهم يصرخون «الله أكبر» أسرعوا جريًا على طول الشارع يتتبعون السيارة الثانية بين البيوت على يمينهم وحائط السفارة على يسارهم، وكانت الخطة تقتضي أن يصدم المُفجران الانتحاريان سيارتيهما بالبوابة الأساسية، ومن ثم أن يتسلل المسلحون في الفجوة باتجاه المجمع، وعندما اقتربت الجيب من بوابة السفارة الأساسية ضغط متعهد أمني محلي زرًا لإنزال قضيب إغلاق معدني ثانوي، وكان هذا هو العائق الوحيد الذي بقي بين السيارة المسرعة وبوابات السفارة المعدنية السوداء، وما إن نزل القضيب المعدني السميك أمام السوزوكي والانتحاريين الموجودين داخلها حتى تلقى المتعهد الأمني اليمني رصاصةً في صدره من واحدٍ من المُهاجمين الراكضين في الشارع، وتسبب تفكيره السريع في الدقائق التي سبقت موته بأن تصطدم الجيب بالقضيب المعدني وتنفجر على بعد ياردات من البوابة الأساسية، بالقرب من صفٍ من اليمنيين الذين ينتظرون أن يدخلوا إلى السفارة.

ومات المُفجران الانتحاريان في الانفجار فتسببوا بمحاصرة المسلحين الخمسة المتبقين في الشارع المواجه للسفارة على بعد 150 ياردة من سيارتهم السوزوكي، ولم يتوقع الرجال أبدًا أن ينجوا من الهجوم، فلم يحاول أي منهم أن يشق طريقه عائدًا إلى السيارة، وبدلًا من ذلك اتخذوا وضعيات دفاعية خلف سلسلة من العوائق الأسمنتية المخططة بالأصفر والأسود الموازية لجدار السفارة الخارجي - لكنهم الآن باتوا يقاتلون جنودًا يمنيين بدلًا من الدبلوماسيين الأميركيين الآمنين المغلقين على أنفسهم الأبواب خلف جدران السفارة السميكة، فصمد الخمسة مدَّة الساعة والنصف التي تلت وسط الدخان وعويل صفارات الإنذار في الشارع المحطم حتى حاصرتهم قوات الأمن المركزي وقتلتهم.

(1) انظر: مقالة توماس هيجامر الممتازة في: Bruce Hoffman and Fernando Reinares, eds., Leader-led Jihad: (**forthcoming**, 2012).

هذا الهجوم في وقته هو الأكثر دمويةً على سفارة للولايات المتحدة منذ ضربات القاعدة المتزامنة عام 1998 على سفارتي كينيا وتنزانيا، فقد خلّف التفجير أكثر من أربعة وعشرين جثة معظمها من المدنيين الذين كانوا يقفون في طابور السفارة، والأميركية الوحيدة التي قتلت في الهجوم هي سوزان البنا، وهي يمنيةٌ ـ أميركيةٌ في الثامنة عشرة من عمرها كانت في الطابور لتقوم بالمعاملات الورقية لزوجها الجديد، وهذه المرأة المتزوجة حديثًا هي ابنة عم جابر البنا.

ثلاثةٌ من مُهاجمي السفارة كانوا قد أطلق سراحهم ضمن برنامج الهتار لإعادة التأهيل[1]، و كان الرجال كلهم يذهبون إلى الجامع نفسه في مدينة الحُديدة الساحلية المطلة على البحر الأحمر، وقلقت الولايات المتحدة بشأن مأرب وقوس مناطق النفوذ القبلية إلى الشرق، فبات الأمر يبدو الآن وكأن القاعدة قادمة من كل الاتجاهات، وفي الولايات المتحدة أشار المرشح الديمقراطي للرئاسة باراك أوباما إلى الهجوم بقلق قائلًا للمراسلين الصحفيين: «علينا أن نقوم بأكثر من ذلك»[2]، فإذا صحت استطلاعات الرأي وفاز بالانتخابات فسوف تصبح اليمن مشكلته قريبًا، وبعد أسابيع من طلب السفارة العودة من موظفيها النظاميين، أغلقت أبوابها مجددًا.

في الوقت نفسه تقريبًا طعنت محكمة الاستئناف بالحكم الصادر بحق محمد المؤيد ـ رجل الدين اليمني التي كانت الولايات المتحدة قد ألقت القبض عليه في ألمانيا ـ وقامت بالحركة غير الاعتيادية فطلبت قاضيًا جديدًا ليعيد النظر في القضية، وخلال أشهر، عاد كلٌّ من المؤيد ومساعده أحرارًا في اليمن.

في ذلك الخريف أطلقت السعودية سراح سعيد الشهري، وهو المُحتجز السابق في معتقل غوانتنامو الذي صنفته الولايات المتحدة كـ«قائد سلبي»، وبعد أن نقلته الولايات المتحدة إلى موطنه عام 2007 وضعته السعودية عدةَ شهور في برنامج إعادة تأهيل ديني، وهو نسخة ممولة ومنظمة على نحوٍ أفضل من برنامج الهتار، لقد ظن السعوديون أن باستطاعتهم النجاح حيث أخفق اليمنيون، وساعد الطعام الجيد والجو اللطيف الشهريَّ

---

(1) إيميل بين المؤلف ومحلل سياسي يمني في صنعاء في تشرين الثاني/ نوفمبر، وأغفل الاسم بناء على طلبه:
«The Furqan Raid: the attack on the embassy nest» (Arabic), **al-Malahim**, 2009.

(2) Robert Worth, «10 are killed in bombings at embassy in Yemen» **New York Times**, September 18, 2008.

على استعادة معظم الوزن الذي خسره في غوانتنامو، وعندما أنهى البرنامج عرضت الدولة على ذي الخمسة والثلاثين عامًا أن تجد له زوجة وعملًا، فرفض ذلك.

لاحقًا في هذا الخريف، دعا الشهري عدة رجالٍ من الذين التقاهم في إعادة التأهيل إلى وليمة في مدينة الطائف الجبلية المعتدلة التي تقع في الجبال إلى جنوب مكة تمامًا على طول ساحل السعودية الغربي، وتعدُّ العاصمة الصيفية غير الرسمية للبلاد، وبعد أن أنهوا الطعام دخل الشهري في صلب الموضوع، فقد دعاهم إلى هنا ـ كما شرح لهم ـ لأن لديهم عملًا غير منتهٍ، وكان العديد من الرجال يعرفون الشهري من غوانتنامو وكلهم يحترمونه[1]، لكنهم لا يزالون مصدومين من الذي اقترحه، فالشهري يريدهم أن ينضموا إلى القاعدة من جديد.

استمع جابر الفيفي ـ مدمن المخدرات المتماثل للشفاء الذي كان قد حارب في تورا بورا ـ إلى الحجج التي تمرن عليها الشهري جيدًا، ووجد الفيفي أفكاره تنجرف نحو حياته الحالية، فبعد غوانتنامو والفترة التي قضاها في برنامج إعادة التأهيل السعودي، كان الفيفي قد قبل عرض الدولة بإيجاد زوجةٍ وبات لديه الآن ابنة، فهل يريد حقًا أن يتخلى عن هذه الحياة مقابل حياةٍ أخرى يكون فيها هاربًا؟ ألم يقم بما فيه الكفاية؟

أنهى الشهري حجته بدعوةٍ إلى حمل السلاح، لقد حان وقت إنهاء ما أمرهم الله بفعله.

لم يقل الفيفي الكثير في النقاش الذي تبع ذلك[2]، لكنه كان قد حزم أمره مسبقًا، فحياته الآن هي في السعودية مع عائلته، لقد انتهى من القاعدة، وانفض الاجتماع في وقت لاحق من تلك الليلة، فبقي القليلون الذين تمكن الشهري من إقناعهم لأجل المزيد من النقاش والتعليمات الإضافية، وفي النهاية سوف يذهب هؤلاء الرجال مع قائدهم الجديد جنوبًا، بينما عاد الفيفي إلى منزله في الرياض.

بعد خمسة أسابيع من الهجوم على السفارة جربت القاعدة في اليمن أن تهاجم هدفًا أكثر دقة، فمنذ أن التقى الشيخ ربيش إدموند هول قبل ست سنوات ـ مقسمًا أن يبقي قريته «خالية من الإرهابيين» مقابل مشفى جديد ممول من قبل الولايات المتحدة ـ والقاعدة

(1) Suhayl, «The repentant al-Fayfi relates the story of the banquet» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, January 5, 2011.

(2) المصدر نفسه.

تراقب العائلة، وفي آب/ أغسطس عام 2007، شارك أحد أولاد الشيخ ربيش، محمد، وهو ضابط أمنٍ ضخم البنية في منتصف العمر في المداهمة التي قضت على الخلية المسؤولة عن الهجوم الانتحاري ضد السياح الإسبان في مأرب، وثمة عقاب واحد فقط لـ«بيع دينك»، كما شرح الوحيشي عندما تأكد دور ربيش في المداهمة: «خسارة حياتك»[1].

وبصفته ضابط أمن كان محمد ربيش يسافر معظم الأوقات مع مرافقة أمنية، فقلق مخططو القاعدة من ألّا يتمكنوا من الاقتراب منه بما فيه الكفاية لإطلاق النار، وبدلًا من ذلك اقترحت اللجنة العسكرية استخدام قنبلة، فأعجب الوحيشي بالفكرة، فعندما كان مع ابن لادن في أفغانستان أَذِنَ قائد القاعدة بتنفيذ عملية مماثلة لاغتيال قائد التحالف الشمالي أحمد شاه مسعود – وهو هدفٌ صعبٌ آخر – في الأيام التي سبقت 11 أيلول/ سبتمبر.

قام أحد خبراء المتفجرات في القاعدة بتركيب طرد مفخخ بسيط ذي مفتاح ضغط بحيث تنفجر القنبلة عند رفع الغطاء[2]، وألصق على غطاء الطرد – الذي هو بحجم كتاب – صورة لطائرة هجوم مروحية أميركية لترمز إلى خيانة ربيش، ثم قام بلف الطرد كله بصور من الجرائد للرئيس صالح، وترك عضو محلي من القاعدة الطرد في محطة وقود في مأرب، وهي طريقة معتادة لإيصال البريد في منطقة ذات خدمة بريدية محدودة ليس فيها عناوين رسمية.

بعد ثلاثة أيام في صباح 20 تشرين الأول/ أكتوبر تحركت القاعدة، فاتصل أحد الرجال بربيش وأخبره بوجود طرد له ينتظره في محطة الوقود، وعندما أخذ المدير الأمني الطرد في وقت لاحق من عصر ذلك اليوم، كان الانفجار قويًا إلى درجة أنه مزق جزءً كبيرًا من وجهه و جرح عدة جنود آخرين كانوا يقفون على بعد ياردات منه، ومات ربيش بعد دقائق في سيارة إسعاف متوجهة إلى المستشفى.

بعد عدة أسابيع وفي العدد السادس من صدى الملاحم أعلنت القاعدة مسؤوليتها عن الاغتيال: «كل من تلطخت يداه بدماء المجاهدين أو من يتعاون مع الكفرة العلمانيين سيعاني من المصير ذاته»[3].

(1) «The Just Punishment» (Arabic), al-Malahim video, released in 2009.

(2) The bomb is shown in «The Just Punishment»; also see «Assassination of chief of security in Marib by a letter bomb» (Arabic), **Mareb Press**, October 20, 2008.

(3) Al-Qaeda in the South of the Arabian Peninsula, «The Just Punishment» (Arabic), **Sada al-Malahim** 6 (November 2008).

الفصل الرابع

الاندماج

2009

في أوائل كانون الثاني/يناير عام 2009 طلب ناصر الوحيشي من عدة عملاء أن يهيئوا له مقابلةً مع صحفيٍّ محليٍّ، وبعد عدة أسابيع عبر سعيد الشهري - السجين السابق في معتقل غوانتنامو - حدودَ اليمن مع السعوديين الذين جندهم في الوليمة التي أقامها في الطائف. منح توافدُ الرجال الوحيشي الفرصةَ التي كان يبحث عنها، فلطالما وُجِدَ كثيرٌ من السعوديين في صفوف القاعدة في اليمن - رجالٌ كإبراهيم وعبد الله العسيري - لكن أحدًا منهم لم يكن يملك حضور الشهري أو تجربته، وسرعان ما توصل السجين السابق في معتقل غوانتنامو إلى اتفاقيةٍ مع الوحيشي، وبالطريقة ذاتها تقريبًا التي وحَّد فيها أسامة بن لادن وأيمن الظواهري منظمتيهما قبل سنواتٍ في أفغانستان، سيعلن الوحيشي والشهري عن دمج بين فرعي القاعدة اليمني والسعودي، وستدعى الجماعة الجديدة: القاعدة في شبه الجزيرة العربية كما ستعرفها وكالات الاستخبارات فيما بعد.

اتصل عملاء القاعدة في صنعاء بعدة صحفيين محليين ملوِّحين بإمكانية مقابلة حصرية قبل أن يرسوا على عبد الإله الشائع، وهو شاب يمني لبق يفضل تسريحة الشعر المرتدة إلى الخلف الملساء وارتداء النظارات ذات الماركات المميزة[1]، ودقق قاسم الريمي - الذي كان قد سُمي القائد العسكري للمنظمة الجديدة - في خيار العملاء في منزلٍ آمنٍ

(1) Abdalilah Haydar Shaya, «An Interview with Nasir al-Wihahayshi» (Arabic), January 2010, www.abdulela.maktoobblog.com.

في صنعاء، وما أن أنهى الريمي البحث في خلفيته حتى أخبر الشائع أن القاعدة ستحتاج لائحةً بالأسئلة مقدمًا.

بعد فترةٍ وجيزة من تقديم الشائع أسئلته جاء خبر من القاعدة أنهم باتوا مستعدين، ولم يكن مسموحًا للصحفي أن يحضر معه حاسبه المحمول أو هاتفه المحمول أو أي شيء إلكتروني يمكن لوكالات الاستخبارات أن تستخدمه لتحديد موقعهم، وستتكفل القاعدة بكل شيء، ففتش حراسٌ مسلحون الشائع وغطوا عينيه قبل أن يضعوه في السيارة التي أرسلتها القاعدة، وعندما نزع الرجال الغطاء عن عينيه كان الشائع يقف في منتصف غرفةٍ غير مكتملة الإكساء محاطًا بعدة شباب، وعلى طاولةٍ صغيرة أمامه كان ثمة حاسوب محمول دبرت القاعدة وجوده كي يستعمله، وأشار رجل نحيل يرتدي غطاء رأسٍ ذي مربعات سوداء ولحية مرقطة بالرمادي للشائع أن يجلس بجانبه محييًا إياه بلهجةٍ سعوديةٍ، وأظهر الرجل سترته الخضراء التي كان يرتديها للشائع وسأله: «هل تعرف ما هذا؟»

بينما كان ينظر إلى وجه الغريب أحس الشائع أنه كان يُمازح، فتمتم: «لا أعرف، نوع ما من الحقائب».

«إنها سترةٌ مفخخة»، قال الرجل نازعًا الأشرطة عن كتفيه، وواضعًا إياها على الشائع ثم همس: «لا تخف».

لم يكن الشائع قد رأى سترةً مفخخةً بنفسه من قبل، وتجمد بينما وضع السعودي الحزمة الثقيلة على صدره، وقال متباهيًا: «هناك متفجرات هنا تكفي لتفجير طابقين»، وشرح الرجل كيفية عمل القنبلة ببطء، بينما كان الشائع يكافح ليتحكم في تنفسه، فأراه الجيوب العميقة التي توضع فيها المتفجرات، ومفتاح التفجير الصغير الذي يفجر كل شيء، وتنفس قربه قائلًا: «أنا لا أفترق عن هذه أبدًا» وهو يمرر يده برفق فوق القماش الأخضر السميك، ولما لاحظ السعودي الانزعاج على وجه الشائع حثه قائلًا: «تفضل، تحسسها بنفسك، مرر يدك على أعلاها».

أبيضَّ الشائع وحاول أن يتحرك، لكن يده لم تتجاوب، وصرخ الرجل قائلًا: «توقف، لا تلمس هذا، سوف تُفَجِر القنبلة».

لم يتحرك أحد في الغرفة، وببطء تغضَّن وجهُ الرجل ليكشف عن ابتسامةٍ، لقد كانت

مزحة، كما قال مقهقهًا بنعومة بينما يرفع السترة عن صدر الشائع، وقدم نفسه على أنه سعيد الشهري، محتجز سابق في غوانتنامو.

حاول الشائع أن يهدأ نفسه ويتذكر أسئلته خلال الجولة التقديمية التي تلت ذلك، وبعد دقائق، انسلّ حشدٌ من الرجال المقنعين المسلحين إلى الغرفة، مشيرين إلى وصول الوحيشي، فالوحيشي سرق صفحةً أخرى من كتاب خطط ابن لادن، إذ أراد قائد القاعدة الشاب أن يظهر بالطريقة الدرامية نفسها التي كان بطله قد أتقنها في أفغانستان، وراقب الشائع بينما حيّا الآخرون الرجل الصغير ذا الثوب الأزرق والعمامة البيضاء، كان الشائع قد رأى صورة الوحيشي في ملفات الشرطة لكنه شخصيًا كان يبدو أصغر حجمًا حتى، وأنفه الحاد وخداه المتهدلان مغطاة بخصل الشعر التي تبرز من وجهه، وسرعان ما جاء دور الشائع، وكان الشيخ يقف أمامه تمامًا، فصافح الوحيشيُّ الصحفيَّ بيده وعانقه بابتسامة لطيفة قائلًا: «أهلًا، اجلس هنا بجانبي».

أراد الشائع أن يبدأ المقابلة، لكن الوحيشي هزّ رأسه بالرفض قائلًا: «لدينا واجبات محددة»، بينما أحضر المساعدون الشاي والمشروبات الباردة، وبعد عدة دقائق ظهرت عدة صحون من الطعام، وظهرت المفاجأة على وجه الشائع، إذ لم يكن يتوقع الضيافة من الإرهابيين، ولاحظ الوحيشيُّ ردةَ فعله، لكن بدلًا من أن يعلق على ذلك قام قائد القاعدة برفع حاجبيه بأدب، وبينما أنهى الطعام الذي تُوجب الضيافة عليه أن يتناوله، أدرك الشائع أنه لم يكن يملك أدنى فكرة عن هوية هؤلاء الرجال، هذه ليست القاعدة التي قرأ عنها.

حاول الوحيشي – في التسعين دقيقة التي تلت – أن يثقّفه شارحًا للصحفي الشاب التبريرات الدينية لأفعال القاعدة الماضية، وراسمًا خطتهم لـ«تنظيف شبه الجزيرة العربية»، وتجنب قائد القاعدة هادئ الكلام بأدب الأسئلةَ المتعلقة بموت المسلمين الأبرياء كسوزان البنا، التي قتلت في الهجوم على سفارة الولايات المتحدة قبل عدة شهور، وضحك على محاولات الشائع لتصوير علي عبد الله صالح كقائدٍ شرعي، فاحتج الوحيشي: «أية انتخابات؟»

في نهاية المقابلة، وقف الوحيشي ليرافق الشائع إلى الباب، وقال محذّرًا: تذكر، لا تنشر المقابلة حتى نعلمك بذلك، إذ كان لدى قائد القاعدة مفاجأة أخرى.

في الوقت نفسه الذي كان الوحيشي ينهي فيه مقابلته، كان جابر الفيفي، المقاتل الأصلع من تورا بورا، يتابع الحرب الأخيرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين تدور على شاشة تلفازه في الرياض.

بعد وقتٍ قصير من غروب الشمس في يوم 3 كانون الثاني/ يناير عام 2009، قامت القوات الإسرائيلية بعبور الحدود إلى غزة، وكانت أوامرهم هي أن يضعوا نهاية لهجمات الصواريخ التي تطلقها حماس من مدن الصفيح المتضخِّمة باستمرار تحت سيطرتها، وخلال الأسابيع الثلاثة التالية دكت الطائرات الإسرائيلية النفاثة القطاع الممتد على مساحة 140 ميل مربع من ساحل البحر المتوسط، وبحلول الوقت الذي انسحبت فيه القوات الإسرائيلية البرية في 21 كانون الثاني/ يناير، كانوا قد خلفوا أكثر من 1100 قتيل فلسطيني.

تابع الفيفي أسابيع الحرب[1] على الجزيرة، وراقبت عيناه الدخان وومضات الضوء المخيفة التي تتقافز عبر الشاشة بينما يفكر بابنته.. وتساءل: ماذا عن الأطفال الفلسطينيين في غزة، ألا يستحقون ما تعتبره ابنته من المسلَّمات؟

من مكان ما عميقٍ في عقل الفيفي تردد صدى كلمات الشهري خلال الوليمة التي أقامها في الطائف، وكان الفيفي لا يزال يستطيع أن يسمع الشغف والعزيمة في صوت السعودي النحيل في أثناء حديثه عن واجبهم غير المنتهي، لقد أخطأ، ليست ابنته سببًا ليتخلى عن الجهاد، بل هي السبب الذي عليه أن يقاتل لأجله، سوف يذهب إلى اليمن.

على بعد أكثر من 6000 ميل جلس باراك أوباما يتوصل إلى قرار آخر، ففي 22 كانون الثاني/ يناير عام 2009، وهو اليوم الثاني له في منصبه، قام الرئيس المُنتخب حديثًا بتوقيع القرار الإداري الذي وعد به في أثناء حملته، ومن على طاولة في الجناح الغربي وأمامه كتيبة من الضباط العسكريين المتقاعدين وعد أوباما بإغلاق معتقل غوانتنامو و«إعادة معايير المحاكمة العادلة والقيم الجوهرية الدستورية التي جعلت هذه البلاد عظيمةً حتى في غمرة الحرب»[2].

في اليوم التالي أطلق الوحيشيُّ مفاجأته، فإضافة إلى مقابلة الشائع أصدر قائد

(1) Suhayl, «The repentant al-Fayfi».

(2) «Obama signs order to close Guantnamo Bay facility», **CNN News**, January 22, 2009.

القاعدة فيديو قصيرًا يظهر فيه مع الشهري والريمي ومحمد العوفي، وهو معتقل سابق آخر في غوانتنامو، ويمثّل الأربعة قيادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية الجديدة: يمنيان وسعوديان.

حقق فيديو الوحيشي ذو التسع عشرة دقيقة أسوأ مخاوف البعض في حكومة الولايات المتحدة: الرجال الذين كانوا في يوم من الأيام مسجونين لدى الولايات المتحدة باتوا الآن أحرارًا، ويهددون بقتل الأميركيين، «والله إننا قادمون» أقسم قادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية الجدد أمام الكاميرا ثم قالوا واعدين: «سوف نجلب السعادة إلى عيون أمهاتنا في فلسطين وغزة، فإما أن نأتيهم[1] ورايات الجهاد ترفرف فوق خيول الحرب بعزيمة أجدادنا، أو نموت في سبيل هذه القضية»، وكما فعل ابن لادن قبل عدة سنوات، لم تترك القاعدة في شبه الجزيرة العربية أي شك، لقد كانت تستهدف الولايات المتحدة.

في السعودية، أدى ظهور الشهري والعوفي في الفيديو إلى هرجٍ يائس بحثًا عن المعلومات، فلم تكن المخابرات السعودية تعرف حتى أن الاثنين قد غادرا البلاد، فهم يظنون أن الرجال في منازلهم مع عائلاتهم، وأمر محمد بن نايف، الأمير المسؤول عن وزارة الداخلية، بمراجعة فورية لبرنامج إعادة التأهيل في المملكة، وفي أوائل شباط/ فبراير أصدرت السعودية النتائج: ثمانيةٌ وثلاثون رجلًا، ومن ضمنهم أحد عشر سجينًا سابقًا في معتقل غوانتنامو انتكسوا وانضموا ثانيةً إلى القاعدة، وادعت المخابرات السعودية أن العديد من هؤلاء الرجال قد هربوا إلى اليمن.

كان جابر الفيفي في مقدمة اللائحة السعودية للمطلوبين تقريبًا، وقبل عدة أيام، نفذ الأصلع ذو الأربعة والثلاثين عامًا قسَمَه الصامتَ وغادر بيته إلى اليمن، وعلى مدى سنوات انسلَّ مهرِّبو الأسلحة والمخدرات عبر الحدود اليمنية - السعودية سهلة الاختراق، وكانت القاعدة قد اعتمدت هذه الشبكات نفسها للمجندين الذاهبين نحو الجنوب، وفي منتصف كانون الثاني/ يناير، قبل وقت قصير من إطلاق الوحيشي للفيديو، التقى الفيفي وحفنة رجال سعوديين آخرين مرشديهم اليمنيين في الأرض المقفرة الجبلية شمال الحدود، وقاد المهربون عصابة الفيفي عبر الأجمات والشجيرات الجبلية جنوب السعودية قبل أن

(1) Al-Qaeda in the Arabian Peninsula, «From Here We Begin and at al-Aqsa We Meet», **al-Malahim**, January 2009.
Translation by Global Islamic Media Front.

يودعوهم في قرية يمنية صغيرة بعد الحدود بقليل[1]. وفي النهاية، بعد أن مرت الجماعة عبر أيادٍ عديدة، أتى عضوٌ من القاعدة ليأخذهم، وأعطى كلًا منهم سلاحًا، وحذَّرهم بأن يتوقعوا المشكلات.

كان على الرجال أن يسافروا عبر منطقة نفوذ الحوثيين ليصلوا إلى المخبأ التالي، وخلال الساعات الأربع التالية مشت قافلة السيارات الصغيرة عبر طرقاتٍ جبليةٍ ضيقة متجنبة الحواجز القبلية والكمائن المحتملة، وعند نقطة معينة قال دليل القاعدة للفيفي والسعوديين الباقين أن يقوموا بتبديل السيارات وتابعوا طريقهم مجددًا، لم يكن أحدٌ من اليمنيين يقبل أن يشرح ما يحدث والسعوديون بدؤوا يقلقون، تمتم الفيفي لنفسه: «هذه فوضى»[2] بينما يحدق من النافذة ويقبض على سلاحه بإحكام، وأخيرًا في مكان ما من شمالي صعدة خرجت السيارات عن الطريق الترابي واستدارت لتقف أمام منزل صغير.

كان ناصر الوحيشي في الداخل مع بقية قيادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية، فهذا كما شرح قائد القاعدة بلطف للسعوديين المرهقين حفلُ قسَمِهم، وفي الزاوية، كان أحد مساعدي الوحيشي قد حضَّر كاميرا ليصور الحدث، فقرأ آخرٌ القسم بصوتٍ عالٍ بينما ردده السعوديون من خلفه مبايعين الوحيشي ومتعهدين بطاعته، وبينما تلاشت كلماتهم في الهواء الساكن سارع من بقي في الغرفة لتحية الفيفي والسعوديين الباقين بالابتسامات وعبارات الترحيب، لقد باتوا الآن أعضاء في القاعدة في شبه الجزيرة العربية.

بعد أقل من شهرٍ من حفل القسم، اختفى محمد العوفي، وهو معتقل غوانتنامو السابق الذي ظهر في تسجيل الوحيشي، وأخبر الوحيشي رجاله في البداية أن قبيلة قد خانت القائد السعودي[3]، ولكن سرعان ما انتشر خبر أن السعودية قد أعلنت عن عفو عام لأي من مقاتلي القاعدة الذين يريدون تسليم أنفسهم، فالعوفي كما ادَّعى السعوديون قد استفاد من العرض وبات في المنزل مع عائلته بالفعل.

بغية أن يبقى السعوديون – وهم أجانب لم يستطيعوا أن يفهموا اليمن دومًا – بعيدًا

(1) Suhayl, «The repentant al-Fayfi».
(2) المصدر السابق
(3) المصدر السابق

عن المشكلات، استضافهم الوحيشي لدى عائلات محلية وحَدَّ من حركتهم حول البلاد، فباتت القيود أكثر قسوةً بعد انشقاق العوفي، وتذمر الفيفي لرفاقه المقاتلين: «هذا لا يشبه أفغانستان في شيء[1]، هناك كنت أستطيع السفر إلى أي مكان، لكن الأمر هنا يبدو أشبه بسجن باختيارك».

أمضى المجندون السعوديون الذين كانوا قد قدموا جنوبًا مع الفيفي معظم أيامهم بعيدًا عن الأنظار في بيوتٍ آمنةٍ أشبه بالأكواخ في الجبال الشمالية قريبًا من المكان الذي أقسموا فيه الطاعة، وكثيرًا ما كانت البيوت التي عليهم أن يتشاركوها مع العائلات التي استضافتهم لا تحوي ماءً جاريًا أو كهرباء، ولم يكن يسمح للفيفي بأن يتصل بزوجته أو ابنته، وفي كل مرة طلب فيها أن ينتقل إلى منطقةٍ أخرى ليشارك في عملية أخبره الوحيشي أن يصبر.

في أوائل آذار/ مارس أرسل الوحيشي أحد المراهقين من فيلقه للمُفجرين الانتحاريين المنتظرين إلى شبام، في صحراء حضرموت الشرقية، وهي موقع أدرجته اليونسكو جزءًا من التراث العالمي ويعرف باسم «منهاتن الصحراء»، وشبام مدينة خلابةٌ فيها 500 برج من اللبِن ترتفع أكثر من 100 قدم على أرض الوادي، وتعود المدينة إلى زمن المسيح وتُعدُّ واحدةً من معالم اليمن السياحية القليلة الهامة، وأمر رجال الوحيشي المُفجِّر ذا الثمانية عشر عامًا بمراقبة التلة المطلة على المدينة حيث غالبًا ما يتوقف السياح لالتقاط الصور.

تركت القاعدة الهدفَ النهائيَّ للمراهق، لكنهم أخبروه أنهم يريدون أكبر عدد من القتلى، وقرروا أن لا يعطوا المُفجِّرَ سترةً مفخخة لأن قيادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية قلقت من أن السترة قد تكشف أمره أو قد تكون شديدة الحرارة في بداية الصيف، وبدلًا من ذلك، صمم صانع قنابل في القاعدة صندوقًا معدنيًا مستطيلًا بعمق أربع إنشات[2] يمكن أن توضع فيه المتفجرات، وليخفي عمله اليدوي، ثبت التقني طبعة مؤطرة ضخمة على أعلى الصندوق.

بعد فترةٍ وجيزةٍ بعد الغداء في 15 آذار/ مارس تسلق عميل القاعدة التلة وانتظر مجيء السياح إليه، وخلال بعد الظهر، صعد بعض الأفراد المنعزلين متسلقين التلة، ومازح

(1) المصدر السابق

(2) «I swear by the Lord of the Ka'bah, I won» Part 1 (Arabic), **al-Malahim**, 2009.

المُفجر المراهق الأجانب بإنكليزية مكسرة حتى إنه وقف ليتصور معهم، ولكن ما إن بدأت الشمس تغيب وراء الجبال الغربية حتى وصلت مجموعةٌ متعرقة من الكوريين الجنوبيين إلى ذروة التلة، وهذه هي المجموعة الكبيرة التي كان في انتظارها، فسارع ليتخذ موقعه بينما بدأت الشمس بالمغيب خلف ناطحات السحاب اللبنية، وبينما كان السياح يعبثون بكاميراتهم تقدم المُفجر نحوهم ممسكًا الصندوق المعدني بإحكامٍ إلى صدره، فمزق الانفجار المجموعة وقتل أربعة كوريين جنوبيين ودليلهم اليمني الذي كان قد تقدم إلى الأمام ليحيّي ابنَ بلده.

بعد أربعة أيامٍ حاولت القاعدة مجددًا، إذ سافر وفد أمني من كوريا الجنوبية إلى اليمن ليحقق في تفجير شبام، وعرف الوحيشي بطريقة ما موعد رحيل طائرتهم، وهذه المرة اختار يمنيًا يبلغ من العمر عشرين عامًا يدعى خالد الضياني.

سجل خالد الضياني في الليلة التي تسبق الهجوم وصيته الأخيرة وشهادته، وكان يحمل مسجلة فضية اللون أمام صدره وهزها أمام الكاميرا صائحًا: «هذه هي سترتي المفخخة»[1] بصوت ينضح بالشباب، «مشغل أشرطة تسجيلٍ سنستمع عبره كلانا إلى ألحان المتفجرات»، وانخفضت الكاميرا لتظهر كيف حُضرت القنبلة، فداخل مكبرات الصوت، التي تقع خلف الواجهة البلاستيكية، حشرت القاعدة مئات المسامير، وفي الدقائق العشرين التالية أطلق الضياني شهادته الأخيرة بعنف قبل أن يوجه كلامه إلى والديه ومن ثم إلى أمه خصوصًا: «هذا أفضل بالنسبة لي من الحياة في سجونهم»، قال وصوته يتهدج ثانية، «لا تنصتي إلى أي أحد يسوؤنا بالكلام».

في الصباح التالي، أخذ الضياني مسجلته الممتلئة بالمتفجرات وبحث عن موقعٍ على طريق المطار، وكان مُحضِّروه قد أحاطوه علمًا على نحو جيد، فكان يعرف تمامًا كيف تبدو السيارات في القافلة الكورية الجنوبية، ولم يكن عليه الانتظار طويلًا، وما إن رأى الضياني السيارات حتى حمل مسجلته المفخخة على كتفه ومشى بين السيارتين الأولى والثانية، فحطمت المسامير النوافذ في كلتا السيارتين، ولكن بشكلٍ عجائبي لم يمت أحد سوى الضياني، وانتثر جسده المشوه فوق البقعة المحترقة التي بقيت مكانها لأشهر.

---

(1) المصدر نفسه

خلال الصيف، عرضت القاعدة قضيتها أمام الشعب اليمني بينما حاولت أن تبرر التفجيرين الإرهابيين، فتجاهلت الدليل اليمني الذي قامت بقتله، وركزت القاعدة في شبه الجزيرة العربية بدلًا من ذلك على السياح الكوريين الجنوبيين، ونشر أبو عمرو الفاروق، أحد رجال الدين في المجموعة، كتيبًا من 19 صفحة كتب فيه: «لقد حذرناهم» مشيرًا إلى شهورٍ من التصريحات العلنية قبل أن يشرح الركائز الدينية المبررة للضربات عائدًا مجددًا إلى أمر الرسول بـ«إخراج المشركين من جزيرة العرب»[1].

في الوقت نفسه، التقى قاسم الريمي، الذي ما زال يتأقلم مع دوره الجديد كقائد القاعدة في شبه الجزيرة العربية العسكري، سعيدَ الشهري في مأرب، فمنذ فرار العوفي في شباط/ فبراير والريمي يبحث عن طريقة ليردَّ الضربة للسعوديين ومحمد بن نايف، وأصبح الأمير السعودي هدف القاعدة الأهم، إذ كان الفرد المسؤول عن تدمير شبكة القاعدة في السعودية عام 2003 ومجددًا في 2006، وكان ثمة دليل على أن ابن نايف ينمي شبكته الخاصة من المخبرين والجواسيس داخل اليمن، وعرضه القائم بالعفو العام ليس إلا محاولته الأحدث لإضعاف القاعدة.

شرح الريمي أنه يريد إرسال يمني عبر الحدود بذريعة تنسيق استسلام السعوديين، فبهذه الطريقة، كما أكمل، تستطيع القاعدة أن تستخدم نجاح ابن نايف مع العوفي ضده، وبينما تابع الريمي والشهري الكلام بات من الواضح أن المُفجِّر يجب أن يكون سعوديًا، إذ لن يستطيع مواطن يمني الاقتراب بشكل كاف من الأمير، يجب أن يكون المفجِّر شخصًا يعرف السعودية وتقاليدها، فاقترح الشهري عبد الله العسيري، وهو الشاب اليمني الذي قال مرة أن أكبر أحلامه هو أن ينفذ عملية انتحارية في السعودية[2]، وظهر إبراهيم العسيري - بالاعتماد على خلفيته في الكيمياء - كواحدٍ من أبرز صانعي القنابل في القاعدة، وقد عرض أن يصمم القنبلة التي سوف يستخدمها أخوه، فالأخوان كلاهما يريدان الانتقام من الرجل الذي يلومانه على اعتقال إبراهيم وهروبهم من وطنهم.

في 26 تموز/ يوليو حط في صنعاء الجنرال ديفيد بتريوس رئيس القيادة المركزية

(1) Abu Amr al-Faruq, «Statement of Explanation Regarding the Ruling on the Targeting of Tourists» (Arabic), **al-Malahim**, 2009.

(2) Turki al-Sahay, «New Details From the Attempted Assassination of Mohammad bin Nayif» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, January 12, 2011.

الأميركية المسؤول عن كل أعمال الولايات المتحدة المركزية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وآسيا الوسطى ليجتمع مع الرئيس صالح، وكانت زيارة بتريوس لليمن قبل ثمانية أشهر من ذلك متوترة، إذ حاول حراس المطار أن يصادروا أمتعته وأعلم الجنرال صالحَ أن معاملةً كهذه في المستقبل ستعني أن اليمن ليست دولة صديقة[1] تريد المساعدة من الولايات المتحدة، وفي هذه المرة تصرف صالح على أفضل نحو، فقابل بتريوس مرتديًا زوجًا من النظارات السوداء تخفي كدمة بشعة تحت عينه اليسرى ناجمة عن حادث ركوب الدراجات الجبلية، وتعهد صالح بدعم كامل في مكافحة الإرهاب «بدون قيودٍ أو شروط»[2] فـ القاعدة في شبه الجزيرة العربية «سمٌ خطيرٌ[3]».

بعد خمسة أيامٍ من ذلك اللقاء عبر صالح عن التزامه الجديد بمكافحة الإرهاب عن طريق وضع قواته في الميدان، وعلى الفور تقريبًا اتخذت الأمور منحى سيئًا، فإحدى الشاحنات العسكرية الممتلئة بالأسلحة وبصناديق من المال، المفترض بها شراء ولاء شيوخ القبائل في المأرب، استدارت في منعطف خاطئ في أسفل وادٍ صحراويٍ وضاعت، ووصلت دبابات أخرى وجنود إلى القرية الصحيحة في مأرب، لكنهم قصفوا البيت الخاطئ، فضربت قذائف الدبابات الثقيلة جدران البيوت الطينية في القرية ورد رجال القبائل النار، وفي البيت المجاور، انضم عايض الشبواني - المشتبه في كونه من القاعدة والذي كان هدف المداهمة - إلى جيرانه القبليين في صد الاعتداء العسكري، ودامت معركة مأرب - كما بات القتال يعرف في بروباغندا القاعدة - أكثر من ست ساعات، وفي وقتٍ متأخرٍ من ذلك اليوم التفت جماعة صغيرة من مقاتلي القاعدة بقيادة قاسم الريمي على الجيش الذي بات الآن يقاتل معظم القرية، وأطلقوا قذائف صاروخية من بساتين برتقال قريبة فدمرت إمداداتُ القاعدة خمسَ دبابات قبل أن ينسحب الجيش، ولم يُقتل أيٌّ من أهداف القاعدة.

وبينما يقترب القتال من الحسم في القرية وجدت وحداتٌ أخرى من مقاتلي القاعدة - المسرعة عبر الصحراء لتصل إلى القرية - شاحنةَ الحمولة العسكرية الضائعة، وسرعان ما أمسك الرجال بالجنود السبعة الذين كانوا يحرسون الشاحنة واستولوا على الأسلحة والمال،

---

(1) «General Petraeus' Visit to Yemen» US diplomatic cable, December 6, 2008. Released **via Wikileaks**.

(2) «Saleh Tells Petraeus: 'No Restrictions' on CT», US diplomatic **cable, August** 9, 2009. Released **via Wikileaks**.

(3) المصدر نفسه

فساقوا غنائمهم إلى القرية حيث سلموا كل شيءٍ للريمي، فهو الأعلى رتبة في المكان، وصفوا الجنود أمام جدار من الطوب واتخذ الريمي قرارًا سريعا، فبدلًا من إعدام الرجال طلب منهم أن يعلنوا التوبة[1] عن استهداف جنود الله، إذ إن القاعدة - كما شرح الريمي - لا مشكلة لديها مع المجندين، مشكلتها مع صالح والأميركيين وحسب، وسرعان ما حضَّرَ تقنيٌّ في القاعدة كاميرا تسجيل، واصطف الجنود السبعة وراء بعضهم بعضًا ليعترفوا أنهم كانوا مخطئين عندما صدقوا أكاذيب علي عبد الله صالح، وقبل أن يطلق الريمي سراحهم جعل كل رجل منهم يقسم على القرآن أنه لن يحمل بعد الآن سلاحًا ضد القاعدة.

في صنعاء، وبينما يتَفَكَّرَ الناس في إحراج الحكومة الأخير في مأرب، استخدم أنور العولقي الإنترنت ليحلل العملية على مدونته، والعولقي رجل دين يمني - أميركي في الثامنة والثلاثين من العمر ذو لحية سوداء كثة ونظارات رفيعة الحواف، وهو ابن وزير يمني ووُلِد في الولايات المتحدة عام 1971 بينما كان والده يدرس الزراعة في جامعة نيومكسيكو كطالب في برنامج فولبرايت، وعادت العائلة إلى اليمن في 1987 حيث أمضى معظم طفولته قبل أن يعود إلى الولايات المتحدة عام 1991 ليدرس في جامعة كولورادو.

وكان العولقي إمام جامعٍ شهير في فرجينيا إبان 11 أيلول/ سبتمبر، وكثيرًا ما كان يُطلب منه شرح الإسلام للأميركيين في الأيام الحافلة بالخوف التي تلت الهجمات، فكان يجيب على أسئلة الواشنطن بوست في دردشة على الإنترنت، حتى إنه حضر فطور الصلاة الوطني في البنتاغون، ولكنه غادر إلى بريطانيا في أواخر عام 2002 مشيرًا إلى جو الخوف والرعب، وسرعان ما أكسبته محاضراته في لندن أتباعًا كثرًا بين المسلمين الغربيين الذين احترموه كشخص يقدم القيم الإسلامية التقليدية بطريقة حديثة، ولما غادر لندن بعد عامين في 2004 كان الناس قد عادوا يسألون مجددًا عن ماضيه، فكان قد التقى اثنين من خاطفي 11 أيلول/ سبتمبر في سان دييغو، ولم تستطع لجنة 9/ 11 أن تحدد طبيعة علاقته معهم أبدًا، واعترف الرئيس التنفيذي للجنة فيما بعد: «لقد كان أحد الخيوط المفتوحة في 9/ 11»[2].

(1) Al-Qaeda in the Arabian Peninsula, «The Battle of Marib» (Arabic), video and text released **via al-Malahim**.

(2) Hannah Allam, «Is imam a terror recruiter or just an incendiary preacher?» **McClatchy Newspaper**, November 20, 2009.

في اليمن، كان العولقي قد اعتقل في قضيةٍ غامضة لم يعلن عنها بشكلٍ كامل أبدًا، وآخر ما سمعته الولايات المتحدة أن اليمن قد أطلقت سراحه في كانون الأول/ ديسمبر عام 2007 لقلة الأدلة[1]، وبات العولقي الآن يعلن تفضيله لمقاتلي القاعدة في مأرب ويسأل أتباعه الصلاة لنصرهم في الحرب ضد صالح والولايات المتحدة.

في الوقت الذي كان العولقي يكتب فيه عن معركة مأرب على موقعه الإلكتروني، كانت ميشيل شيبرد ـ صحفية شقراء أنيقة تكتب في تورنتو ستار عن الأمن القومي ـ تتبع آثاره في اليمن، إذ كانت محاضرات العولقي عبر الإنترنت قد ظهرت بينما كانت تغطي قضية إرهاب في تورنتو، وأرادت أن تعرف ما الذي يظنه رجل الدين في شأن استخدام كلماته لتبرير العنف، وأعطاها أحد جهات الاتصال المحلية رقم بيت عائلة العولقي في صنعاء، ولكن الأنثى المتكلمة بالإنكليزية التي أجابت الهاتف أقسمت أن العولقي خارج البلاد، فلم تقتنع شيبرد، وطلبت من المرأة أن تمرر رسالةً إلى العولقي[2]، ولكن رجل الدين لم يرد الاتصال أبدًا.

لم تكن شيبرد هي الوحيدة التي تبحث عن العولقي في ذلك الصيف، ففي آب/ أغسطس عام 2009، وصل عمر فاروق عبد المطلب ـ وهو طالب دراسات عليا نيجيري في الواحد والعشرين عامًا من عمره ذو شعر أسود قصير وابتسامةٍ عريضة ـ إلى اليمن ليستريح من الدراسة في دبي، وكان المطلب قد درس العربية في اليمن سابقًا، وسرعان ما أعاد تأسيس نفسه كطالب لغة في معهد في وسط مدينة صنعاء، ولكن بدلًا من التركيز على صفوف اللغة العربية أمضى المطلب وقته يزور جوامع صنعاء على أمل أن يلتقي شخصًا ما يستطيع أن يصله بالعولقي، فالنيجيري الشاب يؤمن أن رجل الدين هذا مفتاح مستقبله، وقد قرر مؤخرًا أن ينضم للجهاد و ـ بصفته معجب بمواعظ العولقي المتطرفة بازدياد على الإنترنت ـ أراد عبد المطلب النصح من رجل الدين، وفي أحد الجوامع سجَّل رجلٌ رجلٌ ادعى أنه يستطيع الوصول إلى العولقي عنوان المطلب ووسائل التواصل معه، وخلال أيام استلم المطلب رسالة نصية من العولقي فيها رقم ليتصل به، وخلال محادثتهم القصيرة وجه العولقي طالب الدراسات العليا إلى كتابة مقال يشرح فيه رغبته بالانضمام إلى الجهاد.

(1) «Yemeni-American Awlaqi Released from ROYG Custody» US diplomatic cable, December 18, 2007. Released **via Wikileaks**.

(2) Michelle Shephard, «The powerful online voice of jihad» **Toronto Star**, October 18, 2009.

فأمضى عبد المطلب أيامًا يعمل على المقال قبل أن يرسله إلى العولقي الذي كان يختبئ عند حلفاء قبليين في جنوب اليمن، فاستجاب رجل الدين بعد قراءة رد المطلب قائلًا: لا تقلق، فهو سيجد طريقةً لينضم النيجري إلى الجهاد[1].

في جنوب اليمن، كان قاسم الريمي يتجول على بيوت القاعدة في شبه الجزيرة العربية الآمنة ويتباهى بالحزام الناسف الذي صنعه إبراهيم العسيري لأخيه، وقال لعملاء في أبين وشبوة: «ادعوا للشخص الذي سيرتدي هذا الحزام عله يتم عمليته»[2]، وشعر الرجال بأن شيئًا كبيرًا على وشك الحدوث، فالريمي لم يسألهم أن يدعوا لأجل عملية حزامٍ ناسف من قبل قط، لكن لما تساءل الرجال عن العملية كان الريمي يبتسم وحسب ويقول إنهم، إن شاء الله، سيسمعون عنها قريبًا.

بعد عدة أسابيع، ترك عبد الله العسيري مأرب لينطلق في الرحلة الطويلة إلى الحدود السعودية، وكان أخوه إبراهيم، الذي أعدَّ القنبلة التي يرتديها، قد وافق على أن يقود السيارة به معظم الطريق، وتمنى القليلون الذين يعرفون الغرض من رحلتهم التوفيق، ولطالما كان عبد الله عضوًا محبوبًا في المنظمة، فغالبًا ما يتطوع للقيام بواجب الغسيل[3] والطبخ للرجال الآخرين، ولم تكن ثمة مهمةٌ وضيعة الشأن عند الشاب النحيل ذي الثالثة والعشرين عامًا الذي أمضى معظم أيامه بالصيام وقراءة القرآن، وبعد وقت قصير من وصولهم إلى الحدود أوقف إبراهيم السيارة بين مجموعةٍ من الكثبان الرملية وهز رأسه لأخيه، فتعانق الرجلان مرة أخيرة بينما همس إبراهيم في أذن أخيه[4] لقد حان الوقت، ومن ثم شاهد صانعُ قنابل القاعدة أخاه الصغير - الفتى الذي جعله في مرةٍ من المرات يبحث في القمامة ليتأكد من أن لفظ الجلالة قد تم محوه بطريقة محترمة - وهو يختفي خلف الرمال نحو السعودية.

عند المعبر الحدودي، اقترب العسيري من الحراس السعوديين شارحًا لهم أنه يحتاج

(1) يعتمد هذا القسم على الوثيقة #130 in United States v. Umar Farou; Abdumutallab, Case No. 2:10-cr-20005, Supplemantal Factual Index. Available at: https://www.docomentcloud.org/documents/291667-abdulmutallab-sentecing-memorandum.html.

(2) Suhayl, «The repentant al-Fayfi».

(3) Najdi, «Biography of Abu al-Khayr» 55-56.

(4) Al-Qaeda in the Arabian Peninsula, «The Descendants of Muhammad al-Muslamah» (Arabic), **al-Malahim**, 2009.

للتكلم مع محمد بن نايف، إذ لديه رسالةٌ من زوجة سعيد الشهري وربيبه اللذين كانا قد هربا جنوبًا مع الهاربين، وسوف لن يتكلم إلا مع الأمير.

«سلام الله وبركاته عليك، أخ عبد الله»، قال الأمير ما إن جهز الحراس الاتصال، «كيف حالك؟»[1]

كان بن نايف قد أُحيط علمًا أن العسيري يدعي أنه مبعوث من قبل عدد من السعوديين في اليمن وكلهم يريد تسليم نفسه.

سأله الأمير: «كيف حال أخيك إبراهيم؟ أتمنى أن يكون بخير».

«هو بخير، الحمد لله»، تمتم عبد الله في الهاتف.

«لدي لك أخبارٌ جيدة»، تابع ابن نايف: «والدك ووالدتك بحالٍ جيدة كلاهما»، وكانت الملاحظة الحاذقة موجهة لتذكر عبد الله بأنه قد هرب مع أخيه من السعودية، ولكنَّ أحباءهما لم يهربا، وقد اعتنى بهما ابن نايف، مع أنه كان بإمكانه ببساطة أن يسجنهم.

أخيرًا، عندما خمدت المجاملات، سأل ابن نايف الشاب عما يريد.

«أريد أن التقيك» قال عبد الله، مضيفًا أن بعض السعوديين خائفون ويريدون التأكد من ابن نايف شخصيًا أنهم لن يُسجنوا إن عادوا إلى الوطن، فسأله عبد الله: «هل تستطيع إرسال طائرة؟ إذا تحدثت إليهم بحضورك، فسوف يطمئنون بإذن الله».

وافق ابن نايف وقال أنه سيرسل طائرته الخاصة إلى نجران لتأخذ عميل القاعدة إلى الاجتماع.

قبل السابعة بقليل من صباح يومٍ الخميس 27 آب/ أغسطس عادت طائرة الأمير إلى مدينة جدة السعودية الساحلية لتحطَّ في مطار الملك عبد العزيز الدولي شمال المدينة، ورافق أحد مساعدي نايف عبد الله إلى شقة مستأجرة في المدينة حيث يستطيع أن يأخذ قيلولةً ويرتاح بقية اليوم قبل مقابلة الأمير في تلك الليلة بعد أن يفطروا من صيام رمضان[2]، وكان ابن نايف يريد ألا يُخيف شيءٌ العسيري، فأخبر رجاله بأن يعطوا المشتبه به مجالًا للارتياح.

---

(1) Turki al-Sahayl and Yusif al-Hamadi, «Jeddah suicide bomber took advantage of the issue of Shihri's wife and her son» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, Septemper 2, 2009.

(2) «Countdown to Asiri's death» **Saudi Gazette**, Septemper 2, 2009.

انطلق عبد الله في تلك الليلة إلى قصر الأمير مارًّا عبر الحراسة الأمنية المخففة إلى الغرفة الرئيسية حيث كان ابن نايف يستقبل الزوار، فحيا ابن نايف الشاب النحيل، واحتضنه مقبّلًا إياه على الخدين ومستفسرًا مجددًا عن صحته. رفع عبد الله هاتفه المحمول شارحًا أنه يريد الاتصال باليمن ليستطيع الأمير أن يؤكد شخصيًا للمتمردين أنه سيرحب بعودتهم.

بالطبع، وافق ابن نايف.

في اليمن، تجمع عددٌ من مقاتلي القاعدة حول الهاتف منتظرين سماع صوت الانفجار الذين يعرفون أنه آتٍ، وقالوا لعبد الله: «إرفع صوتك»[1]، فالكل يريد أن يسمع.

«حسنًا»، قال عبد الله، مسلمًا الهاتف لابن نايف: «ها هو الأمير».

«سلام الله وبركاته عليكم» قال ابن نايف في الهاتف المحمول: «أنا أخوكم وأتمنى أن تكونوا بخير»، وتابع ابن نايف بالتحية التقليدية مضيفًا: «أنا سعيد جدًا لسماع صوتك وصوت كل أخوتك»، وما أن بدأ جملته التالية، مزق تفجيرٌ الغرفة وقطع الخط.

فبينما كان ابن نايف مشتتًا بالحديث على الهاتف مدّ عبد الله يده عبر ثوبه وفجر القنبلة التي أدخلها في مستقيمه ليتجنب الأمن، وتلقى جسم عبد الله معظم التفجير، فتوجه الضغط نحو الأعلى فاصلًا رأسه عن جسده ومتسببًا بفتح فراغ ملوث بالدماء في السقف، وبطريقةٍ ما، نجا ابن نايف الذي كان يقف على بعد أقل من ياردة من عبد الله.

في اليوم التالي، عرض التلفزيون الرسمي السعودي الملك عبد الله يقابل ابن نايف في المشفى، وقال ابن نايف للملك: «لقد كان هذا خطأً»[2]، معترفًا بأنه لم يُخضع المُفجر للتفتيش، وكانت العلامة الوحيدة على الإصابة هي شريط طبي أبيض ملفوف حول الإصبع الوسطى في يد الأمير اليسرى.

(1) «The Descendants of Muhammand bin Maslamah» (Arabic), **al-Malahim**, 2009.

(2) Margret Coker, «Assassination attempt targets Saudi prince» **Wall Street Journal**, August 29, 2009.

الفصل الخامس

أهداف

2010 - 2009

في 14 كانون الأول/ ديسمبر عام 2009 بعد أربع سنواتٍ تقريبًا من هروب ناصر الوحيشي وقاسم الريمي من السجن، قامت وزيرة خارجية الولايات المتحدة هيلاري كلينتون بتصنيف القاعدة في شبه الجزيرة العربية منظمةً إرهابية[1]، وبعد يومين قدم الجيش موجزًا محضرًا على عجل من خمسٍ وأربعين دقيقة لفريق مشترك بين الوكالات من المسؤولين والمحامين يشرحون فيه خططهم لما يدعونه عملية «كوبر دون» (الكثيب النحاسي)[2]، فالجيش يريد أن يقتل ثلاثة رجالٍ استطاع تحديد مكانهم في جنوب اليمن[3]، وقد أعطوهم أسماء رمزية ضمن فريق العمل: أكرون، توليدو، كليفلاند، وأكرون الهدف الرئيسي[4] للغارة، هو رجل يدعى محمد الكازمي، الذي اعتقد محللو الولايات المتحدة أنه مسؤول عن الهجوم الانتحاري عام 2007 على السياح الإسبانيين في مأرب ويُعتقد أنه الآن يخطط لعملية ضد سفارة الولايات المتحدة في صنعاء.

بينما كان يستمع إلى عرض الجيش المختصر[5] عصر ذلك اليوم عبر اتصال هاتفي مُؤمَّن، شعر جيه جونسون، وهو محامي البنتاغون الأول، أنه غير مستعد لاتخاذ القرار

(1) Josh Grestein, «Clinton named al-Qaeda Yemen as terror group a month ago» **Politico**, January 18, 2010.

(2) Daniel Klaidman, *Kill or Capture:* **The War on Terror and the Soul of Obama Presidency** (Boston and New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2012), 200-201.

(3) المصدر السابق 199 - 202

(4) المرجع السابق، ص 199.

(5) مقتبس في: Richard Rowly and Jeremy Scahill, **America's Dangerous Game in Yemen**, film: broadcast by **al-Jazeera English**, February 2012.

الذي اتصلوا به ليتخذه، فالجيش يريد أن يعرف إن كان بإمكانه قانونيًا أن يضرب الأهداف الثلاثة، وجونسون قد أمضى أقل من ساعة مع الدليل، وأخيرًا، أذِنَ بضربات على كل من أكرون وتوليدو، لكنه شطب كليفلاند، لأنه أحس أن احتمالات الخسائر المدنية ببساطة أكبر مما يمكن احتماله، وبعد إتمام المعاملات الورقية، وإذن جونسون، وضع الجيش عملية كوبر دون موضع التنفيذ.

في الطرف الآخر من العالم، في ظلمة سَحَر 17 كانون الأول/ ديسمبر، أطلقت سفينة تابعة للبحرية الأميركية في المياه المقابلة لساحل اليمن النار، وكان الهدف مخيمًا على بعد عدة أميال في اليابسة تعتقد استخبارات الولايات المتحدة أنه معسكر تدريب للقاعدة يعيش فيه الكازامي، ويقع في سفح تلة منخفض صخري في جنوب أبين بالقرب من قرية المعجلة، وكان من غير الممكن الوصول إلى الموقع بواسطة الطريق تقريبًا، وكان الشيء الوحيد الذي يمكن للمُستهدفين الأميركيين أن يروه من الجو هو عدة أكواخ نوم بدائية من العصي وأوراق الشجر متناثرة بين أشجار صغيرة، وفي الليل يرون نقاطًا صغيرة من الضوء توحي بأنها نار مخيم.

بعد دقائق من مغادرتها السفينة، شقت صواريخ كروز المحملة بالقنابل العنقودية الظلمةَ لتنفجر بين الخيم، وفي واشنطن[1]، تابع جونسون الصور الحية للهجوم على ما يدعوه البعض في الجيش بـ KILL TV (تلفزيون القتل)، واختفت الأشكال المشوشة التي كان يراها تتحرك منذ دقيقة في سلسلة من الأضواء الخاطفة الصامتة، وداخل المخيم، مادت الأرض ومالت من عزم التفجيرات التي مزقت الأشجار وقذفت الصخور في الهواء، وأطلقت القذائف العنقودية - المصممة لتقذف ذخائر فرعية - المزيد من المتفجرات بينما تمزق الشظايا الأجساد والقماش، والقنابل التي لا تنفجر تدفن نفسها في الأرض الصلبة حيث تشكل حقل ألغامٍ من الذخيرة غير المنفجرة، وعلى طول حصى الرصيف الصخري، حيث كانت العائلات منتشرة تحت قماش القنب المهلهل قبل دقائق، لم يعد هنالك الآن إلا دفقات نابضة من الضوء وصرخات من الذعر. يروي أحد رجال القبيلة الذي وصل إلى الموقع آثار القصف: «ترى أغنامًا وماعزًا في كل مكان، ترى رؤوس الذين قتلوا هنا وهناك، ترى الأطفال، ولا يمكنك أن تميز لحم الحيوانات من لحم البشر»[2].

(1) المصدر السابق 11 - 209.

(2) مقتبس في: Richard Rowly and Jeremy Scahill, **America's Dangerous Game in Yemen**, film: broadcast by **al-Jazeera English**, February 2012.

أصاب صاروخ أميركي أحد الأبنية المهلهلة فقتل فيه الكاظمي وزوجته وأطفاله النائمين بقربه، وكان معظم الضحايا، على أيٍّ حال، من البدو المحليين الذين يعتاشون من الحيوانات التي يربونها في هذا الوادي المهمل في جنوب اليمن، فبدلًا من معسكر تدريب للقاعدة كانت الولايات المتحدة قد هاجمت مخيمًا للبدو، وكان الكاظمي هو الضيف فيه، وليس العكس.

بعد مشاهدة الدمار على تلفزيون القتل أخبر جونسون أحد أصدقائه: «لو كنت كاثوليكيًا[1]، لتوجب علي الذهاب للاعتراف»، مثلما شعر محامي حكومي آخر شبَّه مرةً محاولة إيقاف قتل الهدف بـ«شد عتلةٍ لإيقاف قطار شحنٍ ضخم يسرع في طريقه على السكك»[2]، ومن المفترض أن الواجب في شد تلك العتلة يقع على جونسون ومحامي الدولة الآخرين، ولكن في مواجهة يقين الجيش، كثيرًا ما كانوا يشعرون بأنهم عاجزون عن فعل ذلك.

ستدَّعي القاعدةُ لاحقًا أن ثمانية وخمسين شخصًا، من ضمنهم نساء وأطفال، قد قتلوا في الغارة[3]،وأمضى الناجون معظم اليوم يغسلون الجثث القابلة للغسل ويحضرونها للدفن، ومشى بعض الرجال فوق الحصى المحروق ليخرجوا عبوات القذائف الفارغة من الشجيرات الشائكة ويفكوا تشابكات قصاصات الثياب من الأشجار متسائلين عن الذي فعله البدو ليستحقوا عقابًا كهذا[4].

على بعد أكثر من 150 ميلًا شمال المذبحة في المعجلة، قامت اليمن بجانبها من الهجمات المنسقة، وبينما صواريخ الولايات المتحدة من طراز كروز في طريقها نحو المخيم البدوي كانت وحدات مكافحة الإرهاب اليمنية تحاصر منزلًا حجريًا من طابقين شمال صنعاء يعتقدون أنه مخبأ قاسم الريمي، وقتلت القوات اليمنية في تبادل إطلاق النار في الصباح الباكر هاني شعلان، وهو سجين سابق في معتقل غوانتنامو

(1) مقتبس في: Klaidman , **Kill or Capture**, 210.

(2) مقتبس من المصدر نفسه، ص 202 .

(3) حددت منظمة العفو الدولية عدد الأموات أخيرًا بـ 55، من ضمنهم 14 عميلًا لمنظمة القاعدة في شبه الجزيرة و41 ساكنًا محليًا ومن ضمنهم 35 امرأةً وطفلًا، وسبب الفرق في العدد على الأرجح أن ثلاثة أشخاص ماتوا لاحقًا لأنهم داسوا على ذخائر غير منفجرة.

(4) Richard Rowly and Jeremy Scahill, **America's Dangerous Game in Yemen**

اختفى منذ أشهر، وقامت بعدة اعتقالات، لكن لم يكن ثمة أثر للريمي[1].

بعد **ثلاثة أيام**، في مساء 20 كانون الأول/ ديسمبر، طلب صالح بن فريد - وهو شيخ ثري من قبيلة العوالق ذو سكسوكةٍ رمادية وجيوب متجعدة تحت عينيه - اجتماعًا بين القبائل في منزله على بعد أكثر من 60 ميلًا بقليل عن المعجلة، وكان قد جال في موقع القنبلة في وقت سابق من ذلك اليوم، وصدمه ما رآه، فبدلًا من معسكر تدريب القاعدة التي كانت الأخبار تتحدث عنه وجد مخيمًا مبعثرًا للبدو وجثثًا ممزقة، وتحدث القائد القبلي - الذي كانت عائلته قد حكمت يومًا ما تحت نفوذ البريطانيين كسلاطنة - الإنكليزية بطلاقة، ورأى عدة شظايا قذائف محفور عليها «صنع في الولايات المتحدة»، وسرعان ما أدرك أن هذه القذائف تدحض ادعاء الحكومة اليمنية بأنها من قام بالضربة.

غضب بن فريد من خسارة الأرواح وأكاذيب الحكومة، فنظم مسيرة احتجاجٍ هائلة من عدة آلاف من القبليين وقرر موعدها في 21 كانون الأول/ ديسمبر، وفي الليلة التي سبقت مسيرة الاحتجاج المخطط لها اجتمع ما يقارب 150 من قادة القبائل في منزل بن فريد الأشبه بالقصر ليتفقوا على مجموعة من القواعد الأساسية، فالعديد من القبائل متورطة في خلافات قديمة يجب أن تُنحى لأجل تجمع كبير كهذا، وفي حوالي الساعة 9:30 من تلك الليلة بينما كان بن فريد وضيوفه يتناولون الطعام ويتحدثون دخل أحد حراسه وقال أن هنالك خمسة أو ستة شبابٍ خارجًا يريدون التحدث إليه.

«اطلب منهم أن يدخلوا[2]»، أمر ابن فريد.

«لكنهم مسلحون بشدة بالرشاشات الآلية والقنابل اليدوية وقاذفات الصواريخ».

«لا يهمُّ»، أجاب فريد، «نحن مجهزون مثلهم».

الشباب الصغار، الذين اتضح أنهم كانوا متأنقين ونظيفين بشكل مفاجئ نظرًا لفقر هذه المنطقة، رفضوا عرض ابن فريد الطعامَ عليهم، وكان الشيخ المُسن يعرف معظم عائلاتهم وقبائلهم، ولكن بينما الشباب يتحدثون شعر ابن فريد أن شيئًا ما ليس على ما يرام، إذ

---

(1) Muhammad al-Ahmadi, «Yemen's war on al-Qaeda» (Arabic). **Al-Ghad**, December 28, 2009.

(2) هذا الإدعاء يستند إلى مقابلة جيريمي سكاهيل مع صالح بن فريد في كانون الثاني/ يناير 2012، استخدمت بإذن صاحب الحقوق الفكرية.

كان من الواضح أن الرجال ميسورو الحال ولكنهم عاطلون عن العمل، وقالوا ضاحكين: بعض الناس يقولون: «أننا القاعدة».

«أأنتم كذلك؟» شدد فريد.

أقر الرجال أنهم كذلك، وسألوا إن كان بإمكانهم أن يحضروا مظاهرة الاحتجاج في اليوم التالي، وكان فريد قلقًا، فالهدف من مسيرته الاحتجاجية أن يظهر للعالم أن الولايات المتحدة هاجمت قرية بدوية وليس معسكرًا لتدريب القاعدة، ولكن الرجال الذين أمامه ينتمون إلى قبائل ويحق لهم المشاركة في الوقت نفسه، فقال ابن فريد لهم: «إذا كنتم ستحضرون غدًا كرجال قبائل عاديين فأهلًا بكم»، لكنه لن يسمح لهم بالحضور بصفتهم من القاعدة.

«حسنًا»، قال الرجال عندما أنهى فريد محاضرته: «لن نحضر»، ومع ذلك، أزعج شيءٌ ما بخصوص الرجال ابنَ فريد، وحذرهم مرةً أخرى من المجيء إلى المسيرة الاحتجاجية بصفتهم من القاعدة، فكرر كلامه بصوته الأجش: «إن حضرتم، فاحلقوا لحيتي إن عشتم ثلاثة أيام»، وهذا قسم قبلي معتاد في اليمن، حيث حلاقة لحية الفرد على العلن إهانة لا تُرد، كان ابن فريد يقول للرجال أنهم إذا لم يلتزموا بالاتفاقية فسيقتلهم في غضون ثلاثة أيام، وأكد عملاء القاعدة لابن فريد أنهم لن يحضروا المظاهرة.

في اليوم التالي جاؤوا على الرغم من ذلك، وما إن وصل عملاء القاعدة الشباب هؤلاء إلى موقع الالتقاء حتى استطاعوا رؤية آلاف القبليين يتحلقون في المكان ويناقشون الضربات، خرج محمد الكيلوي – وهو رجلٌ طويل ذو لحيةٍ محناة بدأت حديثًا بالنمو والكشف عن جذورها السوداء – من السيارة حاملًا مكبر صوت ومرتديًا سترة عسكرية خضراء و«فوطة»، وهي تنورة من القماش المزخرف كثيرًا ما يرتديها رجال جنوب اليمن، ومن ثم صعد إلى سطح السيارة و بدأ بالحديث.

قال: «إن حرب القاعدة في اليمن هي ضد الولايات المتحدة، ليست ضد الجيش اليمني»(1).

وبينما تردد صدى صوت الكيلوي عبر الأرض المنبسطة، استدار العشرات من القبليين

(1) «al-Awaqli appears in public, threatening revenge for those killed» (Arabic), **News Yemen**, December 22, 2009.

ليستمعوا إلى ما يقوله، مسجلين رسالته على الكاميرات وأجهزة الهواتف المحمولة: «أيها الجنود، يجب أن تعرفوا أنْ لا مشكلة بيننا وبينكم»، أكمل بينما وقف رجلان للحراسة متشبثين ببندقيتيهما وماسحين الحضور تحسبًا لأي تهديد[1]، «مشكلتنا هي مع الأميركيين وأذنابهم»، ثم تمهل ليلتقط أنفاسه وتابع: « أني أحذركم لكي تبعدوا أنفسكم عن صفوف الأميركيين، واعلموا أن النصر في هذا هو لجماعة الله».

تعرف أحد رجال ابن فريد على الكيلوي والآخرين، فهم مقاتلو القاعدة من الليلة السابقة، وأسرع ليجد شيخه الذي كان يستريح تحت قبة من عدة خيم كبيرة نصبت لكبار الشخصيات القبلية، «لقد حذرتهم»، اختنقت الكلمات في حلق فريد بينما ينتزع رشاشًا آليًا من الأرض بجانبه، وزمجر بينما يعاني ليقف على قدميه: «إما أن يقتلوني أو أقتلهم»، وهدّأ العديد من حراسه قائدهم الكبير في العمر ووعدوه بأنهم سيهتمون بالمشكلة[2]، ولكن في الوقت الذي استطاعوا فيه الوصول إلى الطرف الآخر من المسيرة الاحتجاجية، كانت السيارة الممتلئة بمقاتلي القاعدة قد مضت في طريقها.

تمامًا كما كان ابن فريد يخاف، شتت خطاب الكيلوي القصير هدف تظاهرته، وبث الجزيرة في وقت لاحق من تلك الليلة لقطاتٍ من أجهزةٍ محمولة للكيلوي، وحددت هويته بشكل صحيح كعميل للقاعدة.

بعد يومين، في ليلة عيد الميلاد، شنت الولايات المتحدة غارة صواريخ كروز ثانية، فارتفع الصاروخ الذي يبلغ سعره 600000 دولار فوق البحر والجبال الساحلية قبل أن يصطدم بسقف منزل حجري صغير بالقرب من قرية «رفضة» الصغيرة[3]، وقتل الانفجار الرجال الأربعة الذين كانوا في الداخل وأيقظ الوادي على صدمة.

قرية «رفضة» هذه تبعد أكثر من ساعتين عن أقرب طريق معبَّدة في شبوة، وهي عالم قائم بذاته، انتزع القرويون فيه وجودًا لهم بدون مياه جارية ولا كهرباء، والعلامة الوحيدة على وجود الدولة هي المدرسة، وبقي مبنى المدرسة فارغًا مدّةَ سنوات، ولكن في أوائل 2009. بعد وقت قصير من إطلاق سراح فهد القصع وصل مخفق القاعدة النحيل الذي

(1) «Qaeda makes rare public appearance at Yemen rally» **Reuters**, December 21, 2009.
(2) مقابلة جيريمي سكاهيل مع صالح بن فريد
(3) «News Report» (Arabic), **Sada al-Malahim** 12 (January 2010), 33.

تأخر في النوم وفوت تصوير الهجوم على المدمرة كول قبل تسع سنوات، ومعه عرض بتزويد القرية بالمعلمين، وخلال أسابيع، عاد القصع مع حفنةٍ من الشباب الذين بدؤوا بتدريس الأطفال قراءة القرآن بالإضافة إلى مادة دعوها «علوم دينية»[1]، فما أخفقت الحكومة اليمنية في توفيره على مدى سنوات وفرته القاعدة في أيام.

تجمع القرويون مع القصع حول بقايا الكوخ الحجري المدمرة صباح 24 كانون الأول/ ديسمبر ليفحصوا الأضرار[2]، وكان يعرف الضحايا جميعًا معرفةً شخصيةً، فإحدى الجثث المشوهة جثة محمد الكيلوي، وكان كما تنبأ ابن فريد، فلم يصمد الرجال أحياء ثلاثة أيام.

مع حلول الوقت الذي شنت فيه الولايات المتحدة هجومها ليلة عيد الميلاد، كانت خطة القاعدة في شبه الجزيرة العربية الأخيرة قد باتت على قدم وساق، فقبل عدة أشهر ترك عمر فاروق عبد المطلب - الطالب النيجري الشاب الذي أرسل مقالًا لأنور العولقي يشرح فيه لماذا يريد الانضمام إلى الجهاد - صنعاء ليذهب إلى محافظة شبوة الجنوبية، وفي تشرين الأول/ أكتوبر أرسل المطلب لوالده سلسلة من الرسائل القصيرة الموجزة معلمًا إياه أنه لن يتواصل معه بعد الآن[3].

فكتب المطلب: «سامحني على كل أثم اقترفته، أنا لست ابنك بعد الآن»، وبعد رسالته القصيرة الأخيرة، فكك ذو الاثنين والعشرين عامًا هاتفه ودمر شريحة الـ SIM[4].

قلقًا وغير قادرٍ على التواصل مع ابنه، التقى عمرو عبد المطلب، وهو مدير تنفيذي كبير في بنك، مسؤولين أميركيين في السفارة في العاصمة النيجيرية أبوجا وحذرهم من تطرف ابنه[5]، ودوَّن الضباط مخاوف المطلب حسب الأصول، وكتبوا في تقريرهم أن عمر فاروق في اليمن ومحتمل أن يكون على اتصال بـ القاعدة في شبه الجزيرة العربية،

(1) Arafat Madabish, «Areas of unrest in southern Yemen, Part 1» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, December 19, 2010.

(2) Robert Worth, «Is Yemen the Next Afghanistan?» **New York Times Magazine**, July 11, 2010.

(3) Karen DeYoung and Michael Leahy, «Uninvestigated terrorism warning about Detroit suspect called not unusual» **Washington Post**, December 28, 2009; Jeremy Scahill, «Washington's War in Yemen Backfires» **The Nation**, February 14, 2012.

(4) Andrew Gregory, «Syringe bomber Umar Abdulmutallab chilling text messages to dad» **The Mirrorr**, January 1. 2010.

(5) DeYoung and Leahy, «Uninvestigated terrorism warning».

وأضاف ضباط وكالة الاستخبارات المركزية اسم النيجيري إلى قاعدة معلومات تحوي أكثر من نصف مليون اسم في مركز مكافحة الإرهاب الوطني، ولكن المذكرة التي صيغت بعبارات غامضة أخفقت في التنبيه إلى إي خطر، ولم يُمرر اسم عمر الفاروق إلى مكتب التحقيقات الفدرالي الذي حافظ على قائمته المنفصلة للمراقبة والتي كانت أيضًا لائحة وزارة الأمن الداخلي للمحظورين من الطيران، ولم يفكر أحد في أي من البيروقراطيات المتشابكة التي تأسست في السنوات الثماني بعد 11 أيلول/ سبتمبر في أن يسحب تأشيرة الولايات المتحدة التي حصل المطلب عليها قبل عام[1]، لقد أخفق النظام على نحوٍ ذريع كما اعترفت وزيرة الأمن الداخلي جانيت نابوليتانو لاحقًا[2].

وبينما يقرع الأب ناقوس الخطر في نيجيريا كان عمر فاروق يتلو **البيعة** ويوافق على القيام بعملية استشهادية، ومجددًا طلبت القاعدة في شبه الجزيرة العربية من إبراهيم العسيري أن يصنع القنبلة، لقد أخفق الهجوم على ابن نايف لأن المُفجر أخفى القنبلة في مستقيمه وامتص جسده معظم الانفجار، وهذا يفسر أيضًا كيف نجا الأمير السعودي بإصاباتٍ سطحيةٍ فقط مع أنه كان يقف قريبًا جدًا من مُهاجمه، وليتجنب هذه المشكلة في قنبلته الجديدة كان على العسيري أن يجد طريقةً ليخفي متفجرة في جسد المطلب قوية بما يكفي لتُسقط طائرة وصغيرة بما فيه الكفاية لتمر عبر الأمن دون أن تكتشف، واستخدم العسيري المتفجرات البلاستيكية PETN تمامًا كما فعل في هجوم ابن نايف، ولكن هذه المرة بدلًا من أن يركب قنبلة لتوضع في تجويف، قام بخياطة المتفجرة في ملابس داخلية مصنوعة خصيصًا.

اشترى عمر فاروق تذكرة إلى أثيوبيا لـ7 كانون الأول/ ديسمبر، وقبل أن يغادر اليمن، سجل مصورٌ في القاعدة لقطات له وهو يطلق النار من أسلحة في واحدٍ من معسكرات تدريب القاعدة في شبه الجزيرة العربية المتنقلة، ومن ثم جلس الشاب المبتسم ليسجل وصيته الأخيرة وشهادته.

بعد إقامةٍ قصيرة في أثيوبيا، سافر عبد المطلب إلى غانا، وفي 22 كانون الأول/ ديسمبر، في عيد ميلاده الثالث والعشرين، كان عبد المطلب في عاصمة غانا أكرا، وفي اليوم نفسه

(1) DeYoung and Leahy, «Uninvestigated terrorism warning».

(2) Deborah Charles, «System to keep air travel safe failed: Napolitano» **Reuters**, December 28, 2009.

الذي التقى فيه الرئيس أوباما مسؤولين من وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي ووزارة الداخلية ليراجعوا الخطط المحتملة ضد الولايات المتحدة[1]، وفي الطرف الآخر من الرواق، ترأس جون برينان اجتماعًا آخر مكرسًا لليمن وتهديدات القاعدة في شبه الجزيرة العربية[2]، ولكن أحدًا في الإدارة لم يفكر بجمع الاثنين معًا.

بعد يومين، عندما قامت الولايات المتحدة بضربتها في ليلة عيد الميلاد التي قتلت الكيلوي وثلاثة عملاء آخرين للقاعدة، سافر عمر فاروق إلى لاغوس، نيجيريا، ومن هناك إلى أمستردام، حيث ركب في رحلة طائرة خطوط نورثويست الجوية رقم 253 مبكرًا في صباح عيد الميلاد، جالسًا في المقعد 19A في الإيرباص إيه 330، مباشرة فوق خزان الوقود وبجانب جدار الطائرة الداخلي، وقد انتظر النيجيري الشاب حتى اقتربت الطائرة من ديترويت قبل أن يتراجع إلى الحمام.

عاد بعد عشرين دقيقة إلى مقعده، وسحب بطانية على رجليه متذرعًا باضطراب المعدة، وتحت البطانية، التقط الحقنة التي سوف تحرض التفاعل الكيميائي وتُفجر القنبلة، ولكن عندما غرزها في الأسفل لم يحدث سوى صوت فرقعة عال وبعض الشرارات واشتعل سرواله باللهب، وانصدم على ما يبدو بعدم حدوث انفجار فبقي عبد المطلب في مقعده محدقًا إلى النار الصغيرة والحقنة المُدخَّنة الذائبة تقريبًا التي كان لا يزال يحملها في يده[3].

على بعد عدة مقاعد رأى جاسبر شورينغا، وهو صانع أفلام هولندي، الشرارات وأسرع ليتعامل مع الشخص الذي بات يحترق الآن، وقام مع مضيفي الطيران والركاب الآخرين بإخماد النار وجر عمر فاروق إلى درجة رجال الأعمال، حيث وُضعت أصفاد في يديه، وبعد عدة دقائق، حطت الطائرة في مطار ديترويت الدولي.

كان جون برينان في المنزل يطهو عشاء عيد الميلاد عندما تلقى اتصالاً هاتفيًا من غرفة العمليات في البيت الأبيض، وأعلمه الصوت على الهاتف أن أحدًا ما على متن طائرة

(1) Eric Lipton, Eric Schmitt, and Mark Mazzetti, «Review of jet bomb plot shows more missed clues» **New York Times**, January 17, 2010.

(2) نفس المصدر السابق.

(3) Kenneth Chang, «PETN, explosive found on flight 253, is among most powerful» **New York Times**, December 27, 2009.

حطت في ديترويت لديه «مشكلة نوعًا ما»[1]، وعلى بعد ما يقارب 5000 ميل في هاواي، حيث كان أوباما يمضي فترة الأعياد، تلقى الرئيس رسالة مشابهة.

بعد عدة أيام، خلال مؤتمرٍ صحفي تَبِعَ مراجعة محمومة لجهاز المخابرات، شرح برينان أن القاعدة في شبه الجزيرة العربية أخذت الولايات المتحدة على حين غرة، فالولايات المتحدة تعرف - كما أخبر برينان المراسلين - أن القاعدة في شبه الجزيرة العربية تتطلع لمهاجمة الولايات المتحدة، «لكننا لم نعلم أنهم تطوروا إلى درجة أن يدفعوا بأفراد إلى هنا»[2]. بعد هجمات 11 أيلول/ سبتمبر بعقد تقريبًا، استهانت الولايات المتحدة مرة أخرى بالقاعدة.

في الحقيقة بدت الولايات المتحدة مرتبكةً بإزاء طبيعة القاعدة في شبه الجزيرة العربية بالضبط، فوصفها برينان بـ«امتداد لنواة القاعدة آت من باكستان»[3]، بينما عاملتها وزارة الخارجية بشكل أكثر دقة كجماعة إرهابية مستقلة ذات هرمية خاصة وأجهزة اتخاذ قرار خاصة، وفي السر، كان الرئيس أوباما غاضبًا من الإخفاق الأمني فقال لأحد المسؤولين عندما عاد من إجازته في أوائل كانون الثاني/ يناير: «لقد تفادينا رصاصة، لكن بالكاد»[4]، وفي اجتماع متوتر في البيت الأبيض لأوباما مع مساعديه، سألهم أوباما أن يتخيلوا لو أن المُفجر قد نجح: «كان من الممكن أن ينجح، وكنا الآن جالسين هنا ولدينا مشكلة طائرة قد تفجرت وقتلت أكثر من مئة شخص»[5].

غير واثقٍ مما قد يأمر به أوباما بعد الإخفاق الوشيك في السماء فوق ديترويت، عاد الجنرال بتريوس إلى اليمن لاجتماعٍ آخر مع صالح، فأراد قائد القيادة المركزية الأميركية أن يقدم لصالح أكبر عدد ممكن من الخيارات، وطلب بتريوس من صالح أن يسمح للولايات المتحدة أن تنفذ غارات داخل اليمن، فقال صالح: «لا تستطيعون دخول منطقة العمليات»،

(1) John Brennan, «US Policy Toward Yemen» remarks delivered at the **Carnegie Endowment for the International Peace**, December 17, 2010.

(2) White House briefing, January 7, 2010, available at: http://www.whitehouse.gov/the-press-office/briefing-homeland-security-secretary-napolitano-assistant-president-counterterrorism.

(3) المصدر نفسه.

(4) Jeff Zeleny and Helene Cooper, «Obama says 260 could have disrupted» **New York Times**, January 5, 2010.

(5) مقتبس في: Becker and Scott Shane, «Secret 'Kill List' Proves a Test of Obama's Principles and Will» **New York Times**, May 29, 2012.

بحجة أن جنود الولايات المتحدة سوف يقومون فقط بتأجيج الموقف[1]، فقبل الآن، أكمل صالح، قتلت الولايات المتحدة عددًا كبيرًا جدًا من المدنيين في ضربة المعجلة في 17 كانون الثاني/ ديسمبر.

قاطع بتريوس الرئيس وأجاب مجادلًا بأن المدنيين الوحيدين الذين قتلوا في تفجير المعجلة هم زوجة محمد الكاظمي وولديه الاثنين، فتحول صالح إلى مساعديه للتأكد، لكن أحدًا من اليمنيين لم يبدُ مقتنعًا بادعاء بتريوس أن عدد الموتى من المدنيين ثلاثة، فقد رأوا جميعًا صور الجثث المشوهة: نساء وأطفال مكدسون فوق بعضهم بعضًا بجانب الطريق بانتظار الدفن، وهذا الاختلاف بين عدد بتريوس الإجمالي والصور على التلفاز اليمني يعود في جزءٍ منه إلى طريقة البيت الأبيض الجديدة في تصنيف القتلى، فإذا لم تتوافر معلومات استخباراتية واضحة تبرئ أفرادًا معينين تعتبر الولايات المتحدة عندئذ كل الذكور في سن الخدمة العسكرية في موقع الضربة مقاتلين[2].

مع ذلك، عرض صالح على بتريوس شيئًا ما، إذ لم يكن على الولايات المتحدة بعد الآن أن تعتمد على هجمات الصواريخ من السفن الحربية في المياه القريبة من الشاطئ وحسب، بل تستطيع الآن أن ترسل طائرات عسكرية إلى النطاق الجوي اليمني لتضرب أهدافًا من القاعدة داخل البلاد، ووعد صالح: «سوف نتابع قول أن القنابل لنا، وليست لكم». ومزح نائب رئيس الوزراء رشاد العليمي الجالس خلف صالح بأنه قد «كذب» توًا على البرلمان قائلًا لهم: أن القنابل في ضربة المعجلة أميركية الصنع لكن أطلقها يمنيون.

بعد أسبوعين من إعطاء صالح بتريوس الإذن لتوسيع نطاق الحرب في اليمن ضربت طائرات نفاثة أميركية سيارة بالقرب من الحدود السعودية، على ظنٍّ أنها تُقل عددًا من مقاتلي القاعدة من بينهم قاسم الريمي، فدمرت الصواريخ السيارة لكنها أخفقت في إصابة المقاتلين الذين كانوا يستريحون في ظل صخرة منتصبة عندما سقطت القنابل، فخدشت قطعة من الشظايا الريمي في معدته، ونجى كل من تبقى دون خدش[3].

(1) «General Petraeus' Visit with Saleh on Security» US diplomatic cable, January 4, 2010. Released **via Wikileaks**.

(2) Becker and Shane, «Secret 'Kill List' Proves a Test of Obama's Principles and Will».

(3) «Doubts regarding the claims of 6 al-Qaeda members killed» (Arabic), **New Yemen**, January 17, 2010.

في أواخر كانون الثاني/ يناير جابت طائرات الولايات المتحدة الريف اليمني بحثًا عن الأهداف، وسافر عبد الإله الشائع، الصحفي ذو الشعر المموج، جنوبًا نحو شبوة لمقابلته الثانية مع أنور العولقي. أطلق رجل الدين الهارب - الذي كانت قبيلته تحميه - لحيته في الأسابيع التي مرت منذ رآه الشائع في المرة الأخيرة، وشعر لحيته (السلكي) بات يتجاوز الآن ياقة ثوبه، وخلال مقابلتهما الأولى في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر أراد الشائع أن يعرف ما هي صلات العولقي بالرائد نضال حسن؟ وهو الطبيب النفسي العسكري الذي قتل 13 شخصًا في فورت هود، تكساس في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2009، وهو أسوأ إطلاق للنيران في أي قاعدة عسكرية أميركية على الإطلاق.

اعترف العولقي وقتها أنه تبادل بضع رسائل إلكترونية معه قبل حوالي سنة من إطلاق النار، وأثنى عليه كبطل، وقد قبلَ كلَّ شيءٍ عدا أنه أمر بالهجوم، فقال للشائع في ذلك الوقت: «أنا لم أطلب من نضال حسن تنفيذ الهجوم[1]، لكن جرائم أميركا وطغيانها هي ما أجبره على التصرف».

هذه المرة سأل الشائع عن عمر فاروق ومحاولة التفجير في يوم عيد الميلاد، فهل كان للعولقي أي علاقة بهذا الهجوم الأخير؟ هل كان يعرف عمر فاروق؟

«كانت لدي اتصالات معه»، قال العولقي، مختارًا كلماته بحذر[2]: «إنه أحد طلابي».

عندما ضغط عليه الشائع أكثر، أنكر العولقي أي علاقة له بالتنفيذ أو التخطيط للعملية، لكن رجل الدين الحذر لم يكن ليقول إن كان يعرف بالهجوم مسبقًا، فأضاف بغموض: «أنا لم أقل له أن يقوم بهذه العملية، لكنني أؤيدها»[3].

شكك محققو الولايات المتحدة بهذه الادعاءات العلنية، وأقرَّ عمر فاروق تحت التحقيق في ميشيغان أن رجلًا - حددت الحكومة لاحقًا أنه العولقي - قد جنده وأمره بتنفيذ المهمة، وتوافقت هذه النتائج مع ما وجده جون برينان وفريقه في أثناء مراجعتهم لنظام مخابرات الولايات المتحدة، فاكتشف المحققون أنه، حتى أواخر عام 2009، كانت القاعدة في شبه الجزيرة العربية تركز على الهجمات داخل اليمن، وأثار هذا سؤالًا مهمًا:

(1) Abdalilah Shaya, «Interview with Anwar al-Awlaki» (Arabic), **al-Jazeera**, December 23, 2009.

(2) Rrobert Worth, «Cleric in Yemen admits meeting airplane plot suspect, journalist says» **New York Times**, January 30, 2010.

(3) المصدر نفسه.

لماذا التحول المفاجئ نحو استهداف الولايات المتحدة؟ والجواب، كما اعتقد الكثيرون، هو أنور العولقي، وكانت نظريتهم أنه بينما ارتفعت رتبة أنور العولقي في صفوف القاعدة في شبه الجزيرة العربية، قام بإعادة توجيه طاقات مجموعة فرعية من العملاء ذوي المهارات لاستهداف الولايات المتحدة.

أفرطت هذه النظرية في تبسيط منظمة معقدة، فالقاعدة في اليمن تنمو وتتطور منذ 2006 منتقلةً من هجماتٍ على نطاقٍ صغير الحجم داخل اليمن إلى أخرى أكبر منها في السعودية والولايات المتحدة، ومحاولة التفجير في يوم الميلاد ليس من بنات أفكار رجل واحد وحسب، بل هي نمو طبيعي للجماعة الطموحة على نحو متزايد والتي كانت تحوي عدة سجناء سابقين في معتقل غوانتنامو في صفوفها.

على الرغم من ذلك، سادت وجهة نظر برينان المتمركزة حول العولقي، وبدأ مكتب البيت الأبيض القانوني بالعمل على مذكرة ستؤمن الإطار القانوني لإدارة أوباما لتقتل مواطنًا أميركيًا دون اتهامه في المحكمة[1]، وناقش محامو البيت الأبيض في آخر المطاف - مستندين في مذكرتهم على ما خلصت إليه وكالات الاستخبارات عن دور العولقي ضمن القاعدة في شبه الجزيرة العربية - بأنه من ضمن حقوق الولايات المتحدة القانونية أن تقتل رجل الدين الهارب إذا تعذر القبض عليه، وسوف يلتف هذا - كما تجادل المذكرة - حول الحظر الرئاسي الراسخ للاغتيال، وحول وثيقة الحقوق، والتي تتضمن في التعديل الخامس أنه لا يحق للحكومة حرمان أي مواطن من حياته «دون الإجراءات الملائمة»، وسوف يجادل وزير العدل إريك هولدر لاحقًا بأن «الإجراءات الملائمة» و«الإجراءات القضائية» ليستا الشيء نفسه، فقال: «يضمن الدستور مراعاة الإجراءات الملائمة، وليس الإجراءات القضائية»[2]، ففي رأيه، ورأي محامين آخرين في الإدارة، أنّ مراجعة البيت الأبيض المشتركة بين الوكالات ترضي المتطلبات الدستورية، ورفض هولدر أن يشرح كيفية عمل طريقة المراجعة أو كيف قررت الإدارة من الذي يجب أن يستهدف للقتل، لكنه قال: أنه على الأميركيين أن يكونوا «مطمئنين إلى أن الأفعال التي تؤخذ للدفاع عنهم متفقة مع قيمهم وقوانينهم».

(1) Charlie Savage, «Secret U.S. memo made legal case to kill a citizen» **New York Times**, October 8, 2011.

(2) Eric Holder, speech at Northwestern Law School, March 5, 2012, Available at: http://www.justice.gov/iso/opa/ag/speeches/2012/ag-speech-1203051.html

قبل أن تكتمل المذكرة، أعطى مكتب الاستشارات القانونية موافقة شفهية لوضع العولقي على لائحة السي آي أي للأهداف، وخلال أسابيع من محاولة عمر فاروق إسقاط رحلة طائرة النورثويست، بات قرار قتل أنور العولقي سياسةً رسمية للولايات المتحدة.

في كل أسبوع من الجزء الأول من عام 2010، كان يترأس كلٌّ من برينان وتوم دونيلون مستشار الأمن القومي اجتماعات منفصلة بخصوص الوضع في اليمن، وبعد المحاولة المخفقة في عيد الميلاد، بدأ ديفيد أكسل رود - كبير المستشارين السياسيين لدى أوباما - يحضر الجلسات التي عرفت باسم «ثلاثاء الإرهاب» ضمن البيت الأبيض، والتي يحدد فيها مسؤولو الدفاع أيًا من الأهداف يجب ضربها[1]، غير أن أوباما رفض أن يعطي الجيش ووكالة الاستخبارات المركزية الإذن بأن تقوم بـ«ضربات توقيعية» في اليمن، والذي كان سيسمح للولايات المتحدة بأن تستهدف أفرادًا مشتبهًا بهم حتى وإن لم تعرف أسماءهم، فحذر أوباما: «نحن لن ندخل في حربٍ مع اليمن»[2]، وبدلًا من ذلك، اعتمدت الولايات المتحدة على ما دعاه برينان بنهج «المبضع»: سلسلة من ضربات الصورايخ والطائرات من دون طيار والتي على أوباما أن يوقِّع عليها كل واحدة على حدة[3]. قتلت إحدى هذه الهجمات نايف القحطاني، السعودي الشاب الذي كان وراء صدى الملاحم، وفي آذار/ مارس قتلت واحدة أخرى جميل العنبري، وهو شخصية مهمة في القاعدة، وكان قد قاتل في العراق، لكن هؤلاء قادة متوسطو المستوى يمكن استبدالهم بسهولة، وليسوا كبار قادة الجماعة الذين أذنوا بالهجوم على الولايات المتحدة.

على الرغم من الهجمات، استمرت الحياة في معسكرات تدريب القاعدة المتحركة على سابق عهدها، فتلتقي جماعات صغيرة من الرجال الذين يرتدون الجينز وقمصان الـ تي شيرت أو أثوابًا وأغطية رأس في مواقع معدةٍ مسبقًا في الصحراء، ليحضروا جلسات تمرين قبل أن يتفرقوا في اتجاهات مختلفة، ومن ثم يعيدون التجمع لاحقًا، وغالبًا ما تكون تلك الجلسات أكثر بقليلٍ من إطلاق القنابل الصاروخية على كتلةٍ من الأشجار أو بضعة جولات من تمرين الرماية على مجموعة من الرشاشات الآلية، وتنقل

(1) Becker and Shane, «Secret 'Kill List' Proves a Test of Obama's Principles and Will».

(2) المصدر نفسه

(3) Scott Shane, Mark Mazzetti, and Robert Worth, «Secret assault in terrorism widens on two continents» **New York Times**, August 14, 2010.

قاسم الريمي، قائد القاعدة في شبه الجزيرة العربية العسكري، حول البلاد مشرفًا على التدريب ومجندًا المزيد من المقاتلين، وكثيرًا ما تسببت ضربات الولايات المتحدة – كتلك التي قتلت في المعجلة الكثير من المدنيين – بإغضاب رجال القبائل المحليين الذين فقدوا أحباء وأصدقاء في القصف، والعديد من هؤلاء الشباب الغاضبين وجدوا طريقهم إلى القاعدة، التي وعدتهم بفرصةٍ للانتقام، وبعد هجوم المعجلة في آخر عام 2009، قدَّر أبو بكر القربي وزير الخارجية اليمني وجود 300 عضوًا من القاعدة في شبه الجزيرة العربية في اليمن[1]، و سوف يتضاعف هذا التقدير خلال ثلاث سنوات ثلاثَ مرات وإلى أكثر من 1000، فيقول أحد القادة القبليين شارحًا: «الولايات المتحدة ترى القاعدة إرهابًا، ونحن نعتبر هجمات الطائرات من دون طيار إرهابًا»[2].

في 25 أيار/ مايو، بعد أسابيع من طلعات الطائرات بدون طيار، ظنت الولايات المتحدة أنها حصلت على موقع عايض الشبواني مقاتل القاعدة الذي كان هدف معركة مأرب منذ عام، وجاءت المعلومة – مثل معظم المعلومات التي استخدمتها الولايات المتحدة لتقوم بضرباتها – من حلفاء ضمن المخابرات اليمنية، ولكن بدلًا من عايض الشبواني، قتل صاروخ الولايات المتحدة جابر الشبواني – نائب محافظ مأرب – وأربعة من حراسه الشخصيين، وهو من الأقرباء غير الأقربين لمقاتل القاعدة، وكانت مهمة الشبواني هي تدبير اجتماعات مع أعضاء من القاعدة في محاولة لحملهم على الاستسلام.

«كيف يمكن لشيءٍ كهذا أن يحدث؟» سأل أوباما عندما بات واضحًا أن الولايات المتحدة قد قتلت الشخص الخطأ[3]، والجواب الذي عاد لم يكن مطمئنًا بالنسبة إلى رئيسٍ يُطلب منه أن يأذن بهجماتٍ بناءً على المعلومات الاستخباراتية التي يقدمها جيشه له، فاعترف أحد مسؤولي الإدارة: «نظن أنه قد تم التلاعب بنا»، شارحًا أن بعض المحللين يعتقدون أن صالحًا قد استخدم الولايات المتحدة للقضاء على منافس سياسي[4].

سلط القتل الضوء على عيب خطير في مقاربة الولايات المتحدة في قتال القاعدة في

(1) Stefano Ambrogu, «Yemen says may harbor up to 300 Qaeda Suspects» **Reuters**, December 29, 2009.

(2) Jeremy Scahill, «Washington's War in Yemen Backfires» **The Nation**, February 14, 2012.

(3) مقتبس في: Klaidman, Kill or Capture, 255.

(4) Adam Entous, Julian E. Barnes, and Margaret Coker, «US doubts intelligence that led to Yemen strike» **Wall Street Journal**, December 29, 2011.

شبه الجزيرة العربية، إذ بدون المعلومات الاستخباراتية فإن الولايات المتحدة ستلاحق الأهداف التي يقدمها صالح وحسب، والقيادة المشتركة للعمليات الخاصة والتي كانت تشرف على وحدات القوات الخاصة ضمن جيش الولايات المتحدة «لم تكن ملمةً بالأمر» كما قال لاحقًا ضابط استخباراتٍ أميركي أسهم في الضربة. ببساطة، لم يكن عند الولايات المتحدة إلّا فكرة بسيطة عما يحدث على الأرض في اليمن[1].

في تموز/ يوليو خرج عبد الإله الشائع، الصحفي الذي أجرى مقابلات صحفية مع كبار قادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية، لشراء البقالة مع صديقه كمال شرف، رسام كاريكاتيرٍ سياسي كثيرًا ما سخر من الرئيس صالح، وانتظر الشائع في السيارة خارج المتجر بينما أسرع شرف إلى الداخل، وعندما خرج شرف من المتجر بعد عدة دقائق رأى «رجالًا مسلحين يمسكون بالشائع ويأخذونه إلى سيارة»[2]، وقبل عدة شهور، في الأيام التي تلت هجوم المعجلة، سافر الشائع إلى أبين ليوثق نتائج الغارة لصالح قناة الجزيرة وبضع وسائل إعلام أخرى، وسرعان ما وجدت قصصه الحماسية ـ عن قتلى المدنيين وصور بقايا القذائف المختومة بـ«صنع في الولايات المتحدة» ـ طريقها إلى صحافة الولايات المتحدة حيث ساعدت في التشكيك في الرواية الرسمية القائلة بأن الضربة جاءت من الجانب اليمني فقط.

أراد عملاء الأمن اليمنيون الذي اختطفوا الشائع في ذلك اليوم من تموز/ يوليو أن يوصلوا للصحفي رسالةً: «سوف ندمر حياتك إذا تابعت الحديث عن هذه القضية»، كذلك حذره أحدهم قبل أن يرموه في الشارع في منتصف الليل.

بعد شهرٍ من ذلك، وفي 6 آب/ أغسطس، عاد العملاء الأمنيون، وكان الوقت أول رمضان، الذي هو احتفال على مدى الشهر بالصيام والتقشف، ورفض الشائع الخروج من المنزل، فكُسر أحد أسنانه وأصيب برضوض شديدة في العراك الذي تلا ذلك، وتركه العملاء في زنزانة تحت الأرض شهرًا قبل أن ينقلوه إلى سجن منظمة الأمن السياسي حيث نظمت القاعدة هروبها الكبير قبل أربع سنوات، وفي هذا السجن أعاد الشائع تواصله مع صديقه شرف الذي كان محتجزًا أيضًا، والذي عرضت عليه منظمة الأمن السياسي صفقةً: توقف عن السخرية من الرئيس واحصل على حريتك، ووافق شرف، لكن الشائع رفض أن يتوقف عن تحقيقاته الصحفية.

(1) المصدر نفسه.

(2) Jeremy Scahill, «Why Is President Obama Keeping a Journalist in Prison in Yemen?» **The Nation**, March 31, 2012.

صعَّدت القاعدة في شبه الجزيرة العربية من وتيرة هجماتها خلال صيف عام 2010 مغتالةً عشرات مسؤولي الأمن اليمنيين في إطلاق نارٍ من سيارة في الجنوب، ولكنها لم تغفل الولايات المتحدة، فهددت المنظمة بالانتقام لهجوم المعجلة في كل تصريح علني أدلت به تقريبًا.

في شبوة، التقى كبار قادة القاعدة ليتناقشوا في إمكانية الحصول على الريسين، وهو سم شديد الفاعلية[1]، فحتى ذرة من المسحوق الأبيض قاتلة إذا تم استنشاقها، وقبل عامٍ من ذلك، اقترح الريمي تعبئة السموم حول القنبلة التي استخدمتها القاعدة في محاولتها لاغتيال محمد بن نايف، والآن بدأت القاعدة تبحث عن طرق لتصنيع السم، وتخلى الرجال في النهاية عن فكرة السم على اعتبار أنها صعبة جدًا، ولكنهم بسرعة طوروا خطة ثانية ليأخذوا بثأرهم من الولايات المتحدة.

بينما كانت خطة القاعدة تتطور، وصل جابر الفيفي إلى قرارٍ بالغ الأهمية، فللمرة الثانية خلال سنتين غير السعودي الأصلع رأيه في الجهاد، إذ منذ فرار العوفي قبل أكثر من سنة والفيفي يحتقن بالغضب مما دعاه أسلوب قيادة الوحيشي المتعجرف الذي لم يسمح إلّا بأقل الاتصالات مع زوجته وابنته، وكان الفيفي مقتنعًا بأنه يحتاج إلى شيء ما يقايضه مقابل عودته آمنًا إلى السعودية، خاصةً بعد محاولة القاعدة في شبه الجزيرة العربية اغتيالَ ابن نايف، فجمع الفيفي قدر ما يستطيع من المعلومات عن الخطط المستقبلية ومن ثم انطلق نحو الحدود، وبعد استجواب سريع، مررت السعودية عدة معلومات ملحة إلى حلفائها الغربيين، وتلقت المخابرات الفرنسية واحدة من الاتصالات الأولى[2].

بعد أسبوعين من تحذير السعوديين للفرنسيين دخلت امرأة ترتدي العباءة، الرداء الأسود المخفي تمامًا، وحجابًا مغطيًا للوجه كاملًا إلى مكتب لشركة الشحن يو بي أس وفي حي فاره من أحياء صنعاء وتركت طردًا لشيكاغو، وبعد عدة دقائق، تُرِكَ طرد آخر إلى الولايات المتحدة لدى مكتب فيديرال أكسبرس أسفل الطريق.

خلال ساعات بات محمد بن نايف يتحدث على الهاتف مع برينان - صديقه القديم الذي خدم مرة كرئيس مركز وكالة الاستخبارات المركزية في الرياض - وحذره نايف

(1) Eric Schmitt and Thom Shanker, «Qaeda tries to harness toxin for bombs, US officials fear» **New York Times**, August 12, 2011.

(2) «France Warned of al-Qaeda Threat» **al-Jazeera English**, October 18, 2010.

من زوجٍ من القنابل على طائرات الشحن المتجهة إلى الولايات المتحدة[1]، وبالإضافة إلى معلومات الفيفي كانت السعودية قد استخلصت معلومات من مصادر أخرى لتربط المعلومات التي يشاركها ابن نايف الآن مع الولايات المتحدة، فقبل عدة أسابيع نفذت القاعدة بروفة، فأرسلت عدة طرود إلى عناوين مختلفة في الولايات المتحدة، واعترضها مسؤولون في الولايات المتحدة، لكن القنابل حية هذه المرة، فأصدرت الولايات المتحدة إنذارًا عالميًا وطلبت المساعدة من حلفائها في الشرق الأوسط وأوروبا، واكتشف المسؤولون في دبي أن القنبلة من نوع PETN - وهو النوع نفسه من المواد البلاستيكية المتفجرة التي استخدمتها القاعدة في شبه الجزيرة العربية في الهجمات على ابن نايف ويوم عيد الميلاد - في الطرد الأول مخبأةٌ في طابعة حاسوب، بينما كشف العملاء في إنكلترا الوسطى الطردَ الثاني أخيرًا.

في الشهر نفسه، ظهر عبد الإله الشائع، الصحفي اليمني الذي اختطفه عملاء المخابرات اليمنية في آب/ أغسطس، في محكمة أمن الدولة في قفصٍ معدنيٍ أبيض مخصص للدفاع، وكان شعره المجعد قد قُصر بالماكينة على نمرة واحد، وبينما القاضي يتلو التهم الموجهة إليه كان هو يسير بخطى بطيئة في الزنزانة «مبتسمًا وهازًا رأسه في عدم تصديق»[2]، فإلى جانب تصنيفه «الرجل الإعلامي» للقاعدة في شبه الجزيرة العربية، كان الشائع أيضًا مُتهمًا بالتجنيد للقاعدة وتحريض المنظمة على اغتيال الرئيس صالح وابنه الأكبر أحمد[3].

بعد أن أنهى القاضي قراءة لائحة التهم، وجه الشائع كلامه للمحكمة وزملائه الصحفيين الذين أتوا ليتابعوا: «عندما أخفوا قتلة الأطفال والنساء في أبين، عندما كشفت مواقع البدو والمدنيين ومخيماتهم في أبين وشبوة وأرحب وعندما كانوا سيُضربون بصواريخ كروز، في ذلك اليوم قرروا أن يعتقلوني»، كذلك صرخ الشائع مشيرًا إلى تقريره عن تفجيرات المعجلة قبل أن يسحب الحراس الشائع من القفص ويعيدوه إلى السجن، صرخ في جملة واحدة أخيرة: «اليمن، في هذا المكان عندما يصبح صحفيٌّ شابٌ ناجحًا ينظر إليه بعين الشبهة»[4].

(1) Mark Mazzetti and Robert Worth, «U.S. sees complexity of bombs as link to al-Qaeda» **New York Times**, October 30, 2010.

(2) هذه الملاحظة هي لإيونا كريغ، ومقتبسة في Scahill, «Why Is President Obama Keeping a Journalist in Prison in Yemen?»

(3) Scahill, «Why Is President Obama Keeping a Journalist in Prison in Yemen?»

(4) المصدر نفسه.

الفصل السادس

الخروج من الظلال

2012 - 2011

في كانون الثاني/ يناير 2011، حكمت محكمة الأمن اليمني على الشائع بخمس سنوات لانتمائه إلى القاعدة، وعلى الفور تقريبًا قدم شيوخ القبائل المهمون عريضة إلى صالح مطالبين بنقض الحكم، وبحلول نهاية الشهر أعلن الرئيس أنه مستعد للعفو عن الصحفي، وبعد أيام من ذلك، في 2 شباط/ فبراير اتصل أوباما بصالح، فمع انهيار النظام في تونس وانتشار المظاهرات في مصر كان صالح قد أعلن توًا عن سلسلة إصلاحات، وأخبر وزراء الحكومة الصحفيين: «أن اليمن ليست تونس أو مصر»[1]، ومرة أخرى، كما حصل في 2005، وعد صالح بألا يترشح لولاية جديدة، وأن ولايته الحالية، والتي ستنتهي في 2013، سوف تكون الأخيرة، ولكن المتظاهرين، ملهمين بما يرونه في شمال إفريقيا، باتوا في الشوارع يهتفون بنهاية حكم صالح الذي دام 31 عامًا.

أخبر أوباما صالحًا أنه على الرغم من ترحيبه بالإصلاحات، فلا يزال على قوات الأمن اليمني أن «تظهر ضبط النفس وتمتنع عن العنف ضد المتظاهرين اليمنيين الذين يمارسون حقهم بحرية التواصل والتجمع والرأي»[2]، وفي نهاية الاتصال طرح أوباما قضية عبد الإله

(1) Mohammed Jamjoom, «No Egypt-style protests in Yemen, says Prime Minister» **CNN News**, February 7, 2011.

(2) «Readout of President's Call with President Saleh of Yemen» The White House, February 2, 2011, available at: http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2011/02/03/readout-president-call-president-saleh-yemen,

الشائع، وحسب بيان للبيت الأبيض فقد «عبر [أوباما] عن قلقه من إطلاق سراحه»[1]، وفي اليوم التالي تراجع صالح عن تعهده بالعفو عن الصحفي، وبقي الشائع في السجن.

في 11 شباط/ فبراير، بعد أقل من أسبوع من اتصال أوباما، استقال حسني مبارك من رئاسة مصر، منهيًا دكتاتورية دامت 30 عامًا وبات القائد العربي الثاني الذي سقط في أقل من شهر. وفي اليمن، ضرب المتظاهرون مخيمًا أمام جامعة صنعاء وبدؤوا يدعون دوار المرور المهلهل ساحة التغيير، وهتفوا سوية، «الشعب يريد إسقاط النظام» وأصواتهم تصدح عبر شوارع صنعاء الضيقة، ومن قصره الرئاسي في الطرف الآخر من المدينة، جلس صالح يشاهد مدينة الخيام تكبر، وعلى مدى كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير، سافر مساعدوه في البلاد موزعين حقائب الأموال والسيارات الجديدة على شيوخ القبائل الذين وعدوا بالبقاء أوفياء، لكن هذه الدفعات بدت غير كافية الآن في وجه كل هذا الغضب الشعبي.

كان الطرفان يعرفان أن ثمة تصفية حساب قادمة، وفي يوم الجمعة 18 آذار/ مارس، بعد شهرين من بدء التظاهرات، قام مئات المتظاهرين، الذين كانوا منحنيين إلى الأمام في صلاة جماعية على إسمنت الساحة، وبدؤوا بالهتاف ضد صالح مجددًا، ومن فوقهم، فتح القناصون الذين كانوا قد اتخذوا مواقع على أسطح الأبنية المجاورة النار، فهرع الرجال في الساحة محاولين الاختباء بينما تئز الرصاصات من حولهم راكضين على الورق المقوى والجرائد التي كانوا يستخدمونها فرشًا لأداء الصلاة قبل لحظات، وبينما سقطت الأجساد، خلع الرجال ستراتهم وقمصانهم ليحملوا المصابين عبر الشارع نحو مستشفى، وجاءت الحصيلة في نهاية اليوم 52 قتيلًا وأكثر من 300 جريحًا.

صُعق حلفاء صالح بالمجزرة التي شاهدها كثيرون منهم على بث الجزيرة المباشر، وبدؤوا بالتخلي عنه، فطرد حكومته في تلك الليلة، وبعد ثلاثة أيام من ذلك، في يوم عيد ميلاده التاسع والستين، تخلى عنه علي محسن الأحمر، الجنرال الذي كان صالح قد جنده لهزيمة الاشتراكيين في حرب 1994 الأهلية وتوجه إليه مجددًا في 2004 للقتال ضد الحوثيين، فأعلن علي محسن انشقاقه على التلفاز، قائلًا: إن جنوده في الفرقة الأولى مدرع سوف يحمون الآن المتظاهرين، وخلال دقائق، انضم عدة قادة كبار في الجيش إلى التمرد الوليد، وغربت شمس اليوم وجيش اليمن قد انقسم، فاتّبع نصفه علي محسن إلى الثورة

(1) المصدر نفسه.

بينما الباقي – والكثير منه يقوده أولاد صالح وأولاد أخيه – أكّد على ولائه للرئيس.

على بعد مئات الأميال جنوبًا، على رمال وتراب تلال أبين، تخلى الجنود المرتبكون الذين لم يحصلوا على رواتبهم منذ أسابيع عن مواقعهم خارج معمل ذخيرة قرب قرية جعار، وتدفق بعد رحيلهم رجال ملثمون، وصفهم أهل القرية فيما بعد بمقاتلي القاعدة، إلى هنغار الإسمنت ذي الطبقة الواحدة باحثين عن الذخيرة[1]، وبعد وقت قصير من اختفاء الملثمين، حطم انفجار المبنى، مدمرًا السقف وقاتلًا أكثر من 120 من الناهبين الذين كانوا يبحثون عن معدن يسرقوه[2].

من مخابئهم في أبين وشبوة، جلس الوحيشي وباقي قيادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية يقدرون إمكانية إنشاء دولة إسلامية في الجنوب، كان الوحيشي قد كتب إلى ابن لادن في باكستان قبل شهور وطلب منه الإذن للسيطرة والحفاظ على منطقة في اليمن، فأجابه ابن لادن في سلسلة من الرسائل الموصلة شخصيًا على فلاشات محمولة قائلًا إن هذا ليس هو «الوقت الصحيح»[3]، فليس هنالك «ما يكفي من الفولاذ»، مشيرًا إلى قلة الدعم الشعبي للقاعدة في شبه الجزيرة العربية على الأرض، ولكن مع انهيار حكومة صالح وانهيار جيشه التدريجيين، رأى الوحيشي فرصة.

في نيسان/ أبريل، سجل عادل العباب مقطعًا صوتيًا لمنتدى جهادي على الإنترنت يدعي فيه، وهو كبير رجال الدين في القاعدة، أن المنظمة قد حققت تقدمًا عظيمًا في الأيام التي تلت المجزرة في صنعاء قائلًا: «اليوم نتحكم بجعار» مشيرًا إلى المدينة الصغيرة الفقيرة التي تبعد بضعة أميال عن شمال عاصمة محافظة زنجبار، «المشكلة الأكبر التي تواجهنا هنا هي نقص في الخدمات العامة مثل الماء والصرف الصحي، ونحن نحاول إيجاد حلول»[4].

(1) Sudarasan Raghavan, «Yemen crises intensifies with factory explosion» **Washington Post**, March 29, 2011.

(2) Tom Finn, «Yemen munitions factory explosion leaves over 120 dead» **Guardian**, March 29, 2011.

(3) Greg Miller, «Bin Laden document trove reveals strain on al-Qaeda» **Washington Post**, July 1, 2011.

(4) Adil al-Abab, «Online Question and Answer session» translated by the **International Centre for Study of Radicalization and Political Violence**, April 18, 2011.

شرح العباب لمستمعيه أن القاعدة ليست منظمة عدمية كما تظهرها وسائل الإعلام في معظم الأوقات، وقال مكملًا: «لدينا هنا في جعار خطط كاملة لمشاريع نريد أن ننجزها للناس، نريد أن نتعاقد مع مستثمرين لنرتب هذه الشؤون»، واعترف أن أخطاء القاعدة في أماكن أخرى قد أضرت بجهود المجموعة في تجنيد الشباب، ولكنهم يصلحون هذا الشأن الآن في اليمن عن طريق استخدام اسم مختلف لا يحوي ماضي الموت والدمار الذي بات الكثيرون يربطونه بالقاعدة، وقال: إنهم سوف يستخدمون بدلًا عنه اسم أنصار الشريعة «لنعرف عن أنفسنا».

للمرة الأولى منذ أن أسس أسامة بن لادن القاعدة قبل عقدين مضيا تتحدث المنظمة عمّا هو أكثر من مجرد مهاجمة الغرب، بل تريد أن توفر الخدمات الاجتماعية وأن تحكم، القاعدة في شبه الجزيرة العربية كانت تدخل مرحلة جديدة، وهي نشطة، تمتد على قدر الأراضي التي يمكنها أن تحافظ عليها، «أولًا زنجبار ومن ثم عدن» قال العباب متنبئًا بجرأة.

في الوقت نفسه تقريبًا الذي سجل فيه العباب ملاحظاته في اليمن، كان فريق من رجال البحرية الأميركية يتدربون في صحراء نيفادا المرتفعة من أجل مهمة في باكستان[1]، فقبل أسابيع من ذلك، وافق الرئيس أوباما على غارة على مبنى ذي ثلاث طبقات في أبوت آباد، باكستان، حيث كان محللو السي آي إي يعتقدون أن أسامة بن لادن يختبئ، وبحلول الخميس 28 نيسان/ إبريل اكتمل التدريب وصار رجال البحرية في جلال آباد، المدينة ذاتها في شرق أفغانستان التي حاصرها ابن لادن ومقاتلوه العرب منذ أكثر من عقدين في 1989، وكان رجال البحرية يفضلون العمل في الليالي المظلمة، حيث تمنحهم نظارات الأشعة تحت الحمراء وتقنيتهم المتقدمة التفوق الأكبر، وكانت الليالي التالية القادمة - نهاية نيسان/ إبريل وبداية أيار/ مايو - تمثل فرصتهم الأفضل في الظروف المثالية، فالتقى أوباما بفريق الأمن القومي في تلك الليلة من أجل نقاش أخير، فكان ليون بانيتا رئيس السي آي إي، يعتقد أن الاستخبارات الموجودة هي أفضل ما يمكن أن تحصل عليه الولايات المتحدة على الأغلب، ولكن ميشيل ليتر، الذي يدير المركز القومي لمكافحة الإرهاب، يريد المزيد من التأكيد، واستمع أوباما إلى الأخذ والرد بينهما ولكنه قال القليل، وبعد الساعة السابعة مساءً بقليل أنهى اللقاء قائلًا: أنه يريد أن ينام ليقرر في الصباح[2].

(1) Nicholas Schmidle, «Getting Bin Laden» **New Yorker**, August 8, 2011.

(2) This description relies on Schmidle, «Getting Bin Laden».

في الصباح التالي، 29 نيسان/ إبريل، أعطاهم جوابًا: «فلتنطلق المهمة»، وفي عصر السبت، تحدث نائب الأدميرال وليام مكريفن، رئيس قيادة العمليات الخاصة المشتركة الذي صمم الغارة، إلى أوباما مرة أخيرة وأخبره أنها ستتم في مساء الغد السبت 1 أيار/ مايو، فأغلق أوباما الحديث وهو يرتدي ملابسه ليذهب إلى عشاء مراسلي البيت الأبيض السنوي قائلًا: «أتمنى أفضل الحظ لك ولقواتك».

بعد أربع وعشرين ساعة تقريبًا، بدأ رجال البحرية بالحركة، فطاروا شرقًا باتجاه أبوت أباد في حوامتي بلاك هوك إم إتش ـ 60، ومرت الرحلة خلال تسعين دقيقة دون إزعاج حيث تجنبت الطيارتان نظام الدفاع الجوي الباكستاني، ولكن ما إن اقترب الفريق من أبوت أباد حتى بدأ الاصطدام بالمشكلات، فبدلًا من الهبوط المتدرج الذي كان رجال البحرية قد خططوا له، علقت إحدى الطيارتين في التيار الهوائي الذي تنتجه هي نفسها في أثناء هبوطها وأجبرت على الوصول إلى الأرض بقسوة في جانب المجمع، وهبطت الطائرة الثانية وانتظرت، وكان على كلتيهما فريق كامل: اثنا عشر جنديًا بحريًا في الحوامة الأولى وأحد عشر بالإضافة إلى مترجم في الثانية، وفي البيت الأبيض، احتشد الرئيس أوباما ونائب الرئيس جو بايدن وجمع من المسؤولين الكبار الآخرين في مكتب صغير في غرفة عمليات البيت الأبيض محدقين إلى شاشة حاسب صغير؛ صلتهم الوحيدة بالرجال على الأرض، فانتظر المسؤولون بنفاد صبر خبرًا من الآلة الصامتة. قالت وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون فيما بعد أن مجموعة المسؤولين ما كانت تستطيع إلا «الأمل والصلاة بأن الرجال الذين ينفذون الأمر سينفذونه بنجاح وأمان»[1]، بعدما بدا للمسؤولين في الغرفة أنه أبدية، خرق صوت حاجز الصمت وأعلن أن فريق البحرية على الأرض في أمان وجاهز للبدء في المهمة.

تحرك رجال البحرية بسرعة قاطعين طريقهم نحو مركز المجمع، ومحطمين أبواب الغرف في أثناء ركضهم، وتوجهت إحدى المجموعات إلى المضافة بينما استخدم الفريق الآخر متفجرات السي ـ 4 ليفتحوا طريقًا ويدخلوا إلى الفناء الداخلي، وفي داخل البيت الأساسي، صعد ثلاثة من رجال البحرية الدرجات قاتلين أحد أبناء ابن لادن في طريقهم إلى الأعلى، وفي الطابق الثالث رأوا هدفهم يسترق النظر من خلف باب، فدخلوا الغرفة

(1) «Clinton describes Sit-room mood» **Politico**, May 6, 2011.

عنوة وجمع أحد رجال البحرية اثنتين من زوجات ابن لادن وطوقهم بذراعيه العملاقتين بينما أخفض الآخر سلاحه وأطلق النار[1].

بعد ثماني عشرة دقيقة من هبوط رجال البحرية المتعثر في المجمع بات ابن لادن ميتًا، وبعد عشرين دقيقة من ذلك، في 1:10 صباحًا بالوقت المحلي من 2 أيار/ مايو، بات رجال البحرية في طريق عودتهم عبر الحدود مع جسد ابن لادن وأكياس من المعلومات الاستخباراتية.

في اليمن، رثى الوحيشي خسارة الرجل الذي كان يدعوه الشيخ، كاتبًا: «اختار الله أن يأخذك، تاركًا لي الأسى وحسب» وكان قائد فرع القاعدة الأخطر مصممًا على الرد أيضًا: «لا تخدع شعبك الأحمق بأنك إذا قتلت أسامة سوف تنتهي هذه الحرب» قال محذرًا أوباما: «الآتي أسوأ»[2]، ولكن على الرغم من كل تهديدات الوحيشي، الولايات المتحدة هي التي ضربت مجددًا.

بعد ثلاثة أيام من خطاب أوباما الدرامي المتأخر في الليل الذي أعلن فيه أن رجال البحرية قتلوا أسامة بن لادن، حصلت الولايات المتحدة على فرصة جديدة، فقد شوهد أيمن العولقي في اليمن[3]، وكان أوباما يعتقد أنه، من بعد ابن لادن، العولقي يمثل الخطر الأكبر على الولايات المتحدة[4]، حتى إنه أخبر المسؤولين أن العولقي أولوية أعلى من أيمن الظواهري، الذي سوف يخلف ابن لادن قريبًا كقائد للقاعدة، وكان أوباما واضحًا مع فريق الأمن القومي، فقال الرئيس: «أريد العولقي، لا تكلّوا عنه»[5].

على عكس الضربات الأخرى، حيث كان الرئيس يفضل أن يتجنب مقتل المدنيين بأي ثمن، لم يكن أوباما يريد أن يستبعد شيئًا في موضوع العولقي، فقال لبرينان والآخرين: «أحضروا الموضوع إلي ودعوني أقرر في واقع اللحظة بدلًا من أن أقرر بشكل مجرد»[6].

---

(1) Schmidle, «Getting Bin Laden».

(2) Nasiir al-Wahayshi, «Eulogy for the Shaykh of the Mujahidin Osama bin laden – may God have mercy upon him» (Arabic) May 11, 2011.

(3) Martha Raddatz, «US missiles missed Awlakiby inches in Yemen» **ABC News**, July 19, 2011.

(4) Laidman, Kill or Capture, 261.

(5) المصدر نفسه، 261.

(6) المصدر نفسه، 263-264.

كان رجل الدين المولود في أميركا ذلك الصباح يسافر في سيارة بيك آب في جنوب شبوة[1]، وكان الوقت قبيل الفجر في اليمن، ولكن الولايات المتحدة نشرت عدة طائرات بسرعة في سماء المحافظة الجبلية، وسرعان ما حددت طائرة عمليات خاصة، تدعمها نفاثات هارير وطائرات بلا طيار من نوع بريديتور مكان الشاحنة، ولكن أي منها لم تستطع أن تحصل على تحديد هدف لإطلاق الصاروخ[2]، واستمرت الطائرات الأميركية بملاحقة السيارة وهي تشق طريقها عبر المشهد المظلم الممتلئ بالصخور والتراب على بعد آلاف الأقدام أسفلها، وبعد دقائق من ذلك اجتمعت كل العوامل ـ المعدات والطقس وطبيعة الأرض ـ وحصل فريق العمليات الخاصة على تحديد هدف، وأطلقوا صاروخ غريفن قصير المدى، وانتظروا الانفجار، كان ثمة لمعة قصيرة من الضوء في الأسفل، ولكن السيارة لم تتوقف، لقد أخطؤوا هدفهم.

داخل السيارة، حطمت قوة الانفجار زجاج النوافذ، وظن العولقي أنهم يهاجمون من الأرض، فصاح في السائق: «أسرع»[3]، إذ أراد أن يمر عبر منطقة الخطر بأسرع ما يمكن، لم يتأذ أحد من الرجال في السيارة، ولكن العولقي كان قلقًا من براميل الوقود التي يحملها الرجال في الخلف، وبينما تزيد السيارة من سرعتها، أطلقت القوات الأميركية صاروخًا جديدًا، فاختفت السيارة هذه المرة في كرة من اللهب، وبعد ثوان عادت لتظهر مسرعة من الانفجار[4].

مع الصاروخ الثاني، فهم العولقي وبقية مقاتلي القاعدة بسرعة، إذ كانوا كلهم يعرفون ما الذي حصل مع أبو علي الحارثي في ضربة الولايات المتحدة في اليمن منذ قرابة عقد مضى، وفي تلك المرة أخطأت الولايات المتحدة هدفها مرة واحدة، ولكنها قتلت الحارثي بالصاروخ الثاني، وقد تمكن العولقي والرجال في السيارة من تجنب الصواريخ مرتين على التوالي، ولكن لا يمكن أن يدوِم حظهم إلى الأبد، وخلال دقائق، وبينما الطيارة الأميركية تلاحقهم من فوق، وصل إلى الموقع عميلان محليان للقاعدة، عبد الله ومسعد الحرَّاد، عبر منحدر صخري في سيارة شحن صغيرة أخرى[5].

(1) «Two brothers from al-Qaeda killed in Shabwa» (Arabic), **New Yemen**, May 5, 2011.

(2) Raddatz, «US missles missed Awlaki».

(3) Harith al-Nadar, «My Story with al-Awlaki» **Inspire 9** (Winter 2012).

(4) المصدر نفسه.

(5) «Two killed in US airstrike» (Arabic), **Mareb Press**, May 5, 2011.

في أثناء ذلك واجهت الولايات المتحدة مشكلة أخرى، فنفاثات الهارير نفد وقودها تقريبًا، فحركت أجنحتها عائدة، بينما استمرت الطيارات بلا طيار في المطاردة ملاحقة السيارة بينما تحارب غطاء سُحب الصباح الباكر، وبشكل ما لم ينتبه موجهو الطيارات الأميركيون إلى لقاء القاعدة القصير على الأرض، فقفز العولقي والآخرون من السيارة الأولى، متبادلين الأماكن مع الأخوة الحرَّاد، وفي الوقت الذي انقشعت فيه السحب وعادت المعدات إلى العمل، بات العولقي يتجه في اتجاه بينما يتحرك الأخوة الهرَّاد في الاتجاه المعاكس في السيارة الأصلية، فبقيت الطيارة الأميركية على أثر السيارة الأصلية، واستطاعت تحديد الهدف على السيارة وأطلقت الصاروخ، فظهرت كرة أخرى من النار تضيء المنظر الترابي، وفي هذه المرة لم تظهر الشاحنة مجددًا.

رأى العولقي من الكهف الذي لجأ إليه الانفجار يقتل الأخوين الحرَّاد، ومن ثم تكوَّر على الأرض ونام، وأخبر رفاقه لاحقًا أن هروبه الصعب «زاد قناعتي بأنْ ليس ثمة إنسان يموت قبل أن يكمل حياته وفي وقته المعين»[1].

شرقًا عبر الجبال من المكان الذي أخفقت فيه الولايات المتحدة في قتل العولقي، قامت القاعدة بحركتها، ففي 27 أيار/ مايو، غادر مئات المقاتلين معقلهم في جعار وتسللوا الأميال الثمانية والنصف جنوبًا عبر الجبال إلى عاصمة أبين الساحلية زنجبار، لقد كان الهجوم الذي توقعه كبير رجال دين القاعدة عادل العباب قبل شهر من ذلك جاريًا، فاجتاحت القاعدة سريعًا قاعدة قوات الأمن المركزي على الطرف الشرقي من المدينة، وكان صالح قد أسس هذه القوات في 1980 في أعقاب عدة محاولات انقلاب مخفقة كطريقة لحماية النظام، ولكن مهمتها تطورت على مدى السنوات، وحصلت على ملايين الدولارات من المساعدات والتدريب من الولايات المتحدة بعد 9/ 11، وفي أثناء هروب الجنود في ذلك اليوم، سقطت معظم المعدات التي اشترتها الولايات المتحدة، ومن ضمنها مدفعية ثقيلة ودبابات وناقلات مدرعة، في أيدي القاعدة، ومعها مخازن من المواد الكيميائية ستستعملها المجموعة فيما بعد لإعادة ملء مخبر صناعة القنابل الخاص بها، واستطاع معظم الجنود الهرب - إلا خمسين كانوا معزولين قبضت عليهم القاعدة[2]

(1) Nader, «My story with al-Awlaki».

(2) Abd al-Raziq al-Jamal, «Interview with Fahd al-Qusa» (Arabic), **al- Malahim**, September 13, 2011.

- إلى الخارج وأسرعوا جنوبًا عبر رقعة من الصحراء الناعمة نحو قاعدة الفرقة الخامسة والعشرين مدرع.

بعد وقت قصير لإعادة التجمع وتوزيع المعدات المغنومة، هاجم مقاتلو القاعدة الفرقة خمسة وعشرين مدرع، وكان الجنرال محمد الصوملي هو القائد في الفرقة، وكان غير مستعد لتقدم القاعدة، تمامًا كما كانت قوات الأمن المركزي، والصوملي رجل قصير، ثقيل البدن، ذو خدود متهدلة وشارب بدأ يغزوه الشيب، وأخبر الصوملي الصحفيين لاحقًا أن المحافظ ومعظم المسؤولين المحليين هربوا طلبًا للأمان في عدن بينما تدفق المقاتلون إلى المدينة[1]، وبينما كانت تصد قوات الصوملي الهجوم، قام مقاتلون ذوو شعور سلكيّة بتأمين قصر المحافظ في الطرف الثاني من المدينة بسرعة، رافعين علم القاعدة فوق المباني البيضاء الحجرية، وداخل مكتب المحافظ الخاص، وقف أحد مقاتلي القاعدة يصور آخر ينتزع صورة لصالح من على الحائط ويدوسها بصندله[2].

عندما أخفق الجنود في مربض صغير للحرس الجمهوري، وهي القوة العسكرية الثالثة والأخيرة في زنجبار، في تلبية نداءات الصوملي للمساعدة، اتصل الجنرال عن طريق الراديو بعلي محسن في صنعاء، وكان الرجلان العسكريان يعرفان بعضهما بعضًا من سنوات، وقد خدم الصوملي سابقًا تحت إمرة علي محسن، ولكن ديناميكيات العاصمة قد تغيرت، إذ إن جيش اليمن لا يزال مقسمًا، وإذا أراد الصوملي دعم علي محسن فعليه أن يدعم الجنرال المنشق على الملأ، وإذا لم يفعل، كما قيل للصوملي، فعليه أن يتصل بصالح ويطلب منه المساعدة[3]، ولكن الرئيس لم يكن لديه إلا قليل من الجنود الموالين له في المنطقة، وكلا الرجلين يعرف ذلك، والوحدة الأقرب بعدها، الوحدة 119، على بعد 8 أميال غربًا من زنجبار، تأخذ أوامرها من علي محسن، فاحتج الصوملي بأنه جندي وليس سياسيًا، ورفض أن يتخذ جانبًا.

كان لقرار الصوملي بالبقاء محايدًا في مبارزة الإرادات بين صالح وعلي محسن في صنعاء عقبات مباشرة، فالفرقة 119، التي هي خارج المدينة، ولكنها قريبة بما يكفي

(1) Scahill, «Washington's War in Yemen Backfires».

(2) Ansar al-Shariah video, released August 2011.

(3) أكد طبيعة هذه المحادثة مصدران مختلفان في الحكومة اليمنية على علم بالنقاش، وأغفلت الأسماء بناء على طلب منهما.

لتسمع القتال، بقيت في مكانها، وبات الصوملي ورجاله وحدهم، وإذا سقطوا، يمكن للقاعدة أن تتقدم إلى عدن التي تبعد 32 ميلًا إلى الغرب بلا عوائق، فيكتمل الجزء الأخير من الهجوم الذي تنبأ به العباب.

على مدى الأيام البضع التالية، بينما رجال الصوملي محاصرون في قاعدتهم، أمن مقاتلو القاعدة المنطقة وأنشؤوا نقاط تفتيش على الطرق السريعة الثلاثة خارج المدينة، وكان المقاتلون الصغار القائمون عليها يفتشون السيارات المارة بحثًا عن الجنود الهاربين، وكثيرًا ما تتألف هذه النقاط من مجرد مكتب وكرسي مهلهلين إلى جانب برميل كبير يحمل راية مرسومة باليد لأنصار الشريعة، وهو الاسم الذي تبنته القاعدة في شبه الجزيرة العربية قبل شهور كجزء من عملية تغيير صورتها، وكان الرجال المسلحون جيدًا يلبسون كالمحليين أثوابًا طويلة وكلهم يحمل جعبة خضراء يضعون فيها الرصاص والقنابل ونسخة بحجم الجيب من القرآن لا يتركها الرجال أبدًا[1]، وعلى مدى الأسابيع القليلة التالية، هرب معظم سكان المدينة العشرين ألفًا من منازلهم، وباتت عاصمة أبين الآن في أيدي القاعدة.

في صنعاء، استمع صالح إلى التقارير القادمة من أبين، ولكن لم يكن بمقدوره فعل الكثير، وفي 22 أيار/ مايو، قبل أيام من اجتياح القاعدة لزنجبار، كان قد عاد للمرة الثالثة عن تعهد بتوقيع صفقة يتنازل فيها عن السلطة مقابل الحصانة، وكانت تدعم الصفقة الولايات المتحدة والأمم المتحدة ويرعاها جيران اليمن الستة في دول التعاون الخليجي، وتضمن الصفقة لصالح ألّا يلاحق على أية جرائم قد يكون ارتكبها كرئيس، وأشعل رفض صالح في اللحظة الأخيرة للتوقيع حرب شوارع دامت أسبوعين في صنعاء ولم تنته حتى مزقت قنبلة جامعًا خاصًا داخل القصر الرئاسي، فتعرض صالح لحروق بليغة في الهجوم، ووجب أن يتم نقله جوًا إلى السعودية لأجل عملية طارئة.

مع خروج صالح من البلاد، استمرت اليمن بالتوجه نحو التقسيم، ففي الشمال البعيد، قرب الحدود السعودية، عزز الحوثيون سيطرتهم على المنطقة على حساب صالح، بينما في أماكن أخرى حاول الشيوخ والميليشيات ذات الأصول غير المعروفة أن يسيطروا على قدر ما يستطيعون من الأراضي، وفي أبين وأجزاء من شبوة أنشأ مقاتلو القاعدة تحت

(1) Abd al-Raziq al-Jamal, «Mujahidin of Abyan speak to the media for the first time» (Arabic), **al-Wasat**, September 18, 2011.

إمرة الوحيشي محاكم بدأت بتطبيق نسختهم من الشريعة، مثل الأيام المبكرة لطالبان في أفغانستان حينما هاجم المقاتلون ذوو العمامات السوداء الجريمة والفوضى حولهم اتخذت القاعدة في شبه الجزيرة العربية الآن موقفًا غير مساوم لاسترجاع الأمن والنظام.

ففي أحد الأيام، استدعي القاطنون في جعار، والتي أعادت القاعدة تسميتها إلى وقار، والتي تعني بالعربية «الكرامة» إلى بقعة رملية تحدها القمامة على الأطراف، فقد كانت الشرطة الجديدة التي أسستها القاعدة في البلدة قد أمسكت باثنين من المراهقين يسرقون سلكًا كهربائيًا، وأمر القاضي بتطبيق الحدود[1] وهي تصنيف ثابت في الشريعة للعقوبات في الجرائم المحددة، وعقوبة السرقة قطع اليد، فاعترض أحد الأولاد: «لست لصًا ولكن الظروف أجبرتني على ذلك»[2]، وبينما الحشد يتفرج، قام عضو من القاعدة بقطع يد المراهق اليمنى بالسيف. قال قاضي لاحقًا: أن القاعدة دفعت في النهاية للولد 120000 ريال (حوالي 600 دولار) «ليبدأ حياة جديدة»[3].

ولكن تصرفات القاعدة العلنية الباقية، على أي حال، تقترح أن الوحيشي وبقية القيادة كانوا لا يزالون واعين لتحذير ابن لادن بأنهم لا يملكون دعمًا شعبيًا كافيًا، فعلى طول الصيف وارتفاع درجات الحرارة في جنوب أبين بشكل اعتيادي إلى فوق 37، دارت سيارتا شحن صغيرتان حول جعار وأجزاء من زنجبار توزعان المياه للعوائل، وقامت مجموعات أخرى من المقاتلين بتلقي الشكاوى وملاحقة الملكيات المسروقة، وفي منطقة من اليمن عاشت في الإهمال لعقود، أولًا من قبل الاشتراكيين وثانيًا من قبل صالح، كان الاهتمام والجهد المقدمين غير مسبوقين، ففي جعار إلى شمال القتال المحتدم في زنجبار، حفرت القاعدة في شبه الجزيرة العربية خطوط المياه وعلقت أسلاك الكهرباء إلى بيوت لم تعرف أيًا من الإثنين من قبل، «الأمر أشبه بحلم»[4] قال أحد السكان لرجل كاميرا القاعدة بينما يصل المقاتلون بيته بالشبكة الكهربائية.

في واشنطن، راقب القادة العسكريون الأميركيون استيلاء القاعدة على المنطقة متوترين، وفي 10 حزيران/ يونيو، اقترح الجنرال جيمس ماتيس، الذي خلف بيتريوس

---

(1) «Washington>s War in Yemen Backfires.»

(2) Amjad Kashaqa, «From Azzan to Zanjubar,» **al-Wasat**, no date.

(3) المصدر نفسه.

(4) «Eye on the Event #10,» **al-Madad** (Arabic), released April 2012.

كقائد للقيادة المركزية للولايات المتحدة، ضربة جوية على ملعب كرة قدم قرب ضواحي زنجبار حيث يتجمع مقاتلو القاعدة لقصف قاعدة الصوملي[1]، وكان ماتيس، الذي حارب في العراق وأفغانتسان، قلقًا من أن اليمن قد تصبح الأفغانستان التالية، فزان الجنرال الأمور، ووجد أنه من الأفضل ضرب المقاتلين بقوة الآن، وإلا سوف تضطر الولايات المتحدة إلى التعامل مع خطرهم لسنوات قادمة.

في الطرف الثاني من الغرفة جلس جون برينان يستمع بقلق متزايد إلى شرح خطة ماتيس[2]، فما يقترحه الجنرال سوف يحدث نقلة دراماتيكية في سياسة الولايات المتحدة، إذ إنها لن تعود متورطة في ضربات محددة ضد قادة أساسيين في اليمن، بل سوف ترخي القواعد التي تعمل على أساسها وتضرب كل هدف للقاعدة يمكنها أن تجده، مما يزيد من خطورة تزايد عدد الضحايا المدنيين وحرب مطولة، وبينما يقترب الاجتماع من نهايته دفع برينان ضد اتجاه خطة الجنرال عن طريق مناورة بيروقراطية حذرة، قائلًا: إنه لا يستطيع أن يأخذ العرض إلى الرئيس حتى يوقع عليه قادة ذوو مستوى أعلى، وكان اليوم التالي هو السبت، وترأس برينان الاجتماع الصباحي الطارئ للتدقيق في خطة ماتيس، فقلص المساعدون قائمة الأهداف، وفي وقت لاحق من ذلك المساء وافق أوباما على نسخة مقلصة كثيرًا من الضربة[3]، لقد كانت الرسالة إلى الجيش واضحة: لن يطلق لكم أوباما العنان في اليمن.

ولاحقًا، في ذلك الشهر، تصرف أوباما بشكل أكثر وضوحًا، ففي أحد اجتماعات «ثلاثاء الإرهاب» في البيت الأبيض أشار مسؤول إلى «الحملة» في اليمن، فقاطعه الرئيس غاضبًا بأنه ليس هنالك من «حملة» في اليمن: «نحن لسنا موجودين في اليمن للتورط في نزاع داخلي ما، سوف نستمر بالتركيز على التهديدات للأرض الأميركية، فهناك تقع الأولوية الحقيقية»[4]، سوف لن يكون هنالك «ضربات توقيعية» في اليمن، وبدلًا من ذلك، سوف تقبل الولايات المتحدة مرة أخرى بخيار الضربات الجراحية المحدود والموجه نحو قادة القاعدة في شبه الجزيرة العربية الكبار، فهم الذين يخططون بشكل فاعل ضد الولايات المتحدة.

---

(1) Klaidman, Kill or capture, 253-255.

(2) Klaidman, Kill or capture, 254-255

(3) المصدر السابق، 255-256.

(4) المصدر السابق، 256.

على أي حال، استمرت الأمور في التدهور على الأرض في اليمن، بينما استطاعت القاعدة الاستيلاء على المزيد من الأراضي، ففي 22 حزيران/ يونيو، في مدينة المكلا التي تبعد حوالى 300 ميل إلى الشرق من جعار، نفذ اثنان وستون مشتبهًا بهم بالانتماء إلى القاعدة هروبًا جماعيًا من السجن[1]، وكان من بين الهاربين علي الأكبري ومحمد باويدهان، وهما العضوان الأخيران في خلية حمزة القعيطي في تريم اللذان اعتقلا بعد إطلاق النار في 2008، وخلال أيام أعاد معظم الهاربين الانضمام إلى الوحيشي، وسرعان ما بدأت الأكشاك في أبين تبيع القصائد والأشعار الجهادية التي تحتفي بالهروب الأخير لأعضاء القاعدة من السجن.

في عدن، أرسلت قيادة اليمن الجنوبية مواكب من الرجال والإمدادات شرقًا على طول طريق سريع صحراوي نحو زنجبار لإغاثة قوات الصوملي المحاصرة، وفي كل مرة استطاع مقاتلو القاعدة أن يصدوا الإمدادات في معارك دموية قرب السواتر الرملية التي تحد الطريق السريع، وصمدت الفرقة الخامسة والعشرون مدرعًا بقدر ما تستطيع وهي محاصرة، فكاد قناصو القاعدة أن يغتالوا الصوملي مرتين بينما هو يعطي الأوامر لجنوده من مقعد الراكب في سيارته التويوتا لاند كروزر المصفحة، ففي المرة الأولى أصابت الرصاصة الزجاج الأمامي مرسلة نهرًا من التشققات في الزجاج أمام الصوملي تمامًا، وفي المرة الأخرى أصاب القناص نافذة الراكب عند رأس الجنرال تمامًا[2].

وفي 25 تموز/ يوليو، أجرى الصوملي، الذي ترك لحيته تنمو خلال الحصار، مقابلة ملتمسة على الهاتف مع مراسل من الصحيفة القومية العروبية اليومية الشرق الأوسط قال فيها: «معنويات جنودنا عالية، سوف لن نستسلم للقاعدة» بينما أصوات الحرب تصدح في الهاتف، «مشكلتنا» قال مكملًا: «هي الماء والطعام»[3].

كان أوباما لا يزال قلقًا من الانجرار إلى الاقتتال الداخلي في اليمن، ولكن بدا الأمر وكأنه لا خيار عنده، فإذا لم تفعل الولايات المتحدة شيئًا، سوف تسقط قاعدة الصوملي، وتزحف القاعدة في شبه الجزيرة العربية نحو عدن، والمنظمة باتت تسيطر من الأساس

(1) «Al-Qaeda fighters escape from Yemen jail» **al-Jazeera English**, June 22, 2011.

(2) Scahill, «Washington's War in yemen Backfires».

(3) Muhammad Jamih, «Interview with Muhammad al-Sumali» (Arabic), **al-Sharq al-Awsat**, July 26, 2011.

على أكثر مما يمكن تحمله من البلدات، وهي مساحة خشي أوباما أنها من الممكن أن تستخدم لإطلاق هجمات ضد الولايات المتحدة.

بعد وقت قصير من مقابلة الصوملي اليائسة، أرسلت الولايات المتحدة إمدادات لجنوده عن طريق الجو، وبعد ذلك بأيام، تعاونت السعودية لإرسال دفعة أخرى من الإمدادات الأميركية الجوية، وسرعان ما بدأت النفاثات السعودية تقوم بغارات فوق زنجبار في محاولة لتخفيف الضغط عن رجال الصوملي، وكانت معظم المدينة قد تدمرت بفعل شَهْرَيْ القصف المتبادل بين القاعدة ورجال الصوملي، فأحالت المستشفيات والمدارس إلى أنقاض وتهاوت المآذن التي كانت تهيمن على أفق المدينة تحت القصف، وضرب السعوديون بعض الأهداف التي كانت ما تزال واقفة. وخارج المدينة، لوثت الدبابات المحروقة الرمال بين خط الساحل والطريق السريع الصحراوي، وجثث الجنود الموتى مبعثرة في أنحاء المدينة حيث سقطوا، تنتفخ وتتعفن في شمس الصيف.

على طول آب/ أغسطس، استمرت الغارات الأميركية والسعودية، وكان معظم القتال يحدث في الليل، عندما تبرد الحرارة[1]، ويبقى الطرفان في النهار محتميان ويصرخان على بعضهما بعضًا عبر مكبرات الصوت، فكان مقاتلو القاعدة يصرخون بأن لا مشكلة عندهم مع الجنود، فهم لا يريدون إلا تطبيق الشريعة.

وأخيرًا، في العاشر من أيلول/ سبتمبر، وتحت ضغط عملاق من الولايات المتحدة والسعودية، تجمعت وحدات من الجيش اليمني، من ضمنها وحدات موالية للجنرال علي محسن، للتوجه إلى زنجبار، ولم تواجه الإمدادات الداخلة إلى المدينة في ذلك اليوم إلا معارضة رمزية، فالقاعدة بأوامر من قاسم الريمي، ذابت نحو الجبال القريبة من جعار[2]، وانتهى الحصار الذي دام أربعة شهور.

بعد أسبوع واحد من ذلك، استحالت مظاهراتٌ في اليمن دمًا مرة أخرى لما فتح القناصون، الذين لا يزالون موالين لصالح وعائلته، النار على المحتجين، فقتلوا أكثر من 50 خلال يومين من القتال، وأظهرت وسائل الإعلام الحكومية في السعودية الرئيس صالح متعافيًا يلتقي الملك عبد الله، وبعد أربعة أيام، في 23 أيلول/ سبتمبر، ذهب صالح

(1) Khashaqa, «From Azzan to Zanjubar»; Jamih «Interview with Muhammad al-Sumali».

(2) Khashaqa, «From Azzan to Zanjubar».

إلى المطار تحت ذريعة استقبال طائرة من معاونيه القادمين للزيارة، ولكن بدلًا من أن يعود من المطار، ركب الرئيس الطائرة وعاد إلى اليمن، «لقد خدعنا وخدع السعوديين» قال مسؤول أميركي: «لسنا سعيدين على الإطلاق[1].

في الصباح الباكر من أحد الأيام بينما كان القتال يقترب من نهايته في زنجبار، كتب ابن أنور العولقي ذو الخمسة عشر عامًا عبد الرحمن إلى أمه ملاحظة قصيرة ومن ثم، بينما الكل في المنزل نائم، قفز من نافذة في الطابق الثاني في مجمع العائلة في صنعاء، كان طالب الصف التاسع هذا، ذو الشعر المجعد والنظارات ذات الأطراف السلكية مثل والده: خجولًا إلى درجة أن جده يخاف عليه أحيانًا. كتب عبد الرحمن إلى أمه: «أنا آسف لمغادرتي بمثل هذه الطريقة، سامحيني، أشتاق إلى والدي وأريد أن أرى إذا ما كنت أستطيع أن أذهب للتحدث معه»[2]، ورأى حرس العائلة الشاب المراهق يخرج من البوابة الأمامية حوالى 6:30 من ذلك الصباح، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي سوف يراه فيها أي أحد في المجمع.

بعد ثلاثة أسابيع في 30 أيلول/ سبتمبر، كان والده وثلاثة عملاء آخرين من القاعدة من ضمنهم سامر خان، شاب أميركي، يمشون نحو سياراتهم خارج بيت صغير في المنطقة الشمالية من الجوف، وكان أنور العولقي بعيدًا عن ملجئه القبلي في شبوة، ولا بد من أنه ظن أنه سيكون آمنًا في الصحراء الواسعة القريبة من الحدود السعودية، لكن قبل شهور حصلت الولايات المتحدة على معلومة بخصوص العولقي من سجين صومالي عمل مع رجل الدين الأميركي، وقدّم السجين للولايات المتحدة صورة عامة عن عالم العولقي[3]، ومتى قدم مصدر في الاستخبارات اليمنية معلومة جوهرية، كانت الولايات المتحدة جاهزة دومًا، وفي وقت مبكر من ذلك الصباح حلقت طائرات بلا طيار أميركية لمطاردته من جيبوتي، وأيضًا من قاعدة طائرات بلا طيار سرية في شبه الجزيرة العربية والتي دخلت توًّا في الخدمة.

(1) Anna Fifield, Roula Khalaf, and Abigail Fielding-Smith, «Yemeni President Accused of tricking Saudis» **Financial Times**, September 27, 2011.

(2) مقتبس في:, Michelle Shephard. «Drone death in Yemen of American Teenager» **Toronto Star**, April 13, 2012.

(3) Khaild, Kill or Capture, 262-264.

انتظر أسطول الطائرات المسلحة حتى خرج الرجال من المنزل وبعيدًا عن الأطفال في الداخل قبل أن يطلق زوجًا من الصواريخ(1)، وأكدت التقارير من الأرض لاحقًا ما نقلته الكاميرا من الهواء: أنور العولقي، سامر خان، والرجلان الآخران باتوا كلهم أمواتًا.

أشاد الرئيس أوباما بالضربة لاحقًا في ذلك اليوم متحدثًا في فورت مير فيرجينيا: «إن موت العولقي ضربة كبرى لفرع القاعدة الأكثر نشاطًا»، وقال الرئيس: «كان العولقي قائدًا للعمليات الخارجية للقاعدة في شبه الجزيرة العربية، وفي ذلك الدور تولى قيادة التخطيط وإدارة الجهود لقتل أميركيين أبرياء»(2).

بعد أسبوعين من ذلك، وقَّع أوباما على ضربة أخرى في اليمن، وكان الهدف في تلك الليلة إبراهيم البنا، وهو عضو مصري في القاعدة في شبه الجزيرة العربية، وكانت الولايات المتحدة تعتقد أنه يخطط لهجوم جديد. حلق الصاروخ إلى الأسفل في سماء الليل نحو مجموعة من الأجسام المتهدلة حول نار للتخييم في ضواحي بلدة في محافظة شبوة الجنوبية، فضرب الصاروخ الأول النار(3)، وبعد ثوان من ذلك اصطدم آخر بالأرض على بعد ياردات، ولكن بدلًا من البنا، قتلت الولايات المتحدة مجموعة من المراهقين الذين كانوا يتعشُّون(4)، وكان من بين التسعة الميتين في تلك الليلة ابن أنور العولقي، عبد الرحمن المولود في أميركا، والذي أصبح عمره ستة عشر عامًا توًا.

بعد أسابيع من تلك الضربة والمظاهرات ما زالت تعصف باليمن، والقاعدة في شبه الجزيرة العربية تسيطر على المزيد من المناطق في أبين وشبوة، عاد صالح إلى الرياض مع حفنة من معاونيه، وكان هذا في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر، في اليوم الذي يسبق عيد الشكر، أعلن صالح أنه مستعد أخيرًا للتوقيع على اتفاق الحصانة الذي يرعاه المجتمع الدولي وجيران اليمن في مجلس التعاون الخليجي، وبدا الرئيس ذو التسعة والستين عامًا لائقًا وفي حالة معنوية جيدة على نحو مفاجئ في أثناء أدائه خطابًا أهتر يتهم فيه المعارضة في اليمن بتنفيذ «انقلاب ضد الدستور»(5) ومن ثم بابتسامة وضحكة، وقع قطعة الورق

(1) المصدر السابق.

(2) «Obama : Awlaki death 'Major blow to terrorism,'» **CBS News**, September 30, 2011.

(3) مشهد هذه الضربة والصاروخين مذكور في فلم وثائقي لغيث عبد الأحد من إنتاج **PBS frontline** بعنوان al-Qaeda in Yemen، وبثّ في 29 أيار/ مايو 2012

(4) Michelle Shephard, «Drone death in Yemen»

(5) «President Salih signs GCC deal ending 33 years in power» **al-Arabiya**, November 23, 2011.

التي أمامه، وحسب شروط الاتفاق، يستمر صالح رئيسًا لثلاثة شهور أخرى حتى يحل مكانه نائبه منذ زمن طويل عبد ربه منصور هادي.

مع بدء رحيل حكم صالح الذي دام 31 عامًا، بدأ محمد بن نايف ـ رئيس مكافحة الإرهاب في السعودية الذي حاولت القاعدة في شبه الجزيرة العربية اغتياله قبل عامين ـ عملية استخباراتية جريئة في ثلاثة بلدان، إذ وضع ابن نايف خطة مع المكتب السادس، ذراع الاستخبارات الخارجية البريطاني، والسي آي إي، لاستهداف إبراهيم العسيري، صانع القنابل الأول في القاعدة في شبه الجزيرة العربية، وكان العسيري قد صنع جهازًا استخدمه أخوه في هجوم على ابن نايف، ووُجدت بصمته على القنبلة التي كان يرتديها عمر فاروق عبد المطلب في يوم عيد الميلاد 2009، وكانت السي آي إي تشك أيضًا في أنه صمم القنبلتين على شكل محبرتي طابعة في أواخر 2010، والآن، تعتقد الولايات المتحدة أنه بات قريبًا من زرع القنابل جراحيًا داخل البشر، فقد أكملت القاعدة في شبه الجزيرة العربية بالفعل التجارب على الحيوانات وكان محللو الاستخبارات قلقين من أن المجموعة قد تطلق قنبلة تمشي على رجلين، في الشهرين اللذين مرا بعد موت أنور العولقي ظهر إبراهيم عسيري كهدف الغرب الأعلى في القاعدة في شبه الجزيرة العربية.

صمم ابن نايف عملية دس عميل بسيطة للوصول إلى العسيري، فبالطريقة نفسها التي استخدمت فيها القاعدةُ نجاحَ ابن نايف ـ عندما جعل ابن نايف محمد العوفي يسلم نفسه في أوائل 2009 ـ كمخطّط لمحاولتها اغتياله في وقت لاحق من تلك السنة، قام ابن نايف بدوره الآن باللعب على أحد نجاحات القاعدة ليستخدمه ضدها، فقبل شهور من ذلك، جند المكتب الخامس، وكالة الاستخبارات البريطانية الداخلية، مواطنًا بريطانيًا من أصل سعودي وكان ابن نايف يريد أن يستعمله طعمًا(1).

عندما اجتاحت القاعدة زنجبار في أوائل 2011، حصلت على بعض مستوعبات المواد الكيميائية من المخابر العسكرية(2)، وقامت لاحقًا باستخدام هذه المواد وغيرها لـ«تحويل مخبرها المتواضع» الذي أنتج قنبلة الملابس الداخلية في 2009 وقنابل المحابر في 2010 إلى مخبر «حديث»، وبحلول 2012، بات لدى القاعدة الكثير من القنابل، وما كان ينقصها

---

(1) Duncan Gardham, «British secret agent was al-Qaeda mole who cracked new ‹under pant› bomb plot» **Daily Telegraph**, May 10, 2012.

(2) Yahya Ibrahim, «Winning on the Ground» **Inspire 9** (Winter 2012), 57.

هم الأفراد الذين يحملون جوازات سفر تسمح لهم الوصول بحريّة إلى الغرب، وفكر بن نايف في أن هذا لا بد أن يكون سبب قدرة المطلب على الانضمام والعمل في القاعدة بهذه السرعة، فاتبع ابن نايف سيناريو مشابهًا، فأمر المجند البريطاني الجديد بأن يضع نفسه أمام القاعدة عن طريق قضاء الوقت في الجوامع وبث خبر أنه يريد الانضمام إلى المجموعة، وكان غطاؤه مثل المطلب، أنه طالب لغة عربية يبحث عن دراسة لغة عائلته الأم[1]، وخلال أسابيع ابتلعت القاعدة الطعم وبات عملاؤها يدققون في العميل المتخفي لإرساله في مهمة انتحارية.

كان ذلك الشتاء وقتًا خطيرًا للعمل المتخفي داخل القاعدة، ففي شباط/ فبراير 2012 تسلم عبد ربه منصور هادي منصب رئيس اليمن الجديد رسميًا، ومباشرة تقريبًا، أعطى الرجل البدين ذو الستة والستين عامًا الولايات المتحدة وصولًا بلا عوائق إلى الأهداف في اليمن، وبعد سنوات من صفقات صالح المزدوجة وتقلباته المزاجية، كان انفتاح هادي تغيرًا مرحبًا به، وكان هادي يحتاج دعمًا أميركيًا ودوليًا قويًا، فقاعدة مؤيديه محدودة، والكثير من أقرباء صالح يحتلون مناصب رئيسية في الجيش الذي لا يزال مقسمًا، فكان يحتاج إلى الدعم ليبقى في السلطة، وتعهد رئيس اليمن الجديد في المقابل بجعل محاربة القاعدة أولويته العليا.

في ذلك الشهر نفسه أعلنت القاعدة أنها كشفت ثلاثة جواسيس - يمنيان وسعودي - كانوا يعملون مع الاستخبارات السعودية والأميركية، واتهم الرجال بدسّ رقائق إلكترونية في سيارات يستخدمها مقاتلو القاعدة لتسهيل استهداف الطائرات الأميركية لها، وعقدت القاعدة محكمة شرعية في جعار ووجدت الثلاثي مذنبًا بسرعة، وحكمت عليهم بالإعدام عقوبةً للأدوار التي أدوها في ضربة الولايات المتحدة في أوائل 2012 التي قتلت عشرة من مقاتلي القاعدة، وكان حكم الإعدام الذي نشرته القاعدة على الإنترنت مصحوبًا باعترافات الثلاثة[2].

ولكي تحذر الجواسيس الممكنين اختارت القاعدة أن تجعل مشهد الإعدام علنيًا، فشحنت السعودي، رمزي العريقي، إلى شبوة حيث اعتقل، وحكمت على اليمني الذي،

---

(1) Nic Robertson, Paul Cruikshank, and Brain Todd, «Saudi agent in bomb plot held UK passport, source says» **CNN News**.

(2) «Eyes on the Event #4» **al-Madad** (Arabic), released **February** 2012.

حسب ما تقول القاعدة، وضع شرائح تعقب في السيارات بالإعدام صلبًا، وفي يوم الإعدام في شبوة، هبط عشرات مسلحي القاعدة على محافظة عزان المغبرة للمشاهدة، وقرأت التهم على مكبرات الصوت بينما أخرج أربعة رجالٍ ملثمين العريقي معصوب العينين من مؤخرة سيارة فان ومشوا به عبر حشد من المتفرجين المتدافعين نحو دائرة مغبرة حددوها بشريط الأمن الأخضر، وأجبر الرجال العريقي على الركوع على قطعة قماش أزرق باهت في مركز الدائرة، وأزال ثلاثة رجال في سترات المخبر البيضاء والأقنعة الجراحية عصابة عينيّ العريقي فرمشت عيناه في ضوء الشمس، وأعاد تموضعه ووضع يديه أمام وجهه في لحظة صلاة أخيرة، يسودُّ الفيديو الذي نشرته القاعدة للإعدام ومن ثم، بعد ثوان، تظهر لقطة واحدة يتبعها حشد من الأصوات تهتف «الله أكبر»(1).

وكان حضور الإعدامات في أبين كبيرًا بشكل مشابه، فكان أحد الرجال الذين قتلوا في ضربة الولايات المتحدة قد خلّف وراءه ابنًا صغيرًا يدعى سالم، وأرادت القاعدة للولد أن يشهد عملية الصلب، وبدا أن سالم بعمر الست سنوات، فهو يرتدي ثوبًا أزرق فاتحًا وفي شعره ثنيات طفولية وما زالت معظم أسنانه اللبنية في مكانها، وفي يوم مشرق من أوائل الربيع، صلب مقاتلو القاعدة الجاسوس المدان على صليب خشن من الأعمدة الخشبية المدعمة بالأنابيب الفولاذية، ومن ثم علقوه على عمود في الشارع، وبينما يتقدم الحشد ليحصل على رؤية أفضل، رفع أحد الرجال سالمًا ووضعه على أكتافه، فقال الطفل مشيرًا إلى الرجل المصلوب: «هذا هو الخائن الذي قتل أبي»(2).

بعد أسابيع من عمليات الإعدام، في منتصف نيسان إبريل، سلم أحد عملاء القاعدة العميل البريطاني المتخفي قنبلة، وهي أكثر تقدمًا من التي صممها العسيري لمحاولة يوم عيد الميلاد 2009، فكانت لهذه آليتا تفجير: واحدة كيميائية وأخرى يدوية في حال أخفقت الأولى كما حصل على الطائرة فوق ديترويت(3)، ومثل القنبلة التي استعملها المطلب، لم يكن لهذه القنبلة الحديثة أية أجزاء معدنية، وكانت مرة أخرى تخاط إلى ثياب داخلية مصنعة بشكل خاص، وكان العميل المتخفي لم يلتق العسيري، وهو هدف العملية، أو أي أحد آخر من قادة القاعدة الكبار، ولكن بوجود القنبلة بين يديه ما عاد عنده عذر للبقاء في اليمن.

(1) «Eyes on the Event #5» **al-Madad** (Arabic), released March 2012.

(2) «Martyrs of the Arabian Peninsula #10: Mawhid al-Maribi» (Arabic), **al-Malahim**, March 2012.

(3) Robertsoon, et al., «Saudi agent in bomb plot».

تركت القاعدة تفاصيل العملية للمفجر، فلم تأمره إلا بالمرور عبر بلد خليجي في طريقه إلى أوروبا، حيث يستطيع أن يركب على متن الرحلة المتوجهة إلى الولايات المتحدة التي سوف يفجرها، وبدا أن مخططي القاعدة يعتقدون أن هذا الطريق يحد من الانتباه الذي يجذبه الشخص القادم من اليمن أمام أمن المطار، وبدلًا من ذلك، دبر العميل لقاءً في اليمن مع السعودي المسؤول عنه وسلمه القنبلة، فأرسل عميل الاستخبارات القنبلة إلى خارج البلاد على متن طائرة خاصة وسلمها إلى مسؤولي الولايات المتحدة الذين نقلوها بدورهم إلى مخبر الإف بي آي في كوانتيكو، فيرجينيا، من أجل المزيد من التحليل، وفي أثناء ذلك، حافظ العميل المتخفي على سلوكه في المؤامرة، فغادر صنعاء إلى الإمارات العربية المتحدة.

بعد أيام من مغادرة العميل البريطاني لليمن، وأخذ تقريره، قامت الولايات المتحدة بضربة عن طريق طائرة بلا طيار على فهد القصع، اليمني الذي أخفق ذات مرة في تصوير تفجير المدمرة كول، فقتلت الضربة، في 6 أيار/ مايو في جنوب شبوة، القصع وناشطًا آخر في القاعدة كان معه في السيارة ذلك المساء، وكان هذا الهجوم جزءًا من هجمة صواريخ بدأتها الولايات المتحدة في أوائل 2012 بعد وصول هادي إلى الرئاسة، فبعد قرابة ثلاثة أعوام من مقاومة الأصوات الداعية إلى ضربات التوقيع في اليمن، انصاع أوباما أخيرًا وسمح للجيش بحرية أكبر، فما عاد يبدو أن المقاربة الجراحية التي فضلها أوباما وبرينان تنفع، فاستمرت الولايات المتحدة بقتل عملاء القاعدة في اليمن، ولكن القاعدة في شبه الجزيرة العربية استمرت بالنمو، وصارت وزارة الدفاع تشير إليها باسم «ضربات تشتيت الهجوم الإرهابي» أو TADS، بدلًا من «ضربات التوقيع».[1]

لاحقًا في ذلك الأسبوع، أصدرت القاعدة تأبينًا للقصع يختتم بتهديد مرعب: «وإلى أميركا، نذكرهم بما قاله لكم شيخنا فهد القصع، رحمة الله عليه لن تنتهي هذه الحرب التي بيننا وستحمل الأيام القادمة شيئًا جديدًا»[2].

(1) Jo Becker and Scott Shane, «Secret <Kill List> Proves a Test of Obama>s Principles and Will» **New York Times**, May 29, 2012.

(2) «Statement of Condolence on the Martyrdom of Shaykh Fahd al-Qusa al-Awlaki» Al-Qaeda in the Arabian Peninsula statement #49 (Arabic), May 9, 2012.